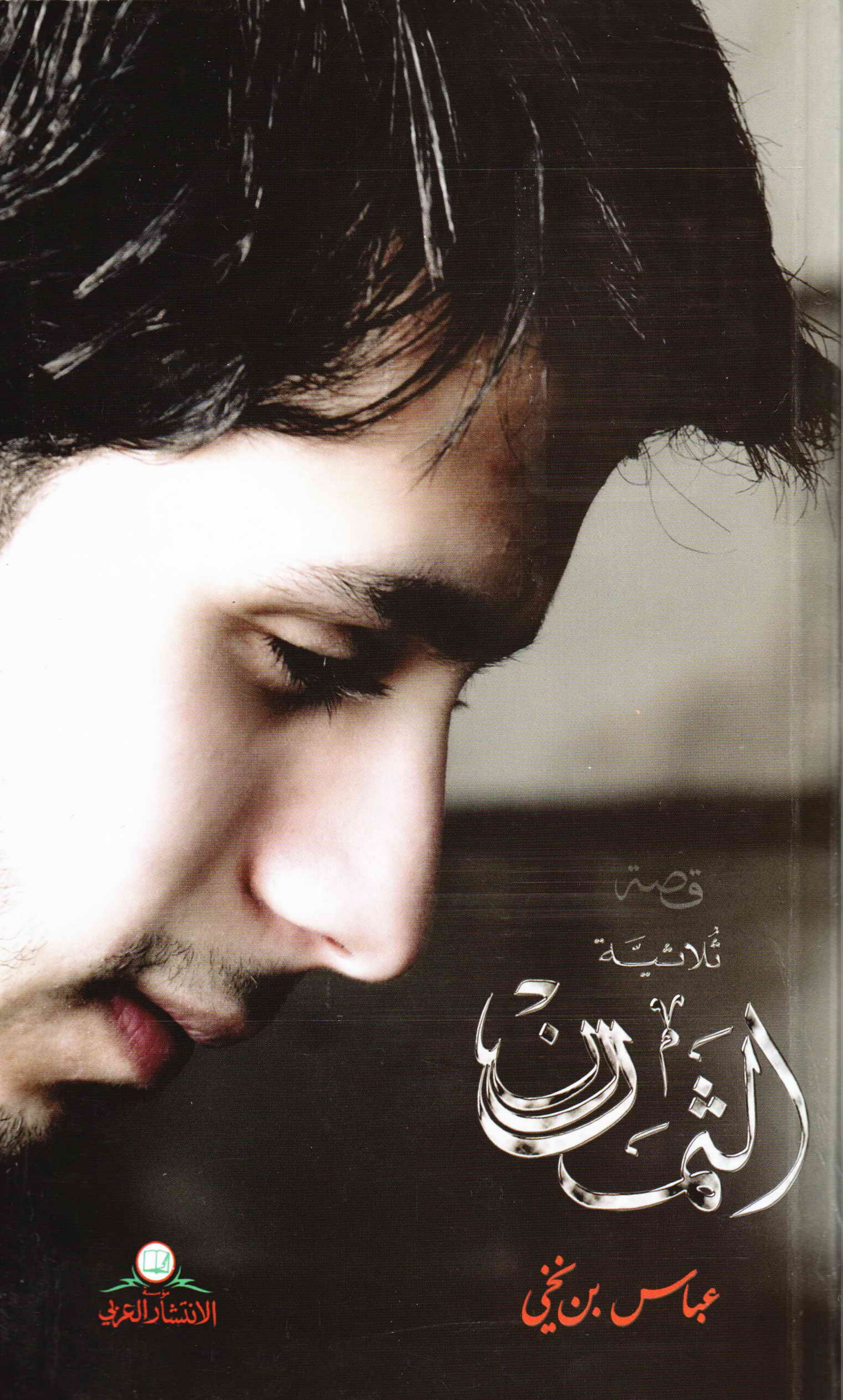

قصة
ثُلاثية
الثمن
عباس بن نخي
مؤسسة الانتشار العربي

عباس بن نخي

ثلاثية الثمن

قصة





Arab Diffustion Company

■ ثلاثية الثمن ـ قصة

■ تأليف: عباس بن نخي ـ كاتب من الكويت

■ مراجعة وتصحيح: السيد محمد علي الحكيم

■ الطبعة الأُولى: مايو ـ أيار ٢٠١٠م

■ الحجم: 13.5X21.5 ■ عدد الصفحات: 392

■ الغلاف من تصميم: هادي يوسف بن نخي

■ الترقيم الدولي: ISBN: 978 614 404 103 1



E-mail:arabdiffusion@hotmail.com

arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.cim

بيروت ـ لبنان/ ص.ب 113/5752

■ التنضيد والإخراج الفني:

مؤسسة الامام للنشر والتوزيع ـ الكويت

■ يمكنكم التواصل مع المؤلف ومراسلته عبر البريد الالكتروني:

a.bennakhi@live.co.uk

ثلاثية الثمن

عباس بن نخي

قصة



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-103-1

الطبعة الأولى 2010

ثلاثية الثمن

تقديم وإهداء

لم أُرِدْ من هذه القصص الثلاث أن أُسجِّل لأصحابها البطولة وأُثبت المجْد والعظمة، إنما أردتها أن تحكي فتُعرف، لِتثير المفارقة وتطرح التساؤل، وتبعث الروح، وتعود بها إلى أبدان تنكَّرت لها!... ولك أن تعجَب: أوَ تتنكَّر الأبدان للأرواح التي تُحييها؟

أردْتُ أن يقِفَ هذا الجيل على نقاءٍ كلُّه اليوم غُربة، وصَفاء يفيض وَحْشة، وأصالة تغرق في ضياع وتتلاشى في مَتاهة، ألقاهم فيها زمن "الحكم" و"السلطة" و"المقام"، ثم "المال" و"السعة" و"الترف" و"الدَعَة"... ولربما أقترن هذا اللوث في الدنيا والغَرَق في حُطامها، بتضحِية، وصاحَبَه بذلٌ، ولازَمَه عَطَاء، ليتعقَّد المشهد ويلْتَبِس، وتتعمَّق الفتنة وتتشَيْطَن، لكنه لن يلتقي - أبداً - بالأصالة والصفاء والنقاء. ولا بدَّ أن تتمَّ الحجَّة على كلِّ مُلَوَّث، فيستيقِن الحقَّ في نفسه، وإن جحَدَه بقَوله ولسانه.

أصالة تُسجِّل، ونقاءٌ يكشف، وإخلاص يفضَح، بتبايُنه عن الواقع و"نَشَازِه"، بل بتَعالِيه وترفُّعه عن المحيط، كم هي المأساة اليوم، وماذا يقتطع ويستلب "الأداءُ السياسي"، وفي الحقيقة "الإتجار السياسي" من النفوس العاملة بأسم الدين والإسلام والثورة... ويقطِّع فيها!

«الثمن» قصة لثلاثة نماذج للثمن الذي دُفعَ في سبيل الثورة التي فجَّرها «الإمام الخميني»، ونوعية الرجال الذين بذلوا في طريقها...

إنها "ثلاثية" تثير سؤالاً كبيراً حول "المُثمَن" وهل كانَ، أو ما زالَ، يستحق تلك التضحيات التي يصعُب، إن لم يكن يستحيل، تقييمها ووَزنها؟

وإن تسالَم بعضٌ على الإجابة بـ "نعم"، من مُنطَلَقات عقائدية، أو مُقارَبات وقراءات متفائلة مُستبْشِرة، وقانِعة بالواقع السياسي، فإنَّ سؤالاً آخر أخطر وأكبر، يتوَجَّه إلى هؤلاء، أو يطرح نفسه، من هامش القِيَم والمبادئ، أمام "البراغماتية" والتلوُّن السياسي والعقَدي الذي انجرَّت إليه الثورة اليوم، ما أفرَغها من محتواها الأخلاقي وقلَبها على مبادئها وقِيَمِها... ثم العودة في ظلِّ ذلك إلى الثمن والمثمن.

❁ ❁ ❁

أُهدي هذا العمل إلى ابنتيَّ العزيزتين: «فدك»، و«زينب»...

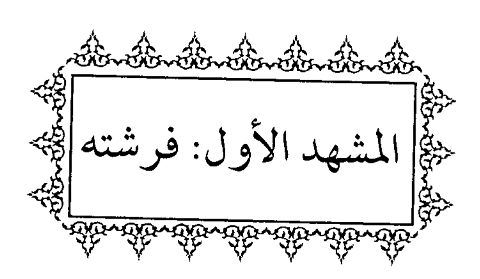
لما نزل بهما - في طريق الثورة - من رُهاب و "فوبيا"...

الأُولى «فدك»، من دَوِي انفجارات قَصْف المدن في الحرب العراقية الإيرانية، ولن أنسى ارتعاشها في حضني كعصفور نخلة في ريح بَلِيل، كلَّما دوَّت صفاراتُ الإنذار، تعمَد لإغلاق عينيها بيديها الصغيرتين، تظنُّ إنَّ ذلك يحميها من الطائرات والصواريخ!

والثانية «زينب»، من هَول اقتحام "المقام" و "السلطة" و "الحكم" بيتي وكبسها داري (إبّان إقامتي في «قم»)، وقد صاحَبَ ذلك رُعْبٌ خلَّف في الطفلة عُقدة من الأماكن المغلقة (رُهاب)، لم تتماثل للشفاء منها إلّا بعد أربعة عشر عاماً...

ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

❁ ❁ ❁


المشهد الأول: فرشته

ثلاثية الثمن

المشهد الأول: فرشته

إن كل ما عدّدته من آهات قلبي وتباريح الجوى، مما
عانيت في قصة حبي، لم يحصِ إلا واحداً من آلاف
(مصلح الدين السعدي)

چندين كه بر شمردم از ما جراى عشقت
اندوه دل نگفتم إلا يك از هزاران

«فرشته» تعني: ملاك، هذا هو اسمها...

كأنه جَمَعَ لطْفَ تلك الكائنات الملكوتية المجرَّدة أو الأجسام اللطيفة، في المعنى، وجمال مَرأى الفراش وبدائع نقْش أجنحتها، في تداعيات الرسم واللفظ. هذا عند العربي، أما عندَهُم فاستغراق في الرقة والبراءة، وقمَّة في العِصْمة والسموّ.

عروسٌ «طهرانية» في مُقتَبَل الصِّبا وزَهْرَة الشباب، وَدَّعَت لِتوِّها ربيعها التاسع عشر وخَطَتْ على هَوْن في العشرين... وكأنها دخلَت في النضج الكامل، ووَقفت على ما لم تكن تدركه من قبل، أو كانت تدركه ولكنها تضطربُ فيه وتخلط، بين مَشاعِر الانتساب إلى أهلها، ونزعة استصحاب وَاقعها ومحيطها الذي نشَأت فيه، وبين الرغبة في الاستقلال وتأسيس كيان جديد خاص، ثم الخوف من المجهول القادم، ومعاشرة "غريب" لم تعرفه إلّا منذ أمَدٍ قريب.

وإن تعرَّفت عليه وكشفته بثاقب فِطنتها، واستجْلَت بعض صِفاته بذكائها وحُنكتها، فاستحسنتها، لكن ذلك لم يشفع في تحرُّرها من قيودها، ولم يعِنْها في انطلاقها بثقة تامَّة نحوَ القادم المجهول.

كانت تحسب ذلك مغامَرة ومَتاهَة، وهي ليست مغامِرة ولا تطيق التيه... ثم تستنجد بسُنَّةِ الحياة وتستحضر سيرة أترابها وقريباتها اللاتي سبقنَها: هكذا كانت أُمي، وخالتي، وابنة خالتي، وكلّ نساء الأرض.

لم ينل هذا النضج من براءتها...

كانت تتمتع وتتميز بجمالٍ بريء... وهو ضرب قلَّ أن تجده في فتيات زماننا، بل في كل زمان، فأنا لست ممن يندب المَدنيَّة ويعزو إليها - منفردة - أسباب السقوط الروحي والتخلُّف القيَمِي والأخلاقي، ويتحسَّر على الماضي ويستذكر "أيام زمان" ويترحَّم عليها، حين يفتقد من حوله الجمال، ولا يجد الصدق، ولا يرى البراءة والأمانة والوفاء، وما إلى ذلك مما يحسب أنه كان مزدَهِراً في عهودٍ خَلَت من تعقيد المدُن وآفاتِ التحضُّر.

نعم، قد تكون المدنية كثَّرت الحاجات وفتَحَت مزيداً من أبواب استعباد الإنسان وارتهانه، ولكنها ليست المسؤول الوَحيد عن إفساد النفوس وتردِّي القيَم وانحطاط الأخلاق... إنما هي نزعات الهوى التي تجدها في كلِّ نفس، في القروي البسيط والبدَوِي المعدَم، كما في المدَني المعقَّد والغنيِّ المتحضِّر، في الماضي والحاضر، وفي المستقبل.

لم يكن القرويُّون وسكان البوَادي، من فلاحين أو رعاة، وعموم "البسطاء" من البشر، في منأىً عن الافتتان، ولا في مَنْجىً من الابتلاء والاختبار، فسقَطَات الجهل وإغواءات الهوى... كانوا يتحاسَدُون ويتنافسون، ويتصارعون، ويتقاتلون ويتكالَبون على القليل المبذول، ويقعُون في قبائح وجرائم لا تقلُّ عما يقَع فيه أهلُ زماننا من المتمدِّنين المتحضرين، سَواء في نفسياتهم المريضة أو في سلوكهم العدواني الشرير.

إنما كـانت الأدوات والـوسائل بـسيطـة، والإمكـانيـات والقـدُرات محدودة، والعدَد قليل، فلا يظهر شرُّهم أمام ما يقع في زماننا حجْماً وكَماً، أو أنه يُغفل ويسقط عن الحساب والاْعتبار، أو تضعف قوته ويتراجع حضوره ويضيع، شأن كلِّ ماضٍ انقضىٰ أمام حاضر يُعَاش، حتىٰ ينقلب في الأعين (وهي ترىٰ الكمَّ المقترِن بالحضور)، فتقيسُ هٰذا بذاك، فينقلب ذاك ويظهر خيْراً!

ولٰكن الحقَّ، إن الأمـر في ذاته، من حيث الكيف والنَّـوْع، شرٌّ وجريمة، كما هو السلوك المعاصر.

والمرأة من أصلها، مُـذ خلقت ووُجِدَت، فلّاحة بسيطة وقروية ساذجة كانت، أو مُتمدِّنة متعلِّمـة ومتحضِّرة معقَّدَة... كانت شريرة، مَسكُونة بهاجس التفوُّق علىٰ ذاتها وطبيعتهـا، بمعنىٰ تخطِّي دَوْرها وتجاوز حدّها المفروض لها ـ في طبيعة خلقها وتكوينها ـ في الحياة، وبنزعة التغلُّب علىٰ "الدونية" عَبْر ميزان ما زال يميل بها ويدْرِجها في الفضلىٰ عن الأفضل (الرجل)!

فتراها تنزع إلىٰ المساواة، بل التفوُّق، وتوظِّف كلَّ طاقاتها وإمكانياتها في هٰذا السبيل، وجلُّها شيطانية شريرة!

تبدُو مسكينة مظلومة مضطَهَدة، مهيضَة جَناح، لٰكنها ـ في الواقع ـ غير ذلك، وفي حقيقتها علىٰ العكس.

هٰكذا هي المرأة، سهمُ إبليس وجنديُّه المخلص وعامِلُه الوفي، كانت وما زالت وستبقىٰ... حتىٰ يرثَ اللهُ الأرض، وتتغيَّر السُّنَنُ والنواميس: حين ترعىٰ الشياه والذئابُ تحرسها، ويفيض بيتُ المال حتىٰ تكدَّس الأموال في الطرقات أرتالاً كالتِلال، فلا يتقدَّم أحدٌ يدَّعي الفقر أو الحاجة ليأخذَ منها... وتسمُو المرأة وتخرج من نزعات الجهل والهوىٰ والشيطان، إلىٰ العلم والتقىٰ والكمال، حتىٰ تبلغ الفقاهة.

وهي بالأمس كما هي اليوم، ولكن ظهَر الحاضر وغابَ الماضي، فَوَهِمْنا البراءة في ما سبَق وظننَّا أنَّ ما نراهُ طارئٌ زرَعه التطوُّر، وعارضٌ غذَّته المدَنية... كلَّا، إنما تغيَّرت الأساليب، وتنوَّعت الطُرُق، وتكثَّرت الوسائل، والغاية دائماً وأبداً غايات شيطانية، تصبُّ في إغراء الرجل وإغوائه، فتطويعه وإرغامه...

اللهم إلَّا ما رحم ربي من النساء! إذ الحكم على الطوائف والجماعات والفئات، لا يصحُّ أن يعمَّ النوع ويستغرق جميع أفراده، ولا يمكن أن يكون قاعدة رياضيَّة مُطَّردة لا تنخرِم، فإن كان، فلا بد أن يخضع لِشَواذ، ويخرج عنه مَن يخرج، بدليلٍ وناقضٍ واستثناء.

لذا فمِن النساء مَن تسمُو ويكمل عقلها، فتخرج من تلك الفُرْجَة الضيقة والمساحة الحائرة التي تشمل وتعمُّ جنسها... مساحة كالتي يفترضها الفقهاء في أحكام النظر إلى الأجنبية، فيقولون: إن كان بِرِيبة فيَحْرُم، وإلَّا فيجوز. وعندما يواجَهون بانعدام الفرض الثاني لاستحالته: فكيف لِرَجُل أن ينظر إلى امرأة - ما - ويتمعَّن بجمالها، ببراءة ودونَ ريبة؟ يجيبون بدليل نقضيٍّ، يحقِّق النتيجة بمِصداق أو أكثر، وذلك في فرضية نظَر المرء إلى جمال بعض محارمه كابنته أو أُخته، فإن استطاع - والأمر ممكن - أن ينظر إلى وَجْه امرأة أجنبية بنفس الكيفية التي ينظر فيها إلى جمال ابنته، فلا بأس ولا حُرْمَة. وهكذا قولهم في قضية الغناء والسَّماع، والتمييز بين الموسيقى والألحان المطربة من غيْر المطربة، واللهوية من غيْر اللهوية! والطرب خِفَّة تعتري الروح، ونَشْوَة تذهَبُ بالأحزان والأكدار وتأتي بالانبساط والمسرات، وقد تعرض من موسيقى رصينة غيْر لَهْوِيَّة كـ "السمفونيات" المباحة مثلاً، أو قد ينبعث الطربُ وتأتي الخفة من حماسة يبثُّها "مارش" عسكري، أو الحزن الموهي والمذهل، الذاهِب بالعقل والوَقار، من لحن جنائزي؟

لَعَمْري، هل تُظلَم المرأة ويبْخَس حقها وتضطهَد، حين يدخل آستخلاص العاقلة منهن وآستثناء الخيِّرة من بينهن إلىٰ هذي الضروب والأمثلة والنطاقات؟... فلا تجد العقل إلّا آستثناءً ولا ترىٰ البراءة إلّا غبّاً ونَزْراً، ولا يكون الحقُّ فيهن إلّا خرُوجاً عن الأصل؟!

ثم يستدرك مَن يذهب إلىٰ هذا الرأي ويَمُنَّ! وكأنه يجبر ما كَسَرَ ويرتُق ما فتَق، بآلتماس العُذر للمرأة فيتساءل:

أتراها جُبِلَت علىٰ الشر؟

أم هو كمالها... أن تجهل وتجْبُن، وتغري وتغوي، وتحتال وتمكر؟

أوَليس جلُّ الذكُور نساءً، بهذا المعنىٰ الذي يكْتَنُّ الشرَّ ويضمُر الغلَبة ويريد الآستئثار وينزَع إلىٰ التفوُّق، ويُدْمن الآنصراف إلىٰ سفَاسِف الأُمور وتوافِهها، دون العِلم والحكمة والعقل ووَضْع الأشياء في مَواضِعها؟

فإذا تحرَّرَ الإنسان ـ أُنثىً كان أو ذكراً ـ وآنفك من عُقَدِه: تخلَّص من شروره وغلَبَ شهواته ونوازع الهوىٰ في نفسه، وعاشَ الطُّهرَ والعفَّة والنزاهة والبراءة، وتمتع بجمال العلم، وآزدان بالحكمة والمعرفة... صارَ مَلَكاً يمشي علىٰ الأرض، وغدَت الأُنثىٰ: حوراء إنسية.

كانت «فرشته» بريئة، وهذا أبدع صور الجمال (فهو أقلُّه وأندَره!).

والجمال في الفتيات ضُرُوب وفنون وألوان...

فبَعد معالم الوَجْه وتقاطيعه، وشكل الجسم وتكوينه، وآكتمال الأعضاء وتناسقها، ولَوْن البشرة ورقَّتها، ونضارة الجلد ونعومة مَلْمَسه، وغزارة الشعر وآسترساله... تأتي أُمور قد تكون خافية للوَهلة الأُولىٰ، فقد تنجذِب النفس لِفتاة تفتقد مقاييس الجمال المعروفة، أو لا تتميز بها، فتكتشف أن ذلك لِسِحرٍ في بَسْمَتِها، أو عذوبة في صَوْتها، أو رِقَّة في طَبْعِها، ودلالٍ يأخذ بمجامع القلب ويُوهي الجلَد ويُسلم القِياد.

هناك معطَيات - في عالم الجمال - تقفِز على الشكل الظاهري، إلى المَلاحة وما يصحبها من صَباحة وإشراقة. ولعلَّ المَلاحة تسبق الجمال وتتفوَّق عليه، فقد تودي ثخانة الروح وغلظة النفس بحُسْن الوَجْه وتناسق البدَن ولين الجلد ومَلاسة البَشَرة وغزارة الشعر ورخامة الصوت، وتقلب الدلال سماجة والرقَّة فظاظة.

وهناك جمال أعمَق، يتمثَّل في دماثة الخلق واستواء السلوك ورُجْحَان العقل، ما يجعلها تعيش التزاماً وكمالاً، يقودها وينتهي بها إلى حسن تدبير شؤون الرجل والقدرة على كفايته حاجته، وتوفير "السكَن" الذي يفتقر، وصَوْنه عن النظر، بل الفكرة في غيرها!

وهناك البراءة...

جمال يقهر جبِلَّة الكَيْد، ويرغم فطْرة الخبث، ويتجاوز الحيلة والمكر والدَّهاء، وكلَّ نوازع الشرِّ المتأصلِّة في المرأة! أو قُل كلَّ الطاقات والإمكانيات والقدرات التي توظفها المرأة - نوعاً - في الشرَّ.

وهو جمال من قِلَّته ونُدرته كالمعدوم!

أن تجد البراءة تتراقص في عين فتاة أو امرأة، والعفوية تمسح تقاطيعها، دون أن تدمغها (في المقابل) بالبلادة والفدامة والحمْق... فكأنها لا تعلم شيئاً عن جمالها الفتَّان وسلاحها الفتَّاك، ولا تدري أنها تسبي الناظرين وتصرعهم، ناهيك بأن تتعمد ذلك أو تقصده فتغري وتغوي، أو تتكلَّفه فتفتن وتسحر، أو - في الأقل - تفخَر وتزهُو. تجمع ذلك كلّه إلى النباهة والذكاء وسرعة البديهة.

لم يكن في سلوك «فرشته» ما يوحي أنها تستشْعر الجمال الذي يتدفَّق منها ويفيض، ولا في تصرفاتها أنها كانت عالِمة أو متنبِّهة إلى السحر الذي تبثُّه في محيطها وتنشره حَولها وتبعثه حيثما حلَّت ومَضَت... فكانت البراءة آية أُخرى، بل عظمى تلحق بها.

ويضافُ هنا شيءٌ آخر، عميق خفِي، وتلحَق درجة جديدة ورتبة عالية غير محسوسة... أن ذلك منها (أي تلك العفوية والبراءة)، لم يكن على حدٍّ يسلبها شيئاً من رَوْعتها وينال من كَمالها، إذ الغفلة والإغراق في الانصراف، هو قبْحٌ بنَحْوٍ من الأنحاء، وسُوءٌ بشكل من الأشكال... كانت الفتاة خلْواً من هذا أيضاً وبَراء.

وبعد، فقد كانت «فرشته» من النوع الذي يجمع الملاحَة وخِفَّة الروح إلى جمال الوَجْه وحُسْن الهيئة، والخلُق إلى العقل، فكأنها كملت واكتملت... والعجب من أداء غاية في الذكاء، وتدبير نهاية في الحكمة، لم ينَلْ من براءتها وطُهرها، فكأنها ما تمثّل وتداري، ولا تخفي وتواري! حتى أتت على فكرة راسخة ومعتقد جازم في النظرة للمرأة والرأي فيها، إذ عرَضَ هنا وظهَرَ بأن تسخير الملَكات والقدرات الأُنثوية يمكن أن يكون في طريق الخيْر! فإن وَقَعَ هذا وتحقَّق، فإنه لا ينالُ من جمال المرأة ولا يزري بحُسنها.

ما رضيت «فرشته» حتى وَظَّفت ذكاءها الوقّاد في قراءة نفسية خطيبها، وفَهْم شخصيته ورُوحِيَّته من الجلَسَات واللقاءات التي جمعتهما، فالخطبة هنا تعني عقْد القِران، مما كان يسمح لهما بالخلوة، دون الدخول المؤجل للعرس...

فقد اكتشفت ـ سريعاً ـ ميوله ورغباته، وطوَّعت نفسَها وروَّضتها لتكون كما يشاء، فهو لا يُطيق المرأة المتمكِّنة القوية، يريدها ضعيفة مفتقرة إلى قوَّته، ويفضِّلها مستكينة خاضعة لِسطْوَته، هكذا يرى الرجل الأُنوثة ويستطعمها، بل هكذا يفهمها... لِذا بادرَت ـ طوعاً ـ وأرسلت شخصيتها ودارَت ووَارت وُجودَها إلى الظل، انكفأت إلى الوراء وأخلَت له المقدمة في ضعْفٍ وعجز واستسلام، لتكون في كنَفِه، حيث يشعر بتفوُّقه ويعيش قوَّته و "رجولته" !

فالرجل قوَّام بطبْعه، هو الذي يقود الحياة الزوجية، ويتولىٰ زمام الأُمور في الأُسرة ويدبِّرها، ولو نازعته المرأة مَوْقعه ودَوْرَه (وهي إن فعَلَت، فإنها ـ غالباً ما ـ تتفوَّق عليه وتدحَره!) تكون قد قضَتْ عليه ودمَّرته، دمَّرته وهي تسحق شخصيته وتقضي علىٰ رجولته، كما يُفعل بأغلب الرجال! أو دمَّرَت بيتها وخرَّبته إن غلَبها فألجمها وكبَحها، وأصرَّت هي وكابرَت ومَضَت في عنادها.

لم يمنع العقل الذي يحكم «فرشته»، والرزانة التي تجلِّلها، والحشمة التي تكلِّلها، والحياء الذي يلفُّها، أن تتراقص الأماني والآمال في عينيها اللوزيتين: بَريقاً يسْحر الناظر. وإن خالَت بأن سَجْوَ طرْفها وفتور لحظها وأهدابها الوَطْفاء المثقلة، تداري ما ترسله من سِهام، أو ظنَّت بأن العِفَّة وصِدق النية منها في الصدِّ وغضِّ الطَّرْف يحجب ما ينبعث منها، فإن إشراقتها وبهاء طلعتها، تفضح ما بالَغَت في ستْره، وتنطق بما تكلَّفت كتمه وجاهدت في جَحْدِه وحَجْبِه... حتىٰ يظن الفقيه، إذا رآها، أنه اكتشف السرَّ في تشريع وُجوب ضَرْب الخمار وستْر الوَجْه، لمن قال به!

وجَرْياً علىٰ سُنَّة اجتماعية عريقة وتقليد إيراني متأصِّل، وعُرْفٍ يقضي أن تستصْحِب الفتاة في جهاز عرسها، سجادة عجَميَّة من نسْج يديها، تكون من مواضع زَهْوِها وتباهيها أمام الزوج وأُسرته، ورقماً متناسباً بشكْل طَرْدي مع إعزازها ورفع قدْرها، كلَّما كانت السجادة ثمينة ومُتقَنة، لتدلَّ علىٰ كفاية الفتاة ومهارتها، أو علىٰ اقتدار أهلها وكرَمهم واحتفائهم بابنتهم... ها هي تضع لمساتها الأخيرة علىٰ تحفة رائعة من الزخرفة والنقوش الفارسية الأصيلة، مُستوحاة من النموذج «النائيني»، قضَت ست سنوات كاملة في حياكتها، وما كانت تسمح لأُختها الصغرىٰ أن تعينها، حذَرَ أن تفقد الإتقان ودرَجة الجوْدة التي تمضي عليها، وما تريده لِسجَّادتها... أن تكون في القمة.

وقد جاء النسيج قوِياً محبكاً، ناعم الملمس، مستوِي السطح، خالٍ من شوائب الخيوط والكُتل التي تراها في السجاد التجاري أو الرخيص، مرصُوص العقد متَدانيها، حتىٰ بلَغ تسعين غُرزة في "الرج" (وهي مسافة كفٍّ صغيرة تمثل وُحْدَة قياس الجودة في السجاد العجمي)، مزيجٌ من "الكُرْك" (صوف ناعم يُغزل من جَزِّ الضأن) والحرير الخالص، المنمنم بباقة متجانِسة من الألوان الطبيعية نباتية المنشأ والتركيب، غَلَبَ عليها الزهري والأخضر، بأرضيَّة بيضاء مشرَّبة بالصُّفْرة. وقد وُشِّيَ النسيج بيسير من خيوط الذهب (من "الزري الفرنسي")، ختمت النقش الذي يتوسَّط السجادة بشكل وَرَقة معكوفة أو هي وَرْدَة صغيرة ٱستهلكت وتكلَّفت أربعة عشر مِثقالاً كاملاً من الذهب الإبريز (تيمُّناً وتبركاً بالعدَد)... لتشفَع في صِغَر حَجْم السجادة، وتسدَّ ثغرة قد يغمز منها أقارب الزوج العتيد.

أكمَلَت السجادة وفرغَت منها، فٱكتمل جهاز العروس وما يتوقَّف عليه ٱنتقالها إلىٰ بيتها من مَتاع، ولم يبق إلّا الإعداد لحفل الزفاف...

وقد أنهىٰ هٰذا شُعوراً طالما لازَم «فرشته» من تِكرار تأجيل مَوْعد الزفاف وتأخيره، مما كانت تتلقَّاه في بادئ الأمر بشيء من الرِّضا والترحيب وتدْرِجه في محاسن الصدَف، فيوافق منها التقبُّل، لما يوفِّره ويفسح فيه من وَقْت لإتمام التجهيز وإكمال الٱستعداد للٱنتقال إلىٰ بيت الزوجية... لٰكن بإنهاء السجادة العزيزة، لم تَعُدْ تحمِل أية رغبة خفيَّة - ولا مُعلَنة - تأنس بالتأخير وٱستمرار مسلسل التأجيل، بل غدا الأمر تسويفاً مَرفُوضاً.

ولٰكن مع كل ذلك، لم تتبرَّم «فرشته» ولم تستملل ناهيك أن تعترض، عندما جاءت والدة «محسن» وأُخته تطلبان تأجيلاً جديداً لمَوْعِد العرس. لِعِلْمِها بأن لـ «محسن»، خطيبها، كامل العُذْر في ما يشغله...

فهو رأس في واحِدَة من أنشط الجماعات التي تنظِّم المظاهرات وتوزِّع الأشرطة المسجَّلة والمنشُورات، وما إلىٰ ذلك من أعمال الثورة التي تعصِف بالبلاد، وقد ترك عمله وعطَّل مَتْجَر أبيه الذي كان يديره أو يُشرف عليه، بعد أن عطَّلت الإضرابات، المتكررة في البداية ثم المتَّصِلَة، دراسته الجامعية في شعبة الفلسفة والعلوم الإنسانية، وهو في السنة الأخيرة منها... وتفرَّغ للنهوض بهٰذا الدور، وكرَّس كلَّ وَقْته وجهده في سبيله. وقد تصاعَدَت أنشطة الثورة اليوم وٱستَعَرَت نارها حتىٰ بلغت طَوْراً من الحدَّة والشدَّة والحرج والخطَر، ما لا يسمح بتداول مثل هٰذه الأُمور، ويجعل البحث فيها ترفاً مَقيتاً، بل "وَقاحة" كما عبَّر «محسن» لأُمه مرَّة حين حاولَت إقناعه بعدَم التعارض وإمكانية الجمْع، فالحياة تمضي، والزواج أمر في صميمها، إذ قال رادّاً عليها:

أيحسن يا أُماه أن أتزوج وأحتفل بزفافي، ورفاقي يئنُّون في سجون«الشاه»؟ لقد شيَّعْتُ بالأمس القريب إلىٰ «جنة الزهراء» أخاً عزيزاً وبطَلاً قضىٰ تحت التعذيب في «إوين» (المعتقل السياسي الشهير)، إنني أستحي أن أُعالج ثَتَناً ضرَبَ لِثَّتي خلَّفها قالِصة مسترخية دامية، لا أكاد أقضم صَلْبَ أو قاسي الطعام حتىٰ أُدميت ونزفت، ولكني - يشهد ربي - أخجل أن أُراجع الطبيب لِدَاء مثل هٰذا، أُطيق تحمُّله، ولا يعيقني إلّا من الأكل أو الٱلتذاذ بالأكل، فأصرِف وَقتي في هٰذا الشأن ورِفَاقي يكابدون في السجون!

كانت أُمّه الحزينة تتفهمه، وتتركه يعيش قِيَمَهُ ومبادئه كما يهوىٰ ويُريد، فقد كان صادقاً في زعمه مخلِصاً لقضيته، أو أنها - من جهة أُخرىٰ - كانت تمضي عنه لِعجزها عن ردِّه وجوابه، فهو شديد المراء واللداد، حاضر الجواب حسن الٱستدلال، لا يباريه أحد في مناقشة ولا يجاريه في مناظرة إلّا حجَّه وأفحَمَه.

بل كـان يتحرَّىٰ الجدال ويطلب النزال في ميدان الحوار، هٰذا بين رِفاقه وزملائه الجامعيين والمثقفين، فكيف بهٰذه المرأة الأُميّة المسكينة! فإن فعَلَت وسألته، أو حاولت أن تجادله، ساقَ لها كلاماً فلسفياً يستدلُّ به ويحتج، كأنه يستعرضه، وهي لا تفهم ما يقول فلا تملك جواباً.

ثم إنها ألحقَت بكلِّ هٰذا وذاك، جديداً يحتِّم أن تتركه لحال سبيله، هو حذَرها من غيظه وغضبه، فقد أصبح «محسن» في الآونة الأخيرة شديد الحساسية والتوتر، وصارَ يعيش قلقاً وزهَقاً أفقَدَه حِلْمه وأناته...

وعلىٰ الرغم من أنَّ ذلك قد يكون وَليدَ طبعه ونتيجة شخصيته، فهو يلاحق دقائق الأُمور ويلاحظها، ويتحرىٰ التفاصيل والخصوصيات، لا بمعنىٰ النزول إلىٰ التوافه والأنشغال بالصغائر والجزئيات، بل من علُوِّ الهمة والدقة المتناهية، والإتقان والكمال في العمل، والتطلُّع إلىٰ التفوُّق وتجنُّب الخطأ من غفلة وتقصير وسَهْو وتسويف.

كان يتفانىٰ أن لا يفوته شيء، ويتهالك أن يراقِب ويتابع كلَّ شارِدة ووَارِدة في عمله والمهام الموكلة إليه، وهٰذا ـ بطبيعة الحال ـ مما يُرهق ويضني، ويُورِث القلق ويخلِّف التوتُّر...

كان يثير عاصفة علىٰ خطإٍ مطبعي في منشور، ويقلِب الدنيا غضباً علىٰ شريط مسجَّل وَاحِدٍ (من بين آلاف الأشرطة) وُزِّع ونُشر، وإذا به خالٍ من المادة والمحتوىٰ لخطأ في الأستنساخ والتسجيل، وَليد السرعة والعجلة، وظروف العمل التي لا تخفىٰ عليه.

وفي مَرَّة أقصىٰ عنصراً ونقلَه من شبكة الخلايا التي يديرها لأنه أغفل الأستئذان لتأخره عن حضور الجلسة التنظيمية، وتركَ رفاقه ينتظرونه نحْوَ ساعة كاملة، وهم بين مُشفِقٍ من أعتقاله، وراجٍ نجاته من أيدي رجال الأمن، وداعٍ لخلاصه من الأسر، بينما كان هو يقضيها في التسوُّق! لم يكن يطيق الخطأ، ولا يتحمَّل الرعونة...

لكنَّ قلَق «محسن» وتوتُّره هٰذا لم يكن وَليد تنامي حَجْم المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقه في قيادة مجموعة كبيرة من خلايا التنظيم السري الذي يعمل فيه، ولا من الخطَر الداهم لملاحقَات رجال الأمن، والخوف والخشية من أفتضَاح أمره وأنكشاف أنشطته المحظورة، إذ بلَغ بعضها ودَخَلَ في تهريب السلاح والذخيرة من معسكرات الجيش عبْر بعض الجنود والضباط الموالين للثورة، وقد تكثَّفت ـ في الآونة الأخيرة ـ وتلاحَقَت وأزدحمت حتىٰ تكرَّر إخلاله ببعضِ ضوابط الأمن وقواعِد السلامة وَاجبة الأتباع، ولا سيما في دروس تعليم إعداد القنابل الحارقة وصناعة المتفجرات التي كان يَرعاها، فكأن الأمر أنفلت وأنتقل من النشاط السريِّ إلىٰ الحركة الجماهيرية و "العمل الشعبي" ضمن عِصْيَان عام وتمرُّد شعبيٍّ مُعلَن...

لم تكن هموم «محسن» وأسباب القلَق الذي يعانيه تنحَصر في هٰذه الأُمور فحَسْب، بل كانت له هواجسه وهمومه الخاصَّة التي ينفرد بها عن أقرانه وينفصل عن زملائه. كان له عالمه الخاص الذي يعيشه في ذهنه، يتخطىٰ وَاقعه، ويتجاوز ما يتعاطاه في حياته، وينفصِل عن محيطه... لم يكن حالماً أو مثالياً قدْرَ ما كانَ وَاعياً وذكياً، ومُرهَفاً، في تحسُّس مواطِن غالباً ما تخفىٰ علىٰ غيره، وتغيب عن معظم رِفاقه العاملين معه.

لم يكن في سريرته يمحَض الولاء للدكتور «المعلِّم» وأفكاره...

هٰذه كانت قضيته الخفية.

كان يعاني من أهتزاز في داخِله وأضطراب نالَ من عقيدته الثورية، من منطلقات أنشطته ومُرتكزات فعالياته، من الفكر الباعث علىٰ كلِّ هٰذا النضال والجهاد، والصراع والنزاع الذي يَراه يُودي في كلِّ يوم بعزيز له وصَديق، ما أنسحَبَ في إشكاليته وأنجرَّ علىٰ القيادة العليا التي يأتمر بتوجيهاتها، والأُخرىٰ الميدانية للتنظيم (الذي جمع تلك الخلايا ـ فيما بعد ـ

في أئتلاف كبير صَارَ يُعرف بـ "سازمان مجاهدين إنقلاب إسلامي"، هو الذي شكَّل عند الأنتصار: "حرس الثورة الإسلامية")، فهؤلاء الذين يوجِّهون العمل ويقودُونه هم من أتباع مدرسة «المعلِّم» ومريديه.

كان «محسن» مُعتدّاً بنفسه، ومتعالياً بعض الشيء إلىٰ درجة تناهز الغرور، ولعلَّ ذلك جاءه من كثرة مطالعاته، ثم من جَدْبِ محيطِه وضحالَة رِفاقه وفَقْرِهم الثقافي، فيبعث الفارق ما يبعَث، وتُورثه المقارنة ضجَراً بالواقع وملَلاً ويأساً من الإصلاح والتغيير... كثيراً ما كان ينزعج ويتأفَّف من فشل محاوريه في مجاراته، وعجْزِهم عن فهمِه ومقابلة أحتجاجاته، حتىٰ غدا أنطوائياً يحتفظ بأفكاره لِنفسه ويُداري معتقداته، ويكتم أمرَه في أغلب الأحيان.

كان يصرف جلَّ وَقته في القراءة والمطالعة...

وقد تركَ ذلك أثره الواضح علىٰ أنتسابه التنظيمي ناهيك بالفكري، فقد كان يأبىٰ التقيُّد بفكرٍ محدَّد ومَدرسة ومَشْرَب خاص، ويكرِّر أنه لم يستَوْفِ مُطالعاته ولم يكمل دراساته حتىٰ يقرِّر ويعزم علىٰ نهجٍ ما، يتبنَّاه من بين المناهج والمدارس المطروحة.

ومع ذلك، كان يحضر ويتعاهَد الدروس الحزبية ويُواصِل الحلقات التثقيفية في التنظيم، ويشارك من بَعْدُ في محاضرات «حسينية الإرشاد»، التي كان يصِلها ـ في مواعيد المحاضرات ـ مبكراً، يرتقب خروج «المعلِّم» من بيته ووُصوله إليها (وكان يقطُن في شقة من عمارة سكنية تقع بإزائها)، فيوافيه بتحيَّة خاصَّة، ويولي مُرافقيه عناية ما! وهذا من غريب تصرُّفات «محسن» ومتناقضها، التي ما كانت تنسجم مع مَوْقفه من الرجل وآرائه، ولا تحكي أو توافق شيئاً من أنتقاداته وتقريعه أصحابه خضوعهم لنزعة التعظيم والقداسة وتعاطيهم الصنَمي مع «المعلِّم».

ها هو يجاريهم، بل يغالبهم علىٰ صنعتهم وبضاعتهم المزجاة؟!

لـٰكن الحقيقة أن «محسناً» لم يكن كذلك، ومَن يدقِّق في أحواله ويفهم شخصيته وطبيعته لا يعود يستغرب منه مثل هـٰذه التصرُّفات ولا يستنكر أو يستهجن... إنها مُعطَيات وإفرازات روحيَّته ونفسيَّته، ونزَعات الكمال التي تجتذبه إلىٰ القِمَم وتدفعه نحو المعالي وتأخذه إلىٰ الأقاصي. كان يترفَّع عن محاوَرة ومجالسة أقرانه، ولك أن تقول: يتكبَّر، ويأبىٰ الردَّ علىٰ رِفاقه، والاَستغراق في جدالهم، ويتطلَّع ويريد "الرأس"، كأنه يَعُدُّ نفسه ويراها في هـٰذه المصاف ويُدْرِجها علىٰ هـٰذا المستوىٰ. لم يكُن بتلك الحركات يتملَّق ويتزلَّف (كغيره)، ولا يداهن ويضارع، إنما كان يتحدىٰ ويباري، ويطلب النزال! وكم اَستغلَّ تأخُّر دخول بعض مرافقي «المعلِّم» ومقربيه ليعترضه ويلقي علَيه إشكالاته ويصدمه بشُبهاته، ما كان يمهِّد فيه للقاء خاص وخلوة تجمعه مع "الرأس"... ولـٰكنها ما أجدَت، فبقيت حسرة في نفسه!

كان من المبادرين المسارعين إلىٰ تلك الجلسات واللقاءات، حريصاً أن يحظىٰ بمقعد متقدِّم في الصفوف الأمامية، مشارِكاً في الحوارات الساخنة التي كانت تعقب ندواتها، أو الأُخرىٰ التي تجري علىٰ هامشها وفي أروِقتها ولقاءاتها الجانبية. ما يخرجه من وَحْدَته، ويكسر طَوْق عزلته، وبعض غربته، فالمحيط هنا أكثر ثقافة وعُمقاً واَستعداداً للحِوَار، وأُنساً بالاَصطكاك الفكري، حتىٰ من أوساط الجامعة وطلَّابها، ناهيك بالحيِّ والرفاق العاملين معه.

و«الإرشاد» حُسينية لا كغيرها من الحُسينيَّات...

متميِّزة في كلِّ شيء، في موقعها الذي يشكِّل مدخل المناطق الشمالية من العاصمة، حيث سكن الأغنياء ومتَوَسِّطي الدَّخْل، والطبقة المثقفة. وفي بنائها الفخم وزخَارفها الرائعة وتنظيمها المتقن، وهـٰكذا في طبيعة حضورها ومُرتاديها، وفي أنشطتها ودَوْرِها ورسالتها...

ولـكن ما كـانَ يـستـوقف «محسناً» من بين كلِّ هـذا وذاك، أنها الحسينية الوَحيدة في «طهران»، بل في «إيران»، ولعلَّ في جميع بلاد الشيعة وأوْطَانهم، لا يفْتَرِشُ فيها الحضورُ الأرضَ، بل يستوُون على مقاعِد وَثيرة! اللهم إلّا «لبنان»، فهي ٱستثناء فرَضَه التداخل الطائفي والمذهبي الذي يحكُم نسيجها الاْجتماعي، حتىٰ إنَّ الشيعة هناك يطلِقون علىٰ الحسينية: "النادي الحسيني"، لعلَّ ذلك لِتقِيَّة وخَشْية من أن يُطعَن عليهم أو يُنبزُوا بأنَّ لهم دُوُراً للعبادة غيْر المساجد، أو لاْهتزاز الهوية وٱضطرابها، وفراغ حقيقي ناجم من تأثير التيارات الحزبية، وما أوْرثته الزعامات وقضَتْه مصالحها الشخصية.

وكان هـذا الأمر الشكلي العابر، ولعلَّه التافه، أوَّل المحطَّات، أو أُولىٰ الذرائع التي كان يلجأ إليها «محسن» في إثارة رِفاقه، وٱفتعال ما ينتزعهم من رتابة حركتهم، وكما كان يقول: "تزيح القناع من عين حصان العرَبة، أو ثَوْر الساقية، فيعلم أن الطرق والدروب أكثر بكثير من هـذه الطاحونة التي يدُور فيها ويسعىٰ"! ذلك علىٰ رغم أن الظاهرة بعثت فيه - حقيقةً - التساؤلات وأثارت في نفسِه الهواجس والمخاوف. وكثيراً ما أدخلته في محاورات شيِّقة وساخنة، عرَضت من ٱعتراضاته وٱنتقاداته...

: لماذا المقاعد يا رفيق؟

: أيُّ بأس بالمقاعد؟ إنها مريحة، تساعد الحضور علىٰ حُسْن التلقّي.

: لا بأس، ولـكن هل نحن في سينما أو في مسرح؟

: وهل كُتبت الراحة والرفاهية لروَّاد تلك المحافل فقط؟

: ولـكننا دُعَاة ثورة وتقشُّف، وحركة شعبية جلُّها من الحفاة المستضعفين، أليس الفقراء وأُسر الشهداء والمعتقلين أولىٰ بالصرف والبذل والإعانة، بدَل هـذه المقاعد الوثيرة وكلفتها الباهظة؟ لماذا لا نكون مثل بقية الناس، لماذا تتميز حُسينيتنا عن بقية الحسينيَّات؟

: لم يتكلَّف أحدٌ ريالاً واحداً هنا (يقصد من أتباع "الحركة" وما تتحمَّله ميزانيتها "مجهولة الموارد والمصارف"! حتىٰ يصحّ اللوم ويتحقَّق وَجْهٌ للمُحاسبة والمؤاخذة أو الملامة والعتاب)، إنها أموال الأثرياء، هناك مَن تطوَّع وبذَلَ وشيَّد هٰذا الصرح، ونحن نستغلُّه لنشاطِنا بدَل أن يشغله آخرون، فيكرِّرون ما يلقىٰ في بقيَّة الحسينيات، يُبكون الناس، وينشدون لهم المراثي والندبيات ليلطِمُوا صدورهم ويضربوا أنفسهم(!)، ثم يصرفوهم إلىٰ وُجهاتهم التي قدموا منها، وقد أفرغوا أحزانهم وعالجوا همومهم، وقطَعوا الطريق علىٰ أيِّ غضب قد يتفجَّر ثورة، وأي ألم قد ينقلب موْقفاً وعطَاءً، وأي جرح قد ينكأ يوماً فيَنْتح وينزف دماً يكتسح الطواغيت وعروشهم. وتراهم يختمون هٰذه التجمُّعات الشعبية التي تمثِّل - في وَاقعها - ثروات وكنوزاً حركية لا نظير لها في أية مدرسة ومذهَب آخر، يختمونها وينهونها كما وبما بدأت به منذ مئات السنين... فلم يهتز عرشٌ لظالم، ولا طُويَ فرْشٌ من جهل أو فقْرٍ أو مرَض.

: إنني أُحدِّثك وأسألك عن المقاعد، أين ذهبْتَ يا هٰذا؟

الأمر يُشعرني بأهتزاز الهوية وتقليد أعمىٰ للغرب، كأننا نستحي من آدابنا وأعْرافنا وطريقة عَيْشِنا، ونريد أن نُجَاريهم حتىٰ في جلستهم، هل التطوُّر والرقيُّ يبدأ بنَبذِ السُنن وتغيير العادات الأجتماعية؟

: أصدِقني القول يا «محسن»، لستُ أراكَ معترضاً علىٰ هٰذه التي تزعم الآن، بل علىٰ "تلك" التي تخفي وتُضمِر! ما أزعجتك المقاعد ولا آذاك البذل عليها، وإن فعَلَتْ فهي لا تعدو أن تكون زفْرة لما شحَنَ صدرك وأوْغَلَه من "تلك"!

: ها قد عُذتَ لـ "سيرتك الأُولىٰ"، أيَّ "تلك" تقصد؟

: جذور الرجعية التي أنت عاجِزٌ عن أجتثاثها من نفسك، ونادم علىٰ ما أنتزعَتَ منها حتىٰ الآن!

كان رفيقه الذي يحاوره يشير إلىٰ أمرين، كانا يشكلان مَغمَزاً ومَطْعناً في "ثورية" «محسن» وحقيقة وَلائه أو مَدىٰ ٱنتمائه للثورة وإخلاصه للتنظيم، الأُولىٰ أنه ينحَدِر من عائلة ثرية، لم يكن برجوازياً أو طاغوتياً (كما يعبِّرون عن الأثرياء المترفين)، لـٰكنه كان غنياً ميْسور الحال، لم يعرف الفقر في حياته ولم يذق الحرمان والاستضعاف، وجلُّ شعارات الثورة ونداءاتها، بل محور أدبياتها كانت تتوجَّه إلىٰ الفقراء والمعدمين و"الحفاة"، وهو ليس منهم ولا في عِدادِهم.

والثانية: عمَلٌ مَوْسميٌّ ٱلتزمه «محسن» منذ سنين ولم يتخلَّف عنه ٱلبتَّة، وَفاءً لِنَذْر نذَرتْه أُمُّه، وقد تخلَّف عنه للمرة الأُولىٰ هـٰذا العام، نتيجة ضغوط أصحابه ورِفاقه ومحاصرتهم له.

فقد أقنعوه أنه نَذْرٌ لا وَجْهَ له شرعاً ولا محلَّ له عقيدة، ولا موْقعَ له في الفكر الحركي والثوري الذي يمضي عليه في جهاده ونضاله...

مضوا يلاحقونه ويحاصرونه بٱعتراضاتهم وإشكالاتهم حتىٰ ٱنثنىٰ وٱرعَوىٰ، وجَاراهم، وتركَ ما كان فيه. علىٰ رغم أنه ليس ممن تعييه الحيلة في الردِّ ولا ممن ينقصه العِناد والإصرار، بل هو مكابِرٌ في طَبعِه، لـٰكنه ٱمتثل لما توهمه "قناعة"، وتابعهم لما صارَ فيه من رأي جديد...

أقنعوه بكلمة حق: أن ليس لأحَدٍ أن يعلِّق جواب نذره علىٰ فعل يأتي به غيْره، فينذرَ - مثلاً - إن كُتب له النجاح في دراسته أن يصومَ أخوه يوماً! وقد نذَرَتْ أُمُّه، فكان عليها أن تجعل جواب شَرْطها ونذرها عملاً تؤديه هي لا هو؟ وخلطوا بها باطلاً ومزجوه، إذ زعموا أنَّ هـٰذا العمل مظهر متخلِّف رُجعي يسيء إلىٰ الدين ويُشوِّهه، ولا نَذْر في بدْعَة. وكلُّها أسباب تدفعه لترك العمل بالنذر. هـٰذا ما أقنعوه به، فٱنصاع لهم...

ٱفتُتن الرجل، والفتنة لَبْس للحقِّ بالباطل، إذ لو خلَص الحقُّ ونفضَ عنه غبارُ الريْب، لـَمَا تمارىٰ أحدٌ فيه، ولا ٱنطلىٰ زُخرف القول وزُوُره.

وها هو الآن نادمٌ، أو أنه يخفي ندماً ويجترح ألماً لموافقتهم ومطاوَعتهم، ولكنه مأخوذٌ بأجواءٍ وَضَع نفسه فيها، حكمَته بأعرافها وسُننها وكبَّلته بقيودها، فأنصاعَ علىٰ مَضَضٍ، وهو ماضٍ علىٰ غيْر رغبة.

كانت قد نزَلت به في صغَره، وهو أبن خمس أو ست سنين، حمَّىً شديدة أعجَزت الأطباء، ألقته شهراً بِلا حراك، لم يقِفوا لها علىٰ سبَب ولم يكشفوا علَّة، فلا أجدَت العقاقير نفعاً ولا أستطاعت "المضادات الحيوية" فعلاً، لا أزالتها ولا خفَّضتها، حتىٰ أشلَّته وأصابته بالفالِج، فما عادَ يحرك أطرافه.

وعندما أعيت الحيلة أُمَّه، فخابَ أملها وأنبتَّ حبل رجائها وأيقنت باليأس مما تطلب، أتت به يوماً تحمله إلىٰ طليعة موكب عزاء حسيني خرَج من حيِّهم قاصداً حرم «شاه عبدالعظيم الحسني» في «الري»...

أخرَجَته أول الأمر وهي تضعه في عربة تدفعها، فقد كان عَبْلاً بَدِيناً، يصعب ويثقل عليها حمله، ثم ما ملكَت أن هاجَ بها الحَفَف وحكمَتها اللَّأواء، فآلت أن تظهر في هيئة الفقراء المستجدِّين وتكون علىٰ حال المفتاقين، إلحاحاً في السؤال وإحفاءً في الطلَب، فجزعت وأنفجرت بالبكاء والعويل، حتىٰ إنَّ الناس رقُّوا لها وصارُوا يؤمِّنون علىٰ دعائها، وألقت هي السرير ـ العربة وطرحتها جانباً وحملت أبنها علىٰ مَنْكِبها، تتناوب ذلك مع أُختها (خالة «محسن») لِفرْط ثقله، مَشَتْ به مع الجوقة الأُولىٰ من روَّاد الموكب وطليعته، حيث الدائرة التي تحدق بحامل "العلَمَت"، وهناك راحت، بصدق وأنقطاع وأمل ورجاء، بعين عبرىٰ وكَبِد حرَّىٰ، تتوسل بـ «سيد الشهداء»، أن يشفيه من علَّته ويعافيه من مرضه ويبرئه من سقمه، وقد نذَرَت أن تُلبِسه السواد أربعين يوماً في العام (من أول المحرَّم الحرام حتىٰ العشرين من صفَر)، كما نذرته لحمل "العلَمت" في كلِّ عاشوراء، ما دام حياً.

تقول أُمّه وتحكي: إنَّ الموكب لم يكن قد دَخَل أول أزقَّة "منطقة الحرم" من «الريِّ» بعد، ولم يمضِ على نذرِها دقائق معدودة، وإذا بـ «محسن» ينتفض بين يدي خالَته ويسقط على الأرض، كأنه أنفلت من عقال وأنفك من وِثاق، وراح يعدو حتى وَقَف مع المجاميع التي كانت تنحني لدورة "العلَمَت"، كلّما جاءهم أحَدُ ذراعيه أو طرفيه.

وتضيف أُمّه أنها ما أنتزعته ـ بعد ذلك ـ من أيدي الناس إلّا وقد عرَّته الجموع المهلِّلة المكبِّرة اللاهجة بالصلوات من أكثر ثيابه، مزَّقتها لتحظى بخرقة تتبرّك بها.

و"العلَمَت": أو "علامَت" نَصْبٌ معدني يتقدَّم بعض المواكب الحسينية في «إيران»، والأسم مستوحى من المعنى، فهو علامة على الموكب، يدل عليه ويعلن عن قدومه...

هيكل حديدي على نحو العارضة الطويلة التي قد يناهز طولها عشرة أمتار. يتوسطها ذراع عمودي يحملها، يُغْرَس كوَتَد ويركز قراره في حزام جلدي متين، يربط عاتق الحامل ويشدُّ وَسَطَه. وعلى جانبي هذه الذراع ـ الوتد، في العارضة الأصلية، مقابض تعين الرجل الذي يحمله على ضَبْطِ النصب والتحكُّم فيه، أو في أعلى الوتد، إذا لم تكن "العلامَت" بحجم كبير يقتضي ذلك.

تركَّب وتثبت على "العلامَت" ألسُن (شرائح) معدنية رقيقة بعض الشيء ومَرِنة، تكون على شكل أوراق شجر أو مزهريات مسطَّحة، تأتي بأحجام متفاوتة ومتناسبة مع حَجْم الهيكل نفسه، محفورٌ عليها أسماء الأئمة أو آيات قرآنية، هذا من الوَجْه، أما القفا فيتناوب ذكر: «يا محمد»، فيأتي على الثاني: «يا علي»، وهكذا. وتكون في رأسها أيقونات ومجسمات لأشكال أزهار ترمز إلى الجنة والشهادة، وأجسام آدمية ذات أجنحة تحكي الملائكة، تُثقلها، فتجعلها هزَّازة رقَّاصة، تترنَّح مع كلِّ

خطوَة وهرولة وحركة يقوم بها حاملها، وتنحني إلىٰ الأمام والخلف كأنها تسلِّم، ومن هنا يسميه بعضهم "علَم سلامي"، وتتدلىٰ منها سلاسل ترسل جَرْساً أشبه بالخشخَشة، يبدو مع نقْرِ الطبول وضرْب الصنوج في الصفوف الخلفية من الموكب كزَحْفِ الجيش وهدِير الجند. ويفصل بين اللسان من هـٰذه والآخر مصباحٌ زجاجي ملوَّن، كان في السابق بمنزلة سِراج يضيء الشوارع والطرُق المظلمة أو ضعيفة الإنارة.

تتبارىٰ الهيئات الحسينية في كِبَر حجم "العلَمَت"، ويتنافس الفتيان في القُدرة علىٰ حمله والدوران به، إذ يتجَاوز وَزنه ـ أحياناً ـ مئة كيلو غرام. بل يستعرضون قوَّتهم مستلهمين الفتوَّة والبطولة من ٱسم «أميرالمؤمنين»، فيندبون وينادون: "يا علي" ويأخذون في الدوران بهـٰذا الهيكل الثقيل حَوْل أنفسهم بسرعة شديدة وحركة تتطلَّب قوَّة وبأساً، بينما شباب الهيئة، وهـٰكذا عامة الحضور، يدخلُون في الحلقة ويحنون رؤوسهم كلَّما مرَّ عليهم ذراع "العلَمت"، ليتحقَّق أنهم دخلوا في بركته وحمايته، وأنضووا تحت عنوانه ورمزيَّته.

وهـٰذا الطقس من المظاهر التي ٱلَدَّ "المثقفون" في خصومته، وتعسَّفوا في محاربته، وصبُّوا جهدَهم وسعيهم لتقويضه وإنهائه، وقد ٱلتمسوا لذلك عدَّة وُجُوه وغير طريق، منها أنه يشبه الصليب، وحمله والخروج به علىٰ هـٰذا النحو تشَبُّهٌ بطقوس «النصارىٰ» وخروجهم في مواكب "الجمعة العظيمة" التي يرون أن «المسيح» صُلِبَ فيها وقتل... علىٰ الرغم من أن "العلَمَت" لا تحكي في هيكلها وشكلها الصليبَ أبداً، فالقائم العمودي (الذراع الحامل) أقصر وأقلُّ طولاً من العارضة الأُفقية التي تنصَب عليها الأشكال والأيقونات وتعلَّق بها السلاسل، علىٰ عكس الصليب، اللهم إلّا أن يُزعم ويُقال إنه صليب نائم وأنه محمول (لكِبَر حجمه) أُفقياً...

فيَرِد عندَها ما ينفي هذا الاحتمال أيضاً، إذ القائم العمودي هنا يلتقي في ذُروته وينتهي، فلا يمتد ولا يتجاوز العارضة الأُفقية، بل يقف عند حدودها حتىٰ يصنعان حرف « T » (تي) باللاتينية، علىٰ عكس الأمر في الصليب الذي يتقاطَع قُطراه...

لكن علىٰ الرغم من كلِّ ذلك فإنَّ القَوْمَ ناصبوه عدَاءً غريباً وجهدُوا في منعه بإصرار أكثر غرابة! ما جعل بعض المتمسِّكين بهذه الشعيرة والمتعصبين لها يذهب في الدفاع عنها والاحتجاج إلىٰ حدِّ القول: وأي ضَيْرٍ في هذا التشابه بيننا وبين المسيحيين؟ وقد أثنىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عليهم في بعض آياته، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال في رهبانهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾... إننا اليوم عيال علىٰ مدَنيَّتهم وحضارتهم، وننتفع من تطوُّرهم في تقنياتهم وطِبِّهم وهندستهم ومختلَف علومهم، ونحن نتشدَّق بديمقراطيتهم ونتخذها نموذجاً وقُدوة ونتطلَّع إليها غاية وأملاً، بل نحن نُجاريهم حتىٰ في ملابسهم ومعايشهم وأكثر شؤون الحياة، فلا ينكر المنكِر إلّا علىٰ هذه؟ إنَّ كثيراً من أنماط وصوَر العبادات في ديننا تتشابه مع طقوس بقية الأديان، بل إنَّ الحج وشعائره تتشابه مع طُقوس الوثنيين، فهل نتخلىٰ عنها في هذا السبيل وتحت هذا العنوان؟!

وبعيداً عن الصحيح والسقيم في هذا الردِّ والاستدلال، من المصادرة، والمغالطة والخطابة... فإن أُولئك "المثقفين" كانوا في عجْزٍ تام عن الردِّ علىٰ دفاع "الولائيين"، وفقْرٍ مُدْقع علىٰ صعيد المحاججة العلمية والاستدلال لِفكرتهم والانتصار لها، فكانوا يلجؤون إلىٰ أساليب العوام في التهويل والتشنيع، دون المنطق والدليل.

كان «محسن» مُلتزماً حمل "العلَمَت" في كلِّ عام، وكان لأُسرته دوْرٌ أساس في تزيين "العلَمَت" الخاص بالهيئة التي تخرج من حَيِّهم، وإمداد وإعانة الهيئات الأُخرىٰ في الأحياء المجاوِرة، حتىٰ تعاقد أبوه مع حدَّاد متخصِّص يزوِّده بالأيقونات والسلاسل والزينة اللازمة، وقد تكفَّل ما يقتضي الإصلاح والتجديد من "العلَمَت" في كلِّ عام، بل عمل علىٰ تكبير حجم الهيكل، حتىٰ غدَت "العلَمت" التي تتصدَّر هيئتهم، وكانت تسمىٰ "هيئة شباب القاسم" ذات أربعة عشر لِسَاناً ومثلها من المصابيح، كلّ سبعة في جانب، ما جعل وَزْنها يتجاوز المئتي كيلو غراماً، وطولها يناهز أثني عشر متراً... ما يقتضي أن تنهض مجاميع من الشباب علىٰ حمله مجتمعة والتناوب علىٰ مساعدة «محسن»، فيخلع ذلك علىٰ الموكب هيْبَة وعظَمة، ويكْسبه بريقاً يلفِت الأنظار ويستوقف الزوَّار في شوارع «الريِّ» والصَّحن الشريف لحرم «الشاه عبدالعظيم».

إذن فهي جذور "الرُجعية" التي لم يقتلعها «محسن» من أعماقه بعد!

نعم، حقَّ لصاحِب «محسن» أن يغمِزَ ويلمِزَ... فإشارته لا تخلو من وَجْه وصِحَّة، إذ ما زالَ «محسن» يُراجع نفسه في قراره ويُعاوِدها، في وَخْزٍ من أسَف، وحَزازة من ندَم، وتأنيب من ضمير. ما زالَ حزيناً كئيباً علىٰ فقدان هٰذا الدور والتخلِّي عن هٰذا الشرف.

لم تتوقَّف الهيئة ولا تعطَّل خروج "العلَمَت"، فقد نهَض غَيْر «محسن» من شباب الهيئة بالأمر، وقامُوا به علىٰ أحْسَن وَجْه، وما زالُوا يتعاهدُون الموكب ويقومُون علىٰ شؤونه، يحملون "العلَمَت" ويتقدَّمون بها ويحفُّون... حتىٰ بدَتْ مقاطعة «محسن» للهيئة، كإقلاع ذُبابة عن أثْلَة، بل بَعُوضة عن نخْلَة!

مضىٰ صاحِب «محسن» في مَلامته وٱعتراضه علىٰ توقُّفه في ٱتخاذ مقاعِد في الحسينية وتحفُّظه علىٰ ذلك...

: لماذا نبخَس معارفنا ولا نقدِّر علومنا حقَّ قَدْرِها؟

هل ما يُعرَض هنا أقلُّ شأناً وقيمة مما يبذل ويقدَّم هناك، في المسارح ودور السينما؟ فلا يَستحِق طلَّابه أن يرتاحوا في جِلْستهم حتىٰ يحسِنوا الإصغاء والفَهْم؟ هل الإباحية والخلاعة والمجون المبذول هناك، أفضَل من العلم وأعظَم من التنوير الديني وأخطَر من التوعية السياسية؟

: لا تهوِّل عليَّ بخطاب العوَام، فلَسنا هنا في مظاهرة ولا بصَدَدِ منشُور يستنهض الجماهير، إننا نتحاوَر، والمفترض أنه حِوارٌ علمي... إنَّ هٰذه المقارنة التي سُقْت، هي التي تفرض ٱفتراش الأرض!

إنَّ قدسيَّة القضية وشرف الموضوع وطهارته هي التي تحتِّم أن تبقىٰ ترابية، إنها عبادة، الحضور في الحسينية عبادة، والعِلْم والموعظة عبادة، كما الصوم والصلاة والحج، ولكلِّ عبادة شكْلٌ وصُورة وطَقْس، لا أزعم أن هيئة الجلوس في الحسينية هي هيئة خاصة وشكْل وَاحِدٌ محدَّد، كما الإحرام في الحجِّ، والأستقبال في الصلاة، والهوي علىٰ الأرض في السجود... ولكني أستشعِرُ قُدْسِية لا أُريد أن أفقِدْها، نحن ترابيُّون، أذلَّة لله سبحانه وتعالىٰ خاضعون، نظهر ذلك ونتباهىٰ به، فنُمرِّغ أُنوفنا ونعَفِّر جِباهَنا علىٰ الأرض. تصَوَّر لو سَرَىٰ الأمر إلىٰ المساجد والمُصَلَّيات فتحوَّلت إلىٰ مَقاعد كما الكنائس؟ من المنطَلق نفسه: ٱحتراماً للمصلين وتعظيماً للصلاة؟

كانَ «محسن» متأثراً بكُتُب عِرفانية في "أسرار الصلاة" وبعض فلسَفات وحِكَم ٱلتزامها، قرأها منذ أمد وترسَّخت مضامينها ورِسالتها في نفسه وٱستقرَّت في رُوحه، ما جعلَه يستشعر كُنهاً مكنُوناً فيها، أخذَ يعيشه بعد ذلك التزاماً في سلوكه ونهْجاً وثقافة في فِكْره، صيَّرته قريباً من الأرض... الأرض التي يُعَفِّر وَجْهَه لله سبحانه وتعالىٰ بها، ويستَعدّ لِرَقدَته النهائية في جَوْفها.

وبعد المقاعد، كانت للحسينية منصَّة ينتصِب خَلْفها المحاضِر، لا منبراً يعلُوه خطيب ويَرْقَاه راثٍ ومدَّاح!... راث؟ أي راثٍ؟ لقد أسقطوا الرثاء من سيرة عاشوراء وتخلَّوا عن البكاء، ما زادَ في آلام «محسن» وعمَّق توجُّساته وتحفُّظاته من هذا الخطِّ والمنهج الجديد المبتدع.

وعلىٰ الرغم من ذلك كلِّه، مضىٰ «محسن» في الحلَقات الحزبية والدرُوس التثقيفيَّة، واستمر يُشارِكُ في المحاضرات والحفلات الخطابية... دُونَ أن يتخلىٰ عن مُلاحظاته وتحفُّظاته، لكنه اضطرَّ في مَراحل لاحِقَة وأطوار تالِية أن يكتمها عن أصحابه ورِفَاق دَرْبه، الذين كان يجد منهم تعاطِياً صنَمِياً مع هذا الرمز وأفكاره، فيُسجِّل - بمرارة - مفارقة وتناقضاً في الذي جَاءَ يُحَطِّم الأصنام، فإذا به يصبحُ هو الصَّنم الأكبر الذي يَسجُد له الحزب ويخضَع!

كانت لـ «المعلِّم» "كاريزما" آسرة، وحُضُوراً مهيمِناً، خلَّف حبّاً وولاءً لشخْصِه، عظَّمه في القلوب ورفَعه في النفوس.

وإلىٰ جانب ذلك، كانت تحفُّه وتواكبه آلية حزبية وعُصْبة إعلامية تجيد الإشاعة وتحترف الفضح والتشهير، تتولىٰ التصدِّي لأي متوقِّف أو متحفِّظ، واكتساح أية بادِرة معارضة، فهذا - عندها - يتهدَّد رَمْزَ الثورة، وبالتالي الثورة نفسها، فيجب إزاحته وإقصاؤه بأية وَسيلة ممكنة، بصَرف النظر عن أخلاقيتها...

فتنهال علىٰ المعارِض الاتهامات وتطوِّقه الإشاعات التي تطَال سلوكه الشخصي وتُلاحِق أخَصَّ أُموره، حتىٰ لَيُطَعن في شرفه وعرضه، ويُنال من نزاهته وإخلاصه، فيُتَّهم بالعمالة والتعاون مع "السافاك"!

ومن غريب الصُدَف، أن الوثائق الرسمية للتقارير والمكاتبات الأمنية التي عُثِرَ عليها بعد انتصار الثورة، كشَفَت أن «المعلِّم» نفسه كان يتعاوَن مع النظام وجهاز "السافاك"!

وقد ٱلتمَسَ له مُرِيدُوه العذْرَ بأنه أُكـرِه علىٰ إمضـاء بعض الأوراق أثناء وُجُوده في المعتقل، كإجراءٍ روتيني يَخْضَع له كلُّ مَن يريد الخروج، فيوقِّع علىٰ "التعاون" وإلّا بقي رهين معتقله)! *

* وفي هٰذا الردّ كثير مُوارَبة، وكلّ المصادرة والقَفْز على الحقيقة. فالدَّفع يُوحي أنها مجرَّد وَثيقة وِتْر، هي تلك التي يمضيها المعتقَل كٱستمارة روتينية، مما وَقَع فيه أغلَب رُموز الثورة ورجالاتها، كانوا يوَقِّعون ليتحرَّرُوا من السجن ثم يتخلَّفون عن الٱلتزام.

خداعٌ قد ينطلي علىٰ أنصَار الثورة اليوم ويغـرِّر بهم، وقد ٱنقَطَع السندُ وشَحَّ الثقات، وغدَا الأمر تاريخاً يتطلَّب تثبُّتاً، وليسَ في هٰؤلاء ـ مع الأسف الشديد ـ مَن يتجشَّم عناء البحث والتحقيق! والحال أنَّ هناك مجموعة أُخرىٰ كبيرة من الوَثائق، ذكَرَ طائفة منها السيد «حميد روحاني زيارتي»، وهو الذي كلَّفه «الإمام الخميني»، لموضوعيته ووثاقته ونزاهته، بتدوين تاريخ الثورة، ذكَرَها ونشَرَها في المجلد الثالث من كتابه (نهضة الإمام الخميني) (والغريب أنه عُزِلَ عن هٰذا الدور بعد رحيل «الخميني» وأُوكِلَت المهمة إلىٰ أحد رموز المخابرات من "وزارة الاطِّلاعات"!).

وثائق تذهب إلـىٰ أكثر من تلك التهمة وذلك المطعن بكثير، وتحمل نتائج أخطَر ودلالات أعمَق، وتبِعات وآثاراً لا تستقيم بتَاتاً مع الموقع والمقام الذي صُنِعَ لـ «المعلِّم» اليوم، وقد أُعيد تحسين صُورته وترميم ما نالها في «العهد الخميني». (ولعل السيد «حميد روحاني» دفع ثمن جرأته ونشره تلك الوثائق!).

وبمطالَعة الصفحات من ١٤٥ إلىٰ ٢٦٣ في الجزء الثالث من الكتاب، وبالنظر في مُلحَق الوثائق الخاصة بموضوع «الدكتور علي شريعتي» الذي يشتمل على ١٢٢ صفحة كاملة! يظهر وينكشف بوُضوح أنَّ الرجل كان يعلَم بٱلتِقاء، بل بتناغم أُطروحته وٱنسجامها مع ما يريده "النظام الشاهنشاهي"، وذلك علىٰ مختلف الأصعِدَة، سواء في تغريب المجتمع بعنوان تمدُّنه وتنويره، أو في محاربة الشيوعية (الثورية) بعنوان كفْرها وإلحادِها، أو تشويه الأصالة الدينية عبْر وَسْمِها بالتخلُّف والرُجعية والنداء بالإصلاح والتغيير، وغير ذلك من العناوين... ما جعَلَه يلتقي مع "الثورة البيضاء" ويهلِّل لها ويُمَجِّد بها. وناهيك بما يسوقه خصُومه من أسباب الشك والريبة فيه، ما يدرجه في العمالة، وكيف أنَّ تعاطي النظام معه حتىٰ في ٱعتقاله الذي لم تتخلَّله صفعَة علىٰ وَجْهه، كان يهدف إلىٰ ترسيخه رمزاً وتطويبه وتكريسه زعيماً يَسْحَب البساط من القيادة الدينية للساحة... ناهيك بكل ذلك، فإن تأييده المعلَن لما يسمىٰ بـ "ثورة الشاه والأُمة الإيرانية"، كافٍ لإدانته والريبة في خطِّه ونهجه. ◄◄

و "الثورة البيضاء" حركة "إصلاحية" (في المفترض) عمَد إليها «الشاه» عام ١٩٦١ نتيجة للضغوط الأمريكية التي كانت تسجِّل تفاقم أزمة النظام وتنامي المعارضة، وتخشىٰ من ذيول ثورة ١٤ تموز (١٩٥٨) وخروج «العراق» من "حلف بغداد". فأقدَمَ في إطـار "قـانـون الإصلاح الـزراعي" علىٰ مصـادرة الأراضي من الإقطاعيين، وإجراءات أُخرىٰ شكليَّة وسطحِية، مع ضجَّة وجَلَبة إعلامية كبيرة، جُلّ ما فعلته أنها مكَّنت «الشاه» وتابعيه المتنفذين والعائلة الحاكمة وأعوانهم في البلاط، وهٰكذا جنرالات الجيش والمخابرات، مكَّنتهم من ملكية المشاريع الصناعية والزراعية، وٱحتكار رُخَص الاَستيراد والوكالات التجارية، والأستئثار بالتسهيلات المصرفية. كما كان لـ «الثورة البيضاء» عمقاً ثقافياً تمثل في شعارات "تحرير المرأة"، بعد القضاء علىٰ "الرُجَعِية" المتمثلة برجال الدين والإقطاع!

أسرف «علي شريعتي» وأغرَق في نُصرة هٰذه الحركة الاَستعراضية المفضُوحة، والمكيدة التي أرادَت أن تجهض الثورة الحقيقية حين رصَدَت ٱكتمال حملها ومخاضَ وِلادتها! أسرفَ حتىٰ عقَدَ مقارنة بين هٰذه الثورة الخاوِية الجوفاء، والعملية السياسية المخابراتية المدبَّرة، التي كان المثقفون الواعُون والمستنيرون الحقيقيون يَرَوْنها مهزلة، وبين سقوط الإقطاع في أوروبا أواخر القرون الوسطىٰ وطليعة عصر النهضة، وظهور البرجوازية التقدمية وعالم الصناعة ورأس المال، ما شكَّل أركان النهضة والتقدُّم والرُّقي! ثم ربَطَ بعد ذلك بين إزاحة الكنيسة وإلغاء الهيمنة الكاثوليكية، ودَوْر البروتستانتية في هٰذه النهضة، كلّ ذلك في إطار التصدِّي للرجعية الدينية والتعصُّب، وطرحها كعامل أساسٍ لتخلُّف المجتمع والبلاد.

حتىٰ صرَّح وَفقاً لما جاء في الوثيقة رقم (٥١):

"عندما نجد ثورة المجتمع الإيراني (الثورة البيضاء) تقضي ـ بضربة وَاحدة ـ علىٰ إقطَاع توغَّلَت جذوره لألفِ عام، وتفتح الطريق أمامَ تقدُّم الحياة وظهور برجوازية وَطنية خاصة، وتمضي في تحوُّل (إسقاط) الثقافة والأخلاق والفكر التقليدي للإقطاع. ومن جهة أُخرىٰ، عندما نجد «الشاهنشاه» في المؤتمر العشري لتمجيد تلك الثورة، وتحت عنوان عَرض صريح معتقده، يعلن بوضوح أن: [الإسلام هو دعامة ثورتنا، لٰكنه الإسلام الأوَّل، الإسلام الذي جاءَ به سيِّدنا محمد، لا ذاك الذي دسَّت فيه الرُجَعية وأضافت، لتتمكَّن من الاَتجار به!]... فقد بانَ لي وٱتضح كالشمس المشرقة، أنَّ برنامجي (رسالتي) وخطَّتي اليوم تلتقي وتتوافق ـ أكثر من أيِّ وَقتٍ مضىٰ ـ مع منطلقات "ثورة إيران البيضاء"، ما يجعلها (خطَّته ورِسالته) محلَّ ترحيبٍ ودَعْم المسؤولين، وهٰذا ما كان بالفعل"!

«المعلِّم» هو منظِّر الثوْرة وقائدها ومُلهِمها في شريحة الشباب الجامعي، ومستنهِض "الحركية الإسلامية" وباعثها فيهم، وحتىٰ المثقَّفين الذين يغلِب عليهم طابع "اليسار"، وتفُوح منهم روائح الشيوعية، ٱجتذبهم وٱستقطَبهم، دُون وَعْيٍ منهم - في الغالبية العظمىٰ - ولا غزير فَهْم وٱلتِفات.

أما في العمق وما وراء الظاهر المعلَن، أو لنَقُل: من زاوية أُخرىٰ، تنطلِق من الريبة، وتخضع لـ "نظرية المؤامرة"، وفي أحسن الأحوال: تقرأ الحدث بتأنٍّ وتؤثر التوقُّف والحيطة علىٰ الأندفاع الساذج...

مثَّل «المعلِّم» وأفكاره الثورية والإصلاحية، الأداة أو الخطَّة والمشروع الغربي (أو «البريطاني» علىٰ التحديد) في مواجهة "المدِّ الأحمر" في «إيران»، علىٰ غِرار الدوْر الذي قامَ به "حزب الدعوة" في «العراق»، الذي جاءَ بعد سقوط مشروع "حزب التحرير" وفشل "حركة الإخوان المسلمين" بسبب الخصوصيات المذهبية التي حالَت دون أن ينجَح حزب "سني" في ٱستيعاب وٱحتواء الحركة الإسلامية في مجتمع "شيعي"، فبُذِل البديل وكان "حزب الدعوة".

هٰكذا مثَّل «شريعتي» وحركته الخطَّة الغربية، بل رأس الحربة في الخطة التي أُريد لها من جهة: إجهاض التوجُّهات الشيوعية، ومحاربة نموها في الشباب وعموم قطاعات المجتمع الإيراني.

»

فإذا أحسَنَّا الظنَّ ووَجَدْنا محمل خير يمتطيه الرجل، ونفينا عنه تهمة العمالَة، والريبة في الخيانة، وأنه دُسَّ في صفوف الثوريين دَسّاً... يظهر أن القضية الوَحيدة التي كان «الدكتور شريعتي» يسعىٰ فيها ويدبِّر، والجبهة الوحيدة التي يقاتل فيها ويناضل، هي جبهة رجال الدين، لا «الشاه» ولا النظام الدكتاتوري، ولا الأستعمار ولا أيّ شيء آخر! ما كانَ الرجل يحسن إلّا هٰذه الصنعة ولا يجيد غيرها، ولا بضاعة له في سوق الثورة والحركة السياسية والجهاد، إلّا مناصبة المرجعية والأفكار الدينية الأصيلة. ■

وٱستهدفت من جهة أُخرىٰ، تقويض مباني الأصالة الإسلامية التي قد تفضي إلىٰ ثورات وحركات، أو تبلوَر وترسخ قيادات "مزعجة" تنبعث من المرجعيات الدينية التقليدية، كما في "ثورة التبغ" و"نهضة المشروطة" و"ثورة العشرين"، وإجهاض أية حركة أصيلة (أو أُصولية) مستقبلية تتهدَّد أو تنال من مصالح الأستعمار... ذلك عبْر منافسة غير متكافئة، يوظِّف فيها "التنويريُّون" آلية التنظيم العصري، وبريق خطَاب التطوير والعصرنة ونبذِ "الماضوية" وجمودها، ويلجأ إلىٰ أدوات "قذرة" يتحرَّج التيار التقليدي ويأنف "الأُصوليون" عن ممارستها.

لذا سُجِّلت علىٰ الرجل كثير من المواقف والآراء المتناقضة التي تؤكِّد الريبة في أمره، فهو مشروع هجين (متناقض في ذَاته) يريد ٱستقطاب اليساريين بعيداً عن «ماركس» و«لينين»، وفي الوقت نفسه يطمح إلىٰ أخذ الدينيين بعيداً عن المرجعية والحوزات! ولكلٍّ طائفة ما يغريها من شعارات ويجتذبها من أدوات.

كانت للرجل شعاراته الإسلامية البراقة ولافِتاته الجذَّابة، وكلمات الحق التي وَجَدَ لها قوالِب مغرِية لا تخلو من حُجَّة ومنطِق، صَبَّه في لغة خطابية بارعة عبَّأت الجماهير ودغدَغَت مشاعرها وألهبت حماستها... إنه المفكر العظيم صاحب شعار: "التشيع الأحمر لا الأسود، ومذهب الأستشهاد لا مذهب العزاء والحداد"! إنه القدوة والبطل الذي تصدَّىٰ للدكتاتور المستبد، لـ «الشاه الظالم»، لٰكن من خلال تصدِّيه لأعوانه وأنصَاره وأسباب بقائه وعِلل دوامه (هٰكذا!)، وقد جعل علىٰ رأس هٰذه وهٰؤلاء، وفي طليعتهم "وُعَّاظ السلاطين وعلماء البلاط".

بل إنه ٱنبرىٰ وتصدَّىٰ لجميع رجال (علماء) الدين، عمَلاء كانوا للنظام أم بعيدين عنه، في البلاط وفي خدمة السلطان عملوا أم ٱنصرفوا إلىٰ مساجدهم وحُسينياتهم وتكاياهُم... كلُّهم عند «المعلِّم» سواء!

فهٰؤلاء (رجال الدين) قاطِبة تلتَقي مصالحهم - حتماً - وَفقاً لأفكار «المعلِّم» وأُطروحته، مع نُظُم الحكم الجائرة، وذلك عبْر "التقِيَّة" وعناوين "حفظ النفس" و "دَرْء الأخطار عن الدين" وتجنيبه مواجهة خاسرة، أو مُكْلِفة، ما يُداري - في الحقيقة - خَوْفَهم وضراعَتَهم، ويبرِّر جبنهم وذلَّتهم وخنُوعَهم، أو أنه يَستُر خيانتهم للدين والشعب. إنها (التقيِّة) تلتقي مع عمَلاء السلطة والاستعمار من الإقطاعيين والرأسماليين، والأثرياء من تُجَّار السوق (البازار)، وذوِي الحظوة في السلطة، تلتقي مع الرُجَعِيِّين، ومع كلِّ مَن يحمل هاجِس الاستقرار ويستميت لِبقاء الحال، فيرفض الحركة ويعادي الثورة والقيام... تلتقي في مَوارد عَيْشِهم التي تتكفلَّها منظومة "الخُمس"!

فالتموين الأساسي للحوزات العلمية والمرجعيات الدينية، والرواتب (المعاشات) الشهرية أو الدورية لعموم رجال الدين، أو الهبات والعطَايا التي تتكفَّل معيشتهم، تنهض به هٰذه "المنظومة"، وجلُّها وعمدتها تؤمَّن وتَرِد من التجَّار ورجال الأعمال و "البازار"، ومن تلك الطبقة التي تأبىٰ الثورة والقيام وتتهالَك علىٰ الاستقرار، وتستَمِيت في حِفْظ الوَضْع القائم ودَوام الحال السائدة، حِفْظاً لمصالحها ومعايشها.

هٰكذا عرَضَ «المعلِّم» الأمر وصوَّره، والغريب أن عرضَه هٰذا كان يلقىٰ أُذناً صاغِية وتصديقاً وقبولاً من جموع المثقفين، علىٰ رَغْم مخالفته الوجدَان، والشهود علىٰ ضِدِّه بالحسِّ والعِيَان! فقد شهدوا جميعاً بُطلان هٰذا المدَّعىٰ وكذبه، أو التحامل والتعسُّف في تصويره وعرْضه والتنظير له. ففي المراحل التالية من مسيرة الثورة، ظهَر أداء التجَّار وانكشَف دَوْر "البازار" في دَعْم الجهاد والنضال ضِدَّ النظام عبْر الإضرابات وتعطيل الأسواق الذي شكَّل نقلَة نوعية في مسيرة الثورة، ذلك من خِلال تكفُّل رَوَاتب عمال النفط المضربين، وتمويل الحركة وتأمين مستلزماتها.

ناهيك بما يتضمَّنه هٰذا التحليل من "مادة" تتجاهل أصْلَ التعبُّد وتنفي الروحانية والجانب المعنوي في سلوك هٰذه الشريحة العريضة.

لٰكن الشبيبة ومَن كان يُشار إليهم بالمتنوِّرين والمثقفين، أقرُّوا الدكتور «المعلِّم» علىٰ نظريته ومَضوا معه في رُؤاه ونهجه الذي لم يستثنِ من العلماء صِنْفاً ولا من المراجع أحَداً، بل كان يستهدف القِطَاع بأسره ويريد الجبهة كلَّها، وكما عبَّر «الإمام الخميني» مرَّة، فالرجل كان يريد أن يصرِف الناس عن العلماء ويوجِّههم إلىٰ الكتب (ففي الكتب كفايتنا من الدين، كما كان يزْعُمُ وينادي)، فإذا فعَلُوا، ألقوا الكتب من أيديهم وتخلَّوا عنها، إذ سيكتشفون أنهم عاجزون عن النهل والأستفادة منها!...

أدانَ «المعلِّم» خنُوعَ رجال الدين وفضَحَ تواطُؤَهم، وفنَّد حُججهم الدينية وضرَب الشرعية، في عرضٍ مبتدَع لمفاهيم الإسلام أرتكزَ علىٰ التحليل الأجتماعي، وفَهْم مُبْتَكَرٍ لحركة التاريخ يقومُ علىٰ القراءة السياسية، يعيد تقييم الشخصيات المقدَّسة... ينطلِق في كلِّ ذلك من "الثوريَّة"، وحاصِراً الظلم ومُواجهته في صُورة وجَبهة واحدة هي السياسية. فإذا لم تلتَقِ الشخصية ـ كائنة مَن تكون ـ بعَرْضِه وفَهْمِه، أسقَط عنها القداسة وألحقها بالرُجَعية! وكانت النتيجة الأُولىٰ أنه أتىٰ علىٰ جملة من الأفكار والمفاهيم الدينية والمعتقدات الشيعية الأصيلة التي كان يَراها تصبُّ في ترسيخ هيمنة رجال الدين، وتعميق التخلُّف السياسي، وما يناهض التقدمية التي ينادي بها... فأسقطَها.

كان «المعلِّم» يقسم التشيع إلىٰ: "تشيُّع عَلَوِيٍّ" وآخر "صَفَوِي"...

فيُدْرج النهج الثائر علىٰ الظلم، المقاوِم للأستبداد والمقارع للدكتاتورية، المتحسِّس لآلام الفقراء الكادحين، المتحرِّر من الأشكال "المتخشِّبة" والطقُوس الجامدة للعبادات إلىٰ الجواهر والمكنُونات المتفجِّرة فيها... يدرجها في "التشيُّع العلوي".

بينما يُلْحِق طقُوس الشعائر الحسينية، من حِداد وعَزاء ولَطْم وبكاء وشتىٰ صوَر الجزَع والرثاء، وهكذا مَراسِم زيارة العتبات المقدَّسة، بل تشييد الأضرحة وتعظيم مَراقد الأئمة والأولياء والبناء عليها، وإظهارها في صُوَر البَذخ والثراء، وكأنها قُصور مُلوك ودُور مترفين وأُمراء... يُدْرِجها ويصنفها تشيُّعاً "صَفَوِيّاً".

كان يُلقي تبِعَة جميع مظاهِر التردِّي في الواقع الشيعي علىٰ الحوزات العلميَّة وعلماء الدين وعلىٰ رأسهم مراجع التقليد. فجَوْرُ الحكّام وٱستبدادهم، وفَقْر الشعب وفاقته وضياع خيراته، ونفوذ الٱستعمار في بلاد المسلمين، وتسلُّطه علىٰ مقدَّراتهم... كلُّها معلُولَة الغطاء الذي يؤمِّنه الفقهاء للخنوع والخضوع ومنع الثورة تحت عنوان "التقية".

إنه يُرجع كلَّ ما يراه ويصنِّفه تخلُّفاً في الفِكْر (والواقع) الشيعي لهيمَنة الفقهاء و"سَطْوَتهم"... والفكر عنده لا يقِف عند حُدود الرؤىٰ الحركية والنظريات التي تعالج المفاهيم العامة، كالٱستقلال والحرية والعدَالة الٱجتماعية والمساواة وما إلىٰ ذلك، بل يمتد إلىٰ الفقه بمعناه الأخص، ثم العقائد، فيتناول أدقَّ شؤونها ويتدخل في جميع تفاصيلها.

كان يريد "تحرير" المفاهيم الدينية من "قيود" الحوزات والمرجعيات التقليدية، والٱنطلاق بها إلىٰ رِحَاب تسمح بتداولها وتناولها علىٰ يديه، أو يدَيْ غيره من المفكِّرين، بل عامة المثقفين، وإن كانوا غير متخصِّصِين، دون الحاجة إلىٰ معالجات الحوزويين المعقَّدة، الأشبه بمتاهَات لا تفضي إلّا إلىٰ ترسيخ مَواقعهم وتأكيد حاجة الناس إليهم.

كان سُوء ظنِّه برِجال (علماء) الدين في الغاية وريبته وتوجُّسه منهم في النهاية، كان يزدَرِيهم ويتحامل عليهم، حتىٰ في أشكالهم وملابِسهم وطرَيقة عيْشِهم، ناهيك بتفكيرهم وفهْمِهم للدين والدنيا، كان يراهم "طبقة" ٱحتكارية كما "الإكليروس" الكَنسي.

بل إنه تخطىٰ في هٰذا وتعدَّىٰ حتىٰ مَسَّ بِعصمَة وقُدْسِ بعض أئمة «أهل البيت» أنفسهم، ممن رآه وصَنَّفه: هادَن الحاكم وصالَح الظالم، ولم يثُر ويناضل، ولا جاهَدَ ولا قاوَم! كان، في الحقيقة والواقع والعمق البعيد، وكاستراتيجية، ينادي بـ "لوثرية" إسلامية، "تحرِّر" فهم القرآن وتكسر "احتكار" تفسيره، ويطمح لـ "بروتستانتية" شيعية، تسقط "النصوص" المأثورة، وترفع التحليل العقلي والقراءة الاجتماعية والسياسية للأحداث والوقائع التي يعيشها المسلِمُون، لِيَكُون هو شريعتهم ومنطَلَق حركتهم.

لم يكن «محسن» مجرَّد شاب ثوريٍّ متحمِّس، ولا كان أبِيّاً يتفجَّر غيرةً علىٰ دينه ووَطَنه فحَسْب، بل كان مثقَّفاً وَاعِياً، وقارئاً جيداً، ومتابعاً حصيفاً، ثم كان متمسِّكاً بروحانيته وشفافيته، ومُصِراً علىٰ الجوهر الروحاني للدين، وأنَّ كونه منهَجاً سِياسِيّاً ومَدرَسة للحياة وطريقة للعمل، لا يلغي مَوْقعَه كقناة للاتصال بالله، وطريقاً للحياة الآخرة... كان يُسجِّل علىٰ «المعلِّم» زلّات عِلمِية ومفارقات فِكرِية، تدخله في الشطَحَات، بل التخرُّصات.

فقد بدا بعيداً كل البعد عن «مارتن لوثر» ونهجه الجدِّي، والعمق الذي عالج فيه منطلَقاته، كان في وادٍ آخر، غير الذي سلَك فيه ذاك القِسُّ المتبحِّر والعالم المتخصِّص، إذ ما نبَذَ "الإكليروس" وتخطىٰ «البابا» وأسَّس لمذهبه الجديد إلّا بعد أن وَجَدَ في الأصول المسيحية المعتَمَدَة والمُقرَّة مُستمسَكاً يبيح له ذلك، وهو الذي ترجَمَ الإنجيل ونشَرَه وبذَلَه للعامة، فكَسَرَ احتكاره وتجاوَز الحَجْر والحظْر الذي كانت تمارسه كنيسة القرون الوسطىٰ، وراحَ في التنظير والاستنباط والتأسيس العلمي ما أعجَزَ الكنيسة ورِجالاتها، فدَحَرَها في أجزاء كثيرة من أُوروبا، وانتقَل ليكُون دين "العالم الجديد" في نصفه الشمالي...

بينما صاحِبُنا، الدكتور «المعلِّم»، دخَلَ الساحة كمُجادِل ومُساجِل، لا كعالِم أو فيلسُوف أو متكلِّم، لم يكن متمكِّناً من تفاصيل الفلسفة الإسلامية أو عِلم الكلام، ناهيك بالتفسير والفقه والأُصول والدراية والرجال، وما إليها من أدوات ومُستلزَمات التنظير الديني، لِذَا كان ينتَقي الشخصيات التاريخية التي يَسهُل عليه التعاطي مع سيرتها، ويمكنه توظِيفها لمشروعه، فاجتذَبه الصحابي الجليل «أبوذر الغفاري»، دون «ابن سينا» و«الفارابي»، كان يَعُدُّ الفلسفة والعِلم أشكالاً من "الوعي" ، بينما عرَض الدين مُسَاوياً لـ "الوَعي الذاتي" ، ولم يُعْنَ بقوَاعد ومَباحِث الفقه أو يُبالِ بالفلسفة وعلْم الكلام.

يَغوُص في الخطابة ويوظِّف الإعلام وسِحْر البيان، حتىٰ بدَتْ أفكَاره وتَعاليمه، ونداءاته وإرشَاداته، إلىٰ المغالطة والتهييج الإعلامي والمماحَكة واللِّجاج والمُسَاجَلة والعِناد، بل التهرِيج ـ أحياناً ـ أقرب منها إلىٰ الأُطروحة العِلمية والنظرية المستدلَّة.

والحق أنَّ تحفظات «محسن» علىٰ أفكَار «المعلِّم» لم تكن وَاضِحة ولا كانت متبَلْورة، قبل أن يُخضِعْها للبحث والدراسة والتحقيق، وتقُوده إلىٰ نتائج محدَّدة تُبْطِل المنهج وتنقضه، وتبلغ في ذلك ما يَدْحَضه ويفنِّده، بعد تسجيل المؤاخذات وتحديد السقَطَات، بما يهوي بالفكر كلِّه ويقوِّض المشروع من أساسه... بل كان ينطلق من حالَة نفسيَّة ونوازع رُوحِيَّة أو قُل مِزَاجِية ذَوْقية أحياناً (فكأنه يَردُّ علىٰ الرجل بضاعته!)، فيزدَري شَكْله وطريقته في عَرْض أفكَاره وإلقائه خُطَبه، مثلما كان «المعلِّم» ينالُ من رجال الدين في أشكالهم وأزيائهم وطريقة حديثهم!

وعلىٰ الرَّغْم من أن خَطَابة «المعلِّم» كانَت مزيَّته الأُولىٰ وميدانه الذي يحسن فيه الصَّوْلة ويجيد الجوْلة، وتكَاد تكون بضاعته وفضيلته الوَحيدة، إذ انفرَد بطريقة رائعة في البيان والإلقاء، مكَّنته من أعِنَّة

القلوب، فما يخطب حتىٰ تسكن لحديثه الجوارح، وتخفق الأفئدة، وتطير النفوس رِقَّة وطَرَباً، أو حماسة وغضَباً، كما شاء وأينما وَجَّهها! وهي السرُّ الذي ٱستقطَب الأكثرية الثورية وجَذَبها إليه، ومنطَلَقه في الهيمنة عليها، وإن جلَّلوا ذلك الأنقياد وبـرَّرُوا لتلك التبعية بدِثـار الفِكـر، وبمزايا خلعُوهـا علىٰ «المعلِّم»، تجلُّه وتعظِّمه وترفَع شأنه فيكون أهلاً للمقام الذي تسنَّمه... إلّا أن «محسناً» كان يتحسَّس من خطابته ويَراها ضرباً من لُغة العوام، وإسفافاً يدغْدغ عَواطِفهم، وبضاعَة مُزجاة في سوق ذكائه، وخِداعاً يأباه لِوَعيه... كان ينظر ما وَراءها ويرقب عمقها ويتحرَّىٰ كُنهها، فلا يعُود بشيء يُذْكَر. نعم، هنـاكَ مَوْضوعٌ خـطِير، علـىٰ صعِيد مادَّة البحث والقضية التي يتحسَّسها ويلامِسها، فهو ـ دائماً ـ في الصَّمِيم، يتجاوَز فضَلَات القضايا ونوافل الهموم إلىٰ الأعماق الخطيرة والمشكلات الأصلِيَّة، وهناك طَرْحٌ معقُول، ومعالجاتٌ "منطِقيَّة"، وثقافة غزِيرة، وٱستشهادات وإشـارات... ولٰكن دون أدلَّة عِلْمِية "حقيقية"، ودون منهج وقانون وقاعدة مطَّرِدة يمكنك محاكمة أفكاره عليها وملاحقته في بقيَّة المواضع وَفْقَها، فالدين عنده "وَعْيٌ ذاتيٌّ"، و "وجدانيات"، يخوض فيها مَن يشاء بـ "مرونة" ومطَّاطية تسمح بأيِّ دَسٍّ ونَحْل.

وكان يزْداد حَنَقاً وهو يسمعه يُعرِّض بـ «غار دموستنس»، وينال من الخطيب الإغريقي الذي أراد منافسة "السوفسطائيين" والتغلُّب عليهم، فذهَبَ لتعَلُّم الخطابة، وراحَ في ذلك وأغرَق حتىٰ ٱحتفَرَ لنفسه نفَقَاً أو غاراً أشبه بقالَب حَجَرِيٍّ صنَع فيه فضاءً يحدِّد نِطَاقَ حركة رأسه ومجال تلوِيح يديه، أنبَتَ فيه المسامير وثبَّت المُدىٰ وغرَس العِصيَّ المدبَّبة الجارِحة، التي تروِّض حركته أثناء الإلقاء، فلا يتجاوز أُصول فنِّ التأثير علىٰ السامع والمشاهد بحركة ٱنفعالية طائشة، أو تمادٍ في الإيحاء الحركيِّ اللازم والمقارِن لِنَبْرة الصوت ومَوْضِع الكلام وهدَف البيان...

كان «المعلِّم» يَزدَري «غار دموستنس» فيما هو - في وَاقع الأمر - يحاكيه ويمضي على طريقته! كان يُدينه، وهو في الوقت نفسه يفعل فِعلَه ويَدين بدِينه ويمضي على هَدْيِه، فيلهب القلوب بأداء خطابي مدرُوس. نعم، إنَّ حركات «المعلِّم» خلَف منصَّة الإلقاء كلُّها معدَّة مُسبقاً، و "انفعالاته" مرسومة مُعَدَّة منتقاة... تمثيل وأداء مسرحي محكم!

من هٰذا وذاك، كان «محسن» في طليعة المنقلِبين على «المعلِّم» مع بروز نجم «الخميني»، ومن أوائل المبادرين إلى الانخراط في تياره الشعبي العريض، فقد وَجَدَ فيه ضالَّته وسلْوته، التي تجمع الثورية بالدين، ويلتقي فيها النضال بالروحانية، والحركية السياسية بالفقه والشريعة، والحياة بالآخرة والمعاد... وَجَدَ كلَّ مَطاعِن «المعلِّم» ومآخذه على رجال (علماء) الدين تتهاوى أمام هٰذه الشخصية الفريدة، ورأى جميع الإشكالات التي انطلَق منها في اجتذاب الشبيبة إليه وصَرْف جموع المثقفين وطلَّاب الجامعات عن "الروحانيين"، تتساقط أمام أداءٍ ثوري متميِّزٍ، لا يعتريه ضَعْفٌ أو عَجْز ولا يشُوبه تلكُّؤ، ناهيك بتراجع ومهادنة. إنه يفيض عزْماً ومضاءً وصَلابة، كما لا تعوزه دِراية سياسية وحكمة، فقد لمس «محسن» ورأى، ووافَقَه في ذلك بعض أفراد التنظيم، وَعَياً وبصيرة في قيادة المعركة، وحُنكَة أدهشت الغربيين وأذهلَتهُم، فأربكتهم، وأخرَجَتْهُم من خِطَطهم إلى الفوضى والتخبُّط، فما عادُوا يدرُون كيف يصنعون، وماذا عساهم يفعَلُون... وَجَدَ في «الخميني» كلَّ ذلك، دون أن تمسَّ هٰذه المزايا والخصال بشيء من معتقدات «محسن» الراسخة، ومقدَّساته، أو خصوصِيَّاته التي يريد الاحتفاظ بها... لم يكن في نهج «الخميني» وحركيته، وما صَار يُعرف بـ "خطِّ الإمام" ما يطالبه بالتخلي عن طقوسه وشعائره الموروثة، فيضطر أن يَحْنَث بأيمانه ويخلف نذوره ولا يوفي بما التزمه وجعلَه على نفْسِه نحْباً.

والحق أنَّ هـٰذا الحب والإعجاب وما أعقبه من وَلاء لـ «الخميني»، مقابل تلك السلبية والنفرة، وما أخذَ يلوُح من بوادر عدَاءٍ لـ «شريعتي»، كانت حالة عاطفية قلبية (هي الأُخرىٰ أيضاً)، قبل أن تكون أو تصبح عقلية علميَّة، وتصير فِكْرِية شرعية... لقد هَوىٰ الرجل وأحبَّه، من طلعَته وشكْله، أو من صُورته وصَوْته، أو من أشياء وأسباب أُخرىٰ، وَقَعَ حبُّه في قلبه وٱنطبَع عشقه في فؤاده، فتعلَّق به وهَواه ووالاه.

وكان يعاني ـ لذلك ـ من طعُون رِفاقه ومؤاخذاتهم، وكيف أنه جارىٰ العوام وٱنحدَر إلىٰ مستوياتهم في ٱتباع «الخميني» والتعلُّق به... فالرجل يبقىٰ رغم كلِّ ما يطلقه من ثورة ونضال، وينادي به من تحرُّر وٱستقلال: رجل دين تقليدي، رُجوعي، سليل الحوزة العلمِية، يؤمن بالغيب، ويبني حياته في القرن العشرين، ويريد أن يبني حياتنا كمُجتَمع وكأفراد، حتىٰ في أخصِّ خصوصياتنا، علىٰ أُسس وأحكَام ونصُوص وسيرة مُستوحاة من القرن الخامس أو السادس!

فيردُّ «محسن»:

مَن منكُم يزعَم أنه ٱنطلَق من حِيادٍ مُطْلَق وموضوعية تامة في تكوين رؤاه وٱتخاذ قراراته ورَسْم مَواقفه، فدَرَس المبذول وٱستقصىٰ البعيد ونقَّب عن الخفيِّ، وفحَص وحقق وٱستجلىٰ حتىٰ ٱنتهىٰ إلىٰ ما هو عليه؟

مَن منكم أخضَع معتقداته لبَحث مُقارَن، فنظر في آراء مخالفيه كما يطرحها المخالفون، لا كما يعْرِضها ويحكي عنها ويقيِّمها حِزبه، أو كما ٱستقاها وتلقَّاها من فريقه وجماعته؟ مَن منكم قَرَأ شيئاً خارج نشراتنا الحزبية؟ أو نظَرَ في غير الكُتب التي تُوَجَّهُ نحوها وتحثُّ علىٰ ٱقتنائها ومطالعتها تلكُم النشرات؟ مَن منكم يستَطِيع أن يصدق نفسه فيُلْغي دَوْر العاطِفة والهوىٰ من أفكَارِه، بل من أُسس متبنياته ومنطَلَقات دينه ومَذهبه، وخَطِّه الفكري ومدرسته السياسيَّة؟

إنكم تخضعُون لِعقل جمعي يُسيِّركم...

قد تصيبون الحقَّ أحياناً وتقعُون عليه، ولكن هذا لا يبرئكم من الجهل ويعفيكم من الغَباء، ولا يخلَع عليكم الوَعْي ويلبِسكم الذكاء، فقد أطلق «أميرالمؤمنين» على الذين جاؤوا لبيعته خليفة رابعاً بعد «عثمان بن عفان»، ووَسَمَهم بـ "ربيضة الغنم"!

فما راعني إلّا والناسُ كَعُرْفِ الضَّبُع إليَّ، ينثالُونَ
عليَّ من كلِّ جانب، حتى لقد وُطِئَ الحَسَنَانِ،
وشُقَّ عِطْفَاي، مجتمِعين حَوْلي كربيضة الغَنَم.

تنسِبُون أنفسَكُم إلى العِلْم والثقافة، وتزعمون الوَعْيَ والبصيرة، وأنتم تبارون العوَام في الانقياد الأعمى و "الإمَّعية"، وتنصاعون لِقيادات سياسية حِزبية لا تعرفون عنها شيئاً، وأحياناً لا تعرفون أشخاصها، بحُجَج السرية ودواعي الضرورات الأمنية!...

إنكم تتبِعُون شخْصاً ومفكِّراً لا يحظى بأدنى تزكية... لا نعرف من أين جاءَ ولا ندري ماذا يُريد؟ كيف كَسَب علومه وأين؟ على يَدِ مَن درَسَ وتعلَّم؟ بمَن اتصَلَ أثناء وُجوده في الغَرْب وبمَن ارتبط؟

ألسْنا نحَلِّل الأحداث ونقرأ الشخصيَّات، فنصنِّفها في الزيف والباطل أو في الحقِّ والأصالَة، ونُدْرِجها في قوائم الخداع والكذب أو في لَوائح الشرف والصِّدق والحقيقة، وننطلِق في ذلك ونقول بمؤامرة عظمى وننادي بوُجود أيدٍ خَفِيَّة، «ماسونية» تارة و«صهيونية» أُخرى و "مخابراتية" تتبع الدول العظمى ثالثة، تقِف وَراء رجالات الدولة وأركان النظام، بدْءاً من «الشاه» نفسه، ونزُولاً إلى كِبار الجنرالات، والتجَّار ذَوِي الزلفى، وكلّ مَن يحظى بِفُرَص البروز الإعلامي والتغطِيات الصحفيَّة التي تؤمنها الإذاعة والتلفزيون ومحافل النُخَب، من تكنوقراط، أطباء ومهندسين وحرفيين، إلى أُدباء وشعراء وفنانين ورياضيين؟

حتى شمَلنا الوُجَهاء والشخصيات والفعاليات الاجتماعية، وأدخَلْنا أنشطتهم العامة، بما فيها الإنسانية والخيرية في هذه المقولة، بل ألحَقنا جميع السياسيين بما في ذلك أعضاء الجبهة القومية والوَطنية (المعارضة)، بهذا الحكم وأدرَجناهم في هذا المصاف؟... "لا يطفَحُ على السطح إلّا الفاسد"، و"لا تكبر إلّا القمامة"، و"لا تفرِزُ منظومة الباطل إلّا باطلاً من جِنسها"، أليست هذه مقولاتنا التي تحرِّر وتقرِّر فلسفتنا الحركيَّة؟

وهكذا الأحداث، مهما احتدَمَت واضطرمَتْ، وتفاعلَت مع أهدافنا واتسَقَت مع مقولاتنا وشعاراتنا... فلا تغرَّنا مَوْجة مُعارضة، ولا تغرينا جبهة معركة تفتعلها تلك الأيدي الخفية لتمْتصَّ غضبَ الجماهير وزَخْم الثورة وتنفِّس عن مِرجَلها المضطرم؟ لا نثِق ولا نصدِّق إلّا رافضاً لجميع هؤلاء رفضاً مُطلَقاً، لا نكتفي بدخوله في المعارضة وتمرُّده على النظام، بل نريده متمرِّداً على المجتمع بقِيَمِه المستورَدَة وسلوكياته المنحرِفة ورموزه الفاسِدة وشخصيَّته الممسُوخة؟... أليْسَ هذا مرتكَزاً ننطَلِق منه في فَهْم الساحة وقراءة أحْدَاثها، أليست هذه ثقافة نشَأْنا عليها ومَضَينا على هَدْيِها؟ حتى غدَا رَسْم "لا" شعاراً لنا نطْبَعه ورَمْزاً نرسمه على الجدران، فنبلغ رسالتنا بجميع مضامينها؟ (وقد دخل الرمز "لا" في تصميم شعار "حرس الثورة" بعد الانتصار وقيام "الجمهورية الإسلامية"، فيسند أحد ضِلْعَيه ذراعاً ينتهي بقبْضَة تحمل بندقية، ويشكِّل مع الآخر رَحْلاً يستقرُّ عليه المصحف الشريف، يحاذيه غصْنُ زيتون).

وحقَّ لنا ذلك، وأنا ما زِلْتُ على هذه الفكرة، مؤمناً ومنادِياً بها...

لقد كُنَّا نقُول وننادي بهذه الفكرة كمُسَلَّمة من أدبياتنا، جَعَلْناها مادة التثقيف والتنوير الأُولى التي نبثُّها لِكَوادرنا وللعامة، لِنُرسِّخْها في القلُوب ونمكِّنها من الضمائر، فتَنْعَدِم الثقة بين الناس والنظام، ويقَع الانفصَال الذي يَسْمَح، بل يرحِّب، بالطَّلاق النهائي ساعة يحين حينه...

كُنَّا ننادي بكلِّ هـٰذا، ونغفَل أننا نمارس ضِدَّه ونعيش خِلافه... ذلك ونحْنُ نتبع نكِرَة مجهولاً!

بالله، مَن مِنَّا يعرف «المعلِّم»؟

ما يُـدْرِينـا أن لا تكـون تلك الأيدي المشبوهة الموبُوءة، هي التي صنَعَت هـٰذا الرَّمْز الذي ننقَاد له ونتَّخذه زعيماً مُلْهماً؟

ماذا فعَل هـٰذا الرجل غيْر الهذر واللغو؟

ماذا بذَل في سبيل الثورة؟

ماذا قدَّم وبِمَ ضحَّى؟...

إنني أفـهم كيف تحوَّل «بادر» و«ماينهـوف» إلىٰ رمـزَيْن للثورِيين في العالم قاطبة، فقد أسَّسا "الجيش الأحمر" الذي ضرَبَ النظام الرأسمالي العالمي في كلِّ مكان وأحْرَجَـه حتىٰ دَفَعه للتَّخلِّي عن وَاجهاته الليبرالية، وٱضطـرَّه للكشف عن وَجْهِه الفـاشي القَمْعِي، لتُصْبِـح المعركة ضدَّه وَاضِحَة وجَـذْرِيـة. ولم يكـتَفُـوا حتـىٰ ألحَقُـوا قَـوْلهم بـالفعل، فقـام "الجيش" بتصفية العديد من السياسيين وتنفيذ الهجمات علىٰ القـواعد الأمريكية ونسف المؤسسات الرأسمالية والسَّطْو علىٰ المصارف، وهو الذي خطَفَ العامَ الماضي رئيس ٱتحاد الصناعيين الألمان «هانز مارتن شلاير» وأعْدَمه عندما رَفَضَت السلطات الألمانية مَطَالِبه ولم تنزِل علىٰ شُروطه. وَقَفا ضدَّ الإمبريالية، ومَضَيا في طريق النِّضال بمختَلَف أشكاله، حتىٰ أُعدما أو قضيا في السجن تحت التعذيب وزعَمَت السلطات أنهما ٱنتحَرا.

إنني أختلِف معهما فِكْـراً ودينـاً، وحتىٰ سلُـوكاً ونهجاً ثَـوْرِياً، فأنا لَسْـتُ علىٰ ٱستعـداد لتَمْوِيل الحركة بنَهْب البنُـوك، أو تحقيق غاياتها وتلبية مطالبها بٱرتهان الأبرياء وإعدَامِهم! ولكنني أعـذر مَن تأسره التـضحِية، ويُعجَب بالبطولة والفدائية، ويعظِّم النضـال، فيتَّخِذ من «بادر» و«ماينهوف» رَمزَيْن، ويجعلهما مثالاً وقدْوَة.

وأفهَم كيفَ تحـوَّل «تـشي غـيفـارا» إلـى رمـز... فسَلِيل الأُسرة البرجوازية، هـٰذا المترف المنعَّم الذي تخلى عن الأمان والاستقرار، وفرَّط في الرَّفاه والمستقبل الموعود، وفي الراحَة والسَّعَة المبذولة، إلى العَيْش في الجبال والأدْغَال وسكنى الغِيران، واَمتِهان المطاردة وحَرْب العصابات، مثلما عَزَف عن عيادته وترك أدَوات الطِّبِّ ليمتشِق البندقيَّة ويتمنطَق بأحزِمة الذخيرة والقنابل اليدوية، حتى إذا بَلَغ النصر ونالَ الظَّفَر وأقام الدولة التي طالما حَلَمَ بها، وحقَّقها في «كوبا»... عادَ لِيَهجر السلطة ويترك الـوزارة ويتخلى عن الراحَة والدَعَـة! وراح إلى جبهـة أُخرى وميليشيا جديدة، يناضل فيها ليحقِّق أُمميته وثوريته.

وبصَرْف النظر عن النظرة إليه التي تختلف باَختلاف الناظرين، بين مَن يَعدُّه: مغامِراً رومنطيقياً، أو قاطع طرِيق، ومُقاتلاً بطولياً يتفجَّر بأساً وضَراوة، وآخر يَراه: مَسِيحاً حالماً يفيض شفقَة ورحمة... فأنا أفهم ـ ويفهم غيري ـ كيف يتحوَّل مثل هـٰذا الرجل إلى رمْزٍ، بل أُسطورة.

ولكني لا أفهَمُ تعظيمكُم واَنقيادكُم لـ "دكتورنا" نحن!

ماذا قدَّم للثورة وبِمَ ضحَّى؟

هل شـاهد أحـدٌ «المعلِّم» في مواجَهَة مع قوات الأمـن؟ أو حتى في مظاهَرة سلميَّة، غير تلك التي خرَجَت في «باريس» اَحتجاجاً على مصرع «لومبونا» فاَعتقلته السلطات الفرنسية ثلاثة أيام!؟

هل سمعتم بتعذيبه إبان فترة حَبْسِه القصيرة؟

هل باشَرَ الرجُل عمَلاً ثورياً حقيقياً طِيلَة حياته؟ اللهم إلّا الهذْر والخرط الذي ما زال يجرُّ المعركة إلى جبهتنا الداخلية ويشغلنا بمحارَبة الحوزات العلمية ورجال الدين بعيداً عن «الشاه» والنظام وظُلْمِه واَستبداده؟ وبـ "تنزيه" التشيُّع و"تنقِيته"، بعد أن صوَّره، كما فعَلَ «الوهابيون»، ملَوَّثاً بالبدَع ومختَرَقاً بالخرافات والأساطير؟!

ومن عجَبٍ أنَّ رِفاقَ «محسن» أغفلُوا اٌستدلالاته وتوقَّفُوا عند أمثلَته وشوَاهِدِه، التي صادَف أن جاءَت لبُرجوازيين صاروا ثَوريين!

فقد عُرفت منظمَّة "بادر ـ ماينهوف" في أوْسَاط حركات التحرُّر واٌشتهرت من بينها بأن غالبيَّة أعضائها وقادتها هم من المثقفين البُرجوازيين الشباب الذين يئسُوا من التنظير، ووَجَدُوا في الممارسة الثورية العنيفة تحقيقاً لِذَواتهم، فـ «بادر» لم يكن قد بلَغَ ساعة اٌنتحاره (أو نحْرِه!) في السجن سوىٰ الرابعة والثلاثين من عمره، وقد نشأ في أُسرة جدَّته البُرجوازية بعد مَقَتل أبيه في الحرب العالمية الثانية، أما «ماينهوف» فهي من أُسرة مثقَّفة، بدأت حياتها كصحَفيَّة وكاتبة ناجِحَة، وكذلك «غوردون إنسلين»، فهي اٌبنة رجل دين بروتستانتي عاشَت حتىٰ سن الثانية والعشرين حياة بُرجوازية مثاليَّة قبل أن تجتذبها الثورة أوائل الستينيات. وهٰكذا كان «غيفارا»!...

فلماذا جاء «محسن» علىٰ ذِكْر هٰذه المنظمة دون سواها؟ ولم يذكر "الجيش الأحمر الياباني" أو الـ "I.R.A" أو "الفهود السود"؟ لماذا «تشي غيفارا» وليس «فيديل كاسترو»، ولا «سيمون بوليفار» نفسه؟

فكأن «محسناً» مسكُونٌ بهٰذا الهاجِس، ومصابٌ، يعاني من تلك العُقْدَة التي يَسِمُهُ بها رفاقه! الذين لحظُوا ـ بدَوْرِهم ـ ذلك، واٌنصرفوا إلىٰ هٰذه الملحوظة، مستغرقين في الشَّكْل دُون المضمون، فلم يتأثروا بشيء من قَوْله ومَنْطِقه، ولم يتوقَّفُوا إلّا عند نَوازع وتأثيرات النشأة الثرية والعائلة الميسورة التي ترعْرَع «محسن» في كنفها، وما إلىٰ ذلك من عوامل وأسباب قادَتْ تفكيره وهيمنَت علىٰ عقلِه وصاغَت ذهنيَّته، ما جعلَه يشطُّ ويشطَح ويزل ويجنَح، فيتمرَّد علىٰ الحركة ويَعْصِي التنظيم، ويبلغ به الأمر أن ينالَ من الدكتور «المعلِّم» نفسه، بصورة ودرجة تكشف عن حِقْدٍ وكُره يضمره!

لـكن الحق أن «محسناً» لم يكن برجُوازياً ولا إقطاعياً ولا رأسمالياً، ولا شيئاً من هـذه التقسيمات التي تقـوم على أضطهاد الـطبقـة العـاملة وأستغلالها، وما ينشأ عن ذلك ويحكم العلاقة بينهما من تَـوتر وتـوجُّس وتحفُّز وصِراع، لم يكن كذلك في وَاقعه ولا في تفكيره...

كان ـ ببساطة ـ أسيراً للنُبْل والقِيَم السامية، للكَرَم والصِّدق والشرف والنزاهـة، فماذا يصنع إذا لم تبرز وتظهر ولم تكُن إلّا من هـؤلاء الذين ذكَرَ وأستحضر؟! وإن صدَق ظنُّ رِفاقه، وكـان "طبقيّاً" شيئاً ما، أو وَاقِعاً تحت تأثير الطبقية في تفكيره وذهنيته، فإنَّ ذلك كان منـه في اللاشعور، من حيث لا يقصد ولا يدرِي، فـكثيراً ما كـانت لفظة "آقا زاده" (من العِلْية) و"الأشراف" و"البيوتات"، تجري على لسانه في معرض مَدْحِه وثنائه على الأشخاص إذا أرادَ إكبارهـم... ولـكنـه في وَاقع الأمر، بعيداً عن تـوظيف هـذا التعبير، لم يكُن يرتكز في النظرة إلى الناس وينطلِق في تقـييمه للشخصيـات، من الأنسال والسلالات والتقسيمات الطبقية "الطاغوتيـة" التي تزدَري الفقراء وتحتقـر المستضعفين وتتعالى على الأدنى منهـا أجتماعياً، بل كـان مَلاكه في "النجابة": القِيَم والكمالات. كان يرى أن هناك أُناساً فطِروا على الشرف والرفعة وجبِلُوا على العِفَّة والنزاهة، فهي فيهم سَجِيَّة لا يتخَطَّونها وطَبْعٌ لا يتكلَّفونه، بينما يتلبَّس بها آخرون تعسُّفاً وعَناءً وقهراً لا يلبث أن يزول، وقد تجد في البيت الـواحـد والأُسرة نفسهـا أخـاً شقيقاً لـ "نجيب"، هـو من أرذل الخلق وأدناهُم، بل وَالِداً أنحدَر الأثنان من نسلِه، هو أخسُّ الناس وأحقرهم!

لم يتكلَّف «محسن» كثيراً في ردِّ خَصْمِه وإفحامه، إذ كفَاهُ أن يقول:

لقد ترجَم «المعلِّم» (حرب العصابات)، كتاب «تشي غيفارا»! ولم أرك تحسَّسْتَ ولا تحفَّزت، ولا شطَحَت بكَ الأفكار والتحليلات، ولا رَبَطْتَ ولا عَقَدْت؟ بالله كيف جرَّت "الباء" هنا ولم أرَها تجرُّ هناك؟

بُهِتَ الرجل وأُخذ من حيث لم يحتَسِب، فمضىٰ «محسن» يرشقه:

هٰكذا أنتم، وهٰذا ما يزعجني فيكم، وما أخشاهُ عليكم!

عبادةٌ الشخص وتعظيمه، والصنمِيَّة التي تعمي وتصِم! تَغشَى الأبصارُ وتُصَمُّ الأسماع، فتنحَسِر البصائر، أمام شَخص "البطل"، ومصلَحَة الحزب، فلا تُرىٰ العيُوب ولا تُرصَدُ النقائص ولا يُلتفت إلىٰ المثالِب والقبائح، وإن بلَغت ما يبعث الأشمئزاز، فلا يطيق رؤيتها ولا يتحمَّل وُجودها غيْر عَليل رُوح، سقِيم مزاج! ثم لا يُسمح لأدنىٰ صوت نصيحة، ناهيك بمعارضة.

ألا تلاحظ معي كيف ننسىٰ القيَم ونتجاهَلُ الأُسس والثوابتَ الحركية إذا صدَر ما يخالفها من قادتنا وكبرائنا؟ أما إذا أرتكبها غيْرنا، فيفتضَحُون ويشهرون، وتكون مَلاكنا في إدانتهم وما يُصحِّح معاداتنا لهم! لقد وَضعنا في حركتنا مناطِقَ حظْر لا تُنتهك، وتسالَمنا علىٰ مقدَّسات لا تمس، وخطوط حمر لا يمكن أن تُتجاوَز، ثم لا يسأل أحدٌ كيف داسَها قادتنا بأقدامهم وسحَقُوها بأحذيتهم، ومَضُوا وقحموا وهتكُوا غيْر مبالين ولا عابئين، بل مستخفِّين متبجِّحين؟... خُذْ ـ مثلاً ـ مَدْح الحكَّام أو الدخول في النظام والتعامل والتعاون مع السلطة الجائرة والحكومة الظالمة، إذا صَدَر وكان من قادتنا شيءٌ من ذلك، فهو: " تكتيك سياسي حاذق ومهارة ومناورة ذكية، وأقتناص وَاجب للفُرَص، وتسخير حكيم للطاقات، وعمل طبيعي عقلائي بالأسباب "، حتىٰ ترانا في أجتماعاتنا نفخر ونتباهىٰ، كيف أستطاع «فلان» أختراقهم!

أما إذا وَقَعَ من غير قادتنا والمنتسبين لجماعتنا، فهي العمالة والخيانة، ودليل إدانتهم ومَلاك خصومتهم، وبرهان جديد وشاهِدٌ ناطِقٌ في صحَّة القول فيهم والموقف منهم، ولا نكتفي ونعف، حتىٰ نجعَلَ ذلك وَقُود الأستمرار في إذكاء الخصومة ومادَّة ترسيخ العداوة.

ثم أنثنى لِيُمطر «المعلِّم» بوابل قَصْفِه:

تتبَّعون نكِرَة لا يُؤتمن على شعيرات يُبقيها في ذَقنه! (يشير ويعرِّض بأن «المعلِّم» كان حليقاً، وهي مخالفة شرعية تُسقِط العدالة عند الملتزمين، أوَّل نتائجها وثمارها أن يبطل الأقتداء والأئتمام به في الجماعة) تريدون أن تسلِّموه مصير الدين والأُمّة، وقياد البِلاد والعِباد؟

رجلٌ التقاطي هجِين بتمام معنى الكلمة ودلالة اللفظ، خضَع لتأثير عِلْم الأجتماع الديالكتيكي في الماركسية الجديدة كما هي عند «جورج كورفيج»، ولوُجودية «جان بول سارتر»، وأستلهم من تصوُّرات «لويس ماسينيون» عن العرفان الإسلامي في القرُون الوسطى، وأستقى من الرؤية النفسية التي طرحها «فرانتس فانون» حول حركات التحرُّر في العالم الثالث... سَطْحيٌّ قِشْرِي حتى في فَهْم مَن يراهُم عُظماء، فيغمض الجمال والحقَّ فيهم لِسلوك أو تصرُّف يجهل أصله وأسبابه، ولا يطيق فهمه وتأويله، فيزدَرِيهم ويحطُّ من شأنهم، ويلسَعهم بسِيَاط الإدانة أمام فكرة طائشة تهيمِن عليه، يخضعهم لها ويحاسبهم بمقاييسها وعلى أُسسها، فإن وَافَقُوها نَجوا، وإلّا هلَكُوا في قاموسه! ما يكشف أنه يرى أفكاره ويحسب فهْمَه وآراءه قميص الحق الذي من أستوى عليه وتلبَّس به فاز، وحزام الأمان والخلاص الذي من وَضَعه وتمنطق به أمِن، متفوِّقاً على الأنبياء، ومتقدماً على الحكماء... فيقول:

لقد آمنَّا بـ «كونفوشيوس» الفيلسوف الذي تحدَّث عن الإنسان والمجتمع، لكنه أصبح خادماً للحكام الصينيين في زمانه.

و«بوذا» أمير «بنارس» الكبير تنكَّر لنا هو الآخر وأنطوى على نفسه، ليبلغ "النيرفانا" التي لا أعلم أين هي؟!

و«زرادشت» الذي اختير نبياً، هربَ من «بلخ» من دون أن يخاطِبنا نحن المفجوعين، بل نسينا في بلاط «كشتاسب».

و«ماني» الذي نادىٰ بالنور وهجوم الظُلمة أهدىٰ كتابه للملك الساساني «شاهبور» وبارك تتويجه؟!

لَعَمْري، ماذا كان سيصنع هـٰذا المغرور لو كان من أهل زمان نبي الله «يوسف» عليه السلام، ورآه يدخل بلاط الملك ويعمل وَزيراً في حكومته؟ أو زمان الإمام «الرضا» عليه السلام ورآه وَلياً لعهد «المأمون»؟ ولن أطرح مقارنة «الخضر» و«موسىٰ» عليهما السلام، فتلك لم يُطِق نبيٌّ عليها صبراً؟!

أي رِفاق النضال... ما هـٰذا دأب العلماء ولا ديدن المفكِّرين، ولا هو من صفات الباحثين المتعمِّقين، ولا شأن المنصفين المؤتمنين.

أمثل هـٰذا الشخص سيفسِّر لنا القرآن الكريم ويستنطق الوَحْي الأمين؟ أيقدِر هـٰذا علىٰ العَوْم في زاخِر بَحْر هـٰذا السِّفر العظيم؟ ولا أُريد الغَوْص في أعماقه اللامتناهية، ولن أُطالِب باستخراج لآلئه من مكنون مستودعه، ودُرَرِه من مضمُوم أصدافه، ومغاليق كنوزه؟ فيعرف "نور الله" في الآية الكريمة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ؟ أو "أمر الله" و "إرادته" في الآية ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؟ أو الفرق بينهما وبين "قضائه" في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؟ بالله أيحسن الرجل قراءة الآيات حتىٰ يُسأل عن معناها وتفسيرها وتأويلها؟ أيستطيع أن يسبر أغوارها ويكشف أسرارها؟

من أين سيأتي بعلوم القرآن وفنون التفسير؟

أمِن «كرويج»، أو «سارتر»، أو«لويس ماسينيون»؟

هل يمكن لمثل هذا الشخص أن يفهم معارِيض كلام «رسول الله» ﷺ، ويبلغ ما أراده «الإمام الصادق» وما قَصَدَه «الإمام الباقر» وعَنَاهُ «أميرالمؤمنين» عليهم السلام في أحاديثهم الشريفة؟!

الرجل متناقض في أُطروحته حتىٰ النخاع... علينا أن ننتظره يتصالَح مع نفسه حتىٰ يصحَّ لنا الاقتداء به والأخذ عنه، إنه يتحايل ويدلِّس، ويتنكَّر للحقائق ويجافي الواقع التاريخي، في سبيل اجتذاب مختلف الشرائح ومتناقَض الأطياف إلىٰ مشروعه.

إنه يتاجِرُ ويتكسَّب، ويعرض لِكُلِّ مُشترٍ ما يجتذبه من بِضَاعة وما يغريه من سِلْعَة: الإسلام الحركي والخطاب العصري المستجد والمفتَقَد في لُغة الملتزمين للمتدينين، الثورة والنِّضال لليساريين، الوطنية للوَطَنيين، والأُممية للشيوعيين، والموقع القيادي والريادي للمثقفين...

أمّا «الإمام الخميني» الذي تعترضُون علىٰ أتباعه، وتسخرون من أتْباعه، فهو في أقلِّ التقادير، وَاضِح في أصله ومنبته وفَضْلِه، في فِكْرِه ومدرسته ونهْجِه، أما تاريخه وسيرته، فقد وُضِعَت تحت المجهر لِعشرات السنين، بشكل متواصل لا يخترم...

بإمكاني أن أُبيِّن لكم الآن حركته علىٰ مَدارِ الساعة، في أيِّ يوم تشاؤون وتحدِّدُون من أيام عمره، منذ أربعين عاماً حتىٰ اليوم، متىٰ يفيق من نَوْمه فيتوجَّه إلىٰ الحرم، سَوَاء حين كانَ في «قم المقدسة» أو في «النجف الأشرف»، لأداء نوافل لَيلِه التي يصِلُها بفريضة الفجر، أو لتلاوة الزيارة "الجامعة الكبيرة" بُعَيْد العشاءين، متىٰ يشرع في درسه وبحثه ومتىٰ يعود إلىٰ بيته، ما هي المتون التي درَسَها ويدرِّسها، ممن تلقىٰ العلم وعمَّن أخذه؟

ومَن هم مشايخه، مَن يكون الشيخ «عبدالكريم الحائري» والآقا «الشاه آبادي»، ثم مَن هم طُلَّابه، مَن يكون «عبدالحسين دستغيب» و«أشرفي أصفهاني» و«أسدالله مدني» و«الفاضل اللنكراني» و«جعفر السبحاني»؟ وبعد، فبإمكاني أن أُحدِّد لكم ماذا يملك هذا «السيد» من حطام الدنيا، وماذا يأكل وماذا يلبس؟

هل تعلمون أنه لم يلتَقِ ـ في حياته ـ أية شخصية سياسية أو أمنِيَّة مُنفرداً في خلْوَة، ولم يعقد أية جلسة سريَّة مع أحد؟ لا مع صديق ولا عَدُو، لا مندُوب دولة ومُبتَعَث حكومة، ولا زعيم معارَضة ورَجل ثورة، لا من الحزبيين ولا من المستقلِّين، لا طلَبة ولا عَوام. وهناك من يضيف: ولا حتى شخصية علمية تريد البحث والتداول في قضيَّة شرعية، أو اجتماعية، أو حتى مقلِّد يرجع إليه يريد تسليمه الحقوق الشرعية من الأخماس والزكوات... لا اجتماع ولا حِوَار ولا لِقاء إلّا بحضور مَن يشهد ويراقب ويضبِط، فلا غشاوة ولا غبار، ولا مغمز ولا مَطعن.

هل بين رجالات الثورة في العالم مَن يتمتَّع بهذه الشفافية ويتحرَّك بهذا الوُضُوح الذي لا يَحْتَمِل أدنى شَك ويقطَع الطريق على أي طَعْن أو شُبهة؟ حتى سقَطَ بيَدِ «الشاه» وغَيْره من الأعداء أن يغمِزُوا ويلمزُوا من هذا الباب، ولم يجدوا من مَطعن إلّا في جدِّه الرابع الذي نزح من بلاد «كشمير» في «الهند» إلى «خمين»، بعد هجرة سابقة كانت قد نقلت العائلة من «نيشابور» إلى هناك... والهجرة دأبٌ في الأُسر العلَوية الملاحَقَة ودَيْدَنٌ، فلا تجد منها إلّا مَن سكَنت ـ عبْر تاريخها الممتد ـ أكثر من بلَد واستوطنت غير وَطَن.

هل تعيبون عليَّ اتباع "سيِّد" بهذا الوضوح والجلاء في السيرة، وما يستدل به على نقاء السريرة؟ وهذا الشرف والمجد، والتقوى والعدالة... وأنتم تنساقون وراء نكِرَة بذلك الغموض وتلك الريبة؟

لو كان فيكم "إبراهيميٌّ" حقيقيٌّ يدعُو وينادي: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، يتطلَّع أن يكون "أُمّة" في رجل، مُستقِلاًّ في فكْره، مُتحَرِّراً من العوامل والمؤثرات التي يخضع لها عامة الناس، لسَكَتُّ وأذعَنْت وأقرَرْت له، فأنا ـ شخصياً ـ لم أبلغ هذا المبلغ... أنا أُقرُّ بأنني تابعٌ مقلِّد، أرجُو أن أكون "متعلِّماً على سبيل نجاة"، أُريد أن أستخلِص نفسي من "الهمَج الرَّعَاع".

لا تتظاهَرُوا بالعلمِيَّة وتزعموا التحرُّر والتقدمية، وأنتم أتباع "مقلِّدون" كما العَوَام، بل أسوَأ من العَوَام! إذ فيكم من يحاكي «المعلِّم» ويقلِّده، حتى في حركاته وطريقة كلامه، ناهيك بأفكارِه ومعتقداته... فمَن هو "القرد"؟

كان بتلك الإشارة والتعريض اللاذع يردُّ على مَزْحَة متداوَلة، ٱبتدعها «المعلِّم» وأشاعها "تياره"، تسْخَر من فكرة "التقليد الفقهي" التي يلتزمها المتديِّنون، والذي يفرض على المسلم المكلَّف أن يتَّبع فقيهاً معيناً ومجتهداً يتمتَّع بمواصَفَات خاصَّة أبرزها أن يكون "الأعلم"، يستقي منه أحكام عباداته ومعاملاته، يأخذها من كتاب يسمى "الرسالة العمَلية"... كان أصحاب «محسن»، وعموم "المثقفين" يتهكَّمُون على المؤمنين الملتزمين بأنهم يحكُون "القردة" في سلوكهم، كونهم "مقلِّدين"!

❁ ❁ ❁

كانت أيام النظام «الشاهنشاهي» قد ٱنقضَت، ولياليه قد تصرَّمَت، وأجَلُه قد حلَّ وأزِف، وقد ٱرتحل«الشاه» وغادَر إلىٰ منفاه (الطوعي أو غيْر الطوعي!)، وتركَ البلاد لمصيرها المكشوف ومستقبلها المجهول... وقد وَصَلَ «الإمام الخميني» من «باريس» وٱستقرَّ في مدرسة دينية قديمة في «طهران» تدعىٰ «علوي».

وعلىٰ الرغم من أن «محسناً» شارك في الأستقبال المليوني، وكانَ له دوْر أساس في خطَّة حماية الموكب الذي أقلَّ الزعيم الكبير من المطار إلىٰ «بهشت زهراء» (مدافن الشهداء) حيث ألقىٰ خطبته وعقَد مع جمهوره ٱجتماعه الأُول، وكانت خطبة نارية صاعقة...

لكن «محسناً» لم يتمكَّن ـ في تلك الأجواء الصاخِبة ـ من التعرُّف إليه كما كان يرجُو ويأمل، تعرُّفٌ يُحدِث في نفسه تغييراً عميقاً وٱنقلاباً كاملاً، كالذي أحْدَثه التعرُّف إليه من بعيد، في مَشْرَبه ومسلَكِه وخَطِّه الفكري والثوري. ٱنقلاب رُوحيٌّ ونفسي، كان «محسن» في أمسِّ الحاجة إليه، يخرجه من الأضطراب ويقضي علىٰ الأزدواجية التي ما زالَ يَشْعر أن ثمة بقايا في مكنونات نفسه منها.

لم يكتمل له ذلك ولم يتم، إلّا حين زارَ «الخميني» وٱلتقاه بعد أيام، بصُحْبة إمام الجماعة في مسجد حَيِّهم... رآه في حجرته المتواضِعة في "مدرسة علوي"، وشاهَدَه يجلس علىٰ الأرض، وقد ٱفترش مَلاءة، أو دِثاراً قديماً، وأسنَدَ ظَهْره إلىٰ جِدَار تقشَّر تجصيصه ولم يدهن بصبغ...

كانت الهيبة التي سبَقَتْهُ تفوُق الواقع الذي رآه...

أرْبكَه ذلك بعضَ الشيء، وفكَّر فيه ـ بعد خروجه من اللقاء ـ كثيراً... لا أنه خفَّ في نظَره أو سقَطَ من عَيْنه، لكنه لم يَجِدْ ما كان يتوقَّعه، ولم ينزل به ما كان يرتقبه ويحسب له، من الأثر الروحي والأنطباع الغيبي الذي "يفترض" أن يخلِّفه في نفسه.

لم يرَ غمامة تظلِّله، أو هالَة القدِّيسين ترتَسم حولَه وتُطَوِّقه، ولا الأنوار تتشَعْشَع وتفيض من وَجهِه، ولا أخرَج - بطبيعة الحال - يداً بيضاء من جيبه ولا ألقىٰ عصا! نعم، قرَّ «محسن» عيناً بمرآه، وأنس بمُحيَّاه... وَجَدَه سمحاً وَقُوراً مطمئناً، وَاثقاً من نفسه، ثقة العالِم البصير، الماضي علىٰ هَدْيٍ وبيِّنة من أمره، وآستبشر به. ولعلَّه قرأ في ملامحه أنه آخترق بثاقب رؤيته الحاضر وكشَفَ بعض المستقبل، ورأىٰ ما جعله مطمئناً... نعم، كأنَّ هٰذا الرجل مطَّلع علىٰ بعض الخفايا!

لٰكن «محسناً» ما آضطَرَب ولا أخذته الهيبة، ولا آعتراه شيءٌ مما كان يحكيه الناس ويتناقلونه، من أن الداخل عليه والماثل بين يديه لا تتمالك نفسه أن تغيب وجوارحه أن تتراجف، بعد خفقان قلب وآنعقاد لسان!

بعفوية تحكي بصيرة المؤمن... رآه عَبْداً صالحاً، تتنافس علىٰ سَحْنته التقوىٰ والزهادة مع الذكاء وأمارات العِلم والعمق والغَزارة في كلِّ شيء، ويغالب الطيبُ والبساطةُ الحكمةَ والفِطنة والكياسة... في المجموع خرَج «محسن» برؤية مفادها أنه يمكن الوثوق به والآطمئنان إليه، بل آتباعه والآئتمام به بلا تردُّد ولا رَيْب، فلن يقودك هٰذا الوَجه المفلح إلىٰ آنحراف وخراب، ولن ينتهي بك إلىٰ ضلال وهلاك.

أما الهيبة المرتقبة ثم المفتقَدَة، والهالة الضائعة في رؤية «محسن»، فقد وَافَقَتْ - في حقيقة الأمر - ما رَجَا وأمَّل، وما آبتغىٰ وأراد، فطالما قادته حواراته مع أصحابه ورِفاقه، وفي مرحلة لاحِقة، حين أعيَتْه الحيلة معهم فآنعزل شيئاً وتقَوْقَع، حواراته مع خطيبته «فرشته»، توافقَت وآلتقت علىٰ نبذِ التقديس ونفي التعظيم، وآزدراء "صناعة النجوم" وخلْق الرموز والأبطال، وعمليات الإغواء العام التي كان العقل الجمعي يحركها ويديرها، ومن وَرائه مهارة المنظومات الإعلامية للأحزاب والجماعات، التي كانت ترفع وتعلو بمَن تشاء، وتخفض وتسقِط مَن تريد!

كان يبثُّها همومه، ويشكُوها آلامه، ويفضُّ إليها ما أقلَقه وأزعَجَه، وجلَّه الحذر والخوف من مَسيرة الثورة وعلىٰ مصيرها، فالأمارات تشير إلىٰ هيمنة تيار "التنوير" (روشنفكران) الذي يقوده «المعلِّم»... تيار يتدثَّر بالدين ويتظاهر الإسلام والإيمان، أما حقيقة فِكْره وتوجُّهاته، فلعَلَّها "شيوعية"، أو "أشتراكية"، أو "ليبرالية"، أو "فَوْضَوِية"، أو أي شيء آخر، والإنصاف أن يُقال إنها "ألتقاطية"، أخذَت ضِغْثاً من هٰذا وَضَعَته علىٰ ضِغْثٍ من ذاك، وبعضاً من هٰؤلاء مزَجَته بشيء مما لَدىٰ أُولئك... فظهَرت مدرسة فكرية، وتكوَّن نهجٌ سياسي، وبرز مذهب ديني، هو - بالتأكيد - ليس الإسلام، ولا التشيُّع علىٰ التحديد.

كانا يقضيان ساعات لقاءاتهما المعدودة والمحدودة بالحوار، وينشغلان عن شؤونهما الخاصة بتبادل الأخبار، وتقليب القضايا وسَرْد الملاحظات وما رصَدَه كلٌّ منهما حَوْل الواقع السياسي، فمُعْطَياته وما يستشرف مستقبله، ويغفلان حتىٰ عن حاجاتهما الطبيعية كفتىً وفتاة أختليا ولا حِجَاب أو مانع بينهما من حرمة أو كراهة، اللهم إلّا أعراف أجتماعية، لا تمانع هي الأُخرىٰ ولا تتشدد بنحْو، ما يسمح لهما بشيء من التسلية والأستمتاع... لٰكنهما كانا ينشغلان بهٰذا عما يشغل مَن في حالهما من الخطبة والزواج المرتقب.

ومما كانا يختلفان فيه ويمتدُّ بينهما الحوار حوله: العنف الثوري، واللجوء إلىٰ القوَّة المسلَّحة وتشكيل الخلايا الجهادية، وتوجيه الضربات الأمنية للعدو أو لأهدَاف تخدم سقوطه، من تفجيرات وتصفيات وأغتيالات... مما كانت «فرشته» تعارضه وترفضه، ويصرُّ «محسن» عليه كخيار وَحِيدٍ مُتاح في ظِلِّ التفاوتِ والبوْن الشاسع في القوة، ثم كَرَدٍّ أنتقامي علىٰ الممارسات "العنيفة" التي يلقَاها رِفاقُه في السجون والمعتقلات من النظام وأزلامه.

والحق أن «محسناً» لم يكن ميّالاً للعنف ولا راغباً به، لا هو من طَبْعه الأوّلي ونشأته المتحضرة المترفة بعض الشيء، ولا في ما يقدِّم له من حُجَج ومسوِّغات وأعذَار، وكثيراً ما كان يكرر: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، ولكنها ظرُوف المعركة وأحكامها، وقرارات قهرية تمليها سَطْوَةَ الإرادة الخفية التي يعجز هو ومَن في حجمه عن الوقوف في وَجْهِها، ولا يملك إلّا مجاراتها... أيدٍ خفِيَّة وإرادة لا تَدرِي كيف توجِّهُك وتُسَيِّرُك، ولا تجد تفسيراً لانقيادك لها وسِرِّ طاعتك أوامرها (لتصبحَ من المقاطع التي ينتابك الخجَل من نفسِك عندما تتذكَّرها فيما بعد: أكنتُ أنا على هذه الحال من الضياع والهوان؟!)، فإذا نفَّذَتَ التعليمات وامتثلَتَ الأوامر، وتمادَتْ هي في امتهان عقلك وازدراء فهمك، استيقظَتْ مكامنُ العزِّ الدفينة والإباء المضمر، وانفجَرَت فيكَ لحظَة الوَعْي الحقيقي فالتمرد. حالة لا يدركها إلّا الأحرار الذين انخرطُوا يوماً في العمل التنظيمي الحزبي، ثم ما ملَكَت هممهم ولا تحمَّلَت ضمائرهم إلّا أن تخرجهم من ذلك المحيط القاهِر السالب لأعزِّ ما يملكون.

لذا ما كان ينزعج من انتقادات «فرشته»، بل كان يرحِّب بها ويرغَب فيها، لذا كان يتعمَّد استفزازها وإثارتها، لتتوغل في النقاش وتتعمَّق في الحوار، وتمضي فيه إلى حيث تريد ويريد...

: ليس هذا قتالاً يا «محسن»، إنها أعمال عصابات، كأنهم قُطَّاع طُرق أو مجرمون عُصاة، لا أرى هذا يستقيم مع سماحة الإسلام ورحمته، ولا رِقَّة الإنسانية وشفقتها، ولا مع النُبل والسمو والقيم الراقية التي جاء بها هذا الدين، سواء في مفاهيمه وتعاليمه أو في رجاله وشخصياته... هل قرأت يا «محسن» أو سمعت أو نما إلى علمك بأي نحْوٍ أن "إماماً" من أئمتنا المعصومين مارَسَ مثل هذه الأعمال، أقصد نظيراتها من أدوات تلك العصور؟

: قُطَّاع طرُق؟... كأنكِ "مستشرق" أو مفكّر صليبي مُتحامل ممن يزعم أنَّ الإسلام قامَ على العنف والقوة، والمسلمون الأوائل لم يكونوا إلّا قطَّاع طرُق اجتمع حَوْلهم شرذمة من الأراذل والأوباش وإباق العبيد، وقد أسَّسوا دَوْلتهم وأرْسوا قواعدها بقَطْع الطريق على قوافل «قريش» في «بدر»، ومَضوا على هذه السيرة في نَشْر دينهم عبْر "الغارات" و"الغزوات"!

: أستغفر الله، لم أقصدْ هذا، فأنا أعلَم أن غنائم «بدر» كانت مُقاصاة واستيفاءً لما صادَره كفَّار «قريش» من أموال المسلمين المهاجرين أو المنفيين، وأداءً لِبعضِ حقوقهم المضيعة أثناء صراع الجهر بالدعوة في صدرها الأول، وحروب «النبي» ﷺ كانت كلّها دفاعية مَشرُوعة، أما الأبتدائية منها والغزوات، فقد كانت تزيح "الصدَّ" عن سبيل الله، وتستأصل الحواجز التي يضعها الكفَّار في طريق الدعوة.

: وها نحن اليوم نستَوْفي حقوقنا من النظام الجائر، فأيُّ بأس؟

: إنكم تغرمون من غير غرمائكم... ما لهذا الضابط الذي يعمل في سلاح المدرعات أو المشاة وما يجري في «إوين»؟ بل حتى الذي يعمل في السجن نفسه، أتقطعون أنه هو الذي يعذِّب رِفاقكم! فبأيِّ حق تنتقمون منه؟... يخرج من داره آمناً، يودِّع زوجته، ويعِد ابنته باللعبة التي رَجَتْه أن يبتاعها لها عند عودته، فإذا ركب سيارته ومضى في سبيله، ووَقَعَ في كمين رفاقك، باغتته رصَاصة في رأسه أرْدَته صريعاً! أي جهاد هذا؟

: إنهم أعوَان الظلَمة، يعينونه على باطِله، ويشكِّلون بالتفافهم حوله ودخولهم في نظامه، دَعامة مُلكه ودَولته، وفي أقلِّ التقادير: يُكثِّرون سوَاده، لقد عانى أئمتنا عليهم السلام ـ على مدى تاريخهم ـ الأمَرَّيْن من هؤلاء، وفي الحديث الشريف أن أحدَ كُتَّاب «بني أُميَّة» استأذن يوماً على «الإمام الصادق» عليه السلام، فلما دخَلَ وسلَّم، جلَسَ ثم قال:

جُعلت فِداك، إني كنت في ديوان هٰؤلاء القوم فأصبتُ من دنياهم مالاً كثيراً، لو أغمَضْتَ في مطالِبه! فقال «أبوعبدالله» ﷺ: لَولا أن «بني أُميَّة» ما وَجَدوا مَن يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم، لما سلَبونا حقَّنا، ولَوْ تركَهم الناس وما في أيديهم، ما وَجَدوا شيئاً إلّا ما في أيديهم.

يريدُ «الإمام» ﷺ "العصيان المدني" والمقاومة والثورة السلبية...

لو أنَّ الناس قاطَعُوا الحاكم الظالم لانتصر الحقُّ وظَهَر أمرُ «أهل البيت»، ولٰكن هٰذا يكتب لهم، وهٰذا يراجعهم، وذاك يعمل في شُرْطَتِهم وعسكَرِهم، وآخر يجبي لهم ويحضر جمعتهم وجماعتهم وأعيادهم، فكيف يظهر الحق؟! تصوَّري قاضياً لا يتخاصم عنده الناس، أيُّ سُلطة تكون له؟ تصوري مدَّعٍ للإمامة لا يقتدي بصلاته أحد، أيُّ قيمة دينية وموقع معنوي سيكون له؟ تصوَّري مُفتياً أو والياً يعلن ثبوت الهلال ويحكم بالعيد، ثم يبقىٰ الناس علىٰ صيامهم، هل يستطيع مثل هٰذا أن يكون كـ «شُرَيْح» في شرِّه، يفتي ويوفِّر للطاغوت الغطاء ويؤمِّن له مشروعية قتل «سيد الشهداء» ﷺ؟...

إنَّ هٰؤلاء ـ في واقع الأمر ـ يعينون الظالم علىٰ ظلمه.

ثم إننا لا نستهدف الأبرياء ولا نقْصِدُهُم... أتعلمين كم نبذل من جهْد ووَقت حتىٰ نلتقِط أهدافنا دُون سِواهم؟ وكم يكلِّفنا البحثُ والرَّصْد وتضنينا الملاحقة؟ ولو أطلَقْنا للأمر عنانه، لاستطعنا أن ننفِّذ وننجِزَ في اليوم الواحد عشرات العمليات الجهادية، لٰكننا نحتاطُ لدِيننا، فنُدقِّق ونُحكِم خطَّتنا حتىٰ لا تطيش سِهامُنا فنرمي غير مَن آذانا وعذَّبنا، أو أمر ـ مباشرة ـ بالتنكيل بنا.

إنها رؤيـة أتتْكِ، كما أتتْ ونـزلَت بغَيْرك، من فَرْطِ مـا ٱنجَـرفَتِ في السياق العام والتَحَقَت به، فكأنكِ من "العَوام" ولا أُريد أن أقسُـو عليكِ وأجـرَحك فـأقـول من "العـامـة"، لقـد خضَعْتِ ـ من حيث لا تـدرِين ـ وجارَيْت الواقع، فأعـماكِ وأصَمَّـكِ، حتىٰ صرتِ تنظرين إلىٰ أشنع الجرائم وأقبح الأفعال: الدخول في "أعوان الظَلَمة"، كأمرٍ عادي طبيعي! غـافِلـة، بل مستَغفَلـة، لا تـثير فيكِ هـٰذه الكبـائـر والفظـائع ٱستهجاناً ولا تبعث ٱستغراباً.

ثم قام «محسن» من مكانه ليتناوَلَ كتاباً، فتَحَه علىٰ صفحة معيَّنة، كان قد حدَّدها بقُصاصَة دسَّها في مَوضِعها، وراحَ يقرأ فيه:

قـال «أبـوعبـدالله» عليه السلام: مـا أُحِبُّ أني عَقَـدْتُ لهم عُقْدَة، أو وكَـيْتُ لهم وِكَـاءً، وإن لي ما بين لابتيهـا، لا ولا مُدَّة بقلَم، إن أعوان الظـلَمة يَوْم القيامة في سُرادق من نـار حتـىٰ يحكُـم الله بين العـبـاد. وعن يونس بن يعقوب قال: قال لي «أبوعبدالله» عليه السلام: لا تعِنهُـم علىٰ بناء مَسْجِد. ورَوَىٰ «ٱبـن بابـويه» عن «الحسن بن زيد» عن «الصادق» عن «آبائه» عليهم السلام قال: قـال «رسـول الله» صلى الله عليه وآله: مَن علَّق سَـوْطـاً بين يدَي سُلْطَان جائـر، جعَلَ الله ذلك السَّوْط يـوم القـيامة ثعباناً من نار، طوله سبعُون ذراعـاً يسلِّطه الله عليه في نارِ جهنم وبئس المصير.

ثم طَوىٰ الكتاب وأغلقه وصَارَ يحدِّثها مرتجلاً:

إن خيَّاطـاً سأل عـالماً: إني أخيط للسلطان ثيابه فهل تراني داخلاً في أعـوان الظلمـة؟ فقـال: الـداخل في أعـوان الظَـلَمـة مَن يبيعك الإبـر والخيوط، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم!...

قد يكونُ في هـٰذا القـول مبالَغة وتهـويلاً، ولـٰكن مما لا شكَّ فيه أن شهود جماعـة «بني أُميَّـة» المتظاهـرين بـالفجـور وشرب الخمـور وسَبِّ «أميرالمـؤمنين» وقتـل «أهل البيت» عليهم السلام وغَصْبِـهم حقـوقهـم، وهـٰكذا جباية الفيء لهم والكتابة في دَواوِينهم يدخل ـ بلا ريب ـ في العنوان.

ولا أزعَم أن هـٰذا الطـاغـوت («الشاه») ونظامه أسْوَأ من «بني أُميَّة»، أو أن جَـرائمه تبلغ حدَّ قتل الأئمـة من «أهل البيـت» عليهم السلام، ولـٰكنه كما ترَين يحارب الدين وتعاليمه، ويكافح مظاهره وشعائره، ويمضي في مخطَّط مَـدْرُوس للقضـاء المبرم عليه، نـاهيـك عن نَهْبِ خيرات البلاد وٱرتهانها للأجانب، وما لا يحصىٰ من مَصاديق الظُّلم والإفساد في الأرض.

: ماذا عن ترويع الآمنين؟ وماذا عن أجـوَاء همجية صَارت تعيشـها الحالة الإسلامية بأسرِها وكأنهم كلَبُوا وتضوَّروا؟

إنني ألمس هـٰذا يا «محسن» وأشهَده، لم يعُـدْ شبـابنـا يعيشـون القيَم والمعاني السامية للإسلام، ولا مُصلِحِين يتحسَّسُون آلامَ الفقراء ويرقُّون لهم ويرحمونهم، إنهم يتبارون ويتنافَسُون ويتباهون بالعُنف، إنَّ ٱبن عمتي يُعـيِّر أخَاه أن لَـيْسَ له دَوْرٌ في المجاميع التي تنفِّذ العمليات الـجهـادية، إنَّ السَّبُعِيَّـة غلَبت في هـٰؤلاء المجاهدين، حتىٰ إنهم يتلذَّذون بالقتل، كـأنهم يأنسُون بـالرعْب الـذي يُفْشُون، وما يعْقب عملياتهم من إيتام الأطفال وترميل النساء وإثكال الأُمهات!

إنَّ الدنيا تقوم في الغرب وتقعد لٱنتهاك قانون الرفق بالحيوان، ونحنُ هنا نقتل البشر وننتهك قيَمَ الإنسانية ولا نبالي!

كانت «فرشته» مأخُوذة بعد الفنون والتطوُّر التقني والصناعي، بالرقيِّ والتمـدُّن والتحضُّر الأجتماعي، وبـالقيـم والتعـاطي السـامي والتعـالي الإنسـاني، وتحكمها نَزْعَة طُوباوِيَّـة في الأخلاق، جاءتها من روحانية ورِقَّة مطبوعة، وكانت ترىٰ في الغرب نموذجاً في الإنسانية وقُدوة في الأخلاق.

كانت مَسْحُورة بالدماثة والتأدُّب واللباقة التي تحكم سلوك الغربيين، وكانت تحتفظ بذكريات جميلة من رحلَتها الوَحيدَة إلىٰ الغرب، الرحلة التي صَحِبَت فيها أُمَّها للعلاج في «بريطانيا»...:

إنهم لا يرفعُون أصواتهم ولا يجاهِرُون بالقول في الأماكن العامة، في الحافِلات والقطارات، في الأسواق والمطاعم، حيثما يُوجَد شَخْص أو أشخاص آخرون، يُراعَوْن وتحفظ حقوقهم في عَدَم الانشغال والانزعاج بشؤون غيرهم... تراهم يتهامَسُون ويتناجون.

لم أرَ هناك طِفلاً يلعب في مطعَم، أو يلهُو في سُوق، أو يصرخ في متجَر، وذووه يتركونه لحال سبيله! بينما أطفالنا يزعجُون المتسوِّقين وأصحَاب المحلَّات بصياحِهم وعَدْوِهم والأُم لا تبالي ولا تكلِّف نفسها أن تزجره وتمنعه، ناهيك أن تضربه علىٰ يدِه وتردَعه، فـ "الخانم" رقيقة لا تطيق إرغام طفلِها، ومتعلِّمة تتبع أساليب "التربية الحديثة" التي تمنع ضَرْب الأطفال! أما الأب فمشغول بتقليب البضاعة والمماكسة في السعر... هزلَت! وترىٰ طفلاً يقلِّب الأجواء علىٰ رُوَّاد صالَة كاملة في مطعَم فلا يهنأ لِروادِه طعام ولا يسوغ شَراب، يعدُو بين المقاعد والمناضِد ويُطَارِدُ أخاه الذي تَوارىٰ عنه واختبأ في زاوِية نائية، أو لعلَّه اندَسَّ بين أرجُل وسيقان رُوَّاد المطعم! ووَالداه مأنوسان بفِلْذَة كَبِدِهم، كيف قلَبَ الصَّالَة بصُراخه و "مرَحه"، حتىٰ يفترِش الأرض ويفحَصُ برجلَيْه ضَجِراً يريد الخروج، والوالدان في شأنهما من التهام الطعام، والحديث الذي أطالَ بهم المقام! كلّ ذلك علىٰ حِساب الآخرين وحقِّهم.

بل هي ظاهِرة تراها حتىٰ في المساجد والحسينيات والمزارات، يهتكُون حُرْمَة المكان، ويُقْلِقُون رَاحَة الروَّاد، ويُفْسِدُون عليهم الأجْوَاء الروحانية ويحرمونهم حتىٰ من الاستماع للخطيب والاستفادة من عِظاته... لا ترىٰ مثل هذه التصرُّفات يا «محسن» في الكنائس هناك.

عندما كنت أُلاحظ طَريقتهم في سياقة السيارة وأُقارنها بما نفعل نحن هنا، كان يتملَّكني الضِّحْك، ثم أكون حَائرة لا أدري هل أضحَك أم أبكي على حالنا؟ ليس الأمر من احترام القانون، ومُراعاة شروط الأمن وأسباب السلامة فقط، إنه من احترام الآخر وتعظيم حقِّ الناس، لا ينعطف من سَمْتٍ إلىٰ آخر إلّا بعد أن يشير ويتأكد من خلُوِّ الطريق، أما هنا فأولوية الطريق يفرضها حجم السيارة أو طرازها، وما ينمُّ عن قدرة مالكها، والمرآة لا تستعمل إلَّا لتعديل الهندام وتمشيط الشعْر... ولتذهَب السيارة الخلفية التي انعطَف عليها فجأة إلىٰ الجحيم!

لا أدْرِي من أين يأتي الذَّوْق وتنبعِث الدماثة وينشأ الخلُق؟

من الدين، أم التربية، أم الحضارة والمدنية؟

لا تقُل لي إنها أشكَال جَوْفَاء وأنماط فارِغة وصُوَرٌ من الترف... كلَّا، إنها أُمور في غاية الخطُورة، وعندي أن قيمة الثوْرة إنما تكون إذا حقَّقَت لنا انقلاباً يرقىٰ بنا إلىٰ مثل هذه الأخلاقيات.

ترىٰ كيف سيحمِلُونها إلينا ويأتون بها في النهاية، وهم يبتذلُونها ويهتكونها في الطريق من البداية؟ كيف سيأتينا بها ثوَّار ورجَال يفتقدُونها، و "فاقد الشيء لا يُعْطِيه"، بل هم لا يَرَوْن لِكَسبها أي قيمة وخطَر، فيكترثون له ويسعون لتحصيله!؟

تأمَّل في حال صديق «حميد خان»، ابن حيِّنا وجارِنا القريب هذا، الذي يُوقظ الحيَّ بأكمله بزمُور سيارته وهو ينادي صاحِبه ويُعلِمه بوُصُوله كلَّما جاء ليصطَحبه! فإن فاتَ بعضُ أهل الحيِّ هذا الإزعاج ولم يوقظه الزمُور (الذي لم يكن يَصْدُر كبُوق، بل يُرسل أنغاماً عالية متقطِّعة!) فستتكفل مكبِّرات الصِّوْت المنزلية التي نصبَها في سيارته! تبثُّ بأعلىٰ صوت ـ وقد أنزل زجاج نوافذ سيارته الأربع ـ الموسيقىٰ الصاخبة والغناء، ستتكفَّل بإيقاظه وحرمانه من النوم والراحة اليوم كلّه.

في الغرْب يا «محسن» مظاهِر تنمُّ عن رُقيٍّ حقيقيٍّ في السلوك الاْجتماعي، هناك وَقفات ولحظات تبعثك على التأمُّل والاْستغراق في التفكّرِ: كيف بلَغُوا هذا ونحن ما زلنا بعيدين؟

يا عزيزي، حتى الفقراء المعوزين، أتعلم كيف يستجدون ويسألون؟

يتَّخذ أحدهم ركناً ويفترش طرَفاً في محطة لِقطار الأنفاق، أو ناحية من زُقاق، أو مدخل نفَق أو طلْعَة جِسْر مُشَاة، ويذهب في العزف على آلة موسيقية، "فلوت" أو "غيتار"، وأحياناً يصحب ذلك غناءٌ هادئ، فيلقي له مَن شاء شيئاً في وِعاء وَضَعَه أمامه أو قبَّعة طَرَحها بين يديه...

بينما المتسوِّلُون عندنا يستجدُون ببَتْر أعضائهم وتعمُّد تَشْوِيه أجسامهم، وبمنَاحَة تَسرِد المآسي والوَيلات التي يعاني منها أحَدُهم، لا تملك إلّا أن تصرفه بما تيسَّر، إما شفقَة إن اْنطلَت عليك أكاذيبه، أو هروباً منه وخَلَاصاً مما يضاعف همومك!

: دَعْكِ من عُقَدِكِ يا فتاة، أُعدمت البيِّنة وخلَت يداكِ من حُجَّة حتى جئت بهذا؟ ماذا في رفع الأصوات عند المحادثة والتخاطُب، وماذا في عَبَث الأطفال؟ هل صَارَ مِلاك تقييم الشعوب وتصنيف الأُمم التزامها الهدوء وخَفْض الصَّوْتِ عن الصياح والضجيج في المطاعم؟!... كم تُسطِّحين الأُمور وتقفزين على أغوار القضايا وتتجاهلين أعماقها.

ومن عجَب أنها أصرَّت ومَضَت في إصرارها...

: ليست المسألة تافهة ولا هي حقيرة صغِيرة، إنها قضيَّة خطيرة، فالمكان عام، مُشَاع للجميع، لماذا عليَّ أن أستمع إلى حوار لا شأن لي به؟ مشكلة بين اْمرأة وأُختها حول تقاسم تركَة ونزاع في إرث، وغيْرة زَوْج إحداهما من زَوْج الأُخرى (عديله)! لماذا تشوَّش مخيِّلَتي وينْقَطَع عني حَبْلُ أفكَارِي ويتشتَّت تفكِيري عن مُتابعة كتاب أقرأه في محطة أو في حافلة، لأن الركاب يتبادلُون أحاديثهم ويُسْمِعونها الآخرين؟

لماذا عليّ أن أُعاني من سَماجة ونَزَق أطفال لا تجمعني بهم قَرابة، ولا أتحمَّل تجاههم أي التزام؟

القضية تعظيم الإنسان وتبجيله، ما ينجرُّ على حقوقه.

إذا عظَّمت شيئاً عظَّمت مُستلزَماته وتوابعه ولَواحقه، ولم تَبْخَسه أشياءه، عظُم الإنسان في أعيُنهم، فعَظُمت أشياؤه: وَقتُه وشأنه، خُصُوصيَّته وأحاسِيسه... لو رأيتهم عن قُرْب، وعِشْتَ معهم برهَة لرأيت كم سَمَوا وكملوا في تعاطيهم الإنساني وعلاقتهم بالآخر، كائناً مَن كان. لقد وضعوا شِرْعَةً لحقوق الإنسان، وتحضَّروا وتمدَّنوا حتىٰ سرىٰ ذلك منهم إلىٰ الحيوان رفقاً، والبيئة رعاية وحِفظاً.

لقد تخلَّوا عن امتيازات كانت بأيديهم، لا ينازعهم عليها أحَدٌ، وأقرُّوا علىٰ أنفسهم أخطاءً ارتكبوها، فحرَّروا العبيد ـ مثلاً ـ وحرَّموا العبودية مطلقاً، كلُّ ذلك رغبة وطوْعاً، إذ هم قوىً عظمىٰ لا تُقهَر، وفي الإعلام، الذي يفترض ـ وَفقاً لفهمنا وأدبياتنا ـ أنه ضغَطَ عليهم لينتزع منهم هذا التنازل ويرغمهم عليه، هم القوَّة الأعظم. إنَّ جُلَّ، بل كلَّ ما نعرفه عن سيئات الغرب ومثالِبه هو من الإعلام الغربي نفسه، من الأخبار والصحافة، ومن الأفلام السينمائية وما إلىٰ ذلك... آمنوا بالحرية فأطلقوها وإن أضرَّت بمصالحهم وأساءت إليهم.

صمتَ «محسن» لحظات، جمع فيها أفكاره ونظَّم ردَّه، كَمَن ينظِّر لفكرة ويمهِّد لأُطروحة متكاملة، وهي طريقته، يحرص أن يعمِّق البحث ويجذِّره، يربطه بالتاريخ، وبالفلسفة وبعلم الاجتماع...

: الرقيُّ منظومة متكاملة، وحَوْضٌ أو بحيرة جميلة كوَّنتها، بعد المنخفض الأرضي وجيولُوجيا الموقع، وسمِّها إن شِئْت الطبيعة أو القابلية والاستعداد الفِطري، ما تفجَّرَ فيها من عيون، ولٰكن الأكثر فعلاً ـ في تكوينها ـ ما صَبَّ فيها والتقىٰ من روافد الأنهار وسيول الأمطار...

الرقيُّ شيءٌ يكون ويتحقَّق هكذا، تجتمع النشأة التربوية والتعليم، مع الاتصال والاستقرار، إلى توفُّر الحاجات وتأمينها، بل الكماليات ومقتضيات الرفاه، من منزل ومَسكَن، ومطعَم ومأكَل، وزينة ومَلبَس، تؤتي أُكلها مأمَناً في الحياة وعافية، واعتدالاً في المزاج وصحَّة، وسلامة في العيش ودَعَة، بل رغَداً... فتنبعث الأخلاقُ الإنسانية وتزدَهِر، وينشأ الرقيُّ في التعامل ويظهَر.

والتحُّضر لا يكون إلّا بعد توَحُّش...

والاستقرار نزولٌ بعد ترحُّل، والمدَنية بناء بعد بَدَاوة...

إنَّ ما تَرَيْنه في الغرب وتعجَبين به من أخلاقيات، سَبَقَه عُنْفٌ وإرهاب وقَسْوَة ودَمَوية لَوْ اطلَعْتِ عليها لوَلَّيت عنها فِراراً ومُلِئْت منها رُعْباً، ولو نظَرْتَ في تاريخهم، لعلِمْتِ أن ما هم فيه اليوم ما كان ليتحقَّق إلّا بعد القَضَاء على الدكتاتوريَّات وعلى الجهل والمرض والفقْر والحاجة... تأمَّنت حاجاتهم وفرغُوا من أوَّليات حياتهم ثم من قضاياهم الثانوية، ووَضعوا أُسساً علمِيَّة وعمَلِية تضمَّن عَدْم العَوْدَة إلى الهمجية وشريعة الغَاب، فاستقروا وركَنُوا وسكَنُوا، وتعلَّموا وأحسَنُوا الإدارة والتدبير، وعمَّروا بلادهم، فسَمَتْ فيهم الإنسانية وتألَّقت الأخلاق.

وإلّا، فإنَّ هؤلاء الذين تمدَحين هم أحفادُ «النورمنديين» و«الفايكينغ»، وأبناء «الصقالبة» ووَرثة «الصليبيِّين»... شعوب لُغتها العنف ومرتكزها القسوة، أُمم أكثر توحشاً وهمجيَّة من «المغول» و«التتار»، وأشد بَدَاوة من أعراب الجاهلية، وممن يتهكَّمُون عليهم اليوم ويتندَّرُون وينعتونهم بـ «البربر»! وما ترَيْنه من رُقيٍّ وتحضُّر وسموٍّ في الخلُق والسلوك، والتعاطي مع الآخر والتعامل مع الغَيْر، وتقدِيس للحُرِّيات، ورِفْق بالحيوانات، وحِرْص على البيئة... سبَقَتْه ممارَسات منحَطَّة مُوغلة في الهمجية، وفي التخلُّف والغِلْظَة والقَسْوة.

كم من حُرُوبٍ أحتدَمَتْ ومجازِرَ أرتكِبَت وحقُوق أنتُهكَت، طَمَسَتْ كلَّ نور من بشرية، وأطفأت كلَّ ضياء من إنسانية... لقد خاضُوا غماراً موحِلة ومستنقعات نتِنَة، وقطعُوا فيافي قاحِلَة حتىٰ وَصَلُوا اليوم إلىٰ مدَنيتهم وتطوُّرِهم الذي ترين وتعجبين به. ولا أزعم أنَّ هٰذه الأطوَار حتمِيَّة، فأدخَلَ في فَلْسَفَة التاريخ وأسرار حركته وصيرُورته، فهٰذا بحْثٌ مُتَشَعِّب تحكمه آراء عدَّة ومذاهِب مختلفة، لِذا فلن يفْضي إلىٰ شيء، ولٰكنها ـ علىٰ أية حال ـ مراحِل إذا وُجِدَت وكانت، فلا بدَّ من تخطِّيها وقَطْعِها لبلوغ ما بعدها.

علينا أن نقطَعَ هٰذه المراحل، ونجتاز هٰذه النطاقات التي سبَقُونا إلىٰ اجتيازها، لِنَصِلَ إلىٰ الرقيِّ الحق الذي ننشد، ولا سيَّما أننا ننطَلِق من موقف (عقَدِيٍّ) متقدِّم يوفِّر علينا مسيرة تجاربهم الفكرِية، وفي غنىً عن الأطوَار التي يتنقَّلون خلالها ليعُودوا يوماً ويرجعُوا إلىٰ الإيمان بالله، بعد أن تنهار المادية فلسفةً ونظاماً وعلوماً، وقد أنكشَف الأمر وأفتُضِح، فالغرب اليوم ينعطِف ويتأهَّب للأنطلاق في دُرُوب جديدة.

إنَّ جميع المذاهب الفلسفِيَّة والعلمية والسياسية والأقتصادية والأجتماعية التي أفرَزَها الفكر الأُوروبي، التي أنبثَقَتْ وتفرَّعَتْ عن النظرة المادية إلىٰ الكَوْن... كلُّها إلىٰ أضمِحْلَال وأنقضاء وزَوَال. أضيفي إلىٰ ذلك "الجدَليَّة" من "ماديَّة" و"مثالية"، أبتداءً بـ «هرقليط» ومروراً بـ «هيغل» وأنتهاءً بـ «كارل ماركس»، وما نشأ عنها من مذاهب "رأسمالية" و"ليبرالية" و"أشتراكية ديمقراطية"، و"أشتراكية بروليتارية"، وما يتحدَّثُون عنه من "شيوعية"، وكلُّ ما أنبثق عن النظرة المادية للكون... كلُّ ذلك هوَىٰ وسقَط، وهناك شواهِد تكشف أنهم أنتقلوا فِعْلاً وتحولوا وَاقِعاً إلىٰ طَوْر آخر وفكْرٍ جديد، ولم يبقَ إلّا الإذعان والأعتراف.

ليست هٰذه شعارات يا «فرشته»، ولَسْتُ هنا في حلقة حزبية أو على منصَّة أُغوَي أتباعي وأُخضعهم وأُلَقِّنهم وأُعبِّئُهُم بخطابي! إنَّ أُستاذنا في الجامعة، وهو من المأخوذين بهٰذه الحضارة، يذكر لنا ذلك، ويسوق عليه الأدلَّة والشواهد وهو يتحسَّر ويندب حظَّ العلم والتنوير!

ما لَنا وهٰذا... أَلَسْنا نريد أن نهيئ لِبلادنا أسباب الرقيِّ والتحضُّر؟

لن تقوم لنا قائمة وهٰذه النماذج المتخلِّفة علماً، الساقِطَة أخلاقاً، المنحطَّة أُصولاً وقذراً، هي التي تحكمنا وتتولى زِمَام الأُمور في بلادنا، لن ترقى دوَلنا وتتمدَّن، وقادتُنا حُثالات أجلَاف، لن يحكمنا قانون ولن نتمتَّع بالحرية والعدالة والمساواة التي تفجِّر في شبابنا الطاقات وتخرج من أرضِنا الكُنُوز والخيرات... حتى نقلب وَضعنا السياسي ونعدِّله، نقضي على هٰؤلاء المجرمين المتوحشين، ونأتي بالشرفاء النزهاء المتمدِّنين.

إذا لم نتَجَاوَز العقبة الأُولى ونتخطى الحاجز والمانع الأول، وهو هٰذه الأنظمة الرُجَعية والحكومات العميلة، فلن تقُوم لنا قائمة في ميدان العِلْم والتطوُّر... سنبقى على تخلُّفنا في الأخلاق وتردينا في الإنسانية، ستبقى العدالة مضيعة في بلادنا، والمساواة منْعَدِمة، والحرية مفتَقَدَة، وسنبقى نُراوح في أماكننا ونَدُور في دائرة مغلقة.

ولا سبيل لإزالة هٰذه الطَّغام وتنحيتها إلّا العنف والقوَّة...

أترين يا «فرشته» أنَّ في هٰذه الأنظمة من أقصاها إلى أدناها مَن يستحي ويخجل، ويعفُّ ويَترفَّع؟ أتظنين في هٰؤلاء مَن يمكن أن يتنحى ويستقيل ويفرغ مَوقعَه ويترك منْصِبه ويخلي عَرشه لمن هو أفضَل منه وأقدِر على تحقيق العدَالة والمساواة وتنمية البلاد وتطويرها، وبالتالي ظهُور القِيَم والتعامل وَفْقَ المبادئ والأخلاقيات التي أعجَبَتْك في الغرب وغرَّتك؟ لا والله، إلّا أن يذوقُوا حرَّ الحديد، بعد أن نقُوم لله مثنى وفرادى... "فيه بأس شديد"!

كان «محسن» يشير إلىٰ رأي طرَحَه «الإمام الخميني» في تفسير الآية الشريفة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ثم عقَّب: إنها لُغَة هؤلاء الجبابرة الطغاة، المنطِق الوَحيد الذي يفكِّرون به ويَبنون عليه مَواقفهم، إنهم نيامٌ عن مطالِبنا، صمٌّ عن نداءاتنا، عميٌ عن أحوالنا، لا يوقظهم ربْتٌ وهَزٌّ، ولا غمز ولَكْز، بل لا تفيقهم صفعة ولا صرخة... إلّا أن يدوِّي انفجار وتخترقهم طلقة!

أتظنين أن «الحُجَّتِيَّة» لحِقَهم يأسهم من فراغ، وانطلقوا من خلطٍ كما يشيع جماعتنا ويروِّجون؟ أو من عمالة وخيانة كما يُوحون ويُلوِّحون؟... كلَّا، إنها جماعة دينية أصيلة، رأيت الإخلاص والتقوىٰ، ولمست الرشد والبصيرة في أكثر مَن عرفته منهم، إنهم يرتكزون علىٰ أُسس متينة تضرب جذورها في أعماق تراثنا وتاريخنا، ويحملون فكراً وثقافة تستمد من قراءة علمِيَّة رصينة في سيرة «أهل البيت» وتاريخ الأُمة، أو لأقُل تاريخ الأُمة وسيرتها المجحِفَة مع «أهل البيت» ومع الحق، وينطلقون من فَهْم للنصوص المعصومة ووَصايا «أئمة الهدىٰ» عليهم السلام، جعَلَهم في يأسٍ مما في أيدي الناس، ومن أية إمكانية للتغيير والتقويم والإصلاح.

«الحُجَّتِيَّة» يقرؤون ويحلِّلون التاريخ علىٰ طَريقة مَرْجعيَّاتنا التقليدية... وَقَفوا علىٰ ما فعلَته الأُمة بـ «أهل البيت» عليهم السلام، فرأوا أن ما يحلُّ بها من الظلْم والقهْر وغلَبة الباطِل، ومن ثَمَّ الجهل والتخلُّف، وحكومَة هذه الأنظمة الدكتاتورية، هو نَقِمَة إلهية وعقاب ربَّاني علىٰ خذلانها الحقِّ ونُصْرتها الباطل (وإن كان ذلك من عَوَامها المغلُوبين علىٰ أمرِهم، في القلوب دُون الأفعال، فهم يحبُّون عدوَّ «آل محمد»)، ونتيجة حتمِية لِعَصَبيتها القَبَلية والقومية ضد «بني هاشم» وشيعتهم!

فكأنه قدَرٌ لا يملِكون تبديله، ومَصِيرٌ لا يتغيَّر إلّا بتغيير وَاقعهم وما يقطَع أسبابه وعلَله، وعلىٰ رأسها قضِية الولاء لـ «أهل البيت» عليهم السلام، فما داموا يجحَدُون حقَّ «آل محمد» فلن يَروا في دنياهم، ناهيك بأُخراهم خيراً. عليهم أن يذعِنُوا ويتُوبُوا، ويدخلُوا الباب سُجَّداً ويقولوا: "حِطَّة"، عسىٰ أن يغفر الله لهم خطيئَتهم العظمىٰ، فإن فعَلُوا فستتَحسَّن دُنياهم وسيفتح الله عليهم أبواب السماء وينزل مَوائد الجنان، لٰكن ما داموا علىٰ عِنادِهم، يعرِضُون عن "الاْثني عشر أسباطاً" إلىٰ «السامري» و"عِجلِه"، يفضِّلون البَقْل والقِثَّاء علىٰ المنِّ والسلوىٰ، ويستبدِلُون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خَيْر، فستضْرِب علَيْهم الذلَّة والمسكَنة وسيبوؤون بغَضَبٍ من الله، ذلك بأنهم كَفرُوا بأعظَم آيات الله وقتَلُوا أشرف وأعز أولاد النبيين بغَيْر حَقٍّ، أو أنهم رَضُوا بذلك، فدَخُلُوا في مَن ﴿عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

أوقَفَتْ «فرشته» اْسترساله وقاطَعَتْه ساخِطة غاضبة:

زُخرف أفَّاكين وزُور بطَّالين، ترَّهات ومماحكات...

ما هي الآية التي تكرِّرها عليَّ كلَّما طَالَ بيننا الحوار وعجَزْتَ عن إفحامي؟ تغمز فيها إلىٰ العناد واللجاج.

: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

: نعم، جَدَلاً... هل رأيت سارِقاً أو كاذباً أو مرتكِب أي قبيح، يَشْعُر ويعيش جريمته وقُبْح فِعلته؟ فإن شَعَر، هل له أن يُقرَّ ويعترف؟ أم تراه ينقلِب علىٰ مقاييس الجمال حتىٰ يقلبها، فيبرِّر لِفعلَته ويسوِّغ لِنيَّته ويزيِّف في وَاقعه، حتىٰ يُصْبح المعروف منكَراً والمنكرُ مَعْرُوفاً!؟

ما هٰذا الذي سُقْتَ عنهم وأفَضْتَ فيه إلّا التحايل والتبرير... زخرفٌ صيغ ليَجْعَل "القـدَر" المِشْجَب الذي نعلِّق عليه أهواءنا، ونغوي به الناس ونغرِّر بهم ما أمكَننا!

مقُولَـة الجبريين وحِيلَة العاجزين: "لـو أرادَ الله لنا مَلِكَاً غير مليكِنا لملَّكه"، فَـذْلَكَـات علماء البلاط «الأُمـوي» التـي رسَّخت "المـدرسـة الجبريـة"، وبضَاعَتُهم التي علَوا بها الرقَاب وتسَلَّطـوا علىٰ مُقدَّرات المسلمين قروناً، فلم يسقطهم إلّا «السفَّاح»، بـ "منطِقهم" وسلاحهم، راداً عليهم بِضَاعتهم، وموَظِّفاً قراءة "جبرية" "قدَريَّة" لروايات تتنبّأ بـ"رايات سُود" تقْدُم من المشرق، أي من هـٰذه الأرض («خراسان»)، فكأنَّ الأحاديث النبوية المعنِيَّة "إنشائية" تدعـو للعمل وتحثُّ علىٰ تحقيق النبوءة، وليسَت "إخبـاريَّـة"!... مهـازِل جَرَّت علىٰ الأُمّـة الوَيْلات، واْستِخفاف بالعقول وَرَّث مآسٍ ما زالت تدفع أثمانها.

نفس المنطق والفذلكات التي جمعَت الكنيسة، كنيسة محاكم التفتيش، مع أُمراء الإقطاع وملُوك أُوروبا في القرون الـوسطىٰ، في تحالف كانت نتيجته الأبرز عصر الظُلْم والظلام.

: مهلاً يا أمَةَ الله... أين ذهبت وشطَحْتِ؟

: دَعْني لشأني، لقد طَفَحَ بي الكيل!

كم أمقت هـٰذا العرض المزري والتعاطي التجارِي للدين، إنها مناوَرة قبيحة واْتجار وَقح، كم هو سَهْل أن تكون في عِداد الملتزمين ولا يقيِّدك ما يمسُّ رغباتك ويكبَح شهواتك ويحدِّد نِطَاقَ "دُنياك"...

يتقلَّب أحدُهم في الترف والبطَر، وكأن ليس في الإسلام مفهُوم للزهد، فإذا سألته واْعترضت عليه، قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَـادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُـلْ هِىَ لِلَّـذِيـنَ ءَامَنُوا فِـى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلـدُّنْيَا خَـالِصَةً يَـوْمَ ٱلْـقِيَـٰمَةِ كَـذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، و "إنَّ الله يحب أن يرىٰ آثار نعمته علىٰ عبده". خاضِـعٌ خانع، جبَان رِغْدِيد، إذا أنكَرْتَ عليه السكُوت عن الظلـم وتَركِ النهي عـن المنكر ردَّ بأن "التقيَّة ديني ودين آبائي"... كم سَهْلٌ هـٰذا الدين، ويسير هـٰذا الاْلتزام!؟

ثم دعني أُقابل ما ذكَرتَه عن فلسفة «الحُجَّتِيَّة» من فلسفتهم:

أليس ما زَعمُوا عن السُّخْط الإلهي إنَّما هو في "الأُمة" المغضوب عليها، التي ناصَبَت «أهل البيت» ووَالَت غيرهم؟

ما بالنا نَحْنُ الذين لا يشملنا السُّخْط والغضب الإلهي وما حلَّ بالقوم من تسليط الظَلَمة وتمكِين العُتاة والدكتاتوريات، وما إلىٰ ذلك من أسباب كانت نتيجتها الأنحِطَاط الذي هُمْ فيه... ما بالنا نَحْنُ، نَحْنُ الأُمة المرحومة، نَحنُ الفرقة الناجية والجماعة الفائزة؟ كيف يقْرأ هٰؤلاء «الحُجَّتِيَّة» حالنا ووَاقعنا، ومن ثَمَّ تكليفنا؟ هل سيجدُون فذلكة غيبية أُخرىٰ يفَلْسِفُون بها القُعُود والركون إلىٰ الظالمين؟ ماذا سيقدِّمُون من تبرير لتقاعُسِهِم وجُبنهم ومَيلِهم إلىٰ الدَعَة والدنيا؟

: رحماك يا فتاة... ما هٰكذا تورَدُ الإبل، ولا يستدَلُّ علىٰ المفاهيم الدينية، علِمتِ شيئاً وغابَتْ عنكِ أشياء، أيسمَحُ لمهندس أن يَصِفَ علاجاً لمريض أو يُباشِر جراحَة؟ أيجوز لتاجِر أن يقودَ طائرة ويحلِّق بركابها؟ أيفقه بناءٌ في عُلُوم اللغة وأسرار البيان والبلاغة؟ بل حتىٰ في القِطَاع نفْسِه، في الرياضة مثَلاً، أيجيد مُصَارع من الوَزْن الثقيل، عظيم البنية، مفتُول العضَلَات، أيصْلُح لِكُرَة القدم، فيقدِّمُوه لِركْل الكُرة من ضَرْبَة جزَاء مصيرية لفريقه؟

إنها نُصُوصٌ دينية، أي هي خِطَابٌ سماويٌّ مُباشِر من الله سبحانه وتعالىٰ، تنزَّل وتنزَّل، حتىٰ صَارَ كلماتٍ تقرأ وقرآناً يتلىٰ، أو هي أحاديث وروايات ممن ينطقُ عن وَحْيٍ يُوحىٰ... والأنتزاع والأستنباط منها علمٌ خطَير، وفهمها تخصُّص وفنٌّ عَصِيب، أين أنت عنه ومنه؟

ليسَتْ القضيَّة محاجَجَة وإفحَاماً، إنها دِين يلقىٰ المرءُ به ربَّه، هل نُريد ثَوْرة إسلامية، أم إسلاماً ثَوْرِياً؟ هل نريد الحكم الإلهي والتكلِيف الشرعي، أم نريدها ثَوْرة علىٰ مقاييسنا وما نفصِّل؟

هل نُريدُ حركةً تمضي علىٰ هَدْي القُرآن وسِيرة «أهل البيت» عليهم السلام، أم أن نَلْوِي عُنُقَ الحقيقة ونؤوِّل الدين ونديره ما دَرَّت الثورة وأنتَجَت مقولاتها؟! نحنُ لا نثُور للظلم والفقْر والفساد ولاستيلاء الأجنبي وعملائه علىٰ بلادنا فحَسْب، بل لأن الله تعالىٰ أمر بذلك وكلَّفنا به، ووَعَدَنا الأجْرَ والثواب عليه.

إنَّ ما بين الشجاعة والتهور أقلُّ من شَعْرة، وما بين الجبن والإحجام وبين الحكمة والأناة، أدقُّ من خيْطٍ رَفيع، وما بين حُسْن الظنِّ والسذاجة أرَقُّ من مُلاءة، لو أُزيحت لَتَداخل المفهُومَان واختلَطا في الفكرة والمصداق حتىٰ تُدخِلَ صاحبها في الحُمْق، أو تُبْقِيه حيث لا محمِلَ خَيْر، وتخلِّفه مع سُقْم فؤاده وخُبْث نفسه الغارقة في سُوء الظنِّ... والتكليف الشرعي أمرٌ في غاية التعقيد يا «فرشته»، قد نفهم الوضُوء ونستوعب الطهارة نظافة وصِحَّة، ولكن بالله عليك كيف تفهمين التيمُّم والتمرُّغ بالتراب نظافة؟ كيف تفهمين شعيرة الهدْيِ في الحجِّ؟ مئات آلاف الذبائح مُلقَاة علىٰ الأرض هدراً والمجاعات تفتِك ببلاد المسلمين؟ ليس الأمرُ بيننا وبين «الحُجَّتِيَّة» أو غيرهم من المدارس الفكرِية والأحزاب الدينية والسياسية مباراة في إثبات "الثورية"، وكأن "الثورة" حقٌّ مفرُوغ منه، فيذهب كلُّ طَرف في المزايدة والتبرير لموقفه بما يزلفه منها ويلْحقه بها، أو يبرِّر بُعْدَه عنها، ما يُدريك لعلَّ الحق في الركُون والسكون وما يُسمَّى بالقعود! لعلَّ "التقدمية" تكون في هذا دُون ذاك؟

«الحُجَّتِيَّة» يحملون - في الواقع - رؤية فقهائنا وقَنَاعَات مرجعياتنا التقليدية، أو لأقُل أكثرها، وهي رؤية مُوغلَة في القِدَم والأصالة، حكَمَت الطائفة قرُوناً متمادية، ومَضَت عليها من بعد «كربلاء» حتىٰ يومنا هذا، وما كانت الثورات والنهضات في تاريخنا إلّا استثناء عن الأصل وخرُوجاً عن القاعدة!

لسنا "قرامطة" ولا "زِنْج" ولا "حشاشين"، نحن "إماميُّون"، نرىٰ التقدُّم علىٰ حركة «الإمام» مُروقاً والتـأخُّر عنها هَلاكاً... نحن نريد أن نكون معهم معهم، لا مع غَيْرهم.

لعلَّ مَراجِعَنا العظام لا يستطيعون كَشْفَ هذه الحقيقة وإعلانها، أو التصريح بها وإطلاقها، حقيقة أننا لسنا ثوريين نلتزم القيام نَهْجاً وخَطّاً ثابتاً، لأنها تبقىٰ قناعة ٱستقرَّت في وُجدَانهم لا ترقىٰ أدلَّتُها إلىٰ الحكم والفتوىٰ. فكأن «الحُجَّتِيَّة» تقوم بهذا الدور عبْر تنظيم عصري...

ولا يخفىٰ عليكِ ما بين "التقليدية" و "الرجعية"، في لغتنا وثقافتنا نحن "التقدُّميون"!

قالها «محسن» بتهكُّم، ومضىٰ يكْمِل:

كما قرؤوا وحلَّلوا التاريخ من منطلق عقائدي، فإنهم جمعُوا إلىٰ ذلك رؤية أخلاقية وفَهْماً ٱجتماعياً، فخلصوا إلىٰ نتيجة خطيرة هي مَنع القيام وحَظْر الثورات، بل حَظْر مُطلَق النشاط السياسي المعارِض للحكومات، وما ٱنتهىٰ بهم - في وَاقع الحال - إلىٰ تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الميدان السياسي، من حيث عدَم ٱكتمال شروطه وبالتالي عَدَم تحقُّق وُجوبه، وأهمها القدرة، والتكليف فرع الأستطاعة، وينطلِقون من الآية الكريمة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ *...

---

* مما يجدر التوقف عنده في موضوع القُدرة والأستِطاعة ودوْرها في توجُّه الأمر الإلهي وتحقق التكليف الشرعي، أن «الإمام الخميني» تبنىٰ نظرية "الخطابات القانونية" مقابل القائلين بـ "ٱنحلال الخطاب"، وهي من مسائل عِلْم الأصول، وما يمكن تقريره عنها هنا، مما يحتمله المقام: ◄◄

«

إنَّ الشارع المقدَّس أصدَر أوامره ونواهيه على نحْو الخطاب الكُلّي العام الذي لا تُلاحَظُ فيه خصوصيات المخاطَبين وحالاتهم، كما هو شأن أي تشريع ولو كان وَضعيّاً، فـ "القانون" يتوجَّه إلى المجموع ولا ينظر إلى آحاد الأفراد والجزئيات، ولا يتوجَّه لكلِّ مكلَّف بخطاب خاص به (كما يذهب القائلون بالأنحلال)، بل أُطلقت الأوامر والنواهي وتوجَهَت على نحو القانون.

فالخطاب بوُجوب الصلاة كان أمراً واحداً كُلِيّاً عاماً، يشمَلنا جميعاً كما شَمَل مَن كان قبلنا وسيشمل ويتوجَّه إلى من سيأتي بعدنا، لا أن كلَّ فرد يبلغ سنَّ التكليف أو كل نائم يصحو أو مجنون يفيق أو فقير يستطيع، يصدر إليه أمر إلهي خاص به ويتوجَّه إليه بأن: حجَّ، صلِّ، صُم، زكِّ، وأجتنب الخمر، لا ترتكب الزنا، لا تكذب، لا تغتب، و...، غاية ما هناك أن غير المكلَّف كالصغير والمجنون والنائم والمريض، لا يلام ولا يؤاخَذ، ويحجَب عنه العقاب لِعذره، لا أنه لم يكن مخاطَباً ولا مكلَّفاً من أصله.

ولهذه النظرية ثمَرات هامَّة في مسائل علمية عِدَّة، منها التزاحم والتكليف التحريمي، وكيفية التخلّص من مشكلة الجمع بين الأحكام الظاهرية والواقعية، فقالوا بـ: "إمكان ترشح الإرادة الجدية، بالنسبة إلى الواجبات النفسية والطريقية، على نعت الخطابات العامة الكلية القانونية، وبذلك تنحل مشكلة الجمع بين الأحكام الظاهرية والواقعية، وإلّا فالقوم فيه صرعى، فالأكثر لم يصلوا إلى المشكلة، ومَن وَصَلَ إليها فرَّ من قَسْوَرة، بإنكار الإرادة الجديَّة في موارد وُجود الأمر الظاهري بالنسبة إلى الأمر الواقعي، أو إنكار الإرادة الجدية بالنسبة إلى الأمر الظاهري لأهمية الواقع"، كما ذكر «آية الله السيد مصطفى الخميني» ﷺ في كتابه: (الخلل في الصلاة) ص ١٤٦.

ومن المسائل والثمَرات الخطيرة: عدَمُ جريان البراءة عند الشَّك في القُدرة، لِلزوم إحراز العُذْر بعد العِلْم بالتكليف.

ومن هذا المنطلق يظهر الفرْقُ بين المدرستين في التعاطي مع مسألة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فالقائلون بأنحِلال الخطاب، لا يَرَوْن أن التكليف الشرعي توَجَّه إليهم أصلاً، إذ هُم عاجزُون غير قادرين، فالأستطاعة شَرْطُ التكليف، وما لم تتحقق لن يتوجَّه خطابُ التكليف ولا وَجَبَ عليهم شيء. بينما يذهب القائلون بوحدَة الخطاب والخطابات القانونية إلى أننا مخاطَبون بوُجُوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توجَّه التكليف إلينا وكُتب علينا، غاية الأمر أننا لن نعاقَب ولن نحاسَب إذا كنَّا عاجزين غير مستطيعين فعلاً، ولا بدَّ لنا من الفراغ من فعلِية العجز وعدم الأستطاعة. وشتان بين مكلَّف يريد تنجُز البراءة والفراغ مما تعلَّق بذمته، وآخر يرى أنه بريء الذمة، وأنه لم يخاطَب أصلاً ولم يكلَّف. «

وَقَفوا علىٰ تكالُب أهل الدنيا علىٰ حُطامها، وٱنكِباب أرباب الباطل علىٰ فسادها، وٱستعدادهم الخرافي للجَوْر والبَطْشِ والتنكيل وسَحْق وتدمير كلِّ شيءٍ في سبيل مُلكِهم وسلطانهم... لا يعِفُّون عن دنِيَّة، ولا يترفَّعون عن عار ولا يرقبون في أحدٍ إلَّاً ولا ذمَّة، وقد سجَّلوا الفجائع التي ٱرتكبوها علىٰ مرِّ التاريخ، حتىٰ بنوا الجدران ورَفَعوا الأُسطوانات والأعمدة علىٰ جثث العلويين والشيعة!

كما تبيَّنوا خِدَاع وتدليس جُلّ الذين ثاروا علىٰ «بني أُمية» و«بني العباس» وعلىٰ مَن تلاهم من أئمة الجور حتىٰ يومنا هٰذا، في رَفع الرايات والنداء والدعوة إلىٰ "الرضا من آل محمد"، أو تفريطهم في الواقع الشيعي وتكليفه ما لا يحتمل ولا يطيق.

وبين أيديهم نصوص كثيرة، من قبيل ما في صدر (سند) ‹الصحيفة السجادية›، في محاوَرة «يحيى بن زيد» مع «المتوكِّل بن هارون»، عن «الإمام الصادق» عليه السلام، فيه:

> ما خرج ولا يخرج منَّا أهل البيت، إلىٰ قيام قائمنا، أحدٌ، ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً، إلّا ٱصطلمته البلِيَّة، وكان قيامُه زيادة في مكروهنا وشيعتنا (أي مكروه شيعتنا).

وبتعبير «السيد الخميني» نفسه، كما جاء في تقريرات «الشيخ جعفر السبحاني» في ‹تهذيب الأُصول›):

"فلو قلنا بمقالة القَوْم فلا مَناصَ عن البراءة، لأن فِعْليَّة التكليف علىٰ مباني القَوْم (هي) من حدود التكليف وقيوده، فالشكُّ فيها شكٌّ في أصل التكليف، نعم علىٰ ما قلنا من كَوْن الخطابات القانونية فِعْليَّة في حقِّ القادِر والعاجز، غير إنَّ العاجز معذورٌ في ترك ٱمتثاله، فعند الشكّ فيها لا مَناصَ عن الأحتياط، إلّا مع إحراز العذر وإقامة الحجَّة بعد تمامية الحجَّة من المولىٰ. فالشك في القُدرة مَصَبُّ البراءة علىٰ مباني القوم كالشك في الأبتلاء لا علىٰ المختار، فتدبَّر". ■

وفي «الكافي الشريف»:

سمعت «أبا عبدالله» عليه السلام يقول: عليكم بتقوىٰ الله وَحْدَه لا شريك له، وٱنظروا لأنفسكم، فوالله إنَّ الرجل ليكون له الغَنَم فيها الراعي، فإذا وَجَدَ رجلاً هو أعلم بغنَمه من الذي هو فيها، يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغَنَمِه من الذي كان فيها. والله لو كانت لأحدكم نفسان يقاتل بواحِدة يجرِّبُ بها، ثم كانت الأُخرىٰ باقية، فعمل علىٰ ما قد ٱستبان لها، ولٰكن له نفْسٌ واحِدة، إذا ذهبت، فقد ـ والله ـ ذهبت التوبة، فأنتم أحقُّ أن تختاروا لأنفسكم، إن أتاكم آتٍ منَّا، فٱنظروا علىٰ أي شيء تخرجون؟ ولا تقولوا خَرَجَ «زيد»! فإن «زيداً» كان عالماً، وكان صدُوقاً، ولم يدعكم إلىٰ نفسه، إنما دعاكم إلىٰ "الرضا من آل محمد"، ولو ظهر لوَفىٰ بما دعاكم إليه، إنما خرج إلىٰ سلطان مجتمع لينقضه. فالخارج مِنّا اليوم إلىٰ أي شيء يدعوكم؟ إلىٰ "الرِّضا من آل محمد"؟ فنحن نشهدكم أنا لَسنا نرضىٰ به. وهو يعصينا اليوم، وليس معه أحد، وهو إذا كانت الرايات والألوية أجدَر أن لا يسمع منّا.

ثم يذكر «الإمام الصادق» عليه السلام علامات ظهور «المهدي» عليه السلام وقيامه، وكأنه يحصر الأمر بعد ما ذكَّر به وحذَّر منه:

إلّا مع مَن ٱجتمعت بنو «فاطمة» معه، فوالله ما صاحبكم إلّا من ٱجتمعوا عليه، إذا كان رَجَب

فأقبَلوا علىٰ ٱسم الله عزَّ وجلَّ، وإن أحْبَبْتُم أن تتأخَّروا إلىٰ شعبان فلا ضَيْر، وإن أحببتُم أن تصُوموا في أهاليكم فلَعلَّ ذلك أن يكون أقوىٰ لكم، وكَفاكُم بـ «السفياني» علامة.

وأُخرىٰ في «الكافي» تقول:

كلُّ راية تُرفع قبل قِيام «القائم»، فصاحِبُها طاغوت يُعبَدُ من دون الله.

وعلىٰ الرغم مما يَرِدُ علىٰ هٰذه الروايات من مناقشات كثيرة في السند والدلالة، إن لم تسقِطها عن الٱعتبار، فإنها تجعلها قاصرة عن الٱستدلال علىٰ النهي والتحريم، مقابل أدلَّة الفريق الآخر... لٰكنها ٱستطاعت، بتضافر سيرة علمائنا من عَصْر الغيبة حتىٰ يومنا، سيرة محكومة بمنطق "التقية"، وقراءة وَاقعية للمشهد السياسي الغارِق في الفوضىٰ والعبثية، الممعن في الدنيوية، أن تخلق قناعة وُجدانية باليأس مما في أيدي الناس.

فترك «الحُجَّتِيَّة» الحقل السياسي وعزَفُوا عنه، وٱنصرفوا للمعركة العقائدية، التي رأوا وقالوا بأنَّ العجز وعدَم الوُسع والقُدرة وعموم ظروف "التقيَّة"، لا تُسقط التكليف فيها، لذا فَهُم يتصدَّون لـ «البهائية» ويقارعون «الوهابية» وينبرون لكلِّ مَن يمسَّ الولاء وينال من «أهل البيت» ويتعرَّض فكرياً لـ «التشيع» عقيدة وشريعة *...

* هنا وَقفَة قد تطول، فالتقية ومنع القيام كحُكم شرعي يرتكز العمل به علىٰ الخوف، لا علىٰ طبيعة المنكر المنهيِّ عنه أو المعروف الذي يُدعىٰ إليه، اللهم إلّا في موارد محدَّدة كقتل النفس المحترمة، وحكم الدفاع، وهو خارج إما تخصيصاً أو تخصُّصاً. من هنا يعيب خصوم «الحجَّتية» عليهم ويطعنون، ويُرجِعون ٱستغراقهم في هٰذا الميدان، وهو نَحْوٌ من القيام والجهاد وتعريض النفس للأخطار، دون الصراع مع حكَّام الجوْر، يعزونه إلىٰ الجبن وطلب العافية، فـ «البهائية» و«الوهابية» في «إيران» لا سجُون لديها ولا معتقلات، والخطر المرتقب منها لا يورِث هلَعاً، كما أجهزة المخابرات! لذا فالقوم في وَاقع أمرهم "ثوَّار" ولٰكن في جبهة أُخرىٰ!

لقد ثار «الزيديُّون» و«الحسنيُّون» بعد «الطفِّ»، وأنتفض آلاف الغيارىٰ علىٰ مدىٰ التاريخ، فماذا صنعُوا وماذا أثمَرت حركاتهم؟

أعلم أن سؤالي خاطئ، فالملايين قضوا حياتهم يُصَلُّون، فهل يصحُّ أن أتساءل: ماذا أحدَثت صلاتهم وماذا فعلَت؟

لم أسمَع ما سأقوله لكِ الآن منهم، ولم أقرأه في كُتُبِهم، ولكني أرىٰ نظريتهم تدعو - في جَوْهَرِها - إلىٰ الثورة السلبية، المقاطعة، عدم الدخول في الأنظمة والاشتراك في الحكومات بأي نحو! شيء من فكرة "المستبدَّة" مقابل منطق "المشروطة".

دعيني أُقِرُّ لك بشيء يا «فرشته» وأكشف عن سِرٍّ، إنني أهوىٰ هٰؤلاء «الحُجَّتِيَّة» وأميل إليهم، وهٰذا سرٌّ لم أبحْ به لأحَد، وأمر يتكتمه كثير من شبابنا وعناصرنا الذين كانوا في صفوفهم، بل ترينهم يتنكَّرون لماضيهم وينفضون جيوبهم من "تهمة" «الحُجَّتِيَّة»، فكيف بي وأنا لم أنتسب إليهم يوماً، لماذا أفتعل لنفسي المشاكل وأخلق الصعاب من سطوة قادتنا وإرهابهم الفكري؟ إنهم يُلاحقُونني علىٰ تصرُّفات وأفكَار مشتَّتة لا يحبِّذونها، ونشأة يَرَوْنها "برجوازية" أو "أرستقراطية"، ما يدريني؟ فكيف إذا علموا عن إعجابي بـ «الحُجَّتِيَّة»؟...

نعم إنني أراهُم أقوىٰ ديناً مِنَّا وأشدَّ التزاماً، وأسلَم نفساً وأصفىٰ سَريرة وأنقىٰ فِطْرة، وأعمق ثقافة ومعرفة في الدين، إنَّ أجواءهم الروحية تأخذني وتسحرني، وأستشعر فيها رضىٰ الله وقربَه أكثر مما أشعر به في أجواء جلساتنا ومحاضراتنا، بل وحتىٰ أنشطتنا الحركية العملية!

ولكني - في المقابل - ممتلئٌ غيظاً وقَهراً، مَشْحُون بالمآسي التي تجرُّها الحكومة علينا، حانقٌ علىٰ هٰؤلاء الظلمة الذين قهرونا وأذلُّونا، فلا أُطيق صبراً، بل أنا أتحرَّقُ للشهادة، وفي نفسي أن أتخلَّص من هٰذه الحياة وأُفارق الدنيا الدنية!

هٰذه الحكومات هي سَبَب تعاستنا وشقائنا، وعلّة تردِّي أحوال بلدنا وتخلُّفنا، وهي لا تفهم لغة غَيْر العنف، ولا تحسن حِواراً إلّا بالسلاح، وقد صمَّتْ آذانها عن النصيحة والإرشاد، فلم تعُد تسمَع إلّا الأنفجار ودَوِيَّ الرصاص، فماذا نصنع؟ إما أن نُسقطَهم ونقوِّض عروشهم ونقضي عليهم، أو أن تعمَّ الفوضىٰ، وفيها ما يعرِّض مصالح سادتهم، الغرب الذي خدَعكِ بمظاهره، للخطر ويتهدَّدها، كأن ينقطع تدفق النفط، أو يعود "المستشارون" في توابيت ملفُوفة بأعلام بلدانهم... عندها سيتخلَّون عن «الشاه» ويبحثون عن بديل يجهض الثورة ويقطَع الطريق علىٰ نصرنا النهائي، وبين هٰذا وذاك نرتقب نحن الظفر ونأمل الفرج.

لم نلجأ إلىٰ العنف حُبّاً في العنف، ولا من قسوة فينا وغلظَة، وتنكُّراً للرحمة والدعوة بحُسْن القول وجميل الفِعْل، ولٰكنه مَرْكَبُ المضطر، ودَواء من أعياه العلاج، فلجَأ إلىٰ الكَيِّ.

ثم أخذَ «محسن» بكفِّ «فرشته»، وجعَلَ يتحسَّس لدَانتها وكم هي رخْصة بضَّةٌ، وصارَ يمازحها ويداعبها: أتعلمين ما "كواعب أتراباً" التي يبشِّر الله المؤمنين ويعِدهم بها في جنته؟ شيءٌ من هٰذا يا ملاكي!... ثم طبع قبلة دافئة في راحتها، وأدارها حتىٰ جعلها علىٰ صفحة وَجْهه، واَتخذها مُتَّكأً أو وِسادَة، كمَن يريد أن يقضي غفوة ويَقيل عليها، وراحَ في نوبة رومانسية حالمة، بل في شطحة وَجْدٍ صوفية، يحدِّثها، أو أنه كان يحدِّث نفسه، ويشكو آلامه، ويناغي آماله، ويتطلَّع إلىٰ مستقبله:

لا تستفيقي من أحلامك يا فتاتي ولا تقطَعي الرَّجَاء من آمالك، لا تخلعي عنك ثوْبَ الزَّهْوِ بالكمال والتغنِّي بالجمال، وتهبطي إلىٰ وَاقعنا العليل، دَعْكِ هناك، كُوني كما تشائين وترغبين، عيشي أُفقك الرائع وسمائك العالية، فأنتِ "مَلاك" بلُغة القرآن (العربية)، هٰكذا أنتِ أروَع وأجمل، وهٰكذا أستمدُّ منكِ العَوْن وأنهل، وأستقي الريَّ وأُطفئ الظمأ.

إنَّ هـٰذه الأرض الهامدة الخامِلَة التي تـرَيْن وتنظـرين، لا تبعَث فيك إلّا الحزن والألـم بعد اليأس والقنوط، من فرْطِ ما هي مستغرقة في الغفلَة، بل غارقة في النوم والسبات حتىٰ المات! خامِدة كسولة عطِلَة، ساكنة عن الحراك، اللهـم إلّا للتمـطّي والثـؤباء... مستلقِية من إعياء، كأنَّ مارِداً ضخماً يفوقها حَجْماً ويغلبها قوّة وقهراً، كبَسَ عليها وجَثَم، وأخذ بمخانقها وكتَمَ أنفاسها، فأستسلمت لِقَدَرِها تنتظر مصيرها ولا تراه غير حتفها.

حتىٰ المزن الذي أمَّلَت أن ينهمر يوماً فيكون نضْحاً ورَشَاشاً ينعشها ويفيقها من نومتها أو إغماءتها، إذا به يسقيها خمراً، فلا تتلقىٰ ولا تشرب هاطلاً غير الإثم والأفيون، والندىٰ الذي رَجَتْ أن ينعشها بَرْده ويدغدغ بشرتها لُطفه، راح ينشر في أطرافها النعس والخدر، يَعُمُّ أرجاءها ويتغلغل إلىٰ جوفها ليعشعش في قلبها، فلا تقبل غَرْساً ولا تحمل شتلاً، فترنَّحت وتراخت حتىٰ هوت، أو هي وَنَتْ وأعْيَتْ حتىٰ كلَّت وملَّت فأستلقت يغلبها النعاس ويخيِّم عليها اللغَبُ والنَّصَب، ويختم عليها الموت، تحكي النهاية، وتنعىٰ نفسها بصَمت، منعها من كلِّ شيء، حتىٰ البكاء!...

ستهتزُّ هـٰذه الأرض يَوْماً وتربُو، ستفيق وتنتفض من عَصْف الرياح، وستستجيب لِقَصْفِ البرق ورَعْد السماء، وصيحات التكبير تملأ الآفاق، ستصحُو علىٰ هدير خبط أقدام الأُباة، وتقُوم من تحت وَقع خُطوات المجاهدين... فإن كابرَت وتجاهلَت، وأصرَّت علىٰ صدِّها وعنادها، فستأتيها زلزلة تخرج أثقالها، حتىٰ تحار في أمرها وتقول هي، لا الإنسان: ما لها؟! فتَسْطَعُ عليها وتغمرها أشعة شمْس الصفَاء، وتتفجَّر من جَوْفها عُيون الولاء، وتخضرُّ رُبُوعها وتزهر جنباتها ويعشوشَب أديمها، ويفتر ثَغْر سمائها عن بَسْمَة مُشْرِقة وَضَّاءة، كَبَسمتك الجميلة هـٰذه يا ملاكي!

إننا مَوْعُودون ومبشَّرون، نحن "منصورون"...

(وهي تسْمِية إحدىٰ ألوية الجهاد والفصائل التي كانت تمارس العنف الثوري وتنهض بالعمليات الأمنيَّة، من تفجيرات وٱغتيالات تطَال كبار المسؤولين في النظام، وتستهدف ضبَّاط "السافاك"، وخبراء النفط «الأمريكيين»، والمستشارين العسكريين الأجانب المشرفين علىٰ الأسلحة المتطورة التي كانت «أمريكا» تزوِّد «الجيش الإيراني» بها، وما إلىٰ ذلك من أهداف تخدم ضعضعة الأمن وتصبُّ في ما ينال من الأستقرار ويضرب دعامات النظام ومفاصله، إلىٰ أن تحولت في الآونة الأخيرة التي سبقت ٱنتصار الثورة إلىٰ ميليشيات تسيطر علىٰ بعض الأحياء ليلاً، وأحياناً علىٰ مدن كاملة).

أنِسَتْ «فرشته» وطَرِبَت وقرَّت عيناً، وراحَت تواسِيه ثم تجاريه وتوافقه، أو أنها ٱلتزمت حدُودَها في الحوار وتوقَّفت حيث يجب عليها، أو ينبغي لها أن تقِف، وقد أدركَت أنها تمادَت! وعلىٰ طريقتها، إذ ما أرادَت أن تصْلح ما أفْسَدَت بتماديها وتجبر ما كسَرَت بإغراقها، لجأت إلىٰ لحن الأمل والرجاء، وراحَتْ تنفي اليأس والشكوىٰ، وتلتمس ـ معه ـ العزَاء في قيادة «الإمام الخميني»، الوَحِيد القادِر علىٰ قَلْبِ ظَهْر المِجَنِّ علىٰ هٰؤلاء، وٱستنهاض مكنُونات الثورة وكنوزها، المتمثِّلة في القاعدة الشعبية والمدَّخرة في الجماهير، فهناك القوة الحقيقية...

عادَ «محسن» يصِف لها «الإمام الخميني» وهَيبته، ويصحِّح من نظرتها إليه، دون أن يَمَسَّ بمقامه وينالَ من شخصِه، فهو الآن من مُرِيديه وأتباعه و"مقلِّديه":

لقد أغرَقوا وأفرَطُوا وبالَغوا كثيراً... ٱصطنعُوا هيبة خلَعها العنوان المقدَّس، قبل السيرة والسلوك، والعِلْم والفقاهة، وكل ما يمكِن لِبَشر عاديٍّ أن يبلغه من مَراتب الرقيِّ والتكامل...

عنوان "نائب إمام الزمان"، «المهديّ المنتظر» عليه السلام، الذي سيَمْلأ الأرض قِسْطاً وعَدْلاً كما مُلِئَت ظُلْماً وَجْوراً، بما يكتَنف ذلك الوُجُود الأقدَس وينبَعِث، من فيوضات المَدَدِ الإلهي وسُبُحات المجْدِ الربَّاني وأنوار الإمامة العظمىٰ وآفاق العِصمة المطلقة التي يحكيها وَاقعه الشريف، قبل أن ينقلها التراث والخبر، أو تخلعه عليه حالة الغيبة والأنقطاع، والبعد عن المشاهدة والأتصال.

فهذا الماثل هنا، هو نائب ذلك النائي في مُغيَّبِه هناك، بما تحمله النيابة و"النائب" من مداليل تتفوَّقُ ـ أحياناً ـ علىٰ "المرسَل" والرسول والمبتَعَث. وكأن الأجواء، أجواء الثورة وحماستها، والدعاية السياسية ودهاءها، وبعض الأمل والرجاء أو كثيرهما، وهكذا مُنطلقات الظُلامة وتراكماتها، وطَيْش العاطفة وتداعياتها، خلَطَت ومزَجَت، حتىٰ أوهمَت السنخية بين النائب والمنوب، وسمَحَت بعقد المقارنة والمقاربة، وأوْمَأت إلىٰ مماسة في "الذات" ومناهزة في "الصفات"! ويظهر الخطر عندما نقف علىٰ حقيقة الأعظم المتَّصل بالسماء، المطَّلع علىٰ خزائن الغيب... مَعْدِن الحكمة وباب العلم والرحمة، مَدار العصر وناموس الدهر، المظْهَر الأتم لِصِفَات الله والأجلىٰ لأسمائه! الذي يلاحِقُ المؤمنون شَخْصَه الشريف ويتتبعونه حتىٰ يزورونه من بُعد، وهو في ناحيته المقدسة، زيارة العاشق الوَله، الذي أخذه الوَجْدُ بحبيبه، فراح يخاطبه في كلِّ آن ويحييه علىٰ كلِّ حال، ويتصوَّره في كلِّ شأن:

السلامُ عَلَيْكَ في آناءِ لَيلِكَ وأطرافِ نهارك، السلامُ عَلَيْكَ يا بقية الله في أرضه، السلامُ عَلَيْكَ يا ميثاقَ الله الذي أخَذَه ووكَّدَه، السلامُ عَلَيْكَ يا وَعْدَ الله الذي ضمِنه، السلامُ عَلَيْكَ أيها العَلَمُ المنصُوب والعِلمُ المصبُوب والغَوْث والرحمة

الواسعة وَغداً غيْر مكذُوب، السلامُ عَلَيْكَ حين تقوم، السلامُ عَلَيْكَ حين تقْعُد، السلامُ عَلَيْكَ حين تقرأ وتُبيِّن، السلامُ عَلَيْكَ حين تُصَلِّي وتَقْنُت، السلامُ عَلَيْكَ حين تركَعُ وتَسْجُد، السلامُ عَلَيْكَ حين تهلِّلُ وتكَبِّر، السلامُ عَلَيْكَ حين تحمَدُ وتستغفِر، السلامُ عَلَيْكَ حين تُصْبحُ وتمسي، السلامُ عَلَيْكَ في اللَّيل إذا يغشىٰ والنهارِ إذا تجلىٰ، السلامُ عَلَيْكَ أيها الإمامُ المأمُون، السلامُ عَلَيْكَ أيها المقدَّمُ المأمول، السلامُ عَلَيْكَ بجوامع السلام...

هنا يظهر حَجْم الخطَر وفظاعة الخطْب وهَوْل الواقعة، من إلحَاق أو إسقاط حالة ـ مثل هٰذه ـ مُوغِلة في الوِتْر والحَكْر، مُتمحِّضَة في الأنفراد والأستِئْثار، ومستغرقة في التخصيص والتعيُّن، ارتبطت بإرادة السماء ومَشيئة الله سبحانه وتعالىٰ التي تعلَّقت بأثني عشر إمام معصوم، لا يزيدون ولا ينقصون، لم ينلْها أمثال «أبي الفضل العباس» و«علي الأكبر» و«إسماعيل بن الإمام الصادق»، و«السيد محمد بن الإمام الهادي» عليهم السلام علىٰ عظمتهم وجلالة قدرهم...

جَرُّها وخفضها، والنزول والأنحدار بها، وشملها وتعميمها علىٰ هٰذه المرجعية! (وإن كان «السيد الخميني» ـ في وَاقعه ـ مستحِقاً للتوقير والتبجيل، ولٰكن في حدُوده ونطاقه، الذي يحكمه مقامه، فهو مجرَّد فقيه مجتهد في عَرْض آلاف غيره علىٰ مَدَىٰ التاريخ)، أو عارِف سالِك، أو زعيم قائد... لا يعلَمُ الغيب، ولا يتمتَّع بالعِصْمة ولا يبلغ عُشر معشار أصغر وأقلّ شؤون «الإمام»، وكما عبَّر هو وكَرَّر، فجعل نفسه وتمنَّاها فداء تراب نعل «الإمام»).

هالَةٌ صنَعَها السياسيُّون...

إنني في شكٍّ من هـٰذه الحالة، وريبة من هـٰذه الهالة، فأنتِ لا ترَيْنها في المرجعيات الدينية غير السياسية، فلا شخصانية هناك ولا ذاتية. لا محورية يجتمع حَوْلها حزب، ولا قُطبية ينطَلِق منها عملٌ سياسي، وبالتالي لا أنقطاع إلىٰ مَرجع التقليد، ولا وَلاءَ لَه في شَخْصِه ولا تعلُّق عاطفي به، بل علاقة طبيعية من الـوُدِّ والمحبة والأحترام، إضافة إلىٰ علاقة الأخذ والتلقِّي العلمي الناشئة عن الأستفادة من العالِم والرجوع إلىٰ الخبير المتخصِّص.

غذُّوها وأذكَوها، إذ لم تَرَ الأجهزةُ والمؤسساتُ والأحزاب، المخلصون منهم أو الوصوليون، أفضل من هـٰذه الوسيلة في ترويض العامة وإخضاع الأُمة وأمتلاك قيادها والسيطرة عليها، فوظَّفوا "الهالة" وأستغلُّوها أيما أستغلال، وراحوا في الإغراق المدىٰ...

حتىٰ قال يوماً «فخرالدين حجازي» (من أركان حسينية الإرشاد) خطيب الثورة المفوَّه وصَوْتها المصقع، مخاطباً «الإمام الخميني» أن:

"أَلْقِ عَصَاكَ يا «موسىٰ» العصر لتلقف ما يأفكون"، يريد أعداء الثورة ومناوئيها، وراحَ يصُول في هـٰذا الميدان ويجول، حتىٰ أنتهَره «الخميني» وزجَرَه وأوقَف أسترساله، وأستعاذَ بالله أن يصدِّق يوماً ما يُقال فيه من هـٰذا الخطل والهراء!

لم تكن الصورة في مَن يقِف وراء هـٰذا التعظيم و"صناعة البطل وخَلْق الرمز" وَاضحة المعالم...

فمِن جهة كانت القيادات العليا للثورة (بمَن فيهم رجال أو علماء الدين)، ومَن بيدهم أزمَّة الأُمور وأعِنَّة الساحة، لا تؤمن ولا تعتقد ـ في واقع أمرها ـ بهـٰذا المقام، ولا تريد ولا ترغب في تحقيق هـٰذه الهالة وبروز "كاريزما" لـ «الإمام» بهـٰذا الشكل.

فالفكرة في أصلِها وتطبيقاتها تـدُور خارج متبنياتها وتنهَل من غير مشربها وتحلِّق بعيداً عن سِرْب ثقافتها، وهي مستَهْجَنة وغريبة عن المسحة الحِسية التي تسرَّبتْ إليها من المدارس اليَسارية، المناهضة لموقع رجل الدين، كائناً مَن كان، ناهيك بخطَر تعميق الخصوصيات الغيبية والسِمات الروحانية الملازمة لهٰذا الطرح.

هل كانوا يركبون مَوْجَة لا يستطيعُون مقاومتها، وينحنُون لِعاصِفة لا يُطيقون مواجهتها؟ فإذا تسلَّطوا وهيمَنوا، ونفذوا وتمكَّنوا، فاْستحوذوا علىٰ الثورة وسيطروا علىٰ الدولة، ووثقوا من اْنتفاء الخطر وتيقَّنوا زوال الحذر... أرخوا اللجام وأطلَقُوا العنان، ثم أخذُوا يضيفون - بدَوْرهم - ويزايدُون علىٰ غيرهم!؟

كان الاْنتصار بداية شِقَاقٍ ونزاع حاد بين فصائل حقَّقَت النصر مجتمعة، جمَعَها ظُلْمُ «الشاه»، ووَحَّدَتها دكتاتوريته و "عدالته" في توزيع الظلم!... وقد وَقَعَ الشقاق علىٰ صعيد النُخَب دون القاعدة والجماهير، فتمَرَّد "الشيوعيون" ("تودهط)، وعصا "القوميون" (الوطنيون الإيرانيون، "جبهه ملى")، واْنشق الأكراد، واْنتفض العرب، وظهرت "منظمة مجاهدي خلق"، وتلاحقت الفتن وتنامت الأحزاب.

فكان لا بدَّ من قائد يقهر هٰؤلاء ويرغمهم، وزعيم يسحب البساط من تحت أقدامهم، لا بدَّ أن ينبري مَن يطفئ الفتنة ويقضي علىٰ التمرُّد ويُرسي قواعد الدولة الفتيَّة... ولم يكن من بديل عن «الإمام الخميني»، الذي عليه أن يظهر، أو يُطرح بصورة أُسطورية تحقق الغاية المرجُوَّة.

ما زالوا يطْرُون ويقرِّظُون، يعَدِّدون مناقِب «الإمام الخميني» ويذيعون مآثره، يطنبون في فضائله وينشرون مفاخره، ينوِّهون بصنائعه ويثنون علىٰ خلائقه، حتىٰ كأنه لا يبلغ كُنْه محامده لَفظٌ ولا يحيط بمعنىٰ مَدْحِه وَصْف!

يخلعون عليه الصِّفَات، ويطوِّقونه بالألقاب، وينسجُون حولَه القِصَصَ والحكايات، ويجعلون، أو يهوِّلون، الكرامات وخوارق العادات، وتأخذهم في تبجيله وتعظيمه المذاهب، فأدرَجُوه في مصافِّ العصمة وألحقُوه بالأنبياء والأئمة!... حتىٰ إن «محسناً» نفْسَه، صدَّق أنه رأىٰ صورته ترتَسِم في القمر! وراحَ يبحَث في المصحف الشريف عن ريشَة ملوَّنة لِطائر (طاوُوس)، قيل أنه سيجدها إذا فتَحَ صفحاته المباركة علىٰ سورة «الفتح»! كإشارة إلىٰ معجزة النصر الإلهي في سقوط «الشاه» وقيام «الجمهورية الإسلامية».

أم أن هـٰذا التداخل والخلط، والإفراط والإغراق في التعظيم لم يكن كلُّه ٱستغلالاً سياسياً خبيثاً، ولا صنيعة الإعلام والتهويل، ولا نتاج العاطفة والحماسة، ولا وَليد الأجواء الثورية الأنقلابية، وما يكتنفها من زِحَام وفوضىً لا تسمح بالتنقيح، ولا تعين علىٰ فَرْز وتمييز الغثِّ من السمين، وعرض الأُمور في حدودها المنطقية وأُطرها العلمية؟...

بل نشأ بعضُه من مُعْطَيَات النصُوص الدينية نفسها، والأحكام الشرعية التي ألـزَمَت العامة بالطاعة وأوْجَبَتْ عليهم الأتّباع، تحْتَ مقولة "وِلاية الفقيه"، فظَنُّوا أنَّ هـٰذه السلطة هي من تلك الولاية، بل عينها! بمعنىٰ أن الفقيه يحمل في ذاته من ذلك الجوْهَر الغيبي وتنطَوي نفسه علىٰ السرِّ الروحي الذي يمكِّنه من الأتصال بالغَيْب والأنفتاح علىٰ خزائنه... نصوصٌ ذهَبَت إلىٰ أن الفقهاء هم "وَرثة الأنبياء"، و"أُمناء الرُسُل"، و"حصون الإسلام"، وأنهم "كأنبياء بني إسرائيل"، أو أفضل منهم.

ومنها أنهم منصُوبُون من قِبَل «إمام الزمان»، معَيَّنون من الناحية المقدَّسة: "فإنهم حجَّتي عليكم، وأنا حُجَّة الله عليهم"، وهـٰكذا "الرادُّ عليهم كالرادِّ علينا، والرادُّ علينا في حدِّ الشرك"...

والحق أن «الخميني» نفسه حاوَل دَفْعَ هٰذا الـوَهْم وتصحيح هٰذه الـرؤيـة، وسعىٰ أن يقطَع رسـالته في "وِلايـة الفقيه" عن أية شُبهة في "النيابة الخاصة"، منها ما ذكَرَه في بحثه في (كتاب البيع)، من أن ما أثبتَه من ولاية للفقهاء، إنما هو في أمْرِ الحكم وإدارة البلاد والشؤون العامة، وكل ما يتعلَّق بتسيير أمور الناس وإقامة مصالحهم، ما يحول دُون تعطيل الشريعة في زمن الغيبة، ويسمح بأداء الحقوق والواجبات، كالقضاء والأُمور الحسبية، إضافة للشأن السياسي العام، لا أنَّ ذلك يعني سرَيان خصوصيَّات المعصوم وأنتقالها إلىٰ الفقيه، في ذاته وتكوينه وقدراته الغيبية التي أختصه الله بها! فإذا كانت ولاية القضاء - علىٰ سبيل المثال - تسمح لفقيه أن يطلِّق زوجة رَجُل ما، فذلك لِدَليل شرعي بيِّن، وإذا كان له أن يصادِر أموال شخص أو أرضه فذلك لمصلحة عامة، أما الإمام المعصوم، فليس كذلك، إذ هو مصدر التشريع ومنبَع الأحكام، وله الولاية المطلقة التي تتجاوز ولاية النفْس علىٰ النفس، فله أن يفصل بين زوجين ويحرِّم زواجهما، وله أن يرتب الأثر علىٰ علمه الغيبي، كأن تكون المرأة - في وَاقع الأمر - أُخت الرجل في الرضاعة، ولٰكن لا خَبَر عن ذلك ولا دليل عليه، أو أنه يعلم أن نتيجة هٰذا الزواج ستكون وِلادة مُجرِم سيعيث في الأرض فساداً، فيمنعه ويحول دونه... يقول «الإمام الخميني» في بحثه:

> ثم إنا أشرنا سابقاً إلىٰ أن ما ثبت للنبي والإمام (صلىٰ الله عليهم) من جهة ولايته وسلطنته، ثابت للفقيه، وأما إذا ثبت لهم - عليهم السلام - ولاية من غير هٰذه الناحية فلا.
>
> فلو قُلنا بأن المعصوم عليه السلام له الولاية علىٰ طلاق زوجة الرجل أو بيع ماله أو أخذه منه، ولو لم تقتض المصلحة العامة، لم يثبت ذلك للفقيه.

لكن هذا لم يشفع ولم يُعِن ولا أسعَف في تصحيح الرؤية العامة وما كان آخذاً في الاستقرار في الضمائر من معانٍ ومفاهيم تزيد من الخصائص وترفع في العظمة لتناهز أو لتستمد من ذات المعصوم.

ومع أن الأمر (فقْد «محسن» الهالة والهيبة التي كان يتوقَّعها وينتظرها في «الخميني»)، فاجأه وأربكه قليلاً، إلّا أن ذلك لم ينل من حبه واحترامه له وتعلُّقه به، بل لعلَّه زاد فيه ومنه، إذ شعر بقُربه من الرجل، وعدم تميُّزه بسنخية ترفعه إلى السماء تجعله بعيد المنال، قاصي النوال...

إنه بَشَرٌ مثله لا يُوحىٰ إليه، ولا عِصْمَةِ لِقَوله وفعله، فلا يأتيه الباطل ولا يعتريه الشك، بل هو يخطئ، ويسهو ويغفل، ويتردَّد، فيحتاج إلى النصيحة والمشورة...

وقد تكون نفسه سكَنَت للرجل وركَنَتْ إليه، من هذا الباب.

وفي العموم، وافَقَ هذا الانطباع ما سكَّن هاجِساً، هو في الحقيقة عُقدَة «محسن» وحساسيته المتأصِّلة، من عبادة الأشخاص وتعظيم الرمُوز السياسية والزعامات الدينية. والأخطر أنَّ ذلك بعَثَهُ ودَعَاه لِيُعِيد تقييم الساحة ويرصُدَ أداءها وكيف تصنع؟ كيف ترفَع مَن تشاء وكيف تخفض؟ وإلى أية حدود يمكن أن تصل المبالغة والإغراق.

رآه، حين زاره، يجلس على الأرض، يفترش ملاءة...

استشعر الترابية والبساطة، وأحسَّ بالقرب والتلاقي، وعادَ به المشهد ليتذكَّر صورة مقاعد «حسينية الإرشاد» الوثيرة ويستحضر تنفُّره منها، لترَفها، ثم لهوانها وسخفها مما تنكَّرت له من هوية الموقع وقداسته، والبلاد والأُمة في تراثها وآدابها... عمَّق المشهد ورَسَّخ اللقاءُ إيمانه بالرجل، وأحكم ارتباطه به، ووَضَعَ الأُمور في نصابها، وعلِمَ أن تنزيه الخطِّ والنهج عن المبالغة في تعظيم الذات، يَلْحَقه أو يقترن به ـ في المقابل ـ الالتزام بالفقه والتقيُّد بالعمل.

فآراءُ «الخميني» وأدلَّة أحكامه بين منجِّزٌ ومعذِّر، ما يحقِّق الحجية ويلزم الأنقياد والطاعة، بعد الركون إلىٰ الأعلمية وثبوت العدالة... وهـٰذا ما يستَنْزِل النُصْرة من السماء، ويُوجِبُ اللطْفَ في فتح أبواب المدَد، ويسْمَح، من مَقام النيابة الشرعية، وخَيْطِ دقيقٍ وطَيْفٍ رَقيق من الروحية، بالسداد.

أخذَ «محسن» يصنع مملكته التي يُريد، ويؤسِّس جمهوريته الإفلاطونية، ويبني قصره المنشود، وأنطلَق نحو المستقبل لا يحدُّه شيء، ولا يرىٰ سوىٰ النصر والظفر، وإن لم يكن النهائي علىٰ يدي هـٰذا العبد الصالح، فإنه الذي سيسلِّم الراية إلىٰ صاحبها الأصلي... وقد طُبع حديثٌ شريف علىٰ شكل منشور، ووُزِّع علىٰ نطاق عريض، يقول:

رجلٌ من أهل «قم»، يدعو الناس إلىٰ الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب، ولا يجبنون، وعلىٰ الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين.

في وَاقع الأمر، لم يكُن «محسن» بحاجة إلىٰ الوقوع علىٰ هـٰذا الحديث أو رؤية الصورة في القمر أو الريشة في المصحف! فقد أتخذ من قبل هـٰذه وتلك قراره، وعزَم علىٰ المضيِّ في دربه الجديد.

وفي محطَّات قادمة، حين صارَ يتَّجه إلىٰ القول بعبَثيَّة الحياة، ورؤية تُفَلْسِف للدنيا بما هي أهله: مجرَّد غَفْوة، أونومة، فيقظة علىٰ الموت والأنتقال إلىٰ عالم آخر، وصَارَ يميل إلىٰ القول بالجبرية في حركة المجتمع وصيرورة التاريخ، دون حركة الفرد... تأمَّل «محسن» وتدبَّر، فوَجَد بأنه كان مأخوذاً في المضيِّ والسير، وأن عزمه لم يكن إلَّا تحصيل حاصل!

❁ ❁ ❁

كانت «فرشته» تقِفُ على عتبة الدار إزاء الرصيف الذي يفصِله عن الشارع "جو" (وبالفارسية الفصيحة "جوي آب"، مجرى مكشوف لِتصريف مياه الأمطار)... تودِّع أُسرة خطيبها، فقد زَارتْهُم اليوم أُمّه وأُخته للتداول في تأجيل جَدِيد لمراسم الزفاف والحفل الذي ترتقبه الأُسرتان منذ ما يناهز العام إذ عقد القران في السابع عشر من ربيع الأول، تيمُّناً بذكرى المولد النبوي الشريف... ذلك حتى تنقضي الأحداث والأضطرابات وتستقر البلاد.

حيَّت «فرشته» أهل زوجها العتيد بحَفَاوة بالِغة، وأفرَطت، على الطريقة الإيرانية، وأسهَبَت في المجاملة وإرداف سَيْل من عبارات التحية والتوديع، كما تجاوَبَت مع طلبهم عن طيب خاطر. مثلما غفَرَت لـ «محسن» غيابه وتخلُّفه عن هذه الزيارة، وأوقفَت أُختَه وصدَّتها بلباقة ومنعتها بلطف وأدبٍ جمٍّ، عن الأسترسال والتمادي في سَوْق الأعذار، وكَفَتْها مؤنة الأعتذار قائلة:

إنني أعلَمُ ما يشغله الآن، وما يشغل شبابنا جميعاً، فلْنَدْعُ له ولهم بالتوفيق والسلامة والنصر... ثم إنني متفائلة بأنَّ الله سيزيح هذا الكابوس عن صدُورنا قريباً، فقد رحل «الشاه» ورجع «الإمام الخميني». لقد كان «محسن» في لجنة مرافقة وحماية موكب «الإمام» من المطار حتى «جنة الزهراء»، هل علمت بذلك يا «مريم»؟

: نعم، علِمتُ بذلك، وقد حظي بلقاء خاص في "مدرسة علوي".

: سنحتفل بالنصر قريباً إن شاء الله، تأكَّدي من ذلك، ثم بالزفاف، ونحن في أطمئنان وراحة بال... قرِّي عيناً وأهنئي خاطراً يا «مريم».

وكانت تجمع إلى هذا الترفُّع والنبل، أستعراضاً يفرضه الحياء، وتظاهراً يقتضيه العُرْف، من زُهْدِ الفتاة وعدم رغبتها، ناهيك بحِرْصِها وتلهفها للزواج والعرس...

عرْفٌ تَراه منذ اللحظة واللَّبِنَة الأُولىٰ في بناء الحياة الزوجية، عند عَقْد القِران، وسؤال المأذون الشرعي الفتاة عن قبولها توكيله لأخْذ الإيجاب من الفتىٰ وإتمام العقد، تراه في صَمْتِها وسكوتها عن الردِّ، ليعاوِدَ الطلَب ويكرِّره حتىٰ تجيبه في الثالثة بمنخَفض الصَّوْت: نعم. ومن هنا قيل إنَّ السكوت في الأبكار علامة الرِّضا.

كان السكون الذي يلفُّ الحيَّ في الساعاتِ الأُولىٰ من الصباح، جعلها صبيحة تشبِه إحدىٰ أيام العُطَل الرسمية، عندما كانت أُسرة «محسن» قد دَلَفَت في بيت عروسهم الجميلة، هو ما دَفعَهم وأغراهُم وشجَّعهم ـ من قبل ـ علىٰ الخروج من بيتهم، والقيام بهٰذه الزيارة، متجاهلين الأحكَام العرفية وحظْر التجوُّل، فهُم جيران في حيٍّ وَاحِد (في فرع من شارع «فرح آباد ـ ژاله»)، ودار «فرشته» علىٰ مرمىٰ حجر من دارِهم، لا يفصله إلّا زقاق مغلق لا يفضي، إذن فلا مبررٌ للخوف، ولا مُوجب حتىٰ الحذر...

ولٰكن الوضْعَ في الضحىٰ عند انتهاء الزيارة وخروجهم من الدار كان مختلفاً كثيراً، فقد كان الحيُّ مضطَرباً بحركة غير عادية، وبدا المتظاهرون في هيئة أشبه بالميليشيات، لا مجرَّد متظاهرين مسالمين كما في السابق، فهٰذا واحد يحمل بندقية وآخر رشاشاً من نوع "عوزي" إسرائيلي الصنع، غالَب عليه جندياً من المغاوير! وإلىٰ جانبه رفيق له يلوِّح بمسدس، وقد دسَّ قطعة أُخرىٰ في نطاقه، كما زاد عدد الملثَّمين والمنقبين، وبعضهم يحمل قوارير مُعَدَّة لتكون قنابل حارقة («مولوتوف»)... كانوا قد أخلوا الشوارع الرئيسة بعد أن أزاحت الجرافات متاريسهم التي أقاموها ليلاً علىٰ عجالة، فلجؤوا إلىٰ الأزقة الضيِّقة، حيث تعجز الدبابات والمدرَّعات عن ملاحقتهم، ويخشىٰ جنود «الحرس الشاهنشاهي» ("جاويدان"، وتعني "الخالدون") مطاردتهم.

وكانت صافِرة سيارة إسعاف تُسْمَع من بُعد وهي تهرَع وتشقُّ الطريق بسرعة، فإذا ما أخذَ صَوْتها يتلاشىٰ، ٱرتفع صوت سيارة أُخرىٰ، وهٰذه طلائع المتظاهرين (المنسحبين أو الهاربين المتوارين) أخذت تظهر في الحي وتتقاطر شيئاً فشيئاً... فُتِحَتْ لهم الأبواب وأُدخلوا البيوت بتِرْحاب، وزُوِّدوا بما أرادُوا من حِجارة وزجاجَات! وأُسعِفَ المصابون منهم بجِراح سطحِيَّة، ولفَّت الضمادات، ورممت اللافِتَات والصُّوَر والرايات التي يرفعون، وأُصلحَ ما نالها من تهلْهُل وتلَف.

ومع أنهم بدوا كمَن يلمْلِم جراحَه ويشكو قَسْوَة عدوِّه ووَحشيته، ما يستبطن ٱعترافاً بالضَّعْف والعَجْز، إلّا أن الحماس كان يدُبُّ فيهم، وشجاعة نادِرة كانت تستحثّهم للعودة إلىٰ الشارع وٱتخاذ مَواقعهم من جَدِيد. وبينما كان بعضهم يَطْرق الأبواب ليجمَع القناني ويصنَع منها عبوات "المولوتوف"، ويعود أدراجَه مهرولاً، كان آخرون يصيحُون فيهم ويستمهلُونهم بأن جنود "القوات الجوية" أخذوا يستسلِمُون ويسلّمون أسلحتهم بالفعل، وأن البقيَّة سيلحَقُون بهم إذا ألقينا نحْنُ السلاح وأقلَعنا عن ٱعتراضهم وإلحاق الأذىٰ بهم... "دعوهم يَروا الأغصان الخضراء وبراعم الوَرْد في أيدينا"!

ومنذ عودة «الخميني» من مَنْفاه، وآخر محطَّاته «باريس»، وتراجعات النظام «الشاهنشاهي» تتلاحق وهزائمه تتعاقَب، وأنباء ٱنتصارات الثوار تترىٰ. ولٰكن الأجواء اليوم مختلفة، إنه "يوم الفَصْل" الذي أعلَن فيه «شاهبور بختيار» (آخر رئيس وزراء عيَّنه «الشاه» قبل رحيله) عزمه علىٰ تنفيذ حَظْر التجوُّل بمنتهىٰ الجدية والصرامة، وصرَّحَ في بيان مقتضب بثَّته الإذاعة المركزية البارحة، بأن الأوامر صدَرت إلىٰ العسكر بإطلاق النار المباشر علىٰ أي جسم متحرك، فضلاً عن المتظاهرين في شوارع «طهران» وبقية المدن الإيرانية!

وكانت الجماهير قَد سَهِرَت حتىٰ ساعات متأخِّرة من الليل بانتظار "فتوىٰ" «الإمام الخميني» وما يُشخِّصه لهم من تكليف تجاه هٰذه الحالة المستجدة... ولم يكن قد مضىٰ كثيرٌ علىٰ صلاة الفجر عندما أخذَت المساجد تتناقَل الفتوىٰ وأوامر «الخميني العظيم»:

"أُخرجوا إلىٰ الشوارع، فلن يستطيعوا شيئاً"...

فتوىً تنطوي علىٰ نبوءة!

هٰذا ما قرأته الجماهير في عبارة "لن يستطيعوا شيئاً".

وقد ذهَبَتْ أصواتُ "العقلاء" و"النخب الحركية" و"معتَّقي عالم السياسة"، القائلة بأن العبارة إنشائية، محض تمنٍّ ودعاء، وأمَلٍ ورَجَاء، ولا دلالة فيها علىٰ كَشْفِ الغيب والتنبؤ بالمستقبل.

فلربما "استطاعُوا" فِعْل شيء، لربما قمَعُوا المظاهرات وأطلَقُوا النار علىٰ الناس مباشرة، لربما انهزم الناس!

هٰذا ما كان يخشَاه المخلصون منهم ويحسبون له، ولما سيستتبعه من تشوُّه القيادة واهتزاز الثقة "المطلقة" التي تتمتَّع بها، أما غير المخلصين من أتباع «المعلِّم»، فقد كانُوا - في واقع الأمر - يكافحُون اللغة الغيبية التي تسقط فكرهم وتودي بوَضْعِهم...

ذهبَت هٰذه الأصوات أدراج الرياح، واكتسحتها الجماهير وأسقطتها بإعراض كامل وتجاهل تام.

ولا سيما أنَّ "الفتوىٰ" وَصَلَت إلىٰ الشارع مُقتَرنة بخبر عن خلْوَة طلَبها «الإمام الخميني» واستمهل فيها سائليه... أغلَق فيها باب غرفته في مقرِّ إقامته المؤقت ("مدرسة علوي" في «طهران») علىٰ نفسه، وأمرَ بأن لا يؤذن لأحَد عليه حتىٰ يخرج هو إليهم، وانقطع عن الجميع، بما فيهم المقرَّبين وذوي الحظوة، لأكثر من ساعتين. طلَب بعدَها نجْلَه «أحمد» ليبلَغه "الفتوىٰ"، أو في الحقيقة رأيه وقراره في الموقف الأصح!

ويقول الخبر إنه ٱلتقىٰ في هٰذه الخلوة بـ «الإمام المهدي المنتظر»، فكان أن ٱكتسب منه الرخصَة والتكليف، وحظِيَ بالمباركة والتأييد.

هٰذا ما أومَأ إليه السيد «محمود الطالقاني» الذي حكىٰ (بعد تحقق النصر، في أول خطبة الجمعة أمَّها في «طهران») تفاصيل القصة ونقلَها للمصلِّين. مقرناً حكايته برفضٍ وإنكارٍ قاطِعَيْن من «الإمام» أنه تلقىٰ الأمر من «الحجَّة» عليه السلام مباشرة! "بل هو الشرع، أدلته وأحكامه... هٰذا ما نستند إليه في حركتنا"، بعبارة قريبة من هٰذه المضامين، ختم «الإمام الخميني» وأقفل البحث في تلك الواقعة.

❁ ❁ ❁

وقد سجَّل الحـدَثُ ـ علىٰ صعيد آخر ـ ٱنعطافَة في ثقافة "الثورة" وأدبياتها، حتىٰ صاغت مفهوماً حركياً، أو أعادت صياغته بما ٱستوقف رجال الثورة من منظِّرين ومفكرين وعلماء:

إذ لم يتَّضِح للنُخَب السياسية و"عقلاء القَوم" و"الكبار" السرُّ وَراء هٰذه الحماسة والتحرك والأندفاع الجماهيري، والطاعة "العمياء" التي أبداها الشعب، وقرَنها بتجاهل وإعراضٍ عن دُخُول أرْوِقة وخلفيَّات صُنع القرار وصـدُوره، مكتفِياً بإرشادات «الإمام» وتعليماته... إلّا متأخراً. في السنة الأخيرة من عُمر الثورة، بل بعد ٱنتهائها ـ في الواقع ـ وطَيِّ صفحتها بوَفاة مؤسِّسها وقائدها «الإمام الخميني»، حين وُضِعَ الأمر علىٰ دكَّة المقارنة وٱعتلىٰ مَسرح المقايسة، عندما أصبحت القيادة وتعليماتها تصدر عن غيره. فٱكتشفوا أن الأندفاعة لم تكن لِسَذَاجة من الشعب أو تخلُّف في الإدراك السياسي أو لِقُصور في الوَعْي والبصيرة، بل كانت تنطَلِق من فهم مُبسَّطٍ لمسألة "التكليف الشرعي" الكاشف عن أمر «المولىٰ» (الولي الحقيقي والأصلي) وعن رغبة «صاحب العصر والزمان» عليه السلام من خلال نائبه...

والبَساطة غير السذَاجة، والسهَالة غير السطحيَّة، فتلك زَبَدٌ كغثاء السيل يذهب جفاء لا ينفع الناس، وهٰذه تحكي عُمْقاً وتبسق عن جَذْر، ولٰكنها في المتناول.

إنَّ جَوْهَر قضيَّة "التكليف" أمرٌ في غاية العمق، ولربَّما "التعقيد"، ولٰكن التعامل "الشعبي" أو "الإيماني" جاءَ بمنتهىٰ البساطة والسلاسة البعيدة عن الدَّاءِ المزمن الذي تقع فيه جميع الأحزاب والحركات السياسية المنظَّمة، التي تحسب بالأرقام وتتعامل مع المعطيات بلُغَة مادية و"منطقية"، وتخطِّطُ بدِقَّة رياضية وهندسية... فتجِدْها، بعد مدَّة من الدراسة والتحليل والتخطيط تائهة في دهاليز عالم السياسة، ضائعة في منعطفاتها ومطبَّاتها، بعيدة عن ميدان العمل والساحة الحقيقية التي خطَّطت وحَسَبَت ورَسَمَت ونهضت لأجلها وفي سبيلها، إذ تحوَّل الحساب والإعداد والتنظيم والتخطيط ليصبح هو الغاية! وصارَ صرف الجهد وبذل الوسع يقف عند هٰذه، وكأن العمل قد تمَّ بإتمامها والهدف قد تحقق بإنجازها؟!

الحالة التي يطلق عليها الثوريُّون من أتباع "خط الإمام": حالة "بقرة بني إسرائيل"، والتي غدَتْ مواجهتها ونقضها معْلَماً من معالم، وسِمَة من سمات المدرسة "الخمينية"، التي تقول: إنَّ ما يعوز الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية هو العمل والتطبيق لا البحث والتنظير، وتنادي بأنَّ النصر رهين الإقدام، وليس الجدل في حيثيات ومتطلَّبات العمل، والضياع في دهاليز الموازنة والترجيح بين عوامل الربح وأسباب الخسارة، وإن الأحداث لا تفتقر الدراسة والتحليل قدر ما تفتقر إلىٰ العزم والتصميم، وإلىٰ مَن ينبري إليها ويتصدىٰ لها ويقحمها، وإنَّ الآفة التي أصابت جُلَّ الحركات وأخَّرت أكثرها وجعلتها متخلِّفة عن تطلُّعات الجماهير، "لا تكاد تفعل"، هي حالة "بقرة بني إسرائيل" إذ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ولا يعني هـٰذا ـ بطبيعـة الحـال ـ أن المبـاني العِلْمِيَّـة لـ "النهضـة الخمينية"، والمدرسة الفكرية الحركيَّـة التي أسَّسَها «الإمام الخميني»، فوَضَعَت لثورته منطَلَقاتها، وأرسَت لنهضته قَـواعدها، ورَسَمَت لحركته معالمها... لم تكُن ناضِجَة أو مشبعة وتامة، من حيث الركائـز والبنىٰ التحتِيَّة، أو يعوزها مزيدٌ من البحْثِ العِلْمِي والعُمْق الفقهي، أو تفتَقر إلىٰ الدراسة السياسية.

ولـٰكنه يعني عدَمَ ضياع الحركة في مَطاوِي التسويف، وتيه أربابها في مَزالق الترف الفِكْرِيِّ، وارتهـان روّادها وطَلائعها في أسْرِ وقَيْد مَبَاحث ومناظرات لا تلْبَث أن تتحـوَّل إلىٰ شَكْل من الجـدل البيزنطي، المطعَّم بواجهـات "المصلحة" والمنمَّق بضرورات "الأولـوية"، ومـا إلىٰ ذلك من مزالق وآفات "الـثوار الكاذبـين"... حتىٰ ينقلب الحكم الشرعي ويتغيَّر عنوانه بتغيُّرِ موضوعه، فيسقط المشروع الثوري من رأسه وينهار!

وقد أخذَ مَفهُوم "التكليف" ("عمل بتكليف"، كما كانوا يردِّدون بالفارسية) هٰذا دَوْرَه وقضىٰ وَطَرَه وشاعَ تداوله، وأُشبع ممارسة وتطبيقاً بحيث أصبح الأُنشودة التي كانت رائجة في تلك الأيام، واللحن الذي كانت الجماهير تترنم به في ذلك العهد، إنها لغة الثوار الباحثين عن مسوِّغات العمل، لا مبررات القعود وذرائع الركون، المتطلِّعين للإقدام والحركة، لا المتلمسين أعذار الأنكفاء والتراجع والمراوحة في أمكنتهم.

لم تكن الثورية في المدرسة «الخمينية» تجارة ومزايدة، كما كانت، وهي اليوم في الأحزاب والمنظمات الإسلامية! شعارات تجمع الناس، ولافِتات تحشد الأنصار، وعناوين تجتذب الغيارىٰ، وتستقطب المتحسِّين للظلم، المكتوين بلَوْعة الواقع المرير، فتستغلّهم وتسخِّرهم لتستقطب الناس، وتخلق الزعامات، وتصنع الوجود السياسي، بذريعة التأثير علىٰ السلطة والضغط عليها (ضمن نظرية المرحلية)، وما يخلق رقماً في المعادلة، يناور ويحاور، وينتزع الحقوق ويُرغم!... فتبقىٰ الحركة إلىٰ ما شاء قادتها (المجهولون!) تراوح في المرحلة التربوية والسياسية، وقد جمَّدت الطاقات وخدَّرت الحسَّ الثوري في الشباب، وميَّعَت المفاهيم، وأزرت بالثورة وقيَمها في متاهة أداء سياسي قذر.

خرَجَت «الخمينية» من هٰذه العُقَد إلىٰ تعاطٍ نزيه شريف، يتحرَّىٰ أهدافه بأمانة وصِدْق، ويلاحِق شعاراته بمثابرة وجِد، ما أربك الآخرين وأحرَجهم، وهو يضع "الثورية" في مكانها، ويرجع بـ "القعود" إلىٰ وَاقِعه، ويقطع الطريق علىٰ المزايدين الخاوين من دعاة الحركية الإسلامية. فالموقف السياسي في التشيُّع هو إما القيام والنهضة أو التقيَّة والسكون، أمَّا الأداء "الحركي" الذي يجمع شعارات الثورة ونداءات القيام، مع سلوك القاعدين وموقف التقية، فهو بدعة لا أصل لها في الدين!

❁ ❁ ❁

عند باب الفِنَاء، حيث أصرَّت «فرشته» أن تـواكب ضيوفها الأعِزَّة وتشيِّعهم، وبينما كانت تمدُّ يمينها لِتُصَافحَ "حماتها"، وتحتفظ بالذراع الأُخرىٰ تقبِض بها علىٰ مجامع "الشادور" (علىٰ الطريقة الإيرانية التي تزم العباءة فَوْق الفم وتبلغ بها طَرَف الأنف)، همَّت الأخيرة أن تضمَّها وتعانقها غير مكتفية بالمصافحة...

وبينما كانت ذراعا حماتها تطوِّقانها، وصوتها الذي يكرِّر عبارات الدعاء والوداع يطيش في الفضاء الصاخب - بعض الشيء - يختلط بصدىٰ الهتافات القادم من بعيد: "مرگ بر شاه"، "بختيار بى اختيار"، ونفِير سيارات الإسعاف المتَّصل، وبعض اللَغَط والصياح القريب الصادر من وُلوج المتظاهرين وأنكفائهم إلىٰ الحي، حتىٰ إن «فرشته» ما كانت تصغي إليها، قدر ما كانت تلقي سمعها إلىٰ الأصوات الأُخرىٰ، البعيدة والقريبة، وتريد أن تفرغ مما هي فيه، لِتَصرِف فِكْرها وتخرج من شتاتها إلىٰ التركيز علىٰ الأحداث المتلاحِقة والحالة الخطيرة التي أستبشرت أنها ذروة العُسْرِ وغاية الشدَّة التي يعقبها اليُسْر والفرج، والنصر.

بينما كانت «فرشته» في هـٰذا...

إذ أحسَّت فجأة بثقل يرتمي عليها وينهال...

حَسِبَتْ لِوَهْلَة وظنَّت أن "حماتها" تعثَّرت بحافة مجرىٰ تصريف المياه المكشوف ("جوب" كما تلفظ بالعامية الفارسية، وهي مختصر فصيحها: "جويَ آب") فكادَت أن تسقط وتهوي إلىٰ الأرض، فأرتمت عليها وأعتمدت مُتَّكِئة ومستندة.

ولـٰكن هـٰذا الخاطِر الذي برَقَ كالوَمْضَة، ما لَبِثَ أن تلاشىٰ وزَال، في حالة جديدة عرَضَت عليها وأعترتها فجأة، أخذتها بقوَّة وحكمَتها وأرتهنتها، بتَرتْها وفصلَتها عن محيطها، ونزعتها أو أقتلعتها من مكانها، وأنتقلت بها إلىٰ عالم آخر.

ظهرت بَوَادره إحساساً ببرُودة تَسْرِي في أطرافها، تُدَغْدغ أنامل قدميها حتىٰ الخَدَر، فَقَـدَت معه الشعور بأيِّ شيء آخر... تلاشَت أصوات سيارات الإسعـاف، وٱنقطَع ضجيج المارَّة والشبـاب، وٱختـفىٰ صَدَىٰ هدير هتافات المتظاهرين وتبدَّدَت أصواتهم، وخيَّم صَمْتٌ مطبق، اللهم إلّا طَنِين ووَنين كأنه من ٱنسدَاد الأذن وٱحتباس الصَّوْت فيها، كان ـ هو الآخر ـ يتدرج بالخُفوت ويأخذ بٱلتلاشي شيئاً فشيئاً.

وفي لمحة خاطِفة كانت وحماتها تفترشان الأرض...

ووَسط ذهول الأهل ودهشة الجيران ومَن تجمَّع من أبناء الحي والمارة، وفيهم معارف لـ «محسن» وأقارب وأصحاب... تبيَّن أنها كانت رصاصة من طلقة طائشة أطلَقها جنديٌّ توغَّل في الحي يطارِدُ أحد الشباب، راح يرمي بعشوائية زخات متلاحِقة، ٱخترقت رصاصة منها ظهر والدة «محسن» وأرْدَتها صريعة في الحال، ونفَذَت إلىٰ صَدْرِ «فرشته» فسقطَت هامدة دون حراك!

وعلىٰ رَغْم فقدانها الوَعْيَ وإغماءتها الكاملة، كانت أنفاساً ضعيفة تتصاعد من «فرشته»، أشارت إلىٰ رَمَق من حياة، ٱستحثَّت المسعِفين وشحذَت هممهم، فنقلت الفتاة علىٰ عجل إلىٰ المستشفىٰ.

كانت «فرشته» ـ من عجَب ـ ترمق المنظر وتشاهد الحدث من الأعلىٰ (حيث ٱنتقلت)! تراهم كيف يمَدِّدون جسدها، وكيف يقرب أحدُهم أُذنه من فمها ويمسك آخر بيدها يجس نبضها، ثم يعود ليتحسَّس أوداجها في عنقها، فيتركها ويقوم عنها يائساً، ثم ينادي الأول:

"إنها تتنفَّس... فيها نفَس".

وفي هـٰذا الخِضَم، تجاهلت «فرشته» الحدث بهَوْله والخطب بفظاعته، وٱنصرفت تفكِّر وتضطرب لهتك حِجَابها وسقوط عباءتها! في حرَج وحسرة، وراحَت تلوم نفسها وتتساءل: إلهي، ألِذَنبٍ ٱقترفته؟

فصارَ يتداعىٰ في ذهنها ويوحىٰ إليها: إنها نقمة لفِعْل أتىٰ به "أخوها"، الذي مرَّ يوماً علىٰ بيت شُرِع بابه وٱنزاح ستاره، فٱنكشفت من ورائه فتاة حسناء، ظهرت تكْنس الفناء، وهي من غفلة، تظن أنها في صَوْن الخدر وحِجَاب الخفاء، فما عَفَّ ولا أعرَض، بل غلَبَتْه خائنة الأعين، وهزَمه بعد فضُول كشف هٰذه التي تخطر دَوْماً في الحي متجلبِبَة بعباءتها، مستورة بحجابها، يصارع الخيال والوهم منه الظنَّ والحدس في تقدير حسنها وتصوُّر جمالها... هزمته الشهوة وغلَبَتْه، فراح يسترق النظر إلىٰ مَفاتنها، بل توقَّف وأطالَ يملأ عينيه ويفرغ أو يهيج شهوته... ها قد نال "عِرضَه" مثل ذلك!

فتردُّ «فرشته»:

وما ذنبي أنا، هٰذا ما جنىٰ "أخي" وما جنيت علىٰ أحد؟

: "لا ذنب لَكِ ولا إثم عليكِ ولا بأس، إنه نظام تراتُبي وقانون طبيعي، أنتِ عِرْضه، فوَقَع الهتك عليكِ، وتحقَّق الٱمتحان للجناة"!

: يا للهول، أهٰكذا تتراتب الأُمور وتَتَلاحَق؟

هل يتبَع ويخضع الحساب والجزاء الطبيعي، أو النمو والرقيُّ والتكامل الروحي للإنسان، إلىٰ التكافل والترابط الٱجتماعي؟

هل يتأثر ذلك بمَوقع الفَرْد من غَيره ودَوْرِه في محيطه؟ من بيته وأُسرته، إلىٰ مجتمعه وبلَده، فأُمَّته وعالَمِه كلِّه، في العَصْر الذي يعيش والزمن الذي يطوِي ويقطع؟

هل تتشكَّل صوَرنا البرزخية، أو مآلنا في العوالم الأُخرىٰ التي سنقدِم عليها، وتتأثر بما يقَع ويكون في عَصْرِنا وعلىٰ عهدنا، من أفعال غيرنا وأحدَاث لا تمت إلينا؟

أفعالٌ لم نَنْهَ عن شرِّها، أو لم ندْعَم وننصر ونبارك في خيرها، أو كنَّا غافلين عنها، متجاهلين لها، سلبِيين تجاهها؟

أحداثٌ تقع في أقصىٰ الأرض وأبعد البلاد، نُشْرِك فيها بما يعتري قلوبنا من الرضا إلىٰ السُخْط، أو من الغضَب والاَستهجان، إلىٰ السرور والبلَج والاَمتنان، فندخل في أقوام ونلحَق بأحداث ونخرج من أُخرىٰ، ونتحمَّل تبِعَات من "مجرَّد" خلَجَات واَنفعالات؟!

هل تراه من هنا جاءَ ما يُقال عن "الحشر الجماعي"، وأنَّ المرء يفِدُ في القيامة علىٰ ربه ويخضع لِحسابه ضِمن "الجماعة" التي كان ينتسب إليها ويرتبط بها ويُواليها، أو حتىٰ تلك التي يعيش معها في بلَد ومجتمع، ويكون معها من جيل وعَهدٍ واحد؟ يتحمَّل بعضهم تَبِعَات بعض، يُسجَّلُ الفَلَاح والفوْز للجميع، وإن كان فيهم طَالح، فستشمله شفاعة أهله وعشيرته وأبناء بلَدِه و"جماعته"، والتقصير علىٰ المجموع، وإن كان فيهم صالح اَستضعَفوه، إذ سيُحَجُّ بـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾؟ لتَجِدَ لكَ بلَداً و"جماعة" غير هذه الظالمة، و﴿مَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾. هكذا حتىٰ نُحشر في أَفواج، ويُساق البشر "زُمَراً": ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ﴾، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

هالَ الأمرُ «فرشته» ورَوَّعَها أكثر من مصيبتها التي كانت تنظر إليها وتستشرفها من علو.

وبينما كانت مستغرقة في أفكارها، إذ لفَتها تزاحم الناس علىٰ جِسْمها الملقىٰ بينهم، يفترش الأرض في إغماءة كأنها الموت، ما قطَع عليها فكرتها وأرجعَها إلىٰ الحدث والمشهد...

عادَت لِتصرف فِكرها في حِجَابها المهتوك... وقد هوَّن عليها الأمر وتعزَّت في ما آختارت من ملابِسَ تحت "الشادور"، فقد ستَر السروال ساقيها، وغطَّت أردان القميص ذراعيها، فلم ينكشف كثيرٌ من جسمها، ولا ظهر للعيان كامل جمالها.

ولٰكن ـ علىٰ الرغم من ذلك ـ فقد خرَجَت الفتاة من حجابها!

هُتِكَت وآنكشفت، في هيئتها ومحاسنها الملفِتة وهي مستلقِية علىٰ ظهرِها، ممدَّدة بآسترخاء أعضاء وآنحِلال مَفاصِل مَن أُغمي عليها وفقَدَت وَعيها، ما جَعَل ملابسها الضيِّقة ـ أصلاً ـ تلتصق فيها، لفقدان جسمها تماسكه وآستجماعه وآنشداده، وآرتخاء لحمها وأعصابها من الغشية والغيبوبة، فصارَت ثيابها تحكي تقاطيع جسمها الفعم، وتبرز بطنها الأهيف الممسود، وتبدي تكوُّر وآنتصاب ثدييها، وتظهر تناسق مفاتنها... ثم ها هو شعرها الفاحم المكتنز المنثور حول رأسها يصنع ظُلمة كالليل، ظهر فيه وَجهها كالبدر في تمامه وكماله، وقد كانت تتثنىٰ في أيدي المسعفين وكأن كلَّ عظامها مُشاشٌ وغضاريف من فرْط لينها ورَخْصِها.

إنَّ بعض المتجمهرين لا يتحسَّر إلّا علىٰ جمالها، ويُسِرُّ بذلك إلىٰ رفيقه، ما يعني أنه تمعَّنَ فيها ما شاءَ شيطانه وطاشَت شهوته وعبِث فضوله. وهٰذا أحد "المسعفين" يتعمَّد تحرِّي مَوْضع إصابة الطلقة، يحلُّ بعض أزرار وعُرَىٰ القميص فيكشف بطنها... يا لِوَقاحته ودناءته، ما شأنه؟ وماذا عساه سيفعل إن حدَّد مكان الإصابة، لا هو طبيب يعالج ولا ممرض يضمِّد، ولا لَدَيْه من الأدوات ما يعينه؟ فيستدرك الأمر شَهْمٌ يلقي علىٰ «فرشته» عباءتها ويواريها، ويأمر الناس بالآبتعاد ريثما تصل سيارة الإسعاف، فقد صادَف مرور واحدة بالقرب، آستدعاها الناس، فدلفت في الحي وهرعت لتنقل المصابة.

بعد الإسعافات الأولية العاجلة في المشفىٰ، خضَعَت «فرشته» لفحوصات مخبرية وسريرية مكثَّفة، فأظهرت نتائج التحاليل وصوَر الأشعات أن الرصاصة الخبيثة ٱستقرَّت علىٰ بعد أقل من بوصة واحدة من عمودها الفقاري ونخاعه الشوكي!

في اليوم التالي سقطَت حكومة «بختيار» وأعلنت القوات الجوية، ثمَّ بقية القوات المسلحة، بيعتها لـ «الإمام الخميني»، وٱنتصرت الثورة...

ومن بين آلاف العناصر المتقدِّمة الذين عملوا لهٰذه الثورة، والملايين الذين أيّدوها وٱلتحقوا بها... كانت فرحة «محسن» (وقليل من أمثاله) بٱنتصارها ناقصة، ويشوبها كَدَر الحادثة الأليمة.

وفي غمرة الفوضىٰ والتسيُّب الذي لحق بكلِّ شيء بعد الثورة (شأنها شأن كل ثورة شعبية، غير منظَّمة في ٱنقلاب عسكري)... ٱبتداءً من حركة السير وإشارات المرور التي كانت تُستباح بِدَعوىٰ الحرية، فـ "نحن لم نقدِّم كلَّ هٰؤلاء الشهداء لتقيِّد إشارة حمراء حريتنا"! هٰذا ما كان يزأر به الشباب في وَجْه شرطيِّ المرور المغلوبِ علىٰ أمره، ولما كانت صورة "بوليس الشاه" ما تزال عالقة في الأذهان وماثِلة للعيان، لا يملك المسكين إلّا أن ينسحب ناجياً بروحه، بعد أن شَهِدَ للتوِّ سقوط ومصرع كرامته. حتىٰ إنَّ الإشارات الضوئية توقفت أو أُلغيت عن العمل وتطوَّع بعض أعضاء اللجان الثورية ("كميته") لتنظيم حركة المرور. وٱنتهاءً بمراكز السلطة والقرار، مروراً بجميع المرافق العامة والخدمات الحكومية والأهلية... ولم تنجُ المستشفيات مما أصاب الطرقات ووَسائل النقل، والمدارس والجامعات، والمعامل والمشاغل.

كانت «فرشته» مستمِرَّة في إغمائها عندما بدأت الرصاصة زَحْفاً بطيئاً، وكأن نَهَماً غريباً يحدوها ووَلَعاً جارفاً يستحثُّها نحو النخاع أو الحبل الشوكي!

وبما أن فوَاصِل فترات الفَحْص الدورية كانت تكْبُر وتتباعد شيئاً فشيئاً، بسبب الإهمال والفوضىٰ، لِذا لم يمكن تسجيل أي تغيُّر غير طبيعيٍّ أو مفاجئ ولافِتٍ في وَضْع المصابة وحالتها... ولم يتنبَّه الأطباء إلىٰ ما كانت تفعله الرصاصة الغادرة إلّا بعد فَوات الأوان.

وعموماً كان رَدُّ الأطباء ودفاعُهم عن إهمالهم وتقاعسهم، أنَّ الأمر، حتىٰ لو ٱكتُشف مبكراً، ما كان سينفع «فرشته» شيئاً، إذ كانت ستحتاج إلىٰ جراحة معقدة ودقيقة، ولٰكنها في الوقت نفْسه عاجلة، ونسبة نَجاح هٰكذا عملية، في ظِلِّ الإمكانيات الفعلية، يلتقي مع ما نزَل بـ «فرشته» وآلت إليه حالتها.

هٰكذا أُصيبت الفتاة بشلل في طرفيها السفليين.

ٱستمرت في غيبوبتها التامة (كوما) شهرين وعشرة أيام، وعندما ٱستفاقت، وَجَدَت أنها فقدت الإحساس برجليها، ولم يكن لِوَخز الإبر في باطن قدميها أي أثر أو ٱستجابة. وكانت الوصفة الوحيدة التي جادَ بها الأطباء هي الراحة النفسية وبعض تمارين العلاج الطبيعي، لذا أمروا بنقلها إلىٰ دارها.

* * *

وفي موقف وَصَفَه «محسن» بأنه "طبيعي"، لا أنه يراعي الوَاجب والٱلزام الشرعي ولا يرقب الأخلاقي ولا ينطلق من انفعال عاطفي، ولا هو موقف رساليٌّ ثوري، كما نعَتَه بعض أصحابه وأهله... أصرَّ علىٰ ٱنتقال «فرشته» إلىٰ بيته، ولٰكن دون زفاف طبعاً، وفي حقيقة الأمر ووَاقعه، دون زواج!

فخرَجَت من المستشفىٰ إلىٰ دار «محسن» مباشرة، دون أن تمرَّ ببيت أهلها، وقد قامَ بذلك رغم ٱعتراضات أهل الفتاة، وتململِ أو عدم حماس أهله، وكان له ما أراد بإلحاحه وإصراره، بل بعناده.

فهو زَوْجُها والمسؤول عنها، وهي فتاته وحُبُّه، الذي لا يريد أن يمُنَّ أحدٌ عليه بخدمتها وإسداء المعروف إليه بتمريضها، وإن كانوا أهلها ووَالديها... سيقوم هو بشؤونها، وستعيش في كنفه ورعايته، هذا أقلُّ ما يمكن أن يقدِّمه إلىٰ عروسه، هذه الضحية المظلومة.

أما الحقيقة... فإنَّ «محسناً» كان يعيش كبرياءه وأنَفَته، ومجموع قِيَمِه ومبادئه، ويخوض صراعاً مَريراً مع نفسه ورَغَباته، ومع الطريقة والتربية التي نشأ عليها وترعرع من الكرَم والنبل والشهامة. ولم يكن الأمر يخلو من هامش للعاطفة والشفقة، كان يكابِر ويبالغ في إخفائه، حُرْمةً ورعاية لمشاعر زوجته التي يعرف.

واليوم وقد بلَغَت «العروس» وصارَت في التاسعة والثلاثين، ودخل زَوْجُها «محسن» في الثالثة والأربعين من عمره، ما زالت أسيرة بيتها، طريحة الفراش أو جليسة مقعدها المتحرِّك.

لقد أتت هذه العشرون عليها، وفعلت فعلها...

ها هي شاحبة مُصْفرَّة، هزيلة نحيلة ضاوِية، تضمَّر ذلك الخدُّ المتورد الأسيل، وتصفَّح حتىٰ بَدَتْ عرُوق وَجهِها المخروط، وانطفأ البريق من تلك النجلاوتين، وتقلَّصت الأهداب كما لو ضرَبَ رَمَدٌ أشفار عينيها، دقَّت العظام وهَشَّت، وترهَّل العَضَلُ، واسترخَت المفاصل، وخارَتِ القوىٰ، وأذابَ الفالج الشحم، وأذهب اللحم... كساحٌ وقعاد وخوَر، بعد ذاك البهاء والأنق والروْنق.

هذا بعض ما يمكن أن يقال عن جسمها، ولك أن تكمل الصورة من هذه اللمحة، وتقرأ الكتاب من هذا العنوان البائس.

أما رُوحها المضطربة ونفسيتها المتردِّية المنهارة فقد كانت في توتُّر واضطراب دائم، أجهدَها وأنهكَها وأعياها، وحركة سريعة أرهقتها وأضنتها وزادت في محنتها...

كانت في تَنَقُّل وتقلُّب مخيف، يُدخِلها في نوبات متلاحِقَة من الخلط والهذيان، فلا يخرجها حتىٰ يكاد أن ينقلها إلىٰ المسِّ والجنون! تعلو همَّتها وتتألق رُوحُها ساعة، وتتخطىٰ الموانع وتقفز علىٰ الآلام، وتتعَاظَم وتحلِّق في سماء عالية، وتعيش الرِّضَا بقَضَاء الله، والأُنس بذِكْرِه، والراحة في عبادته، وهو ما يأتيها كلَّما رتَّلت القرآن، ومَقاطع من مناجاة من «الصحيفة السجادية» للإمام «زين العابدين» عليه السلام، أوصاها بها «محسن»، وكأنه ألزَمَها:

إلهي قصُرَت الألسُنُ عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالِك، وعجزت العقول عن إدراك كُنْه جمالك، وٱنحَسَرَت الأبصارُ دونَ النظر إلىٰ سُبُحاتِ وَجْهِك، ولم تجعل للخَلْق طريقاً إلىٰ معرفتك إلّا بالعجز عن معرفتك.

إلهي فٱجعلنا من الذين ترسَّخَت أشجارُ الشَّوْق إليك في حدائق صدُورِهم، وأخذَت لَوْعَة محبَّتك بمَجامع قلوبهم، فَهُم إلىٰ أوكارِ الأفكار يأوُون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتَعُون، ومن حياض المحبَّة بكأسِ الملاطَفة يكرَعُون، وشرائع المصافاةِ يَرِدُون.

قد كُشِفَ الغطاءُ عن أبصارهم، وٱنجَلَت ظُلْمة الرَّيْب عن عَقائدِهم وضمائرهم، وٱنتفت مخالجة الشكِّ عن قلوبهم وسرائرهم، وٱنْشَرَحتْ بتحقيق المعرفة صدُورُهم، وعَلَت لِسَبْقِ السعادة في الزهادة هِمَمُهُم، وعَذُبَ في معين المعاملة شِربهُم، وطابَ في مجلِس الأُنس سِرُّهم، وأمِنَ في مَوْطِن

المخافة سِرْبُهُم، وٱطمأنَّت بالرجوع إلىٰ ربِّ
الأرباب أنفسُهُم، وتيقَّنت بالفوز والفلاح
أرواحُهم، وقرَّت بالنظر إلىٰ محبوبهم أعيُنُهم،
وٱستقَرَّ بإدراك السُؤل ونَيْل المأمول قَرارُهم،
وربحَت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتُهم.
إلهي ما ألذّ خواطِر الإلهام بذكرك على القلوب،
وما أحلىٰ المسير إليك بالأوهام في مَسَالِك
الغُيُوب، وما أطيَبَ طَعْم حُبِّك وما أعذَبَ
شِرْب قُرْبِك...

وتنتكِس أُخرىٰ وتتدهوَر، فتسقط همَّتها ويفتر عزمها، وتخور قُوَاها وتنهار، وهي لا تحِرْ جواباً عن أسئلة غاية في الخبث والدهاء والمكر، تقفِزُ أمامها وتتراءىٰ لها، وتتراقص علىٰ أصوات نشَاز وألحان جنائزية مَقيتة، وأنغام مُنكَرة مِلؤها التعاسة والشؤم، تعاوِدها مقترنة بشِبْه إغماءة تُصيبها، علىٰ طَيْفِ رَجُل غريب الهيئة، كَرِيه الطَلْعَة، قبيح المنظر، يلفظه كلُّ طَرف سليم ويرفضه كلُّ ذوق سَوِي... نشَرَ شعره الطويل (علىٰ رغم جعوده) وقد عقده خصلات وجذائل، أرسلها حتىٰ ٱفترشت الأرض، وقد جَثَا علىٰ ركبتيه، يرفَعُ في إحدىٰ يديه طَبلاً شُدَّ من إهاب مَعْزة سوداء، وفي الأُخرى عصا يَنْقُرُ بها، وقد طوَّقت إطار الطبل خيوطٌ من صُوف قاني الحمرة، تدلَّت منه بشكل مبعثر ومخيف، يثير الرعب والقشعريرة في السليم، فكيف بمَن خُولطَ كهٰذه المسكينة؟

و "الرجل" يتمايل وهو يتغنىٰ بهٰذه الأسئلة والإجابات:

مَن غَنِم من حالتك هٰذه وٱستفاد؟... لا أحد!

ماذا قدَّمتِ بتضحيتك العظيمة؟... لا شيء!

لماذا حصَل ما حَصَل؟... لا جواب!

قد تجنىٰ وتقتطَفُ ثمرةٌ وتنفصلُ عن أُمِّها الشجرة، قد تُذبح شاة وتُنحر ناقة، قد يُقنَص طيرٌ أو تقع طريدة في شراك... فيطعم جائع ويشبع، أو حتىٰ يلتذَّ متخَم يلَهْو بالصيد والقنص. قد تُقتَطف وَرْدَة يُعتَصَر أريجها أو تبخَّر أوراقها وتصعَّد ثم تقطَّر، فيعالَج لِتَصنع عطراً... يضمِّخ عروساً أو يُطيِّب معبَداً مقدَّساً أو عابداً متبتِّلاً، أو تبقىٰ كما هي، بُرعماً يأنس حالمٌ بمرآه ويهشُّ عاشق لجماله ويبشُّ حبيب يتلقاه تحفة. وقد يقتل إنسان ويصرع، أو يُجرح فيُعاب ويعوَّق، ليهزم عدُواً، ويحرِّر بلَداً، ويحقق نصراً، أو يجني شيئاً...

ولٰكن مَن يا تُرىٰ ٱستفاد من إصابتك؟ ماذا حقَّق كُساحك؟ للثورة وللإسلام، أو للشعب والوطن؟

لقد كانت مُجرَّدَ سوَيعات مَعدودة تفصل "الثوار" عن الظفر، ونظام «الشاه» عن الهزيمة التامة والسقوط والٱنحدار، فماذا قدَّمتِ لهٰؤلاء وماذا أخَّرت عن أُولئك؟ أما أمكن الأُمور أن تمضي علىٰ ما مضَت عليه دون أن تصابي بالرصاصة وينزل بك الشلل؟! لماذا خرَجْتِ لتشييع "حماتك" وتوديعها؟ لماذا لم تستجيبي لإلحاحها أن تنقضي تحياتكما المتبادلة وتنتهي مجاملاتكما الجوفاء، تجتر الكلمات المعسولة بلا طائل، وكأنكما في مباراة لمن يسوق الأكثر ويردُّ بالأجمل؟ تنهيها في فناء الدار دون الخروج إلىٰ الرصيف الملعون؟

آه، يا لحسرتك يا «فرشته»، لقد مَضَتْ "حماتك" ورحَلَت شهيدة وٱرتاحت من همِّ الدنيا وغمِّها، وتركتك كسِيحَة تتجرَّعين الموت غُصَّة بعد غصَّة. والحسرة الكبرىٰ أن لا أجرَ لك علىٰ كلِّ هٰذا! فأنتِ لم تنْوِ غزواً ولم تقصدي جهاداً، والأعمال بالنيات، و "لِكُلِّ ٱمرئ ما نوىٰ"... لقد خرجت إليك رصاصة طائشة، كرسالة أضاعت عنوانها، غير موجهة إليكِ، فلا يحقُّ لكِ فتحها والٱطلاع علىٰ ما فيها، والإفادة من محتواها.

كانت «فرشته» تصرع ويغمى عليها من هَوْل ما ترىٰ، وكثيراً ما كانت تُشير، في بدايات "النوْبة" وقبل أن تتصاعد فتعتريها الإغماءة، إلىٰ ركن في الحجرة، وتصرخ في مَن حولها أن يخرجوا هٰذا "القبيح" ويبعدوه عنها... بلا طائل، إذ ما كان أحدٌ يرىٰ ما ترىٰ.

حتىٰ التمَسَ «محسن» شيخاً ضَلِيعاً بالعلوم الغريبة وبتحضير الأرواح وتسخير الجن، وجاء به خاصة ليعالجها من هٰذه النوبات، فصنع لها عوذة، وقال إن مَن يدهمها في تلك الرؤىٰ هو شيطان مَريد من وُلد «إبليس الرجيم»، وإنَّ عليها أن تلتزم الرقية ولا تخلعها عنها أبداً.

ومن العجيب أنها ـ مع تلك الوصية المغلَّظة، والحاجة المُلِحَّة ـ كانت تتعمَّد نزع الرُقية أحياناً، فتعاودها النوبة! فإذا سُئلَت عن ذلك وعُوتبت، مَضَت في صمْتٍ رهيب، وإحِدَاق إلىٰ ركن في الدار، تركِّز عليه نظَرها وتستغرق في الفكرة دون أن تنبس ببنت شفة.

والحق، أنَّ مسألة "الحظ" و"الطالع" أو "القدر" الذي قضىٰ أن تقع الحادثة بهٰذا الشكل والتوقيت الذي يفصلهم عن الأنتصار وسقوط نظام «الشاه» يوماً واحداً فقط، كانت تؤرق «محسناً» أيضاً، وتأخذه في التفكير والتأمل، وتنتهي به إلىٰ الألم والحسرة.

وكم حدَّث (هو الآخر) نفسه وساءَلها (بدوره):

لو أن عجلة القدَر تسارعت أو تباطأت، لا أدري، لربما أمتنع ذلك الجندي وكفَّ عن إطلاق النار، وقطَع الطريق علىٰ تلك الرصاصة الطائشة، وخنقها في مهدها (بيت النار)، أو لربما تأخَّرت والدتي في الخروج من البيت، أو لربما لم تُصرَّ «فرشته» علىٰ توديعها...

وصار هٰذا الهاجس المؤلم يكثر من مراودة «محسن» بعد وَقْف إطلاق النار وأنتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وأصبح يُلحُّ في حضوره بصورة أكبر بعد وفاة معشوق «محسن»، مرجعه وقدوته: «الإمام الخميني».

وصارَ يأتيه مقترناً بشريط الفيلم الطويل الذي عاش فصوله ووَاكَبَها مَقْطعاً بمَقْطَع منذ الثاني والعشرين من «بهمن» عام ١٣٥٧ (١٩٧٩م).

أما «فرشته» فأكثر ما كان ينال منها ويضنيها هو ما تسببه لزوجها.

كانت تعدُّ الأيام وتحسب الساعات بأنتظار أجلها والخلاص مما هي فيه! وصارَت مواراة حالها وإخفاء ما يستجِدُّ من علَّتها عن «محسن»، هو همّها الأول وشغلها الشاغل، فقد خزيت من كثرة الرأفة بها والإشفاق عليها والإحسان إليها، ولم تعُد تطيق كلَّ هذا الفضل، والقصور عن مقابلته ومجازاته، حتىٰ بأوليّات واجبات الزوجية...

فقد كانت عاجزة عن أداء دَوْرها في الفراش...

كانت تتزيَّن ببعض مَساحِيق التجميل، وتتعطَّر بما تيسَّر، وتحار في ما عساها أن ترتدي من ثياب النوم، هل تعمد إلىٰ ما يكشف جسمها لِتغري زوجها؟ أم تغطيه وتستره لتواري قبحَه!؟ فإذا خرَجَت من هذه الدوامة، وألقت بنفسها علىٰ الفراش ودلفت ـ زحفاً ـ تحت الدثار، ووَافاها زوجها، غلبها الحياء، فأمْسَكت وصَدَّت، وراحت في بكاء مرير يجعل الليلة ليلاء! بل هو شيءٌ آخر منها غير الحياء... خجَل من ترَهل جسمها وذبول فرعها ونحوله، وهزيمة من ذِهَاب نضارتها التي كان «محسن» يتغنىٰ بها في شبابها ويتغزَّل، فما تمتَّع بها ولا ذاقَ منها شيئاً ولا شرِب حتىٰ ذهبت، وها هي الساعة تقدِّم نفسها له كمومياء محنَّطة!

فإذا أفاقت في الصباح، ونظرت في المرآة، هالَها منظرها، وقد ساخت المساحيق وتداخلت ألوانها، فبدَت كمُهرِّج غجَريٍّ في "سيرك" يريد إضحَاك الأطفال! لا تدري هل جاءت دُموعُها علىٰ الأصباغ والمساحيق، أم أنها حين تقدَّمت لزَوْجها وكانت علىٰ هذه الهيئة من البداية ولم تشعر... نعم، هكذا قدَّمت نفسها، إذ ليس ليدِها المرتجفة أن تصنع أفضل من هذا؟

كانت "تموت" في النهار مَرَّات ومَرَّات...

كلَّما أرادت تغيير ثيابها أو اضطرَّت لقَضَاء حاجتها. وكم أمسكت عن الطعام والشراب حتىٰ لا تكلِّف أحداً بحَمْلِها إلىٰ دار الخلاء، خاصة إذا وَافَقَ الأمر ما بعد الظهيرة حين يكون «محسن» قد عادَ إلىٰ الدار، وتكون أُختها التي تكفَّلَت خدمتها وتعاهدت زيارتها كلَّ صباح قد رجعت إلىٰ بيتها لترعىٰ زوجها وأطفالها.

وهٰكذا الحال في الشؤون النسائية الخاصة... فأيام الطَمَث كانت مصيبتها الكبرىٰ، ولا سيما أنَّ الأورَاد التي تلتزمها والأعمال التي تحارب بها "شيطانها" تتطلَّب إغراقاً في الطهارة ونزاهة مفرطة من النجاسات، كما أوصىٰ «الشيخ»، وأخطرُها الدم، وذروته دم الحيض! فلا مرتع للشيطان أنجَعَ من النجاسات، ولا شيء منها يُفعِّل السحر ويمكِّنه كالدَّم، ما أدخلها في الوسواس، فتحترز من أية رُطُوبة وتتكلَّف وتتعسَّف في ذلك أيما تعسُّف.

لم تتحسَّن حالَة «فرشته» ولا استطاع الطبُّ شيئاً، لم يحرز العلاج الطبيعي، ولا غيره ـ وبعضه تداوٍ بأعشاب «صينية» ـ تقدُّماً، سوىٰ إنه جاءَ علىٰ مدَّخرات «محسن»، وأخرَجه من الترف والرفاه الذي قضىٰ حياته فيه (وما كان يُعيَّر به ويُوسَم بسببه بالبرجوازية!)، إلىٰ شظف العيش، والإقتار علىٰ نفسه وتغيير طريقة معيشته لتوفير ما يعينه علىٰ مصاريف العلاج.

فقد كانت كلفته ترتفع وتتصاعد كلَّما طَرَقوا باباً جديدة في المستشفيات المجهَّزة بالمعدات والآلات الحديثة، أو لجؤوا إلىٰ طبيب حاذق وُصِفَ لهم احترافه ومهارته، وذكِرَت شهاداته التي حصدها من أشهر جامعات «أمريكا» و«بريطانيا» حصداً، فأمَّلوا خيراً ويمَّموا شطره، فلا يعودون إلَّا بالخيبة.

في بداية الأمر، ترفَّع «محسن» وعفَّ عن تقدِيم إيصالات الدَّفْع التي كان يتحمَّلها لِعلاج زوجته إلىٰ المؤسسة الحكومية المختصة التي تتكفل مثل هٰذه الحالات، وقد كانت في ذلك الحين "مؤسسة الشهيد" ("بنياد شهيد"، وهي اليوم "مؤسسة المستضعفين ومعوقي الثورة والحرب المفروضة")، ولٰكن مع ضيق ذاتِ اليد ونفادِ ما في الجعبة، صارَ يضطر إلىٰ ذلك بين حين وآخر، ولا سيما إذا كان إيصال الدفع كبيراً.

وكانت تجارة وَالده قد كسدَت، وصارَت أيام إغلاق متجَره وتعطيله بعد اَستشهاد أُمّه أكثر من أيام عمله وكَسْبه، وقد كان يتبرع بجلِّ مدخول المتجر للمجهود الحربي وإمداد الجبهات بالمساعدات، وعموم أعمال البر التي كان مُولَعاً أن يثوِّبها إلىٰ روح "الأُم الشهيدة"، حتىٰ إنه باعَ بُستاناً له في «ساوة» قدَّم ثمنه في هٰذا السبيل.

ومع أن رفاقه في النضال (وأكثرهم مرؤوسين له في التنظيم السابق، وفي حكم طلَّابه الذين له الفضل في التزامهم الديني وتوعيتهم!)، تبوَّؤوا مسؤوليات رفيعة في النظام الجديد، وتقلَّدوا مناصب كبيرة وخطيرة في مختلف مؤسسات «الجمهورية الإسلامية»، إلّا أنه أبىٰ أن يلجأ ويستعين بواحد منهم لتسهيل معاملاته وتيسير أُموره، مع ما كان يَعْرُض له من مشاق ويعاني من هوان، في ظلِّ بيروقراطية قاتلة، أوقفته مراراً أمام تحقيق مهين واَستجواب مُذل حول صحَّة وصِدْق الإيصال الذي يطلب بإزائه مالاً، بل في صِدْق الحالة المرضية التي تعاني منها زوجته!

حتىٰ اَضطر إلىٰ نقلها وعَرْضها علىٰ طبيب "مؤسسة الشهيد" الخاص ليُوثِّق حالَتها ويفتح لها ملفاً وإضبارة في المؤسسة، ثم يتولىٰ أطباء المؤسسة الإشراف علىٰ علاجها ويتكفَّلون مصاريفه، فيكفىٰ «محسن» جُلَّ المؤونة، ويوفر أمواله الخاصة، ليبذلها بدَوْره علىٰ ما كان يصنِّف "كماليات"...

"كماليات" ... كَشِراء الحفاظات الورقية الواقية التي تساعد «فرشته» وتعينها على وَسوَاسها، وتقلِّل وتختصر مرَّات تردُّدها إلى الحمام ودار الخلاء، مما كان يخفف من اعتمادها على غيرها، فيريحها بعض الشيء ويحسِّن من حالتها النفسية.

لكنه لما رأى تواضع مستوى الطبيب المعالج، وتردِّي بقية الخدمات في مستشفى "المؤسسة"، وأراد العودة إلى الطبيب السابق، لم يوافق الموظف المختص على ذلك إلّا بعد أن أمضى «محسن» تعهدات خطية أخذت منه المواثيق والالتزامات القانونية بعدم العودة إلى "المؤسسة"، والرجوع للعلاج في مستشفياتها، وتكليفها بالنفقات من جديد.

❁ ❁ ❁

لم تكن المحنة كلُّها شقاءً وألماً...

كانت قدرات «محسن» الفكرية، وتأويلاته وتنظيراته، التي يستلُّها من تداخل ثقافته الإسلامية والغربية، ومزيج قراءاته في السياسة والفن والتاريخ واللغة، وفي الفقه والحديث والتفسير والفلسفة، ثم ذكاؤه الوقَّاد... تورثه مهارة في استنباط الأفكار والخروج بانتزاعات قلَّ أن يبلغها أو يلتفت إليها غيره.

كان «محسن» قد قرأ في سيرة راهب مسيحي، أو شيخ عارف صوفي، أنه سأل أصحابه وطلَّابه يوماً أن يتولى هو إعداد الطعام لهم. فأبوا ورفضوا، لكنه قام رغماً عنهم ليغسل الأواني ويوقد للقدر ويهيئ للطبخ... أصرُّوا جميعاً على منعه، إلّا واحد منهم، استوى في مجلسه، ورحَّب بخطوة شيخه.

فلما سألوه عن موقفه، مستنكرين سوء أدبه مع مُعلِّمه، وكيف طاوعته نفسه أن "يستخدم" شيخه؟ قال: "حتى لا أقطع عليه طريق التواضع، ولا أحرمه لِذَّة المنح والإعطاء، والبذل والإفضال".

بعد أن عـاشَ «محسن» ذروة تلك اللذَّة... لِذَّة البذل والعَطَاء، التي كانت في غمرة أحزانه وخضَمِّ ما يُقاسي ويكابد، تغشاه كنفحات أُنس تسكِّن آلامه، ونسائم تخمد معاناته وجفوة زمانه، ورَوْحٌ يطفئ غصَّته ولَوْعَته، ويُصيِّرها نَشْوَةً وطرباً يخِفُّ له حتىٰ كأنه يطير ويحلِّق!

أصبح «محسن» يتفنن في خدمة زوجته، ويتقلَّب في عالم النيات المقرِّبة والرياضات السالكة في عناوين: المؤمنة وحقّها، والرحم وصِلَته، والإنسانة وكرامتها، والمعاقة العاجزة ورحمتها... ثم يعود إلىٰ الفتنة والأبتلاء، والأمتحان الذي قرَّره الله تعالىٰ وأنزله ـ بلطفه ـ له وعليه.

صارَ يشعُر بعمق هذه القضية ودوْر العطاء وما يفعله في جَبْر كسوره وبرء قرُوحِه وترميم ما تصدَّع من رُوحه، وراحَ في ما يُستوحىٰ من قصَّة "الشيخ العارف" الذي أرادَ خدمة طُلابه، وكم هي خطيرة وتكاد تكون مصيرية لـ «فرشته»، وإذا كان "التواضع" فَقَدَ محلّه ومَوْقعه في حياتها، فإنَّ "لِذَّة العطاء" ميدان يمكن أن يحقق لها شيئاً، فراح «محسن» يتحرىٰ كيف يهيئ لها أسباب "المنح" ويُفسِحُ لـ "الإفضال" عليه أو علىٰ غيره، لتشعر أنها فعلت شيئاً وقدَّمت من نفسها وجهدها... دون جدوىٰ.

فيعود ليخوض في عالم الأسباب الغيبية وترابط الأحداث وَفْقاً لمعادلتها، ويلتمس المخرج بين هذا وذاك:

ما يُدرينا، لعلَّ الأنتصار كان يتطلَّب دَماً وتضحية أخيرة، أنتِ مَن قُمْتِ بها، وبذلت الدَّم وقدمتيه ولم تُتبِعيه بمَنٍّ ولا أذىٰ؟

إنَّ الأمر في هذا العالم لا يخضع للحسابات المادية، وإن كان، فليس لأحَدٍ أن يحدِّد المقدِّمات ويجمع الشتات من الأحداث ليقرِّر أنها المدخل والسبب في تلك النتيجة المعيَّنة. قد يقعُ حدَثٌ في الشرق تظهر نتيجته في الغرب، وقد يكون فعلٌ ما مقدمة لنتيجة غريبة عنه في ما نفهم ونحلِّل، نعجز عن إدراك الرابط والسبب المتصل بينهما؟

أمَّا أمْرُ الله سبحانه وتعالىٰ، أعمُّ من تشريعه وتدبيره، فمِن أغرب ما يكون، وفيه من الأسرار ما تحار منه العقول...

أنظري إلىٰ ما يجري في "الحجّ" وتأمَّلي في ما يفعله المسلمون هناك يوم النحر... مئات آلاف الأضاحي، ما يناهز مليون ذبيحة ملقاة علىٰ الأرض بلا نفع ولا طائل، ألا يورث هٰذا الأستغراب؟ بل يبعث الأستهجان والأستنكار في بعضهم، فيحتالون أن "يُصحِّحُوا" ويُغيِّروا من هٰذا المنسك بما يعود بالنفع علىٰ الفقراء والجياع؟

غافلين عن السرِّ والحكمة، إذ لعلَّ الله سبحانه وتعالىٰ يريد أن تُراق هٰذه الدماء وتذهب "هَدَراً"؟ فيعرف الناس قيمة الحياة الدنيا وحقيقة شأنها وقدرها، ويخففوا من تكالبهم عليها ويقلِّلوا من تمسكهم بأسبابها المادية والحسيَّة... لَعلَّها رسالة في مكافحة الشحّ والبخل والحرص والجشع وما إلىٰ ذلك من آفات النفس وأمراض الروح، ودَرْسٌ عمَلي في التعبُّد والوقوف عند أوامر الله ونواهيه مَوقف الخضوع والتسليم والأنقياد؟

لعلَّ الرصاصَة التي قَضَت علىٰ "أُمي" المسكينة، أو في الحقيقة خلَّصتها وأراحتها، ثم نفذت متوغلة لتُصيبك وتُنزل بك ما صرت فيه، وقد زحفت فيما بعد - بإصرار يؤكِّد السر! - لتضرب حَبل الأعصاب من عمود ظهرك الفقاري... لعلَّها كانت قدَراً مقضياً؟

بل هي كذلك حتماً... أمرٌ لا بدَّ أن يُصيب أحَداً ويحلَّ بشخَص، ويَطَال إنساناً، قضاءٌ وبَلاءٌ نزل به "الكتاب" من سابع سماء، فلا ولن يعود خالي الوِفَاض، صِفر اليدين، مهزوماً عاجزاً مقهوراً، كأن إرادة البشر أحتالت عليه وتدبيرهم غلَبه!

هنا أنبرَت نفسُك الأبيَّة يا «فرشته» وتصدَّت، وتقدَّمت رَوحُك المعطاءة السامية وتطوَّعَت لِتتلقَّاها عن غيرك، فتفدِين بها مَن سِواك...

إننا نطلُب أقدارنا ونخُطُّها، ولا يظلمنا الله ولا يحمِّلنا شيئاً لم نُرِدْه!

عَظُمَت نفسُك يا «فرشته» وسَمَتْ فتطلَّعت إلى ذروة المجد، وأرادَت أقصى البذل والعطاء، فنزل وحلَّ بها البلاء.

ثِقي أنَّ الثورة كانت تطلب وَقُودها، ومذبَحها كان في ظمأ مزيدٍ من الأضاحي والقرابين، والنصر مُعلَّق بهذا القدَر، مَنُوط بهذا القضاء، ينتظر اكتمال عِلَله وإتمام أسبابه والفراغ من مقدِّماته، ليتقدم ويظْهَر... لا عبثَ هنا ولا هَدَر، لا شيء يكون من تلقاء نفسه، لا أمر طائش يحدِّد مصير شخص أو أشخاص، إنَّ خطَّ القَدر يمضي بوَقار، وعجلتُه تدور بدِقَّة متناهية، بلا خطأ ولا زلل ولا ضلال ولا شطَح. إنها سذاجة وسطحيةٌ تتجاهل أعماق الأُمور وجذورها، أن نقول ونتساءل عن فائدة دَم وتضحية وَقَعت في ما نحسبه "الوقت الضائع" أو الساعات التي أعقبت انتهاء المعركة!

ثم أين أنتِ عن أسرار الابتلاء وخَفَايا الامتحانات الإلهية، وهي أشكال وأنواع غاية في الغرابة؟

تدبَّري في حال الذين كانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، تتكاثر الأسماك وتظهر بوَفرة يوم الحَظْر، ثم تختفي وتذهب في أيام إباحة الصيد! امتحان كان السقوط فيه يعني الغضب والسَخَط الإلهي، ونزول العذاب والمسخ قردة خاسئين...

كانت «فرشته» تسكن روحاً وتطيب نفساً لما تسمع من هذا الحديث، وتتماثل للبُرء وتَنْقَه... لكن سرعان ما تعود لتستهيض وتنكُس وهي تحسب أنه من فذلكات «محسن»، وتسجِّله في تخريجاته التي لم تعصَ عليه يوماً ولا أعيته في معالجة شيء! فهو محاوُر الفلاسفة ومُناظِرُ المفكرين، فهل سيعجز عن تسليتي وإيجاد ما يُروِّحُ عني، وخَلْق صيغة وفذلكة صورة تسكِّن خاطري؟

كانت «فرشته» "تموت" مرَّة بعد مرَّة، بعدَد أنفاسها، تشعر أن رُوحها تزهق وتكاد تلفظ بدَنها، عندما يَسْكُن الليل ويهجعان معاً ويلتقيان في سرير الزوجية، فتبادر بالطلب إليه ليتزوَّج بأُخرىٰ تقوم بواجبه وتنهض بحاجاته الطبيعية. فيأبىٰ «محسن» وينتهرها، وهي الحالة الوحيدة التي تدفعه لأنتهارها وتوبيخها، ويعلن لها عن قناعته ورِضاه، وأنه يتعامل مع الأمر كقضاء إلهي وقدَر أراد له ولها هٰذا الأبتلاء.

ويقول: هناك من قدَّم روحه وبذلَها رخيصة لهٰذه الثورة، فترمَّلَت زوجته وتيتم أطفاله وفجع أبوه وثكلت أُمّه، ونحن لم نقدِّم شيئاً أمام تضحية هٰؤلاء، فهل نأسىٰ علىٰ هٰذا القليل؟ كلَّا لم نؤد للإسلام حقَّه علينا ولم نوفه دَيْنه بعد...

إنني بهٰذا لن أخونكِ أنتِ فحَسْب، بل أخُون الثورة أيضاً!

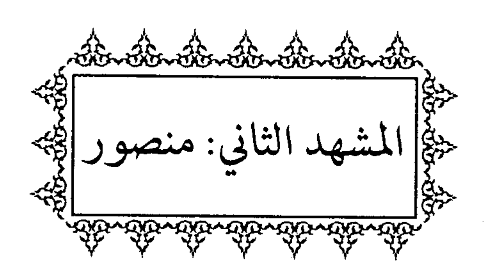
لم يخلق الله سبحانه وتعالىٰ هٰذه الدنيا ليجعلها دارَ قرار ونهاية، ولم تتعلَّق الإرادة الإلهية الأُولىٰ بأن نهنأ هنا ونَنْعَم، نحن ضيوف علىٰ هٰذا العالم، والآخرة هي دار الخلود والحيوان...

الدنيا يا «فرشته» جسر وقنطرة، والبيوت لا تبنىٰ علىٰ القناطر والجسور، والناس أمواتٌ لأنهم في غفلة عن هٰذا الأمر وعشوة عن هٰذه الحقيقة، لذلك هم نِيام، فإذا ماتوا أنتبهوا... سنرحل عن هٰذه الدار وننتقل بعد حين لن يطول إلىٰ الآخرة، ونحن بِصَبْرِنا ورِضانا إنما نمهِّدُ لها ونفرشها ونزينها بما نشتهي من متاع.

إن شَكْوانا أو سخطنا وتذمرنا ـ لا سمح الله ـ من حالتنا والمصيبة التي نزلت بنا، لا يختلف عن شكوىٰ الجنين وصياحه عند خروجه من بَطن أُمِّه، الوطن الذي ألف وأنس لأشهر أمتدت به، يبكي ويطلق صرَخات أعتراض متواصلة، جاهلاً أنه صارَ في فضاء أكبر وعالم أعظم، لولاه لكان من الهالكين...

كانا يتسامران الليل كلَّه، فلا يبقى في الكأس إلّا ثمالة وصُبابة، لا أدري هل كانا يتعمَّدان الإبقاء عليها، لتعود الكأس فتمتلئ لليلة القادمة، أم أن التعب أدركهما والوقت دهمهما؟ فهذا السحَر يستدعيهما للتهجُّد، وهذه النجوم أخذت تثِب كالحمائم قِبَلَ المغرب، وفي إثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء تنذر بالفجر، فالشروق...

* * *


المشهد الثاني: منصور

ثلاثية الثمن

المشهد الثاني: منصور

ليلٌ بهيم، ورعب أمواج هوجاء، وأعاصير مهولة...
أين للمنتجعين على الشواطئ من الإحساس بمعاناتنا؟
(الحافظ الشيرازي)
شب تاريك وبيم موج وگردابي چنين هائل
كجا دانند حال ما سبكباران ساحلها؟

على قَدْر ما كانَ «منصور» عاشِقاً حالماً ينتظر منتصف الشهر العربي ويرتقب لَيَالِيه المقمِرَة، وكأنه على موعد مع مُنْعِم أو راعٍ أو مُلْهِم، يزوِّده بمؤونة بقية أيام الشهر ولياليه، ما يبعَث فيه الشوق واللهفة والتحفُّز، ويدفعه للحيطة والحذَر والخفر... كان هادئاً ساكناً وقوراً، وَقَار المطمئن إلى موعده، الواثق أنه لا يفوته ولن يخلَفه.

لهذا، ولعلل أُخر، ما كان يطلب بُغيته حثيثاً ولا يلاحقها ويطاردها، فيركب لها بحراً أو يجعل لها مبلغاً، كـ «ذي القرنين» ومغرب الشمس، فلا هو أُوتي من الأسباب، ولا أتبع سبباً...

بل كان يمهِّد لَوْحاً من الورق المُقوَّى (اتخذه من صندوق لِبرَّاد كهربائي ياباني الصنع) يفترشه على حصى ضفاف النهر، ويحمل كراريسه، وقلم رصاص شذَّبه وبالغ في بريه، حتى صغر وتضاءل إلى أقصر من سبابته، ويجلس ينتظر ويرتقب، ليلة بعد ليلة.

أو أنه ـ في الحقيقة ـ ما كان يرتَقِب ولا ينتظِر، إنما اُخترع واُبتدع وجعَلَ لِنَفْسه مَواعيد ومحطَّات، لتُشْعِره بقَطْع الزمن ومضيِّ الوقت، وتنبهه إلىٰ ما قد يفوته ويتخطَّاه.

لذا فهو لا يترك الليالي الظلماء الدهماء تمرُّ عليه مُرورَ الكِرام وتتخطَّاه دون أن يعارضها ويستوقفها.

كان في أول الأمر وبداياته، يجول في أطرافها ما وَسِعَهُ، ويتأمل في أعماقها ما أمكَنَه، ثم صارَ يدخُلها متوجِّساً ويلجها حذِراً، حتىٰ إذا تعرَّفَها واُطَّلَع علىٰ بعض خَفاياها، أخذَ يقحَمها بفضول المستكشف ويتسكَّع في أكنافها بشغَفِ الباحث، ويأبىٰ أن يعود ويرجع قبل أن يحتلبها ألباناً بنقاء الفجر وبياضه، ويجني من كرومها خموراً بسَوْرَة تسكِره النهار كلَّه، فلا ينقطع عنها ولا تغادره، ويبقىٰ معها في وِصال.

كان يستوقف الليالي وظَلامها، يسائلها ويستنطقها، وكثيراً ما كان يسمع منها الحكايات والأخبار، وفي آخرها، قبيل الفجر، كُنَّ يبشرنه ويغمزن إليه ويغازلنه: إن حبيباته "البيض" قادمات عن قريب، وإنهن في لهفة إليه كما هو إليهن. كأن ذلك لِتَداعي الصفات بين نور الليالي البيض المقمرة، والفجر، يلقين ذلك كمُزحة النهاية ودعابة الختام وفكاهته، أو تحفة العودة وذكرىٰ الرجُوع، يحمِّلنها صاحبهن الوفي وسميرهن المرضي.

فيستدرِكُ بأدب جمٍّ ويقابلهن بحَياء، ويردُّ عليهن التحيَّة بأحسَن منها، ويبلغهُنَّ بخلَجَات نفسِه وأحاديث رُوحِه ورأيه فيهن ويخبرهن أنَّ: الليالي السوداء الحنادس، هي أيضاً معشوقاته وحبيباته، وإنما يرتقب "البيض" ليُسجِّل من النقلَة، ويأخذ من التغيير، وينتزع من التفاوت، ما لا يكون في غيره، لا أنها أفضل منهن حالاً وأجمل مِثالاً وأكثر إلهاماً!

ففي قامُوس «منصور» كلُّ شيء جميل (بحَسْبه)...

ويكفي "الحنادس" فضلاً وجمالاً أنها هي التي كشَفَت "البيض" وأظهرتهن وجلَّتهن، بل هي التي جاءت بهن، لا بمعنىٰ أنها مقدمة لها، وتلك تالية تعقبها، فإذا ما أتت هٰذه جاءت بعدها تلك، لا بهٰذا المعنىٰ فحَسْب (وإن كان في ذاته سَبْقٌ وإفضال لا يُنكر)، بل بما أوجَدَ التفاوت عقَدَ المقارنة ووسمَحَ بالتمييز والتفضيل والقياس، فراحَت الظلماء في الحالك وغمرت نفسها في الهالك، كلّ ذلك لِتُجلِّي "البيض"، تعتقها نقيَّة وتحرِّرها ناصعة بهيَّة... فظهر جمال العطاء، وتألقت زهرة الصنع والإبداع.

وقد ٱلتزم «منصور» أن لا يَسْمَح لِنَفْسِه أن تبْخَس مَوْجُوداً، كائناً مَن كان، فلا يوفيه حقَّه، كما لا يريد لِنَفْسِه ـ من جهة أُخرىٰ ـ أن تُحرَم جانباً من الجمال يرفدُها ويثريها، لا علىٰ نهج ماديٍّ وتعاطٍ تجاريٍّ، بل من منطلق أخلاقي وسلوك حضاريٍّ من شأن النبلاء، ومن فِعْل الأحرار النجباء. كان يستوقفه، إذا مَرَّ في سوق الأقمشة، منظَر بعض أشكالها وألوانها، فيَعجَبْ ويتساءل: دعكَ عن العليل الذي رَسَم وصمَّم ونَسَجَ... أيعقل أن يختار مُشْترٍ هٰذا القماش؟ هل تَسْقُمُ الأذواق وتمرض حتىٰ تهبط فتَسْتَحْسِنَ هٰذا المزيج القبيح من تداخل الألوان الصارخة والنقوش الشوهاء؟

لٰكنه ـ في المقابل ـ ما كان يَعجَب من «خاله»، كما تفعل العائلة كلُّها، كيف ٱنتخب زوجته "القبيحة" وأصرَّ علىٰ خياره؟...

كان يرىٰ فيها جمالاً وحُسْناً، فلا شيءَ قبيح في ذاته، ما دام وُجِدَ وخُلِق، فقد حظيَ بدرَجَة من الجمال ونسبة، ذلك أنه ٱنسلخ من العدم وتحرَّر من قيود وأسوار قبحه.

العمدة في زاوية رؤيتنا للأشياء، ومُنطلق تلقيها وفهمها.

كان «منصور» يفرِّقُ بين صُنع الله وإبداعِه، فـ "كلُّ ما يفعل المليح مَليح"، وخَرْطِ البشر وسوء أفعالهم، من قبيل نَسْج ذلك القماش!

كان يذهب في سَمَره ومناجاته ما شاء، وشاءت الليالي الظلماء...

وقد أنِسَت بغربته، وطَابَ لها أن يُسامِرها مُرهف مثله، وهي التي عَهدت من الناس توجُّساً وخَوْفاً، أوْرثهم إعراضاً وصدّاً، أقلُّه الإسراج والإضاءة، ما يبدِّدها ويكسَحها وينفيها عن محيطهم، وهي تبتسم من فعلهم ساخرة هازئة، فإضاءتهم أمام ظُلمتها كَدَلْوٍ يزْعَب من محيط ليفرغه! وتُعرِض متعالية: أنتُم الخاسرون، ففي مَطاوي هذا الظلام كنوزٌ لو عرفتموها لَضَرَبتم إليها آباط سُفُن الفضاء، وسَبَحْتُم إليها بالأرواح، وطِرتُم نحْوَها ببراق الأفكار.

كان يشعر وتشعر "الظلمة" معه بوُحْدَته، لا من أفعاله وطريقة عَيْشِه التي تشابه سُلوكَ السجناء الانفراديين، بل من رُوحِه ونزَعات نفسه، ومن أفكاره الغريبة...

كأن هذا الفتىٰ لا يقطُن في مدينة مزدحمة، ويتردَّد في شوارع وأسواق مكتظَّة، ويترعرع في وَسَط عائلة وأهل ومجتمع! كأنه سجين، والدنيا كلُّها ـ علىٰ رحابتها ـ محبسه ومعتقله، وحكمه مؤبَّد، لا يرجو أن ينقضي فيخرج ويخلص، إلّا إلىٰ دارٍ أُخرىٰ، ليست من جنس هذه الدنيا وعالمها الذي فرغ منه وأتمَّه.

وما كان «منصور» يختصُّ الليل والظلام بعكْس مفهوم الناس ورؤيتهم، وبالتعامل معه ومقابلته بغيْر ما اعتادوا، بل كانت له فلسفته ورؤيته الخاصة في التفاعل والتعاطي مع كلِّ شيء "سلبي"...

كان الفقر والفاقة تعني له كثيراً، أن يشتهي طعاماً أو ثياباً أو دراجة نارية (وهي رغبة طالما ألحَّت عليه وعاودته مرَّة بعد مرَّة!)، ثم يعجز عن اقتنائها لِضيق ذاتِ يدِه.

كان يستطيع، بل يجيد ويتفنَّن، فيَقْلِبُ المرارة من العَجْزَ والحسرة من الفَقْد، إلىٰ شعُور رائع، من الأُنس واللـذة والنشوة في مقاومة الشهوة وقهْرِ الرغبة وترويض الإرادة، كان كمَن يلهو بمغناطيس يُدني إليه قطعة معدن يجتذبها، ثم يزيحها شيئاً، يحركها بانسياب ويبعدها قليلاً، فتنجذب إليه الحديدة، تتبعه وتلحقه وتطارده...

هٰكذا كان يلهو برَغباته وشهَواته ويجعلها أُلعوبة، ويقْلِبُ عجزه لِذَّة، وحرمانه أُنساً وتسلية!

كان "يتعمَّد" المكثَ في البرد والبقاء مرتَعِشاً في صَرْده، ويُغالِبُ زمهريراً وصقيعاً يتقَرقَفُ في قَرْسِه... بالتأمُّل والفكرة، لا أن يوحي لنفسه بالدِّفء، فيتصوَّر مَوْقداً مُشتَعِلاً تتقلَّب فيه ألسِنَة اللهب، وهو يحصبها بضَرَم الحطب يحيلها جزلاً، فيوحي له ذلك بالحرارة والدِّفء، كلا! بل بمحاكاة البرد ومحاوَرته واستنطاقه، ومناجاة فَقْره وعجز والده عن توفير الكافي من المحروقات ووَسائل التدفئة وأسباب دَفْع البرد عن بيتهم، علىٰ صغره، وتحدِّيه: سأُقاوِمك دُونَ حركة، وسأقهرك دون وَسِيلة، وسأخمد شفيفك وأسكن نشيجك وأطفئ لذعك بلا نار! وفي مرحلة تالية ينقلب التحدِّي إلىٰ وِفاق ووِئام: حُييتَ من ضيف، وبوركت من بَلاء، وعظُمْتَ من قوَّة!

وإن ظهر منه شيء من العمل بالأسباب الطبيعية والمنطقية في مواجَهة البرد مثلاً، وهي لن تتجاوز دَعْك وفَرْك كفَّيه والنفخ فيهما من ساخِن أنفاسِه، فإنَّ ذلك يكون زلَلاً منه أخرجَتْه إليه الفِطْرة والطبيعة، وغلَبة اللاوعي.

والغريب أنه لم يكن يبلُغ في هٰذه الرياضة الذُروة التي تُذهب الشهوات من قلبه وتقْطَعها، وتمسحها وتمحيها من رُوحِه ألبتَّة، فلا تعود إليه، ولا يعود إلىٰ معاناته.

علىٰ الرغم من أنه (علىٰ ما يبدو ويظهر) كان قادِراً علىٰ ذلك، لٰكنه من فَرْط ما كان مستهيناً متعالياً في سلوكه، يستشعر القدرة والهيمنة وكأنه متسلِّط ومتمكِّنٌ من كلِّ شيء... كان يُبقي علىٰ أُصول الشهَوات وجذُورها. أم تُراها مرحلة وحالَة مستحيلة يقصر دونها البشر مهما فعلوا وبلغوا؟ فهو ـ وغيره ـ أعجَزُ عن ٱجتثاثها، وأضعف وأقلُّ من أن يقتلعوها، ذلك أنهم سينْسلِخون ـ حينها ـ عن بشريتهم؟

ما زال يشتهي ويرغَبُ ويريد، ثم يقابل رغباته بالعجز والفَقْد، ويعود إلىٰ خَوْض الصراع، والجولة في ذلك الميدان.

هٰكذا الأمر في المرض... ما كان «منصور» يتداوىٰ!

كُسِرَ ساعده مرَّة إثر حادِث مروري، غريب هو الآخر كضحيَّته! دهمته سيارة وهو يقطع الطريق، لم تكن مُسرِعة ولا هو باغَتَها في عبوره، ولا كانت السيارة تشكو عطلاً في مكابحها، ولا السائق ضعفاً في نظَره، حتىٰ ليَظُنُّ المرءُ أن الحادث عَمْدِي!... أبىٰ الفتىٰ أن يعالج كَسْره ويتطبَّب! كان العَنَتُ يَرْدُمُ عليه الحُمَّىٰ، والبرْحَاء تلازمه لا تنفك، توهي مفاصله وترثيها، وتنقض ظهره وتكاد تقصمه، فلا يتأوَّه، ويغالب آلامه فلا يشكو ولا يتوَجَّع.

أصبح الحرمان فنَّه الذي يُتقِن ويجيد!

يخاصم صاحِباً له هو أحبُّ الناس إليه وأعزُّهم عليه، فيتقطَّع ألماً من قطيعته، وتذهب نفسُهُ حَسَرات من غُصَّة صدِّه وإعراضه، فلا يعمد إلىٰ أسباب الوَصْل والصفاء، بل يلْسَع نفسه بسِياط الهجر ويذيقها مَرارة الفِراق، والحلُّ علىٰ مرمىٰ عصاً منه، مبذولٌ وفي متناوله: كلمة واحدة من تحية أو سلام، بل مجرَّد ٱبتسامة، كفيلة بإنهاء الجفوة وختم الخصام، لٰكنه لا يفعل، لا تكبُّراً وعناداً، بل ليُبقي علىٰ حرمانه، ولتستمرَّ معاناته من هٰذا الحرمان!

ليتحول ذلك - بعد حين - شَهْداً في ذائقته، وطيباً يتضمَّخ به، يجمع الظُّلامة والغُربة والوَحْدَة والوَحشَة، ومشاعر أُخرىٰ، أكثر تعقيداً، وأغرَبُ من أن يصدِّق أحدٌ أنها تفضي إلىٰ أُنس وتورث نَشْوَة!

أول تجاربه كانت حين ٱلتزم الصمْتَ أمام تهمة قذَفه بها زميل له في الصفِّ الدراسي، إذ نَسَب إليه كتابة عبارات علىٰ جدران وأبواب مراحيض المدرسة، فيها سبٌّ للمعلِّمين وبذاءات أُخرىٰ، فسَكَتَ ولم يُجِبْ! وراحَ يتلقىٰ العقاب ضرباً موجعاً وجَلداً مهيناً، بعَصاً من الخيزران، تلسع كالسَّوط وتؤلم كالموت، وهو لا ينبس ببنت شفة! حتىٰ تدخَّل آخرون من معلمين وطلَّاب مدافعين، وٱنقلب عُنف المعلِّم وقسوته تمنياً ورجاءً أن يدافع «منصور» عن نفسه، وينفي قراءة صمته ٱعترافاً بالذنب وقبولاً بالعقوبة... وهو يأبىٰ، لائذاً بِصَوْمه عن الكلام! كان في ٱنقطاع عن كلِّ ما يدور حوْله، إذ ٱنفصل - بعد فترة من بدء الألم - عن محيطه، وما عادَ يشعر بالضرب والجلد، ولا يسمع حديثاً عن التهمة ولا عرْضاً للدفاع... ثم ٱنتابتهُ بعد ذلك حالة غريبة من الرِّضا والراحة، ما لبثت أن ٱنقلبت أُنساً ولذَّة.

ولعلَّ ما ٱنتابه، وحتىٰ ما بَعَثَه علىٰ ذلك السلوك وٱنتهىٰ به إلىٰ تلك الحالة، كان مصادفة وَقَعَت له وعارِضاً طائشاً نزل به، أو هو شطْحَة من إلهامات وَحي خفيٍّ تلقَّاه، هشَّ لها وطرِب، فخرج من نفسه وخلَع ذاته وراح ينادي في نشوة: "أين الملوك وأبناء الملوك عن هٰذه اللذة"؟

مضىٰ بعدها مولَعاً يلتمَّس تلك المواطن، ويلاحقها كضالَّة.

وما زال يلقاها مرَّة بعد أُخرىٰ، ويتقلَّب في نعيمها ويرفل في نشوتها حتىٰ أَلِفها وأدمنها، فما عادَ يُطيق العَيْش من غيرها ولا يستطعم لِذَّة سواها، بل لا يجد للحياة معنىً ولا في الدنيا قيمة غيرها.

وكان يرىٰ "قهر الذات" سبيلاً حَصْرياً لما يروم.

ويعتقد أنَّ في الغاية والنهاية، هناك، في الذُرْوَة التي لم يبلغها بعد، ما يدرك به كُنْه ومطلَق الصدق من حقائق الأشياء وأسرار الوجود، فيبرد غليله من معينها... فإذا وَفىٰ الطريق سَعْيَه والسير جِدَّه، أوْفىٰ المآلُ مُعاناته وآلامَه حقَّها، فخلُص إلىٰ معرفة ولذَّة لا مثيل لها.

فلا تخدعه بعد ذلك صورَة كاذبة، ولا يغويه زيفُ أو وَهْمُ خيال، ولا يغريه أعتبار، بل ينظر بعين الله، فيرىٰ الأشياء علىٰ حقائقها، ويقرأ الأحداث علىٰ وَقائعها، في حاضرها وماضيها ومستقبلها.

خليط مزَجَ: موقع الألم في الفهم المسيحي، اللاهوتي منه والرهباني، بالصفاء والسكون من "النيرفانا" في البوذية، بالعرفان ورؤيته لمقام الولاية ومنزلة "الإمام" في الإسلام ومدرسة «أهل البيت» عليهم السلام...

أن يفتح الألمُ باعه ويمُدَّ ذراعيه، فيلقي المرء بنفسه بينهما بشَوْق ولهفة، بدل أن يحتمي ويهرب، فيلوذ بالألم ويعانقه. وبقَدْر ما يكبر الألم، يزداد الأنجذاب ويلتحم العِناق، فتصقل النفس من ملتَهب الأنفاس... ألمٌ لا يعرفه إلّا مَن ذاقَه وقاساه، ومعاناة لا يطيقها إلّا من عايشها وتقبَّلَها عن حبٍّ وعشق، فرِضاً وطيبِ خاطِر.

إنَّ المجاهدات التي تفرضها الرياضة ويقتضيها السير والسلوك من: العُزلة وإماتة الشهوة، سواء المتعلقة بالصَّوْم والإمساك عن الطعام الحيواني، وعن كثرته في عمومه، وإبقاء النفس ـ دوماً ـ في الجوع دون الشَّبع، والظمأ دون الأرتواء، أو عن الرَّفاه، بل الراحة، وهجران النوم إلىٰ السهر وإحياء الليل، وعن المسكن والمستَقَرِّ إلىٰ السفر والترحال والهجرة... كلّ هٰذه، ترفد المرتاض وتُشعِر السالك بأنه يعطي شيئاً، وبالنسبة إلىٰ مبتدئ في حماسة «منصور»، كان الشعور بالملكية، وبالقدرة علىٰ العطاء أمراً في غاية الخطورة والنفع، ناهيك بما أورثه في الفتىٰ من الفرح والأمان، والثقة بالنفس.

ولم تكن الآلام والمعاناة تتوقَّف عند أضرابِ تلك، الطبيعية المعهودة، فقد كانت لـ «منصور» آلامه الخاصَّة التي يتميَّز بها، مما ترىٰ غيره خِلْواً منها، بعيداً عنها... كالألم من العيش في مكان واحِد، أن تقضي حياتك كلَّها جنباً إلىٰ جنب الأشخاص أنفُسهم، والوُجُوه نفسها، وفيهم المتخلِّف، والساقط، والمرتاب والحذر المتوجِّس، الذي عليك أن تُفسِّر له كلَّ تصرُّف وخطوة حتىٰ لا يشكَّ فيك! فتوقعه في سُوء الظنِّ وما يترتب عليه من آفات علىٰ نفسه وعلىٰ علاقتكما، ثم علىٰ روحك ومجاهداتها. وهناك الألم من مغالَبة الرغبة في الحديث وفضِّ الهموم والإفصاح عما في النفس، ألم الإمساك عن إبداء الرأي والاعتراض والرفض، في خضم أجواء مليئة بالأخطاء، مشحُونة بالسقَطَات التي تستوجب الوقْفة والمحاسبة والتقويم...

كان يفترِض، كتَحايل علىٰ وَاقِعه المرير، ومعالجة لِوَحْشَته وغُربَته، أنَّ المحيطين به ـ كلَّهم ـ يعانون ويُقاسون مثله، ويكتمون ـ علىٰ طريقته ـ غُصَصَهُم ويخفون آلامهم! ويروح في "لعبة جماعية" (في عالمه الأفتراضي)، ينافس فيها البقيَّة علىٰ الصبر، حين يرتقب كلَّ الآخرين: متىٰ يستسلمون فيضجُّون ويشكُون!؟ كمجوعة غاصَت في بِركَة ماء، والفائز منهم هو آخِر مَن يُخرج رأسه لِيتنفَّس ويستنشق الهواء.

عندها، حين كان يرىٰ صبرهم (!) ويسجل تفوُّقهم، ويستشعر سُمُوَّ "الآخر" وعظمة خَلْق الله وعباده، فلا يحتقر شيئاً ولا يزدري مخلوقاً، ويرىٰ نفسه الأقلَّ والأحقر، حقاً وَاقعاً، لا زعماً وتواضعاً... كان يعالج رؤيته ويُصلح حالَته، وينتصر علىٰ نفسه، فيتصالح معها، ويخرج من آلامه، إلىٰ الأُنس والرضا والنشوة، فينادي:

يا للنعمة التي لا تُثمَّن، حقَّ أن أُقبِّلَ الأرض التي يمشي عليها هٰؤلاء الأولياء!

وبعد، فقد كان «منصور» مأخوذاً بإحجام "الإمام المعصوم" عن أستعمال قدراته الخارقة وولايته المطلَقة التي يهيمن بها على ذرّات الكون، وإمساكه عن معالجة الصِّعَاب التي تعترضه بتسخير طاقاته وإتيان المعجزات؟ والأخطر من ذلك والأعجب، إعراضه عن عِلْمِه، ووُقُوعه في لَهَوات الأخطار ونزوله على الفجائع والأهوال نتيجة هذا الإعراض، فعِلْم "الإمام" يكون حاضراً إذا شاء، وحاصلاً إذا أراد، ولا يكون حضوره دوماً وحصوله أبداً.

لقد أدرك أن عُمْق فضيلة «أميرالمؤمنين» "ليلة المبيت" لم تكن لفدائيته وعطائه والتضحية بنفسه عن «النبي»، يقِيه القتل الذي كانت «قريش» تكيد لتنزله به في تلك الليلة، فغشيهم الله تعالى بالنُعاس نصرة وأمَنَة لـ «نبيه» ﷺ، ليست الفضيلة والعظمة للفدائية فحَسْب... بل للإحجام عن عِلم الغيْب المخزون في صَدْره، وإمساكه عن الأطِّلاع على المستقبل وقراءة القادم، وهو في متناوله، ولو شاء لَوَقَفَ عليه، بتفاصيله، ومنه عِلْم المنايا والبلايا الذي بذَلَه لـ «ميثم التمار»، كان بأستطاعة «المولى» عليه السلام معرفة نتائج تلك الليلة ومآل الأمر فيها بألتفاتة إلى نفسه، كمَن ينظر إلى راحة كفِّه... لكنه لم يفعل!

هذا ما جعل «جبريل» يباهي الملائكة في السماوات بـ «علي» عليه السلام وصُنْعِه، وهو ما أنزل فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ رَءُوفٌ بِٱلعِبَادِ﴾.

وهكذا الأمر في بقية الأحداث التي شكَّلت محطَّات خطيرة أظهَرت عظَمة "الإمام"، وكشفَت فضيلته ومنزلته... ليس سرُّ العظمة في مقاساة «الكاظم» القيود والحبوس وظُلَم المطامير، ولا في رِضَا «سيد الشهداء» بذلك القتل الفجيع، ولا في صبر «أمير المؤمنين» عن حقِّه المضيع، ولا في تحمُّل دفن «السبط الأكبر» عليه السلام في «البقيع»... فَحَسْب!

بل في كفِّهم عن ٱستعمال وتوظيف طاقات خَارِقة وولاية مُطلقة تَقلِبُ الأحوال والأوضاع وتعكِسها نصراً لهم وقَهراً لعدوِّهم، إنَّ العظمة كلَّ العظمة في رِداءِ العبودية الذي كانوا يلتذون بٱرتدائه، ولباس التسليم والضعف والعجز والفقر إلىٰ الله الذي كانوا يتألقون ويتزينون به.

" هناك لِذَّة في هـٰذه السيرة العطرة، عليَّ أن أكشفها وأجدها... هناك سرٌّ، لا بد أنهم - عليهم السلام - بذلوا لنا شيئاً منه، علَيَّ أن أُدركه وأناله، لن أتركه يضيع، ولن أسمح لنفسي أن تفقده ".

هـٰذا ما كان «منصور» يحدِّث به نفسه ويكرره بلا كلَل ولا ملَل.

وكانت بدايات الأمر عند «منصور» ضربٌ من التجربة والمغامرة، كأن يراقب في التلفزيون مباراة كرة قدم جرَت بالأمس، ويطوي صحيفة اليوم، التي تذكر نتيجة المباراة، لا ليَعِيش حماسها ويواكِبَ أحداثها بشَوْق، بل ليُذيق نفسَه لَوْعَة الحرمان من مبذولٍ في متناوله، يحتَجِبُ عنه طَوْعاً، ويُعرِض إرادةً لا رغماً!

وكان يقرأ القصَّة البوليسية ورواية المغامرة، ويلاحِقَ فصولها ويتابع حبكتها، فإذا قرُبت من النهاية وبدأ رَبْطُ الخيوط وترتيب النتائج للوُصول إلىٰ أجوبة عن الصُوَرِ المبهمة والمشاهد الغامضة التي صوَّرها الكاتب في بداية قصَّته وصَدْرِ روايته... أغلق الكتاب وكفَّ عن المطالعة وتوقَّف عن القراءة، ممتنعاً عن ملاحقة النتيجة ومعرفة النهاية المشوِّقة! ليلسعه الفضول ويكويه الشوق، وتبريه المعاناة.

كان يستمع إلىٰ جمع يتداولُون في أمر يعرفه حقَّ المعرفة، كخَبَر عن حادثة وَقَعَت في المدينة، أو قضيَّة علميَّة يعرفها، أو شأن يجيده وفنٍّ يُحسِنه ويُحكِمه، وهُم يخوضون في جهل ويتيهون في عماية ويخبطون خبط عشواء، فيحجم عن المشاركة وبيان الصحيح، ولا يدلي برأيه ما لم يُسأل... وقلَّ ذلك.

كان «منصور» فتىً مسالماً، يعيش وَحيداً، منطَوِياً علىٰ نفسه، كتُوماً لا يفضي بأسراره إلىٰ أحد، لا يخالط إخوته وأقرباءه، وقلَّ أن يصاحب أحداً أو يتَّخذ رفيقاً، اللهم إلّا واحداً من فتية الحي، كانت فترات الخصام والقطيعة بينهما أكثر من الوئام والوصال! وآخَر من زملائه في المدرسة، التي هجرها مبكراً ليعين والده علىٰ شظَفِ العيش.

يعمل بأجْر يومي يتقاضاه علىٰ الساعة، في مشغل للصناعات اليدوية، يدقُّ النقوش ويحفرها علىٰ أواني البرونز والنحاس... وعلىٰ الرغم من أنها ليست صنعته، إذ هي ـ غالباً ما تكون ـ من الحِرَف المتوارثة (وأبوه موظَّفٌ متواضع في البلدية، يُشرِف علىٰ العمالة التي تتولىٰ سقاية الأشجار ورعاية أحواض الورود في بعض شوارع المدينة)، لكن «منصوراً» أجادَ المهنة وأتقنَها، بل أبدَع فيها من عام وصَار يتفنَّن، ما جعَلَ صاحب المحل يكنُّ له ٱحتراماً خاصاً، ويوليه مودَّة تفوق أقرانه. وبعد تفانيه في عمله وإتقانه ومَهارته، كان يتحلىٰ بدرجة عالية من الأمانة، غريبة (لِنُدرتها)، إذ كان يقتطع فترات ٱستراحته أو دقائق لهوِه وٱنصرافه أو غفلته عن عمله الجاد، من حِساب ساعات العمل، ويأبىٰ أن يقبض أجرَها! ويكرر علىٰ ربِّ عمله:

المأخوذ حياءً كالمأخوذ غَصْباً، فإن لم يكن لِحَياءٍ ومجاملة، فهو إحسانٌ وإنعام، هناك الأكثر حاجة وٱستِحقاقاً مني، فأبذله له، ويكفيني من إفضالِك العَرَض والمبادرة، وهذا اللطف في المعاملة.

يبدو ضعيفاً، وهو إيحاء خاطئ يأتيك من قامته الهزيلة وبُنْيته النحيفة، ولربما من سلوكياته وأفعاله الغريبة... لكنه ليس كذلك، فهو صَلْبٌ قويٌّ جَلِد، كـ "شجرة بريَّة" تذكِّرك بقول «أميرالمؤمنين» بأنها: "أصلَبُ عُوداً، والرَّوَاتعَ الخَضِرَةَ أرَقُّ جُلُوداً، والنباتاتِ العذِيَّةَ أقوىٰ وَقُوداً وأبطأ خُمُوداً".

كان غامضاً في شخصيَّته، غريباً في تصرُّفاته وأطْواره... وقد شوَّهت ٱنطوائيته وٱنعزاليته وغريب تصرفاته صورته وأوهَمَت معارفه، فأخطَؤوا فيه الرأي وأساؤوا القَوْل، إذ نعتوه بـ "المعقَّد"، وبلغ الأمر في بعضهم أن وَسَمه بالخبل والجنون. أما وَاقعه، وحقيقة حاله، فإنَّ روحَه تحلِّق في سماءٍ لا يرقاها أحدٌ في محيطه، وتدُور في أفلاك لا يطالها أقرانه.

يقول «منصور» إنَّ للقمر رائحة، أقرب إلىٰ عطر القرنفل الأبيض، يشتدُّ ضَوْعُه إذا ٱكتمل بدراً، وإنه كثيراً ما يشتمّها ويلتذ وينتعش، إذا التقاه ووَافاه في خلوَة، بعيداً عن الناس، وعن المدينة، بل عن القرية وما يكتنف أرجاءها من عَبَق الرياحين ونَشْرِ الأزهار، حتىٰ قال إن العِطْر لا يفوح من البدر من تِلقاء نفسه، بل إذا شاء، وإن القمر يرسلُه ويفيض به ويوجِّهه حيث العشاق والعُرَفاء والكُمَّل، فلا يدركه الجهلة ولا يشتمُّه السفهاء والغِلاظ!

وإنَّ شجرة التوت حدَّثته مرَّة وشَكَت جني ثمرها ضرْباً بالعصي أو نفضاً عنيفاً، وإنها طلبت إليه أن تُقتَطَف أكباثها برِفقٍ ولين، حبَّة فحبَّة، وقد كشفَت له يوماً وأفضَت أن ما يلحق البستاني "الجاني" من تلطيخ يديه بأصْباغِها، ضربٌ من النكير والاْعتراض علىٰ ٱرتقاء أغصانها وتسلُّقها، بدَل ٱتخاذ سُلَّم إلىٰ جِوارها، يصعد عليه مَن أراد، فيبلغ ما لا تطاله يده، فلا يجهدها...

"أنا حامل أيها البشر، بل مُقرِب، رفقاً بي"... يزعم أن التوتة أنّت إليه مرَّة بهٰذا القول وشَكَت بفصيح هٰذه العبارة!

ويقول «منصور» أيضاً إنه سمع خِشْفاً في حديقة الحيوان يحدِّث، من وراء قضبان قَفَصِه، طِفلاً بلغة البشر وكلام الآدميين! يخبره أنه يحبُّه ويودَّه، وأن في حضوره سلْوَة له عن حَبسِه، ويطلب إليه أن يكرر زيارته ويعاود لقاءه!

كان يعتَقِد أنَّ هناكَ من الجنِّ مَن يسْتَرِق السمع و "يتجسَّس" عليه! بل إنَّ بعض المردَة والشياطين قادِرٌ على النفوذ في الذهْن والاُطلاع على الأفكار الخيِّرة والنيَّات الحَسَنَة، فيُوسْوِس لِصَاحبها بما يثنيه ويصرفه عنها. وعندما يُطلَبُ منه الدليل على ذلك، يردُّ بأن ليس عليك أن تصدِّق ولا يلزمك أن تؤمن! فإذا سُئل: هل شاهدت أو حدَّثتَ جِنياً؟ كان يلوذ بالصمت.

على ضِفاف «زاينده رود» الذي يشقُّ قَلب «أصفهان»، كان يقضي الساعات متأمِّلاً ترقْرُقَ المياه، عبرَ الأعمدة الثلاثة والثلاثين لِقَناطر الجسر الشهير (سى وسه پل) الذي يصل ضفَّتَي هذا النهر، يندُب في ضميره ويتحسَّر بصَمْت...

يرقب ترقرُقها بدَل تدفُّقها، ويستغرق في الفِكرة في أسباب الجفَاف وشُحِّ المياه، وما يحكِيه «أبوه» عن ارتفَاع وعُمْقٍ كانُوا في مَا مضى يشهدُونه من هذا النهر، يخشَوْن من زخْمِه على أعمدَة الجسر، ومن فيَضَانه على ضِفافه، وما يكرِّرُه عن أسباب هذا النضُوب، بأنها آثار المعاصي والذنُوب، ومُخَلَّفات الظُلم والجوْر، وتبعَات كُفْران النِّعَم، تضرب الأرض والسماء، فتجفُّ العيون وتنضب الآبار، وتشحُّ الأمطار وينقطع الغيْث، وتفعل فعلها في الموارد الطبيعية والخيرات نقصاً، بل تأتي بالكوارث كالزلازل والأعاصير والفَيَضانات، والجراد والأوْبئة، ومنها الجَفَاف والجَذب... إنها آيات الغضب وأمارات السخط الإلهي.

أم هي كما يذهب «آقاي منوچهري»، جارُهم، وجليس أبيه في المَقهى القريب من حيِّهم، الأُستاذ الجامعي المتقاعد خريج «السوربون» في «باريس»، يردُّ على والد «منصور» قائلاً: إنها - ببساطة - السدُود ومشاريع الريِّ، جذبَت المياه وحوَّلَتها إلى الأطراف وصرَفَتها هناك، فجَفَّ المجرى الأصلي؟

فإذا اْحتدَمَ النقاش وضَاقَ «الدكتور» ذَرْعاً بأدلَّة محاوِره والأرقام التي يسوقها لتنفي مزاعمَه، مستعيناً بإحصائيات يزوِّده بها زملاؤه في "البلدية" عن معدَّلات المطر ومناسيب المياه الجوفية وما إلىٰ ذلك، عادَ واْعترف بالشحِّ والنضُوب، لكنه عزَا ذلك إلىٰ التقلُّبات المناخية، وزيادة عدَد السكَّان واْرتفَاع معدَّلات الاْستهلاك، وعموم أسباب تلويث البيئة ومَرَضِها، مما لم يترك الطبيعة كما كانت، فظَهَرَ التصَحُّر والاْحتباس الحراري، وثقب الأوزون وما إلىٰ ذلك.

لٰكن «منصور»، وهو في معتزله يتدبَّر ويتأمَّل، لم يكن يستغرق في تذكُّر هٰذه المساجلات، فتأخذه بشجُونها بعيداً، مع أنها لطيفة ممتعة، لا تورثه رَهَقاً كما تفعل شؤون المعيشة وشجونها، وقضايا الحياة اليومية وهمومها... وعلىٰ الرغم من ذلك، كان يسجِّل ذلك علىٰ الشطح والغفلة، فهو يبحث عن مواقع أُخرىٰ ينبغي أن يجيل فيها فكره، ويسرح بتأمُّلاته، مواقع ونطاقات أكثر عمقاً، وشؤوناً يحسبها أخطر وأعظم خطْباً، فلا ينشغل عنها بشيء.

فإذا جاء المساء، تحيَّن تلك الليالي ورَصَدَها ليَقتنصها، أو هو - في وَاقع الأمر - اْستقبلها وتلقَّاها، علىٰ مَهَل منه ورَوِيَّة، كصياد محترف خبير، ألقىٰ شباكه في طريق وِتْرٍ، ومجرىً وَحِيد لا تملك الأسماك إلّا الاْنجراف فيه (ولا «سلَمون» هنا يتحرَّىٰ العودة إلىٰ وَطَنه فيكافح الأمواج ويصارعها ويسبح عَكْس التيار)... إنها قادمة لا مَحالة، فلِمَ التحفُّز والاْرتباك، وعلامَ التلهف والإعجال؟ ها هو مستلقٍ علىٰ ظهره، وضفَّة النهر المنحدرة كَسَفح، تسمح له بالاْستلقاء والنظر إلىٰ مجرىٰ الماء وآفاق السماء، في آنٍ معاً، ممسكاً بأوراقه وقلَمِه، لا شيء يشغله، إلّا الاْنتظار، وماذا عساه أن يفعل غيره؟ وبماذا سينشغل وبِمَ سيلهو عن أجوائه الحميمة، إلّا أن يتقلَّب فيها؟

أجواءٌ لا يَدْري متىٰ تُقَلِّب وتستفزُّ نوازعه، وتهيِّج بنات أفكاره، وتُغري شيطان شِعْره أو "وَحْيه"، فتجُود قريحته بأبياتٍ يُبادِر إلىٰ تدوينها وسَطْرِها بقلَمه الرصاص، علىٰ صفحات من بقايا دفاتره المدرسية...

كان يصبُّ رُؤاه الوجدانية المتمرِّدة، في أبيات تَقْلِب "الواقع" وتحوِّره، تحكمه لا تصِفه، فيصنع عالماً جديداً، كما يشاءُ ويرغَب، ويصوغ دنياً كما يريد ويهوىٰ. ثم لا يبالي كم وَافَقَ هٰذا الصنع قوانين الطبيعة وسُنَن الحياة، ولا كَم راعَت الأبيات أوزان الشعر ومجرىٰ القوافي!

كانت هٰذه "الإلهامات" وما يعقبها من تدوين وكتابات، زادَه الذي يقتات وشرابه الذي يرتَوي، بل الهواء الذي يتنفَّس... فيهِيم إذا نزلَت به وينتشي إذا جاءته، وكأنه شرِب كأساً مُسكِرة، أو تلقىٰ جرعة مخدِّرة، تفصله عن وَاقِعه وتنقله إلىٰ عالمه، عالمه الخاص الذي لا يشاركه فيه أحد.

هٰكذا كان «منصور» يكتب قصائده وأشعاره، وكان يعيش...

وَحيداً فريداً، مع صنائعه البديعة التي يعشق، والحسان التي يَغْزِل في وَصْفِها ما يُحسِنُ من خيوط الحُسْن ونَسْج الجمال، والغَزَل.

وقد اتخذ "حبيبةً" له تعينه علىٰ خياله وصنائعه، فتاة جميلة من أقربائه، حَسْنَاء غَيْداء هيفاء، تنْعَمُ بصِفَات نموذجية، وترفل في عالم عُذري كامل، افترضه لها، فقَد هَوَاها دون أن يكلِّمها، وعشِقها دون أن تعرفه ويعرفها! فكم هو صَعْبٌ أن تعشق المطلَق، وكم هو عسير أن تتغزل بالجمال بلا مِثال، وبالحُسْنِ بلا حَسَن؟!... لا بدَّ من "جميلة"، ولا بدَّ من "حبيبة"!

كما يتوجَّه العبَّاد إلىٰ "الكعبة" بأحجَارها، ومقصودهم وَجْهُ الله، كان يتوجَّه إليها بشِعْره، ومقصوده شيءٌ آخر، وَجَدَ نفسه عاجزة أن تتمثله وتبلغه دون مَرْمىً وشاخِص معيَّن محدَّد بنطاق، ومشهود بمادة، ومُدرَكٍ بعنصر وحِسٍّ. فاتخذها حبيبة، وأنزل صورتها قلبه.

جرَّبَ مرَّة أن يخرج من نِطاق عُزلته وحاوَل أن ينفَتِح علىٰ غيره، ويندمج في مجتمعه ومحيطه ويتعامل كما يفعل غيره، فأطلَّ بحِرصٍ وخَفَر وخيفة، متوجِّساً مُرتاباً، وكأنه يعرض ممنوعاتٍ، أو يزيح الستار عن تحفة نادرة لا مثيل لها ولا نظير، وأطْلَع شَخْصاً ـ يفترض أنه ـ مُلِمٌّ، بل ضليع بالشعر والأدب، علىٰ "نتاجه"...

صعَقَه ذلك الشخص وحطَّمه حين نصَحَه ـ سَاخِراً ـ بإتلاف أوراقه أو إخفائها، حذَر أن تُوَجَّه إليه تهمة "التآمر علىٰ الشعر والأدب الفارسي"!

ومضىٰ متهكِّماً:

تخلَّص منها، إنها أوراقٌ تدينك!

اَرمها في البحر، فإن لم تجد في «أصفهان» بَحْراً، ولا كان في مياه النهر ما يكفي لإغراقها، فعَلَيْكَ بالصحراء لِطَمرها وطَمْسِها، وإلّا فاَحرقها! حذار أن يطَّلع عليها أحد!

قصائد وأشعار، ما زال الخجل والغضَبُ يحجبها في صندوق معدني متوسِّط الحجم، مُودَع في ركن الغرفة التي يتقاسمها وأخوَيه الأكبر والأصغر (فهو الأوسط)، وكثيراً ما ينضم إليهم ويلتحق بهم "اَبن خالة" لهم، كلَّما خاصَمَ إخوته ونشَب بينهم شجارٌ أفضىٰ إلىٰ تركه البيت (القريب في الحي) وخروجه منه، أو طَرْده ونفيِه منه، إلىٰ غرفة «منصور» وأخوَيه...

هٰذا الصندوق هو كلُّ مقتَنَيات «منصور» وما يملكه من "زينة" الحياة الدنيا. يعلوه فِراشه ولحافه، ولم يكن يشعر أن اللحاف ملْكه ولا يحسبه في ما يخصُّه، فطالما نازعه الأصغر عليه في الليالي الباردة، فتركه له، ولعلَّه بادَر إلىٰ إسداله عليه إذا رآه متقرفصاً من شدَّة البرد، فتدركه عليه الرقَّة.

ثم صُرَّة (بقشة) يجمع فيها ثيابه، وهي لا تتجاوَز قميصين وسروالين، ومثلهما من الملابس الداخلية المهترئة والجوارب المرقَّعة المثقوبة، وهناك صُرَّة أُخرىٰ "شتوية" مُدَّخرة في سقيفة المطبخ، تحتوي إضافة إلىٰ ذلك علىٰ معطَف مطَري، وآخر من الصُوف الثخين الخشِن المصنوع في «أردبيل» من «آذربيجان»، ما كان يشعر «منصور» - أيضاً - بمُلكيَّته وآختصاصه به، إذ كثيراً ما "يستعيره" أحَد أخَوَيه، وتستمر هٰذه "الآستعارة" لتكون هي الأصل! فيقضي الشتاء، حتىٰ في أيامه المشمسة بـ "المطَري"، وهو يبتسم في وَجْه من يسأله عن سبب آرتدائه، وهل هو تنبؤٌ بآنقلاب الطقس وهطول المطر؟

سخِطَ «منصور» وغضب، فبعدَ الرأي المجحِف والحكم الجائر الذي أصدَره "الخبير المُستشار"، راح معه في حوار ملتهب، كان صاحبه يتناول أطرافه بتكبُّرٍ وتعالٍ وآزدراء، وكأنه يأبىٰ الخوض فيه، فيكتفي بكَلِمة أو بجملة واحدة يردُّ بها علىٰ فقرة مطوَّلة، ويقول:

ليس هٰذا شعراً. الشعر "كلام موزون مُقفًّى دال علىٰ معنىٰ"... وهٰذا ليس منه، إنه خلط وخبط يصعب وَصفه وتصنيفه.

: بل هو موزون ومُقفًّىٰ. ثم ليس هٰذا هو تعريف الشعر فحسب؟

: عرِّفه أنت أيها الفيلسوف المبدع!

: كيف أعرِّف ما حارَ المتخصِّصون في تفسيره تفسيراً حاسماً، وعجزوا عن تحديد تعريف جامع لِوَصفه، يصطلِحون عليه ويركنون إليه كتعريف حاسم لماهية الشعر وحقيقته؟ حتىٰ الشعراء أنفسهم فشلوا في ذلك... فالشعر وَليد النفس الإنسانية ذاتها، لذا فإنَّ كلَّ التعريفات والفلسفات التي قيلت عنه ما هي إلّا مفاهيم فردية تُصوِّر وُجهَة نظَرٍ شخصية لأصحابها، وهي في مجملها - رغم تباينها - لا تتعدَّىٰ في وَاقعها السطح لحقيقة الشعر وماهيته، أمَّا باطنه وغَوْرَه وكنهه فما يزال في مجاهل الغيب.

: مجاهِل الغيب! كيف تسألني إذاً عن غَيْب؟ آمضِ يا هٰذا لحال سبيلك وعِشْ غَيْبَك، ولا تسأل عنه العلم والفن، أسِّس لِنفسك مدرسة، وضَعْ لها قوانين وضوابط على هواك، ثم صنِّف عمَلك وَفقها!؟

: ما كان لكَ أن تَسِمَ نتاجي وتصنِّفه "ليس شعراً"، وأنت لا يمكنك تعريف الشعر؟ أليسَ ما في هٰذه الأوراق تعبير إنساني، وإن كان شخصيّاً فردياً، لٰكنك ترىٰ ظلاله تتمدَّد في جميع الأتجاهات، لتشمل قيَماً ومشاعِرَ تمسُّ عامَّة الإنسانية؟ هٰذا هو الشِّعْر، الشِّعْر وَليد الشعُور، والشعور تأثُّرٌ وآنفعال، رؤىً وأحاسيس، عاطفة ووُجدان، صُوَر وتعبيرات، فألفاظ تكسو التعبير رَوْنقاً خاصاً ونغَماً موسيقياً ملائماً.

بين يديك يا دكتور سطورٌ برَّاقة لمعَت في غياهب العقل الباطن، مدَّتها وَمَضات الذهن وإدراكات العقل الواعي بذلك البريق واللمعان، لو أصغيتَ وتدبَّرتَ قليلاً لقرأتَ لُغة الخيال والعاطفة، ووَقَفت علىٰ الصِّلَة الوثقىٰ التي تجمعها بكلِّ ما يُسعِد ويمنح البهجة والمتعة والنشوة، أو الألم، إن كنت عرفت الألم يوماً، وما بعد الألم!

: يا للمُكابِر العنيد! ليس ما كتبتَ أبياتاً مُقفَّاة، ولا نظامٌ إيقاعي مكَرَّر للتفاعيل يحكمها كـ "بحر"، كيف لي أن أقضي فأُثني وأُقيِّم فأستحسِن، وقد جعلتَني في موقع الناقد الأمين؟

أفِق يا هٰذا، فلَستَ «الطغرائي» صاحب "لامية العجم"، ولا أنت أدنىٰ منه ولا في وَارد المقارنة والقياس!...*

---

* يفتخر «الأصفهانيون» بـ «الطغرائي» الحسين بن علي الأصبهاني، (٤٥٥ ـ٥١٣ هـ). شاعر، من الوزراء الكُتَّاب، كان يُنعَت بـ "الأُستاذ"، وُلد بـ «أصفهان»، آتصل بالسلطان «مسعود بن محمد السلجوقي» (صاحب «الموصل») فوَلّاه وزارته. ثم آقتتل «مسعود» هٰذا وأخٌ له آسمه السلطان «محمود»، فظفَر «محمود» وقبضَ علىٰ رجال «مسعود» وفي جملتهم «الطغرائي»، فأرادَ قتله لٰكنه خافَ عاقبة النقمة الشعبية، لما كان «الطغرائي» مشهوراً به من العلم والفضل... «

سَخِطَ «منصور» وغَضِبَ (لأشعاره، لا لنفسه)...

فجمع أوراقه ومدوّناته في مغلّف كبير، أو هو كيس بلاستيكي مما يستعمل في التسوُّق وحمل المشتريات، أحكَم طيَّه وتحريزه، وأغلَقه بالأشرطة اللاصقة، وكَتَبَ عليه: "المغلف المعهود"، وأوْدَعَه صندوقه. ثم أضاف إلىٰ وَصيَّته عبارة محَدَّدة ونصّاً وَاجِب التنفيذ، يحرِّم الأطلاع علىٰ أشعاره، ويطلب من "الوَصي" إتلاف "المغلف المعهود" إذا ماتَ «منصور» (أو أستشهد)، ولم يرجع إليه... وكَتَبَ علىٰ المغلَّف:

"لا يجوز الأطلاع علىٰ محتوياته".

كما أضاف إلىٰ وَصيَّته، عند ذلك الموضع، عبارات شدِيدة فيها تقريع وتعنيف، تظهر غضَبه علىٰ مجتمعه وسخِطه علىٰ محيطه، وحزنه علىٰ ما يفتَقِد... منها: "لن تفلح أُمَّة لا تقدِّر المعرفة، وتبْخَسُ الفنَّ، وتفتقد الجمال، إنكم منشغلون بدُنياكم عن آفاق سامية، مذهُولون عن العظائم والأخطار بالصغائر وعن الأُصول بالنوافل...".

ثم ما لبث أن أستدرك ومَسَحَها، لنفحة أناة أدركته...

لكن إصراره علىٰ الأحتفاظ بتلك الوريقات مع شديد حرصه علىٰ عدم إطلاع أحد عليها، يعني - فيما يعني - غضباً هادراً وأعتراضاً شديداً

فأوعَزَ إلىٰ من أشاعَ أتهامه بالإلحاد والزندقة، فتناقل الناس ذلك، فأتخذها السلطان «محمود» حجَّة فقتله. ونسبة «الطغرائي» إلىٰ كتابه «الطغراء». وللمؤرخين ثناء عليه كثير. وله كتب منها «الإرشاد للأولاد»، «مختصرة في الإكسير».

وله ديوان شعر، وأشهر شعره (لامية العجم) التي مطلعها:

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطلِ
وحليةُ الفضلِ زانتني لدىٰ العَطَلِ

يقابلون بها (لامية العرب) لـ «الشنفرىٰ»، أشهر الشعراء الصعاليك، وفيها:

إذا الأمعَزُ الصَّوَّان لاقىٰ مَناسِمي
تَطايَرَ منه قادحٌ ومُفلَّلُ ■

علىٰ ذاك الحكم الجائر بحقِّ أشعاره العزيزة، وسخَطاً لا ينتهي علىٰ المحيط الذي أفرَز ذلك الشخْص وصنَّفه "خبيراً"، له أن يُقيِّم الأعمال ويصنِّفها... كانت الحزازة تكويه واللوعة تضرم صَدْره، فقد كان يكتب شعوراً لا شعْراً، ويدوِّن أفكاراً ومعانٍ سامية لا ألفاظاً، إنها "بنات" في غاية الجمال، فكيف ٱزدراها ذاك "الخبير الأخرَق" !؟

وهو - في واقعه - يتعبَّد ويتقرَّب إلىٰ ربه بتلك الكتابات والأشعار، كذُرْوة العطاء وغاية ما يحسن ويجيد، وأعزّ ما يملك، يقدِّمها تحفة وَاصِلَة وهدية قيِّمة إلىٰ ربه، تعكِس ٱنفعالاً في المعارف وٱضطِراماً في المشاعر، هو الغاية مما يَسَعُ «منصور»، والنهاية من جهده وطاقته... فإذا بها لا تستحق القراءة ناهيك بالعناية، وتخلَق في أعين الخلْق، فلا يوليها "الخبير" نظراً، وينصح بدفنها وإتلافها!

وكان يعني - من جهة أُخرىٰ - إفلاسه في هٰذا الحقل وإلفاجه، ويأسه مما كان يأمل لتحقيق أمانيه وآماله، ويراهن لبلوغ طموحاته وتطلُّعاته... لقد كان "المغلف المعهود" قراراً مؤلماً بطَيِّ هٰذه الصفحة وإنهاء هٰذه التجربة وتوقُّف هٰذه المحاولة، وإعلاماً للفشل والإحباط في هٰذا الميدان، وكان ٱعترافاً - عملياً - منه بالهزيمة والاستسلام.

فعلَيه من الساعة أن يذهب لِيُلَاحِق غايته ويبحث عنها في حقول أُخرىٰ، وينصرف إلىٰ ميادين جديدة.

من هنا حَسم «منصور» أمره سريعاً، وٱتخذ قراره الجديد عاجلاً، وعزم علىٰ السفر والهجرة، وترك البلاد وشدِّ الرحال، وكانت وِجهتُه "الجبهة"، جبهة الحرب المحتدمة التي شنها «العراق» (عراق صدام) علىٰ «إيران» (الجمهورية الإسلامية)...

لم يتردَّد في هٰذا، فلم يُسوِّف ولَم يتباطأ، لا سأل قريباً ولا ٱستشار أحداً، ولا تفأّل ولا ٱستخار.

لا إيماناً بالجهَاد والدِّفَاع المقدَّس، ولا غيْرة على وَطَنه ونصرة لِبلَده ونَقِمَة على عدُّوه وما جنى على أهله، ولا دفعاً لمزيد من الشرور التي كان يقصدها ذلك الفرعون الطاغي، ولا حتى التماساً للأجر والثواب الإلهي، أو إسقاطاً لوَاجبٍ وتكليفٍ شرعيٍّ مُلْزِم بالدفاع... فقد كانَ «منصور» يذهب في تفكيره الأبعد من ذلك، ويتحرى في سلوكه الأعمَق والأقصى، إذ كانت حركته كلُّها، في الحضر والسفَر، في القعُود والجهاد، في العمل والتأمُّل، في السعي والفِكرة، كلُّها تنشد هدفاً وَاحِداً، وتلاحق مقصوداً محدَّداً معيناً، يتبعه حيثما تجلى وظَهَر، فإذا رآه أجلى في هذا الميدان دون ذاك، قَصَدَه وانصرف إليه، غير عابئ بشيء، ولا ملتَفِت للائم ولا عاذل، أو مخطِّئ ومُقبِّح.

متيقِّناً أن قِيَم الشرف والعزَّة والغيرة، والإباء والحميَّة، وما يتبعها من الأجْر والثواب، كلُّها مطويَّات في ما يُطْلَب من "وَجْهِ الله"، الذي قد يكون في مواساة شيخ هرِم هجَرَه الناس، أو إعانة يتيم غَفَل عنه الناس، أو رعاية مُقعَد ضَجِر منه أهله، أو حتى متخلِّف عقليٍّ (مجنون) آذى الناس، أو خدمة عالِم ربَّاني جهِل الناس قَدْره، أو في تبتُّل ورياضة رُوحية تقطَعْه وتعزله عن الناس، أو في عملٍ وكَدٍّ في طلَب الرزق يُسَجِّل نزاهة وأمانة يفتقدها الناس...

لا تعنيه اعتراضات الناس وغمْزُهم، بل طُعُونهم التي كانت تتوَجَّه إليه وتلاحقه... فشبَاب المدينة جلُّهم متطوِّعون في قوات التعبئة الشعبية "البسيج"، ولم يتخلَّف إلّا "الفسقة" و"أعداء الثورة"، وهو مؤمن مُلتزم، يفترض أن يكون في طليعة الملتحقين بالجهاد، لكنه لا يفعل! وينصرف لتمريض مُقعَد، أو الرفق بحيوان، وإطعام القِطط والكلاب الضَّالة، أو الأُسود المحبوسة في أقفَاص حديقة الحيوان، تلك التي غَدَتْ "نباتية" نتيجة التقنين وحِصَص التموين الغذائي الذي فرضته الحرب!

كان يضْرب عن كلِّ تلك الاعتراضات صَفْحاً، ويتعالىٰ عن الردِّ علىٰ منتقدِيه، وإن طوَّقُوه وأحكَموا الحصار حَوْلَه بمُحَاجَجَاتهم، كان يتجاهلهم ويسجِّل نقْدهم في الجهل، ويعذرهم للفَوْرة والغَضْبة...

لم يكن يطفَح به الكيل ولا يَدْفَعه إلىٰ الرد إلّا أن يُرمىٰ بالكَذب، وأن يُقذَف بٱتخاذ تلك الدروب الغريبة حيلة تداري جُبنَه وتسْتر شُحَّه، فإن ٱنجرَّ الحوار إلىٰ هٰذا الموضع وبلغ هٰذا الحد، ردَّ عليهم وقال بأنه ليس بحاجة للكذب، ولا هو مُطالَب أو مُساءَل أمامَ أحد، فـ "البسيج" عمل تطوُّعي، وخدمة الجندية الإلزامية لم تَسْتَدْعِ مواليده بعد، فلِمَ يكذب ومَن يخادع؟ ومضىٰ يقول:

إنَّ الجهاد عِبَادة، وطلَب العِلْم والسَّعْي في الرزق والرفق بالغير والإطعام والبذل بشتىٰ صنُوفه... عبادات أيضاً، وأنا لا أدري أيٌّ منها أقرَبُ إلىٰ الله وأرضىٰ؟ إنَّ هٰذه ـ كلَّها ـ ليسَت مقصُودة في ذاتها، بل هي مطلُوبة لغاية أُخرىٰ، تقُود وتدفع صَوْبها، وتصِل بالإنسان إليها، لا تدري كيف تتحقَّق، فالله تعالىٰ غنيٌّ عن العِباد وطاعاتهم، إنما نرجو أن يَقَعَ العلم والعمل والبذل والإحسان علىٰ مَوْضِع في النفس، فترقىٰ وتسمو لِتَبلُغ ما أراده الله سبحانه وتعالىٰ منها ولها، هٰذه هي القيمة الحقيقية للعمل، وإلّا فلا أنا ولا أنتم سنعالج مشكلة الفقر بالبذل، والتخلّف بالتوعية والإرشاد، ولن نَرُدَّ كَيْد «صدام» وجنوده بدِفاعنا وجهادنا، هٰذه أعمال نقوم بها لنَحصُل علىٰ إكسير اللقاء ونحظىٰ ونحقق معادلة الرضا الإلهي، أما شؤون الخلق الكبرىٰ ومجاري ومَصائر الأُمور العظمىٰ، فلَها تدبير غير هٰذا، ومُدبِّرٌ غيرنا.

عارٌ عليكم أن تسِمُوني بالكذب، وترموني بالحيلة... قد أكُون جباناً رعدِيداً، وقد أكون شحيحاً بخيلاً، وقد أكون جاهلاً واهماً، وقد أكون طائشاً ومسوِّفاً ومعانداً ومشاكِساً وفظاً، ولعلِّي أكون مجنوناً...

ولكني لَسْتُ كاذباً، لَسْتُ مخادعاً يغشُّ ويكيد، ولا مزيِّفاً يلتمس لنفسِهِ صورة غير حقيقته، ومُرائياً يَرجُو ويرمي غير ما يُظهِر ويُعلِن، ويُظهِر ويُعلِن غير ما يُبطِن ويُضمِر.

ثم ختم دفاعه بحديث شريف:

عن «أبي الحسن علي بن موسىٰ الرضا» عليه السلام قال:
سُئِل «رسول الله» صلى الله عليه وآله: يكون المؤمن جباناً؟ قال:
نعم، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم.
قيل: ويكون كذاباً؟ قال: لا.

كان «منصور» صادقاً...

غمَرَ الصِّدْق قلبه، واْستحوذ الإخلاص علىٰ وُجُوده، صافي النفس، نقي الروح، خالص الضمير، في النية والقَصْد والعَزم والعمل، لا يماري ولا يرائي، لا يُضارع ولا يداهن، ولا تأخذه لومة لائم.

كان في شُغل عن الناس، واللغو والقيل والقال، يتعالىٰ عن عظائم الأُمور وأشدِّها خَطْباً وخطراً عندهم، فكيف بصغائرها وتوافِهها. وإن تألَّم شيئاً لما يُرمىٰ به ويُنعَت، فلِغيرته ومُروءته، ثم لا يلبث أن يحيل ـ علىٰ طريقته ـ تلك الآلام وَقُوداً يرفد مسيرته الروحية، وطاقة تصقل نفسه السالكة.

كان اْنطوائياً اْنعزالياً، يعيش وَحيداً في صومعته قِيَمَهُ ومُثُلَهُ، وينصرف ـ هناك ـ إلىٰ عالمه الخاص، الضيِّق في مساحته الخارجية، الصغير في أعين الناس، بل في وَاقع الأمر وحقيقته، لكنه العظيم بمعناه، الفسيح بمَدارِجه الأخلاقية، والعريض الواسع بآفاقه الروحية.

كان يتحرىٰ "وَجْه الله"، وأينما رآه، يمَّمَ شطره.

وهو يراه اليوم في "الجبهة"...

* * *

علىٰ قَدْر ما كان «منصور» ينتظر الليالي البيض ويرتَقِب النور الزاهر ويتحرىٰ الضياء فيها، تغيَّر الليلة وصارَ يرجو ـ بذلك القَدْر من الشوق والرغبة ـ عكْسَ ما طالما تمنىٰ وأراد... أنقلب الأمر هنا وتغيَّر الساعة، فراحَ يسأل الله سبحانه وتعالىٰ ويتضرَّع إليه أن يخمد الهلال ضياءه، حتىٰ الضعيف منه والخافت، وتطفئ السماء كلَّ نور فيها، وتنقلب حِنْدِساً!

علىٰ قَدْر شَوْقه وترقُّبه لليالي البيض وأُنسه بها في «أصفهان» علىٰ ضِفَاف «زاينده رود»... كانت رُوحه الليلة تتضرَّع هنا في مستنقعات «الأهوار»، إلىٰ بارئها بمزيد من الظلام وتتمنىٰ أن يُطبِق السواد الحالك علىٰ كلِّ شيء، فلا يُرىٰ ولا يُرْصد شيء.

وكانت رُوحه، دون لسانه، هي التي ترتل الآيات القرآنية الكريمة في الحفظ والمنع والصدِّ، وتتلو التوسُّلات، وتردِّد ختومات الأذكار والأوراد والأحراز وأدعية السلامة والأمان:

> وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا... اللهمَّ إني أسألك بالأسم الذي تحيي به الموتىٰ وتميت الأحيَاء وترزق وتعطي وتمنع، اللهمَّ مَن أرادنا بسوء من جميع خَلْقِك فأعْمِ عنَّا عينه، وأصم عنَّا سمعه، وأشغل عنَّا يدَه، وأصرف عنَّا كيدَه، وخُذه من بين يديه ومن خلْفِه، وعن يمينه وعن شماله، ومن تحته ومن فوقه...

فالموقف لا يسمَحُ للشفتين بالنُّطق والقَوْل، لا من أرتعاشهما وأرتجافهما فعَجْزِهما عن ضَبْطِ مخارج الحرُوف والكلمات فحَسْب، بل حذَراً من الرصد والأستراق، فالكشف والأفتضاح!

ويكاد ينْخَل بصوْت قَفْقَفَة الأسنان، ويضِنُّ بقَعْقَعَة واْصطكاك الفكَّين، وكلِّ فِعل قهري أو آنعكاس لا إرادي، ويشحُّ حتىٰ يحظر النَفَس ويمنع وَجِيب القلب، ولا سيما إذا كان متصاعِداً من لاهِثٍ تَعِبٍ يغْمُرُه الماء حتىٰ الذقن.

وقد آستوىٰ الفتىٰ ملتصقاً بجسْر حديديٍّ عائم، تشبَّثت يداه بدَعائمه بصعوبة بالغة، إذ كانت تغطِّيها الشحوم... يبدو أنها بِكْرٌ جديدة لم تُستعمل من قَبل، ولَعلَّها وَصَلَت الميدان ونُقلَت من ميناء «العقبة» الأُردني لِتوِّها!

كان الجسر من نَوْع «ت.ب.ب» (T.B.B) الثقيل، «روسي» الصنع، تبلغ حمولته سبعين طناً، مؤلَفٌ من كُتَل مَعدِنية أخف وَزناً من الدعائم، عائمة غير قابلة للغَرَق، أشبه بقَوارب طافية تشكِّل حوامل الجسر وأعمدة آرتكازه، تعلوها عَوَارض معدنية تشكِّل أرضيته، ثم ألواح خشبية غليظة تكسو الممشىٰ.

كان الشحْم يغَطِّي المحاور التي تربط القوارب ـ الحوامل، حتىٰ القوارب نفسها كانت في كثير من أجزائها مغطاة بوَرَق مشمَّع لَزِج!

وفي حين كانت بذْلَة الغَوْص المطاطية تقِي الفتىٰ لَسْعَ الصقيع من مياه النهر وتياره الجارف، والمخادع الذي يغري سَطْحُه بالهدوء ويُوهم السكون، بينما يتدفَّق عمقُه وينشط! وتؤمِّنه وتكفيه ما أخذَه من شفيف البرد... فإن ريحاً باردَة راحَت تقرِس وَجْهَه بقسوَة وحِدَّة كأنها مَوَاس تُشقِّقه، أو هي كانت تبحَث عن قروح ونُدوب جروح قديمة، لتكْلمها وتفجِّرها من جديد، فتشْعَب وتَنزُّ!... فآتحدَ البردُ مع القلِق، وتضافَرت الريحُ مع الأرَق، وأخذَت في تيبيس أشفار عينيه ومنعه من إغماض جفنيه، فآنتصَرَ علىٰ نُعاسِه وإنهاكِه، وبقي علىٰ يقَظَته، ولٰكنه ما كان يدري: أيسعَد بذلك ولَه، أم يضيق ويحزن!؟

وكانت لمعانَاة «منصُور» ولَوْعَته وِجْهَة ثانية، بعَثَها جموح نفْسه وتطَاولها إلىٰ "ضفَّة أُخرىٰ"، تختفي فيها مَشَاعِر الضعف، ويَسْكن الألم، ويتبدَّد الخوف، وتفترش نفْسه آفاق السموِّ والرفعة، وتمتطي صهْوَة الشجاعة وعشق الشهادة، والتطلُّع إلىٰ لقاء الله وأوليائه... فيجد الأُنس والراحة والطمأنينة، علىٰ عكس ما هو عليه في هٰذه "الضفَّة" من الخوف والتعب والاضطراب. وكانت المعاناة تتأصَّل في نفسه وتبالغ في جَلْد ذاته ولَسْعِها بأسواط الملامة والتأنيب، عندما يدقِّق النظر ويمعن ويتدبَّر بحثاً عن مخرج من دوامة الاضطراب والتناقض التي تتولَّد من خواطر الأسئلة المشكِّكة والهواجس المُقْلِقَة، وتكافح لتجثم علىٰ نفسه وتستقر في روحه فلا تزول:

أين ذهبت رياضاتي ومجاهداتي الروحية؟

كيف أعجَزُ عن قَلْبِ الألم هنا سروراً، وأتجاهل القَلَق والخوف إلىٰ الأمن والطمأنينة؟ كما كنت أفعَل في دِياري وسكَني؟

ماذا جَاءَ بي هنا؟

ألم يَدْفعني سَخَطي وفشلي، فجئتُ هارباً من وَاقعي؟

ألم أكن مأخوذاً بالإعلام وما خلقه من حماسة؟

ألم يصنعني الهوىٰ بشتىٰ فروعه ورَوافده، من قبيل ما سيقوله الجيران ويحكيه عني الأقران؟ عن بطولتي إن التحقْتُ بالمجاهدين، وشقوتي إن لم أفعل؟ ألم يكن التوْق للإطراء يقودني، والحذر من القدح والذمِّ يسوقني، فانتهيا بي إلىٰ هٰذا الجسر اللعين وهٰذا الليل والبرد؟

أليس الجبن هو الأصل في واقعي، وقد وَارته أجواء الأصحاب وعواطف الشباب، واندفاعة خلَقَتها التعبئة الإعلامية التي غطَّت البلاد والعباد؟ ألستُ "مأخوذاً"، لا آخذاً ومتطلِّعاً؟

ها هو المحك، يكشِفُ الزيف، ويُجلي الحقيقة...

ألا تُعْساً وقُبْحاً، و "لا نامَت أعين الجبناء"، إنني أرتعد خوْفاً، وأفكِّر بألف حيلة وألتفُّ بألف درْب حتىٰ لا أعثر بشباك العدو فيصطادني، إنني أتهالك لـ "أنجو" من الشهادة ولقاء الله الذي طالما زعمت أنه ضالتي ومُنيتي!

لَعَمْري، كم كنت أعجَبُ ثم أسخَر حين أتذكَّر مَوقف مُسلِمي الصدر الأول، وفيهم شيوخ الأصحاب، في غزوة "الأحزاب"، وقد اْجتاز «عمرو بن عبد ود» الخندق، وأخذ يتبختر مستهزئاً، حتىٰ بُحَّ صَوْته من النداء فيهم: "هل من مبارز؟... ألستم تزعمون أن القتيل منكم راحل إلىٰ الجنة؟ فما بالكم عزفتم عنها وزهدتم فيها"؟! والقوم تسمَّروا في مواقعهم كأنهم خشُبٌ مسنَّدة، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌّ، فَغَرَ كلٌّ فاه فلم ينبس ببنت شفة، وأرسل عينيه فلا طرفت ولا رفَّ له جفن، وجمد في موضعه كأنما شُلَّ وفلج، لا يتحرك ولا يلتفت، حذَر أن يلفِت الأنظار، فتتسلَّط علىٰ فضيحته وتعرِّي جُبنَه وتشهر خزيه!

حتىٰ ما وَجَدَ «النبيُّ» بُدّاً من أن يأذن لـ «أميرالمؤمنين»، الذي كان ينهض ويقدِّم نفسه كلَّما نادىٰ «عمرو» وصاحَ طالباً البراز، و«النبيُّ» يمنعه ويأمره بالتمهل والاْنتظار...

وكان «منصور» حضر يوماً الصلاة في إحدىٰ مساجد «أصفهان» واْستمع إلىٰ الواعظ يتحدَّث عن هٰذه الغزوة، فراحَ يفخر بـ «سلمان» ويزهو، لا أدري بـ "فارسيته" أم "محمديَّته"، ودوْره المصيري فيها، وكيف أنَّ «النبيَّ» أخذَ بمَشُورته في حَفْر الخندق، ثم قال: إنَّ «النبيَّ» ﷺ إنما تعمَّد تأخير «علي» عليه السلام ومنَعَه من إجابة «عمرو» مباشرة، حتىٰ يكشف سوء سريرة بعض أصحابه ويفضح جُبنهم، وضعف إيمانهم، فيسجِّل التاريخ موقفهم بما يتمُّ الحجَّة علىٰ من يواليهم وينتصر لهم، ولٰكن هيهات! فكأنما صموا وعموا عما لا يريدون.

كان «منصور» يحاول أن يجمع بين حقيقة إيمان هٰؤلاء وبين موقفهم، فما كان يفلَح ولا يستطيع... كيف يمكن أن يسمع مسلِمٌ صوتَ «النبيِّ» الأعظم مباشرة، يخبر عن الله عزَّ وجل، يعِده ويضمن له الجنة، ثم يتلكأ في التقدُّم إلىٰ البراز خوفاً من الموت؟

وقد ٱنتهىٰ في تحليله وفهمه إلىٰ عبثية القوم في رؤيتهم للدين، وعدم جديتهم في الإيمان والٱلتزام. دعكَ من المنافقين من الأصحاب، فهٰؤلاء لم يكونوا مؤمنين حقاً، وكانت المصالح تحدوهم، وما كان أحدهم سيبرز لمثل «عمرو»، ولٰكن كان هناك ـ ولا شك ـ مسلمون واقعيون وأصحاب حقيقيون، يؤمنون بـ «النبيِّ» ﷺ وصِدْق قوله ووَعْدِه... فماذا أقعد هٰؤلاء وحجَزَهم أن يبرزوا؟

ومما يستوقف المرء ويحيِّره أنَّ كثيراً من "الإسلاميين" المعاصرين (الجهاديين منهم خاصة)، من شباب اليوم ورجال هٰذا الزمان، محاربين ودُعاة وعَوَام، من الذين جعلوا الدفاع عن "الصحابة" قضيَّتهم، يتحزَّبون لهم ويتعصبَّون، ويذهبون في نصرتهم إلىٰ حدود خرافية، يبالغون في تنزيههم، ويغالون في صونهم عن أيِّ مَسٍّ أو نقْد يطالهم في أشخاصهم ومواقفهم وسيرتهم، وكأنهم معصومون من الذنب، مُنزَّهُون عن النقص، ومبرَّؤون عن العيب... هم في واقع حالهم أفضل من أغلَب أُولئك الصحابة (وَفقاً لمقاييسهم وفي ضوء معتقداتهم)!

نعم، هم أفضل حالاً من أُولئك!

فنحن نرىٰ ونشهد بالحسِّ والعيان وندرك بالوجدان، كيف يتبارىٰ هٰؤلاء التعساء علىٰ بذل أرواحهم في عمليات ٱنتحارية، وكيف يتسابقون علىٰ تقديم أنفسهم رخيصة في سبيل ما يعتقدون (وإن كان من الفساد والبطلان بوضوح منكر قتل الأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال، ونسف العتبات المقدسة والمشاهد المشرفة لأئمة «أهل البيت»،

والتفجير في المساجد والحسينيات، بل تراهم يقتحمون الأماكن العامة متمنطقين بأحزمة ناسفة يفجرونها، فتودي بهم مع الباعة في الأسواق، أو العمال في المصنع أو الطلاب في المدارس، وكل من يستقل حافلات النقل العام!)، يتقدَّمون إلىٰ حتفهم بثبات، ويقترفون ما يحسبون أنها قربات، لا يبالون بموت ولا يخشون فوت، ولا يعوقهم حبُّ مال أو جَاه أو وَلد!... بينما "الصحابة" تلكَّؤوا وأحجَموا، و«النبيُّ» بين ظهرانيهم يبشرهم ويضمن لهم الجنة!؟

والأمر كذلك علىٰ صعيد الإنفاق والبذل المالي...

فقَد أمسَكَ الصحابة وامتنعُوا وبخِلُوا عن بذل صدَقة يسيرة، كَرَسْم للقاء «رسول الله» وحضور مجلسه ومناجاته، ذلك حين نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾، فلم يعمل بهذه الآية ويمتثل لها إلَّا «أمير المؤمنين»، الذي صرف نصف دينار (ذهب) كان يملكه، بعشرة دراهم (فضة)، كان يتصدَّق ـ عملاً بالآية ـ في كلِّ يوم بدرهم، فيتسنَّى له أن يختلي بـ «رسول الله»، ينصرف إليه يسأله ويناجيه، ويغترف ـ وَحيداً ـ من عميق أسراره، وينهل ـ منفرداً ـ من عذب علومه.

لم يفعل أحدٌ من الصحابة ذلك، لا قبل «أميرالمؤمنين» ولا بَعدَه، إذ ما لبثت السماء أن نَسخَت الحكم وأنزل الله تعالىٰ: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾... بخِلُوا عن صدقة يبذلونها للفقراء!

شحَّت أنفسهم أن يتخلَّوا عن دُريهمات قليلة مقابل ذلك الشرف الأرفع، فرَّطُوا في لقاء «النبيِّ» الأعظم وباعوا مغتنم حضور مجلسه والتنعَّم بمرأىٰ وَجهه الكريم، بدراهم معدودة!

بينما ترىٰ القوم اليوم، يخرُج أحدُهم من نصف ماله، وأحياناً من ماله كلِّه، مرَّة بعد مرَّة خلال حياته، يبذله للفقراء ومَن يعتقد أنهم من "المجاهدين" في سبيل الله، ويصرفه في دَعْم الناهضين بٱحتِجَاجات مذهبهم ونصرة دينهم وملَّتهم، سواء برفد علمائهم وتأمين متطلَّباتهم وأسباب تفرُّغهم، وهٰكذا طباعة وترويج كتبهم، أو بتأسيس المحطَّات والمراكز الإعلامية والقنوات الفضائية التي تبثُّ علىٰ مدار الساعة. لا يتوانون ولا يترددون، ولا تكاد تجد مقتدراً منهم إلّا بنىٰ مسجداً في «إفريقيا»، أو مدرسة دينية في «باكستان»، أو حفر بئراً في «أفغانستان»، أو كفل يتيماً في «الشيشان»، أو رعىٰ طالِب علم وأنفق علىٰ "غازٍ"، خلَف أهله وعياله في «قندهار».

فشتَّان بين هٰذا المنح والبذل، وذاك الشحّ والمنع!

لم يكن «منصور» يتصوَّر، فيفرد هامشاً للبخل أو للجبن والخوف، في نفس مؤمنة بالله، أو في سلوكِ ملتزم بدينه، لا معنىٰ لذلك عنده!

كيف يكون المرء مؤمناً بالمعاد والآخرة، مصدِّقاً بالجنة والخلود في النعيم، ثم تراه يبخل أو يجبن ويخاف؟

لا شك أن الخوف طبيعة في البشر، وأمر نفسي جُبِل عليه الإنسان، غُرس فيه لبقاء النوع وٱستمرار الحياة بدرء الأخطار وتجنُّب المهالك... ولٰكن "المؤمن" ينبغي أن لا يسمح لهٰذه الطبيعة أن تغلب آفاقه وتطلُّعاته الروحانية، وتهزم معاقد الإيمان في نفسه...

تماماً كما لا يسمح للنوم أن يغلبه بين الطلوعين لتفوته صلاة الفجر، وللجوع أن يغلبه في نهار شهر رمضان فلا يصومه، ولشهوة المال ونزعة الملكية أن تغلبه عند نصاب الزكاة وحول الخمس فلا يطهِّر ماله.

لٰكنه الآن في حالة أُخرىٰ تختلف، ووَضْعٍ جديد لم يسبِق أن عاشَه من قبل ولا عرَفه...

سواءٌ في فَهْم المشاعر الإنسانية وإدراك حالات النفس البشرية، أو في فَهْم الدين ومَوقع العقيدة ومحلِّها من السلوك والعمل. فالقول والزعم غير الفعل، والتطبيق والعمل غير النظرية والفِكْرة... وهو الآن في معترك التطبيق وميدان التنفيذ، فالفكرة وَاضحة والعقيدة راسِخة، لكن النفس تمانع والجوارح لا تطاوع.

كان يصارع روحه ويغالبها، وكانت تنازعه في مَشَاعره وتتناهَب أفكاره وتغالبه، فتهزمه تارة ويهزمها أُخرىٰ...

وأكثر ما كان يعاني ويقاسي: العار والفضيحة، لا أمام الناس وفي عين الآخرين، ما لَه ولهم؟ فطالما كان نائياً عنهم، قاصِياً منزوياً في مُعتزله، وهو الساعة أكثر شُغلاً وبُعداً أن يراعيهم؟ إنما أُصيب في ذاته، ومُسَّ في عمقه وصميمه، واَفتُضِحَ أمام نفسه، ما أشعره بالعُري والعار مع رُوحه، فغلبه الخزي والخجل في داخله!

فأخذ يحدِّث نفسه:

آه، حقاً إن قيل "ما أهون الحرب علىٰ النُظّارة"، و"لكل طيٍّ نشر"، وقيل: "والجُودُ حيثُ الوعدُ مُفتَقَدٌ * والقولُ معقودٌ به العَمَلُ"...

ها أنا في الموقف والموضع نفسه، الذي كان فيه «الصحابة»، وأقعُ في ما وقعوا فيه. إنني أقترف فِعلاً طالما عجبت منه اَستنكاراً، ونهيت عنه تقبيحاً. إنني أخاف وأجبن، وأُسوِّف وأُفرِّط بعقيدة كنتُ أظنها أثمن ما أملك وأعزّ ما أقتني!

هٰكـذا أرىٰ حـالي الآن، هٰذه هي حقـيقتي وهٰذا هـو واقعي التَعِس، لا غير، وسأحمل أي تقييم مُغايِر، وأية رؤية أُخرىٰ مخالِفة، علىٰ تأويلٍ وتحايلٍ يسعىٰ للاَلتفاف علىٰ الحقيقة ليزيل مَرارتها، والقفز علىٰ الواقع ليتخطىٰ هٰذه الهُوَّة السحيقة التي كَبَتْ فيها نفسي وهوَت،ضياعاً وتيهاً؟!

كَبُر الأمر عليه وعَظُمَ في نفسه، فراحَ يستحضر رياضاته ويستعيد ذكرياته فيها... وأكثر ما حضَرَ الساعة قضيته مع شهوة مُلِحَّة حكمته عمره لأقتناء "دراجة نارية"، وكيف أشتعلَت شرارة الصراع فيها مع خبر عن ثريٍّ يتهالك على اقتناء التُحَف، والبذل لها بسخاء بل بإسراف، لا يطيق الأمتناع عن الشراء، ولا يستطيع صبراً. فعزم «منصور» أن يدَّخر من أجره اليومي شيئاً، فإذا حصَّل ما يمكِّنه من بغيته، أمتنع عن شراء الدراجة وبذَل المال في سبيل آخر! تذكَّر «منصور» زهْوَه ونشوته وهو يتجوَّل في سوق الدراجات النارية المستعملة، يعاين ويماكس، ثم يمسك ويحجم عن الشراء، وعلى شفتيه أبتسامة المنتصر!

مع هذا الخاطر اللذيذ المنعِش، بدأت نفسُه تميل به نحو حالَة جديدة، أخذَ ينحو فيها إلى السكون والقرار، وعاوَدته الطمأنينة شيئاً فشيئاً... وفي الحقيقة أخذته "المَلَكَةُ"، مَلَكَةُ تطويع الألم التي خلقتها فيه ورسَّختها تلك الرياضات المضنية المتواصلة، أخذته إلى حيث يريد من حيث لا يدري!

كانت تطوِّع وَحشَته وتغالِب غُربته في صراعه الداخلي مع الخوف والجبن والبخل، فتحيله ـ أولاً ـ إلى ألَم يلسعه فيعاني ويقاسي، ليصبح وينقلب ـ بعد ذلك ـ أُنساً ونَشْوَة، ثم يتصالَحُ مع نفسه، وهو في غفلة من قاعدة "اللعبة" وفنِّ الحركة التي يمارس، فينزاحُ الخوفُ من نفْسِه ويُطرَدُ الجُبن ويتحوَّل إلى الشجاعة والطمأنينة.

هكذا هي "المَلَكَةُ"، تفعَل بصاحبها فِعلها وتقوده في مسارها في تلقائية وأسترسال... تماماً كما تضبط "المَلَكَةُ" في الفصحاء ـ على سبيل المثال ـ ألسنتهم عن اللحن، فترى أحدهم يصيب ويُعرب في تلقائية، وإن لم يلتفت إلى القاعدة النحوية، من فرْط ما أعتاد ومارَس القواعد وعايش الأدب، فأصبحت الفصاحة فيه مَلَكَة.

وهكذا أدركَتْه الرحمة وبلَغَتْه، وقد ترسَّخت فيه - هي الأُخرى كمَلَكَةُ - من فَرْط ما مارَسها على مُسِنٍّ كانَ يرعاه في دار العَجَزَة، ومريضٍ غريب لا أقاربَ له في البلاد يعودُه ويَصِلُه، وحيوان ضال يؤمِّن له مأوىً يقيه أذى الطريق، وآخر يتضوَّر جوعاً، غالَه الزمان فأسقط تاجه وهو ملِك الغابات، ورَهَنه في أقفاص حدائق الحيوانات، ثم أزرى به الدهر فصارُوا يطعمونه الحشائش والنباتات!

ها هي الآن مَلَكَةُ الرحمة تتَّقد في نَفْسِ «منصور» وتتفاعل، فتدركه على نَفْسِه هذه المرَّة، من حيث لا يدري... فلَجَأ إلى معالجة نَفْسِه شفقَة ورحْمة!

أخذَ ينشد أشعاراً له، أو هي أشعار غيره، خُولط حتى ظنَّها من نظمه! أم تُراه اتحد مع الشاعر الأصلي وتلاقى فتبادرت الخواطر بينهما وتبادلَت، فأنشَدَ وكأن الروح التي تبثُّ في الشعراء والمبدعين وَاحدة، يستقي منها كلٌّ ما يشاء ويغترف، فتَصِحُّ النسبة، إذ هي من المصدر والمنبع نفسه؟:

وأحورَ بارزتْني مُقلتَاهُ
بسيفٍ لا يُرَدُّ عن القلوبِ
فصَرْعَاهُ ولا صرعَى خُطوبٍ
وقتلاهُ ولا قتلَى حُروبِ
أقولُ له وقد أحصَى ذنوباً
عليَّ مقالةَ المَلِقِ الخَلُوبِ
فديتُكَ قد سفكْتَ دمي بسيفٍ
على المهجاتِ فَتَّاكٍ وَثُوبِ
فلا تعْدُدْ ذنوبيَ بعدَ هذا
فإنَّ السيفَ محَّاءُ الذنوبِ

إنها أبيات ـ في الحقيقة ـ للشاعر الذي عُيِّر به، أو ٱستُهزئ به أن يقارَن بمِثله أو يُعدَّ في عِداد أمثاله: مفخَرة «الأصفهانيين»: «الطغرائي»... ولكن «منصوراً» أنشَدها ـ حين فعل ـ وردَّدَها في نفسه وترنَّمَ بها، كأنها من قوْله ونظْمِه!

ومما ٱستوقفه بعد ذلك، مناسبتها مع الحال والمقام؟ ورَبطَها بما كان يعاني ويقاسي؟ لم يتبيَّن ذلك كثيراً ولا ٱتضَح، لكن الأبيات كانت القنطرة التي نقلَته، أو المنعطف الذي دلَفَ من بعده في مرحلة جديدة. وراح يحدِّثُ نفسه ويخاطب ضميره: كلَّا، لن أكون مثل أُولئك " الصحابة " الذين تقاعَسُوا، ولن أُبرِّرَ وأتحايل لأُخادع نفسي فتسوِّل لي الأمر وتهوِّنه، إنني في وَضْع مأساوِي، وتردٍّ وسقوط خطير، عَلَيَّ معالجته سريعاً وإلّا قُضي الأمر، وقضىٰ عَلَيَّ!

علامَ الأسىٰ ومِمَّ الخوف؟

والله ما هي إلّا رصاصة تخرق صدْري وتنفذ في قلبي، أو شظِيَّة من رمانة (قنبلة يدوية) أو قذيفة، ألقىٰ بعدَها، بل في حينها الحور العين، فالشهيد لا يسقط حين يسقُط، إلّا في حضن حورية...

حور، أي حور وأي قصور يا رجل!؟

ستُطوىٰ صفحة المحن والمعاناة، وسأفرغ من كلِّ ما في هٰذه الدنيا الدنيَّة، وسيُطلَقُ سراحي من حبسي الطويل وأرحل!

سألقىٰ «محمداً وآله»، سأبلغ جنة اللقاء، ورضوان من الله أكبر.

هٰكذا أمسَتْ نفس «منصور» تجوب وتسعىٰ بين " مَرْوَة " المكاشفة والوقوف علىٰ الواقع المرير، ورؤية الأشياء كما هي، وهو أول طريق النجاة من آفة الجهل، حيث يخرج عن المركَّب إلىٰ البسيط، ليَرىٰ الحقَّ حقاً عسىٰ أن يتَّبعه، والباطل باطلاً لعلَّه يجتنبه، لا تخادعه نفسه ولا يتسلَّط عليه أو يخدعه شيطانه.

فمَن يعجَزْ عن مصارحَة نفسه ويجبن عن مواجهتها، فهو عن مواجهة غيره أجبن وأعجز. ومَن يمارس الخداع في أعماق نفسه، ويلتفّ على الحقيقة هناك، في أَوْلى المواقع بالصدق وأحْرَاها بالأمانة والوفاء، فهو بخيانة الآخرين أجدَر، وإلى الجهل بحقائق الوُجُود، وأسرار الموجود أقرب وألصَق.

فإذا بلغَ «منصور» الذروة من هذه "المروة"، عادَ مهرولاً صَوْب "صفا" الكمال والجمال الذي تعشقه نفسه وتهفو إليه، قِيَماً ومُثلاً تمثلها نماذج وتجسِّدها سلوكيات. بل ذوات وأشخاص صاغوا ووَضَعُوا للكمال معانيه، ورَسَمُوا ـ بوُجودهم ـ الجمال، وخطُّوا معالمه وشكَّلوا جَوْهَره وكُنهه. ولا تهدأ نفس الفتى من هذا السعي الدؤوب، حتى يطوف بالحقيقة سَبْعاً، ويستلم الركن منها ويأوي إلى الباب.

كان هذا التلاطم والأضطراب، الذي بلغ ذروته حين بلغ به المقام تحت الجسر، يقلقِل أحشاء «منصور» كمخاضٍ عسير، ويعصِفُ برُوحِه في إرهاصة تستشرف فتْحاً وتنبئ بنبوَّة!...

ويجثم على صدره، مثلما فعَل الظلامُ على كلِّ شيء.

* * *

كان «منصور» ثالث ثلاثة في مجموعة خاصة وفريق عمل مهمَّته رَصْد وإحصاء أعداد قطع المدفعية والآليات الحربية التي تعبر ذلك الجسر، مع تمييز أصنافها ونوْعياتها، الثقيل من الخفيف، الدبابة والمدرعة والآلية العسكرية من الشاحنة والمركبة.

والفصل الأخطر من هذه العملية، هو رَصْدُ "قاعدة متنقلة"، أو هي "بطارية صواريخ" أرض ـ أرض من طراز «سكود» روسيَّة الصنع، خلع عليها «صدام» أسماءً مقدَّسة (الحسين والعباس)، كانت (الأسماء) في ملَكوتها الأعلى تلعنه، في شخصه وعَمَلِه.

وقـد شكَّلت هـٰذه الصـواريخ فصْلاً مُـوجِعـاً من فصُـول الحـرب الطـويلة... فَصْلٌ آذىٰ الإيرانيين كثيراً، وأحرَج القيادة الإيرانية، السياسية والعسكرية، أمام شعبهـا أيما إحراج، وأصابها في مقتَـل، إذ كانت مُلتزمة بعَدَم الردِّ ومقابلة القصْف بمثله، مبرِّئة الشعب العراقي، وفاصِلَة بينه وبين نظام الحكم البعثي الجائر، ومحيِّدية الأهداف المدَنيَّـة ككُل، من منطَلَق أخلاقيٍّ وإنساني وديني.

ولعلَّه الفصل الأسوأ حتىٰ من معركة "حرب ناقلات النفط"، التي وإن لـم تكن للإيرانيين اليد الطولىٰ وقصَب السبق فيها، لـٰكنهم كانوا في سِعَـة تسمح لهم بالردِّ، وبالتفوُّق أحياناً، مستغلِّين ٱمتداد سـواحلهم وكفـاءة بحـريَّتهم. (ولـٰكـن يبقـىٰ هـٰذا وذاك دون فـصل ٱستخـدام "الأسلحة الكيمياوية" بطبيعة الحال!).

وقبل الإحراج والضغط الشعبي فالسياسي الذي أثقل كاهل القيادة الإيرانية وهي تتلقىٰ صرخات المطالبة بالردِّ متزامنة مع كلِّ غارة وقصف، وكانت تقطَع علىٰ إمام الجمعة في مختلف المدن الإيرانية خطبته:

"موشك جواب موشك"!

أي الصاروخ هو ردُّ الصاروخ...

قبل هـٰذا الضغط والإحراج السياسي، كـان هنـاك آلافُ القتلىٰ المدنيين، وما يصعب حَصْره من الدمار والخراب الـذي سببه القصف للبيوت السكنية والبنىٰ التحتية للمدن.

كـانت المدفعية العـراقيـة بعيدة المدىٰ قد أتـت علىٰ المـدن المتاخمة للحدود ودمَّرتها تماماً (وقد نزح أكثر سُكَّانها ولجؤوا إلىٰ المدن الخلفية يحسبون أنها "آمنة"!)، وتولَّت صَواريخ أرض ـ أرض ما كانت المدفعية تَقْصُـر عنه ولا تطـاله من مُـدن وتجمعـات سكـانيـة، كـ «الأهـواز» و«أنديمشك» و«شوشتر» و«دزفول» و«باختران»...

بينما راحَ الطيران العراقي المتفوِّق، يدكُّ العمق الإيراني في «أراك» و«شيراز» و«أصفهان»، حتىٰ بلغ «قم» و«طهران» نفسها...*

كانت مجموعة «منصور» تريد التأكُّد والتثبُّت من وُصول "بطارية الصواريخ" تلك، وتمركزها في الموقع المحدَّد لها.

الموقع الذي ستُنصَبُ فيه لتُطلق صواريخها وتقصِف المدن الإيرانية في «خوزستان» حسبما أفضَت معلومات الاستخبارات... وهو الموقع الذي يعدُّ اللواء السادس عشر من مشاة فرقة «الإمام الحسين» للهجوم عليه وتدميره، إخماداً للنار من مكمَنها، وإجهاضاً لهذا "السِفاح" في رحم "أُمِّه" العاهر الآثمة، أو خنقه في مهد الخطيئة، قبل أن ينطلق فيهلك الحرث والنسل، ويعيث في الأرض فساداً وخراباً.

إنها فرقة «الأصفهانيين»، وهُم الأقوىٰ عزماً والأصعب مِراساً والأشدُّ بأساً وشكيمة، فالأكثر شُهداءً في هذه الحرب...

وعلىٰ رغم أنهم كانوا يُطلِقون علىٰ جنود العدو: "عرب"، فيقولون: "عرب زد"، و"عرب رفت"، إن هجم «العراقيون» أو فرُّوا، في حين كان «الطهرانيون» يطلقون عليهم: "بعثيها" أي «البعثيين»، و«المشهديون» (سكان مدينة مشهد في «خراسان»): "عراقيها"...

---

* مما يمكن أن يذكر هنا علىٰ سبيل المثال، أنه مع قيام القوات الإيرانية بالعمليات التي عرفت بـ «كربلاء ـ ٥» عام ١٩٨٦، وبداية الانهيار التام للجيش العراقي في الجبهات، عمَد «صدام» إلىٰ شنِّ ٢٣٦ غارة جوية علىٰ ٦٥ مدينة صغيرة وكبيرة خلال ٤٢ يوماً فقط! هذا بالإضافة إلىٰ تعرُّض ٨ مدن أُخرىٰ لـ ٢٨ صاروخاً من نوع أرض ـ أرض، ناهيك عن القصف المدفعي المتواصل للقرىٰ والمدن الحدودية... كلّها تستهدف المدنيين، ولا تستثني المستشفيات والمدارس (استشهد ٦٥ طالباً في غارة جوية استهدفت مدرسة ابتدائية في مدينة «بروجرد»)، والأسواق، بالإضافة إلىٰ المطارات (وقد قُصفت طائرة مدنية وهي تخلي ركابها في مطار «شيراز»!) والقطارات ومحطات حافلات الركاب.

علىٰ الرغم من هـٰذا الذي قد يكشِف أو يشير إلىٰ نعرة قومية، فقد كانوا غاية في الألتزام الديني والولاء، بل التعصُّب المذهبي، الذي يعلُو بهم ويتسامىٰ علىٰ أي حسٍّ عنصري.

لقد كان إطلاقاً ساذجاً منهم، غير مقصود في معانيه العميقة، بعيد عن تكلُّف وتعسُّف يُحمِّله المداليل التي بثَّها المعتدون، وجاهدوا في تهييجها وإضرامها وجعلها المنطلق والمرتكز في هـٰذه الحرب... وهُم يصوِّرونها "قوميَّة"، تحمي البوابة الشرقية للوطن العربي من الخطر "الفارسي"، ثم لا يطول ولا يلبث الأمر أن يُفتَضَح من فلتات ألسنتهم المعادية، فيجهَرون ويعلنون الجانب الديني لحربهم، وهم ينعتون «الفرس» بـ "المجوس"! في رسالة تستبطن الطعون المذهبية المقيتة.

والحق أن «الفرس» لم يكونوا يقاتلون «العرب»، ولا «العراقيين»، إذ كانوا يرون فيهم إخوة في العقيدة والمذهب، وكانوا يتألمون لذلك ويقهرون حين يرون أن أسيرهم يعقِدُ علىٰ ذراعه ويلف معصمه بخيط أخضر (علق) متبرِّك بضريح «الحسين» أو «العباس»!

وهـٰذا "اللواء" يضمُّ النخبة من بسلاء الفرقة، والطليعة من أبطالها الذين سطَروا الملاحم في سُوح الوَغىٰ وميادين النزال، وكان لهم الدور الرئيس في دَحْرِ العدو وتحرير «المحمرة» و«عبادان» وتطهير أكثر تراب «خوزستان» المحتل.

وهـٰذا الفصيل الذي أنبرت منه مجموعة «منصور»، هو فصيل المهمَّات الخاصة والعمليات النوعية ("واحد عمليات ويژه"، كما يطلق عليه بالفارسية، ويسمَّىٰ باللغة العسكرية)، وهي وِحْدة تُكلَّف بعمليات الأستطلاع أو التخريب في العمق، خلف خطوط العدو، كذراع ضاربة لجهاز الأستخبارات، سَوَاء عبْر التوغُّل، أو الإنزال الجوي والهبوط بالمظلات، وما إلىٰ ذلك.

توغَّلت المجموعة في العُمْق العراقي، مخترقة الحدود الدولية من نقطة «النشوة»، وسلَكَت في خطٍّ متعرِّج وَفقاً لمقتضيات التخفِّي وتقنيات التواري، فكانوا يتستَّرون تارة في حفرة هنا أشبه بخندَق مهجور من عمليات حربية سابقة، أو في بِنْيَة من الطين هناك، تبدو كحُجرة متهالكة، يظهر أنها دار لمضخة مياه كانت تسقي البساتين والحقول هنا يوماً، ويتفرقون أحياناً، كلٌّ وَراء نخلة أو أثلة، إن دهمهم شيء، وٱرتابوا بعارِض باغَتَهُم.

وما إن بلغوا مسافة تناهز خمسة عشر كيلومتراً قرباً من الموقع ـ الهدف، حتىٰ توقَّفوا هنيئة يلتقطون أنفاسهم ويتناولون شيئاً من الطعام، وكان بضع حبيبات من اللوز والجوز (المقشَّر)، ولَوْحاً من الكاكاو، طمروا بقايا وَجبتهم من أوراق التغليف ودفنوها، ثم عمدوا إلىٰ إجراء ٱتصال أخير مع مركزهم، أبلغوهم ـ بالشيفرة ـ أنهم قطعوا المرحلة الأُولىٰ. قبل أن يدفنوا جهاز الأتصال ويطمروه هو الآخر في حفرة، وَفقاً للخطَّة.

ثم عمدوا إلىٰ التحرك زحفاً علىٰ اليابسة، ثم خوضاً في المستنقعات، حتىٰ وصلوا إلىٰ مجرىٰ النهر، فغاصُوا تحت الماء بعُمْقٍ ضَحْل، لخمسة كيلومترات متواصلة، لا تظهر صفحة «دجلة» وتخوم هور «الحمَّار» منهم إلّا أطراف وفُوَّهَات أنابيب بلاستيكية، كانت توصل إليهم هواء التنفس، وقد غلِّفت بأعواد القصب إمعاناً في التمويه...

ومع ٱنقضاء النهار ومغيب الشمس وإرخاء الليل سدوله، ظهرت صعاب جديدة في مهمَّتهم، إذ لم يكونوا مزوَّدين بأجهزة للرؤية تحت الماء، ولا فوقه (ناهيك بالإضاءة المحظورة أصلاً، بطبيعة الحال)، ولا بمعِدَّات توجيه وأجهزة إرشاد تُعينُهم علىٰ تحديد المسار الصحيح نحو الهدف المقصود، اللهم إلّا "بَوْصَلة" بدائية بسيطة، لا تكاد تعين ولا تسعف في غير تحديد ٱتجاه الشمال...

لم يكن لهم غير تدفُّق التيار، الذي أوْصَاهُم به قائدُهم وهو يضَع اللمسات الأخيرة على الخطَّة ويزوُّدهم بالتعليمات النهائية للمهمَّة، أن عليهم أن يتلقُّوه (التيار المائي) دائماً من جهة الشمال الغربي، وأن يمضوا بهذه الكيفية حتى يوافوا "الجسر"، يقطع مسيرهم.

شقَّت المجموعة طريقها وتوغَّلت حتى... فم الأسد!

وكانت الساعة تُشير إلى العاشرة مساءً، حين بلغت "الجسر".

وكان التشنُّج العضلي في الساقين قد توالى على إصابة الفتيان واحداً تلو آخر، ما كان يستوقفهم بعض الشيء في الحالات الشديدة، ويجشِّمَهم عناء طلَب الملجأ والساتر المواري، حيث يمكنهم إسعاف المصاب، بأستلقائه على ظهره ومدِّه ساقه المصابة وتثبيت كعبه، ثم دفع قدمه نحو جسمه، وهو أمر لم يتدرَّبوا عليه، بل تلقُّوه من مشاهداتهم وخبرتهم الرياضية!

وكانت ضحالة المياه في بعض أجزاء ومَواضع مجرى النهر ومتفرعاته، تجبرهم على الحبوِ غالباً والزحْف أحياناً... ونظراً للزوجة الطين والطَمْي، الذي كان يقبض على أكفِّهم وركَبِهم وهي تغوص فيه، ويثبِّتها ويُلْصِقها فلا تُرفع وتُنتَزع إلّا بعناء ومكابدَة يلحَقها صَوْتٌ أشبه بفرقَعة!... أضطروا للتخلي عن الأحذية الزعنفية التي وَضَعُوها في أقدامهم على طريقة الضفادع البشرية.

وهذا ما ضاعف الجهد العضلي اللازم للسباحة في المقاطع التالية من مجرى النهر، حيث يزداد العمق ويسمح بالغوص.

بلغوا الموقع ـ الهدف المحدَّد في منطقة «الجبايش» في تمام العاشرة، بتأخير معقول ومقبول، لا يتجاوز نصف ساعة عن المرسوم والمحدَّد في الخِطَّة، فأستبشروا خيراً وتفاءلوا، وحدَّثوا أنفسهم بنجاح تام وإنجاز كامل، على غرار ما حقَّقوه حتى الآن.

وكان الموقع العراقي قد كَبُر عما رأوْه في الصُوَر الجويَّة وعلِمُوه من الأستخبارات، وتوَسَّعَ وترامت أطرافه بسبب الحشد والتعبئة المتدفقة عليه بأستمرار، حتىٰ شغل ضِفَّتي النهر، فغدا الجسر في قلب الموقع وهو يصل جانبيه.

تموضع الثلاثة بإزاء الجسر، غائصين حتىٰ الأعناق...

وحارُوا فما كانوا يدرُون، هل يتضرَّعون أن يسترهم الليل، ويجلِّلهم بسواده، فلا يكنشف أمرهم ولا يفتَضحون فيهلكون، أم يسألون ربهم ويتمنَّوْن ما يزيح الظلمة ويكشف العدو، فيرصدون ما في الموقع، خاصة تموضع بطارية الصواريخ، فتنجز مهمتهم وتتم علىٰ أحسن ما يكون، ويعودوا بالخبَر؟ مضوا يرتقبون وينتظرون، ما كان لهم غير هٰذا، وبعد فترة طالَت بعض الشيء، حين أعلنت الساعة أنتصاف الليل، بدا أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أستجاب لـ «منصور» ورفيقيه أدعيتهم...

ففي حين كان الظلام يلتهم فضاء المكان وما فيه من موجودات ٱلتهاماً، ويجثم بثقل قاتل، ويكبس علىٰ الهواء وينفذ في الأشياء... حتىٰ يخال المرء أنه يستنشق الظُلْمة مع الشهيق ويدخلها إلىٰ جَوْفه، ثم لا يشعر بخروجها منه في زفيره! ويرىٰ أنها في الخارج، ٱتحدت مع جَوْفه وداخله، فألغت وُجُودَه وأحالته عَدَماً، وألحقته بما ٱلتهمته في فضاء هٰذا الموقع الرهيب.

ظلامٌ دامِسٌ، وليلٌ بهيم حالك...

لا يبصر المرء يدَه، وإن رفعها وأدناها أمام عينه!

إنهم لا يبصرون الجسر الذي يستندون عليه ويتشبثون به...

في مثل هٰذه الحالات تنبعث في المرء الرغبة بالقيام بأية حركة، شيء ما يكذِّب الظن أنه تلاشىٰ وٱنعدم وفني في هٰذه الظلمة الحاكمة، وتثبت وُجُوده، ولو لنفسه!

لَعَمْري، إنه وَضع لَوْ عاشَه الفلاسفة والمناطِقَة لأعادوا النظر في مثلهم على "العلم الحضوري" الذي يحضر لِذات المرء بنفس وُجُوده، لا بصورته كما في "الحصولي"، وقولهم إنه: "علم النفس بذاتها وبصفاتها القائمة في ذاتها وبأفعالها وأحكامها وأحاديثها النفسية"...

كيف إذاً يشك القوم هنا في وُجودهم!؟

بينا هُم في هذه الأجواء، إذ عرضَت مفاجأة لم تكن في الحسبان!

أخذ الجنود العراقيون في تصرفاتٍ وحركات غريبة، لا يقدِمُ عليها عاقل يتمتَّع بأدنى مراتب الإدراك والفهم والتمييز، فكيف بعسكري متمرِّس، متخندِق في موقع قتالي متقدِّم، غاية في الحساسية والخطورة؟... حركات لا تفسير لها إلّا سعيٌ مجنون لـ "إثبات" الذات و"التحقق" من الوجود ونفي العَدَم! أو قل كمَن يأخذه العجَبَ وتستولي عليه الحيرة من حدَث غريب يعيشه، أو عالَم جديد كأنه انتقل إليه ووَجَدَ نفسه فيه، فيقرص مَوْضِعاً من جسمه أو يصفع خدَّه ليتثبَّت من أنه في يقظة لا في منام.

لقد خرج الجنود العراقيون من خنادقهم ـ بلا مناسبة ولا داع ولا سبَب ـ وكشفوا الأغطية والأستار التمويهية عن الأسلحة والعربات والمدافع، وكأنهم يستجلُون وُجودَها ويتثبتون من أن الظلام لم يلتهمها ويبتلعها!... ثم علَت أصواتهم، وكأنهم فقدوا كلَّ رغبة في التستُّر والاختفاء، وضجروا فما عادوا يطيقون أن لا يكونوا ظاهرين مشهودين... ولسان حالهم: نحن هنا!

هل هي نوبة جنون حكمتهم أو مَسٌّ أذهلهم وأبطَلَ عقولهم؟!

ومع أن أي نوع من الإضاءة هو محظور هنا وممنوع منعاً باتاً، دون تهاون ولا تسامح، وَفقاً لتعليمات الخطوط الأُولى في الجبهات، فكيف بحالة الإنذار القصوى في الميدان التي تمَّ تعميمها وإلزام القوة بها؟

حتىٰ شُعْلَة مَوْقد صغير يُعَدُّ عليه إبريق من الشاي، بل جمرة السيجارة، لا رُخصة فيها ولا ٱستثناء... لٰكن يبدو أن البرد الذي لَفَّ الجنود حين أمسوا في العَراء، خارج خنادِقهم الدافئة، لم يمكنهم تحمُّله، فأشعلوا ناراً وٱلتفّوا حولها.

ثم ظهر أن هٰذا الأمر الغريب والخرق الخطير للأوامر والتعليمات العسكرية الصارمة، كان أيضاً ضرباً من عبثهم ولَهْوِهم، ومن نتاج ومظاهر "المسّ" الذي كأنه ضربهم!

أما الٱلتفاف حول النار فكان ستراً لها عن الضبّاط، أكثر مما كان ٱلتماساً للدفء وطَلَباً للسخونة!

وفي الظُلْمة ينطَلِق «منصور» ليمارِس هوايته وفنَّه، فيتألَّق ويبدع، وهو ٱبن بَجْدَتها وصاحِب أسرارها، والضليع الخبير بخَفاياها، فكم تغزَّل بها وكَم سامَرَها علىٰ ضِفاف «زاينده رود»، وأهاجها علىٰ "ضَرَّتها" الليالي البيض؟!...

وعندما يستغرق «منصور» في الظلام، ترتسم الأشياء في عينه، وتأخذ الصُّوَرُ أشكالها من خطُوط خارجية تنطلِق ـ غالباً ـ من داخله، من القوة الواهمة أو المتخيلة في نفسه، فتنطبع المعالم علىٰ ما "يُريد" رؤيته، رغبة تَرِدُ من الهوىٰ والعشق، أو خوف وحذر يأتي مما يكره ويُبغِض... فينطبع في ما "يشاهد" و"يرىٰ". ولعلَّ الأمر ـ علمياً ـ يعود لِعِلَّة عُضوية بحتة، هي مدىٰ قُدْرة عدسة العين علىٰ التكيُّف والٱتساع، ما يسمح بٱلتقاط بعض خيوط الضوء، أو تكفّ عند عجزها عن لمح أي بصيص.

تقَعُ "الرؤية" علىٰ عُودٍ معوجٍّ بُتِرَ من غصن شجرة، فهوىٰ يتهادىٰ علىٰ صفحة النهر، تحيط به وتتجمع حَوْله بقايا أعشاب أو قاذورات ٱنجرفت من هٰذه الضفة أو تلك، فتصنع شكلاً أشبه بوَجْه إنسان، ولربما صنعت وَجْهاً مألوفاً عرَفه «منصور» وطَبَّقَه!

أو تلتقط دائرةً من تموُّجات أحدثتها حركة ما هنا أو هناك، فتتصوَّرها طَبَقاً لاقِطاً يتنصَّت عليهم، يسجِّل الاتصالات اللاسلكية أو يبثّها، وقد تُصبح فَضْلَةُ جامُوس تطفُو على الماء آلة تصوير (كاميرا) متطوِّرة تصوِّرهم بالأشعة فوق الحمراء!

كانت "التهيُّؤات" تترىٰ، والصوَر "المصطَنعة" تتلاحَق، مما أزَّم الأُمور وعقَّدَها أكثر مما كانت عليه، وكأن ما تعانيه المجموعة ـ أصلاً ـ لم يكن يكفيها! فزادَ عزف «منصور» علىٰ هٰذا الوَتَر من توتُّرٍ قَطَّع أعصابها لِفَرط ما شُدَّت، وفجَّر أوعية صبرها مما ضاقت وامتلأت.

لٰكن «منصور» ـ من دونها ـ كان ساكناً مستقراً، ولعلَّ بالإمكان الزعم أنه كان مطمئناً بعض الشيء، وإن تبادَر أن ذلك لانشغاله بتخرُّصاته وانصرافه لأوهامه وسبحه في خياله، لٰكنه، علىٰ أية حال، خرج من الاضطراب والتوتُّر...

كان راكناً أن الظُلمة تكلِّمه وتحدِّثه، وأنها ستتعاون عن قريب وتُريه الأشياء بطريقة ما دون أن تكشفه للعدو وتفضحه! وإن لم تفعل، علىٰ أسوأ الفروض والاحتمالات، فسيستدعي ـ عندها ـ القمر، يشكوها (الظُلمة) أولاً، كيف تنكَّرت للصداقة وخذلَته عند الوثبة، وخيَّبت الأمل فيها والرجاء ساعة الضيق وعند الحاجة، ثم يطلب إليه (القمر، وإن كان بعدُ هلالاً) أن يرسل بعض ضوئه، ما يكفيهم لإنجاز مهمتهم دون أن يضرَّهم، يرسله هوناً، كما ينشر طيبه ويبعث أريجه إرادة منه علىٰ العشاق والعارفين، فيتعطرون مبتهجين!

وبين "تخرُّصات" «منصور»، والجنون الذي ضرَب العراقيين...

كشفَت شُعَلُ النار معالم الموقع جيداً... حقاً أنَّ الله استجاب أدعيتهم وتضرعاتهم، وحقَّق أقصىٰ ما يأملون! هٰذه آليات العدوِّ، ومرابض مدفعيته، ومواقع ذخيرته وقذائفه، كلُّها مكشوفة مفضوحة.

راحَتْ المجموعة تحصي وتسجِّل...

لـكنها لم تلمَح هدفها الأصلي والأخطَر، ولم ترصِده حتىٰ الآن؟

لا عين له هنا ولا أثر! أين هو يا ترىٰ؟ هل ذهبوا به إلىٰ مكان آخر وأنصرفوا عن القدوم به إلىٰ هـٰذا الموقع؟ لماذا إذاً هـٰذا الأستنفار وهـٰذا العديد والحشد هنا؟

إن العلامات كلَّها (ومنها حالة الإنذار الميداني التي فرضت عليهم، فتهاون الجند في تنفيذها وتراخوا في ٱلتزامها لفرط ثقتهم بِبُعد الخطر عنهم) تنبئُ أنهم ينتظرون حمولة خطيرة، ويعدُّون أنفسهم لأمر عظيم، ليس حملة وهجوماً، فهم ليسوا في الصف الأول، ولا حتىٰ الثاني! ثم إن طبيعة تسليحهم وحالهم لا تسمح بذلك، إنهم بين رجال مدفعية وعناصر مخابرات، ولا مقاتلين حقيقيين بين هـٰؤلاء، حتىٰ مدافعهم غير مُعَدَّة للرمي والإطلاق. إن الموقع - في المجموع - هو أشبه بمركز خلفي (غير مراكز الإمداد اللوجستي) أو محطة تجمّع، تنطلق منها الآليات وتتوجَّه قطع المدفعية، وتُحمل ذخائرها إلىٰ مواقعها المحدَّدة في الجبهات.

كان علىٰ «منصور» وصاحبيه أن يمكثوا وينتظروا...

عليهم أن يبقوا في الموقع أطول فترة ممكنة، ليتأكدوا من وصول بطارية صواريخ «سكود»* المرتقبة وملحقاتها من عربات وآليات تشغيل

* يبلغ طول الصاروخ «سكود - ب» الذي ترتقبه المجموعة: ١١ متراً وعرضه أو نصف قطره: ٨٨ سنتيمتراً، ووَزنه نحو ستة أطنان. ويصنَّف في مرتبة الصواريخ التكتيكية متوسطة المدىٰ للعمل وراء خطوط العدو، إذ يصل مداه إلىٰ ٣٠٠ كيلومتر، ويحمل رأساً متفجراً بوزن ٩٥٠ كيلوغرام، كما يمكن تجهيزه بسلاح ذرِّي أو جرثومي أو كيميائي. ويطلق من قواعد ثابتة أو متحركة من علىٰ متن شاحنة ضخمة.

أما دقة إصابة الهدف في مزايا هـٰذا الصاروخ، فهي في حدود ٤٥٠ متراً، وهو نطاق كبير، ذلك لعدم ٱرتباط الصاروخ بنظام توجيه إلكتروني عبر الأقمار الأصطناعية، لذا فهو يعد صاروخاً مناسباً للتدمير العشوائي، ومن هنا ما كان «صدام» يبالي بأستخدامه في ٱستهداف المدن، فأينما وقع منها فبها! »

وأنظمة إطْلاَق وتوجيه، وَفْق ما كانت شُعبَة الاستخبارات في اللواء قد أكَّدَته، استناداً إلىٰ آخر اتصال لمجموعة ثانية نافِذَة متوغِّلة في العمق العراقي (أقامت ارتباطاً مع أحَد الضباط المتدينين في الجيش العراقي، كان يتعاون معهم ويزوِّدهم بالمعلومات، وقد حدَّد لهم هٰذا الموقع والتاريخ، وهٰذه الساعة، لحركة الصواريخ ووُصولها). فقد انطلقت الشاحنات الضخمة التي تحملها من موقعها الخلفي منذ الخامسة عصراً، وراحت تسلك طُرُقاً ملتوية هرباً من الرصد الجوي والإلكتروني للقوات الإيرانية (إن وَجَد ثمة!).

وكان خبراء متخصِّصُون ومدرِّبون كفاة انتُدبوا من مخابرات الجيش الإيراني (لافتقار الحرس الثوري لمثل هٰذه الخبرات)، من «ركن دو» (الركن الثاني، كما يطلق عليه) قد درَّبوا «منصوراً» ورفيقيه وأطلَعُوهم في دورة مكثَّفة، علىٰ صوَر وأفلام وَثائقية تعليمية، وزوَّدوهم بمعلومات وأمارات تحدِّد لهم علامات فارِقة لتمييز الشاحنة الضخمة التي تحمل الصاروخ عن الأُخرىٰ التي تحمل الذخيرة والعتاد أو المؤن وما إليها من لوازم ومهمات، وعن غيرها من الآليات العسكرية والأسلحة التي قد يرصدونها في الموقع، كالمدفعية بعيدة المدىٰ، بذراعها الطويلة أو أُنبُوبها الممتد، وزاوية انتصابها، ما قد يخلط ويوهم. حتىٰ إنهم بيَّنوا للفريق وعلَّموه كيف سيكون وَقْعُ مرور العربة التي تحمل الصاروخ علىٰ ظهرها حين تعبر الجسر العائم الذي يختفون تحته أو إلىٰ جواره...

«

أما إذا أرادوا ضربَ مواقع محددة كالجسور ومحطات القطارات وأبراج أو مدارج المطارات وغرف العمليات الحربية، فقد درَجَت العادة علىٰ إطلاق أكثر من صاروخ واحد علىٰ الهدف للتأكد من إصابته. ويمتاز صاروخ «سكود» بالقدرة علىٰ تمويه منصة إطلاقه، إذ تستطيع العربة الحاملة تغيير مواقعها بسرعة وسهولة (في خلال ساعة واحدة فقط) مما يفوِّت علىٰ العدو تحديد موقعها واستهدافها. ■

وكم ستضغط على دِعامات الجسر، وكيف سيكون صَوْت عجلاتها، وتباعد مقدمتها عن مؤخِّرتها، وما يفرقها عن حاملة الدبابة.

كان لا بدَّ من الأنتظار وتأخير العودة حتىٰ إنهاء هٰذا الفصل، وهو الأخطر من العملية، مهما كلَّف الثمن. فمن هٰذا الموقع ستُقصَف «الأهواز» و«الخفاجية» و«شوش» و«دزفول»، وستنهار البيوت علىٰ رؤوس سكانها المدنيين، سيعود منظر أنتزاع الأشلاء من بين ركام المباني المنهارة، وسترتفع أصوات الثكالىٰ بالعويل والندبة... ولٰكن، من جهة أُخرىٰ، لا بدَّ لهم من العودة قبل الفجر وضيائه، وإلّا أنكشف أمرهم وقُضيَ عليهم وفشلت العملية.

❁ ❁ ❁

لا شيء يُودي بالجأش ويفلَّ العَزم، ومن بعده يأتي بالقلَق والأضطراب، والروْع والفزَع، مثل الترقب والأنتظار، ولا سيما إن كان عن خُلُوٍّ من أي شأن، وفراغة من أي عمل، أن تمضي ساعات لا يشغلك شيء تؤدِّيه، ولا يسلي أنتظارك عمل تقطع به الوقت وتبدِّد الملل والسأم.

كيف إذا أجتمعت مع ذلك وأُضيفت إليه محدودية في المكان وضِيق في المحل؟ فتكون في وَضْع لا يسمح لك بالحركة مطلَقاً، فلا تطيق أن تُلَيِّن مفاصِلَك وتريِّض أعضاءك شيئاً، فتمدُّها من جلوس إلىٰ وُقوف، أو من قيام إلىٰ قعود، بل لا تطيق الحكَاك ولا الثؤباء! ناهيك بٱلتنقُّل والمضي جيئة وذهاباً، مما درَجَ عليه مَن يستأني أمراً أو يترصَّد خبراً، تراه يذْرَع المكان ويقطعه مرَّة بعد مرَّة، يروح ويأتي؟ لا يمكنك شيء من ذلك... عندها، يخرج الأمر عن التأفف والضجر، وينتقل إلىٰ اليأس والأنهيار، ويخرج من السأم والملل إلىٰ الضجة والأنفجار.

فكيف إذا لحق بكلِّ هٰذا وذاك خَوْفٌ وتوجُّسٌ، يمضي بك الزمن وأنت في رُعبٍ وفَرَق، وهِيلَةٍ وذُعْر؟

في هذه الأزمة والحال، نزلَت بـ «منصور» الحمىٰ!

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت الحمىٰ قد تمكّنت من «منصور» وكأنها تسرَّبَت إلىٰ عظامه، فوَصَمَته فتْرةً وكَسلاً وتكَسُّراً في جَسَدِه، وأخذ الإعياء منه كلَّ مأخَذ، فكان العرَقُ ينضَح من جبينه ويتصبَّب من طرَف أنفِه، علىٰ رغم البرد والصقيع، حتىٰ غلَبَ علىٰ بلله من مياه النهر! شَحَبَ وَجْهُ الفتىٰ وآمتقع لَوْنُه، رُدِع وأُسهِب، وعَلَتْه صُفْرَة قهَرَت الظلام وبدَّدَته، وظهَرَتْ لِرَفيقيه، فسَرَت همهمة، وتسرَّب إليهم داع جديد للقلق، القلق علىٰ أنفسهم، وعلىٰ المهمة...

دَلَفَ الرفاقُ الثلاثة تحت الجسر، بين الدعامتين الرئيستين له، وتقاربوا حتىٰ تلاصقوا وقبضُوا علىٰ أيدي بعضهم بعضاً، بعد أن علَت الأذرع الأكتاف، ومُدَّتْ من وَراء الأعناق في حالة أشبَه بالعِناق، وضغَطَ كلٌّ بقوَّة بثَّت فيه وفي صاحبيه شحنة من العَزْم لا بأس بها...

عندها همسَ «علي أصغر» قائد المجموعة، وهو شاب دَمِث، عركته المعارك وأكسَبَتْه خبرة الجنرالات، وهو بعدُ في مُقتَبل العمر، في حُكم مَن تخرَّج مهندساً، لكن إغلاق الجامعات وتعطيلها عقيب آنتصار الثورة، ثم آندلاع الحرب وآلتحاقه الفوري بالجبهات وبقائه فيها حتىٰ الآن، حال دون تسلُّمه شهادته من جامعة «صنعتي شريف»...

وبعد، فهو من الفِطْنَة والحِذْق، والفهم واللقانة علىٰ حدِّ الجهابذة. باقِعَة من البواقِع وداهية من الدواهي، ذو حيلة في المعضلات وذكاء وتدبير في المشكلات، لا يُذهىٰ ولا يفوته شيء، ولما جمع إلىٰ ذلك الخبرة في ميادين القتال، ولا سيما سوح العمليات النوعية، صارَ محنَّكاً مضرَّساً نِحْرِيراً. إنه واحِدٌ من أندَر عناصر الفرقة، بل اللواء بأسره، وأعْطَرُهم سمعة بالتفوُّق وصِيتاً بالتميُّز، ثمَّ أكثرهم إشارة وحظاً للدخول في المجموعة التي يترشَّح ويُنتَخب منها قادة اللواء.

همسَ لِرَفيقَيْه، وقَد ضَمَّ رأسيهما إلىٰ بعض، ودَسَّ وَجْهَه بينهما، بحيث كانت شفتاه أقرب إلىٰ شحمة أُذن «منصور»، وراح ينبس بصَوْتٍ مرتَعِش، كمَن يهْجِس، لا يحدِّث:

إنك مُرْهَق يا «منصور» ووَعِك، لا أتصوَّر أن في وُسْعِك البقاء أكثر من هذا، لقد قرَّرتُ أن أُلغي العمَلية والعودة من فَورنا، لتَصْرِف ما تبقَّى لك من طاقة في جهد الرجوع والعَوْدة... علينا أن ننسحِبَ الآن، وسنعود الليلة القابلة أو التي تليها إن شاء الله.

كان «منصور» يترقَّب الفَيْض، وينتظر الفتْحَ والفرَج بين لحظة وأُخرىٰ، لا في وُصُول القاعدة المتنقِّلة التي تحمل الصاروخ، وفراغهم من العملية المناطَة بهم، وانتهاء مهمتهم، بل كان يرىٰ الفرَج في الفتْح الروحي الذي صارَ يلمَس بوادِرَه ويشعر بطلائعه وبشائره، لقد أخذ "برْدَه" يَسري في رُوحه فتَسمُو به، وبدأت نسائمه تداعِبُ نفسه فتخفُّ لها وتهش، فترفعها! كان قد انتقل - بالفعل - إلىٰ "الضفة الأُخرىٰ" وصارَ - في داخله وسريرته - يطلب الجهاد ويريد الشهادة ويرْغب - حقاً - في لقاء الله... انتفىٰ الخوف وزالَ الوَجَل، وحلَّت الثقة والطمأنينة، كما لم تكن في حياته من قبل!

لذا وَقَعَ حديث «علي أصغر» عليه وَقْع الصاعقة...

رفَضَ «منصور» كلام قائده، ووَاجَهه بصدٍّ وإهمال وإعراض، ولعلَّه استخف به وازْدَراه، وقد تلقَّاه في اللغو والعبث، كأنه غير مُلْزَم، بل غير معنيٍّ به، فهو لن يخضع له ولن يمتَثله بلغ الأمر ما بلغ... وقد أعانه علىٰ ذلك أن كلام القائد ولحْن قَوْله بدا لـ «منصور»، أو جاء وكان في وَاقعه، لسَبب أو آخر، بعيداً عن البتِّ والحزم والجزم، وكان إلىٰ الاقتراح وإبداء الرغبة والتمني أقرَب منه إلىٰ صيغة القرارات والأوامر العسكرية الملزمة.

لـذا ردَّ عليه «منصور»، أول الأمر، بـأنَّ الظـرف لا يُطيق اللهـو ولا يحتمل المزاح! فلما رأىٰ الجِدَّ، ووَقَف علىٰ حقيقـة العزم من قـائده، أو أنه كان يعرف تماماً أن الأمر جِدِّي، ولـٰكنـه تعمَّد هـٰذا القول والـردَّ، ليرمي بعيداً ويُخرج الفكرة إلىٰ أقصىٰ ما يكون نَفْياً واْستغراباً، فنكـيراً...

عندها قال...

: لن تتكرَّر هـٰذه الفرصة... جانَبَك الصواب يا «أصغر آقا» (هـٰكذا كانوا ينادونه، إنها فكرة خاطئة تماماً (وقد تعمَّد أن يُعبِّر بأنها فكرة، ليُرسِّخ أنها مجرَّد ذلك، وليست قراراً!).

أتراهم سيؤجِّلون قَصفَهم الصاروخي علىٰ مُدننا ريثما أشفىٰ وتزول عني الحمىٰ؟!

لن نرجع حتىٰ ننهي المهمة، ولا سيما أننا قطعنا هـٰذا الشوط الطويل، ولم يبقَ أمامنا إلّا ساعة واحدة أو اْثنتان في أبعد تقدير... ثـم اْنثنىٰ في همسه، كأنه يزْحَرُ زُحاراً، ويئنُّ كمخنوع ويهمهم كمجهود: ماذا تقول يا أخي؟ أرجو أن لا تكون جاداً، لعلِّي لم أسمعك جيداً...

قـال «منصور» ذلك، اْلتفافاً علىٰ ما شَعَر وأدرك أنه و«علي أصغر» سيكونان فيه من الحرج، وسَعْياً لمصادرة الموضوع برمته وطَيِّه من أساسه. وهـٰكـذا لتـأمين طـريق "كـريمة" ومخـرَج لائق لاْنسحـاب "القـائد" وتراجعه عن "أمره" دون أن تخدش كرامته وينال منها.

ردَّ عليه "القـائد" بضيق وغضب، مشُـوب باْرتبـاك، والـواقع أن الرجل كـان ينوء تحت عِبْء المسؤولية، ويرزح تحت حيرة اْتخاذ القرار وحسم الموقف، المتأرجح بين سرعة المبادرة، وتفويت الفرصة... ثم هـٰذا "المعقَّد الذي سيبلُونا بغريب أطواره"!:

لا تزايد عليَّ يا «منصور»، إنني أُدرك مثلك حرَج الأمـر، وأتلمَّس حساسية القرار الذي اْتخذت، وخطورة الوضع الذي سيترتَّب عليه.

كما أرجو أنني أحمل من الإيمان والعقيدة ما يردَعُني عن أن أجبن وأُوَلّي عدُوِّي الدُبُر... أم تُراك "المجاهد" الوَحيد، و"الفدائي" الأوحَد؟ أم تحسبنا في مُصلّى الجمعة، أو مظاهرة تجوب شوارع «أصفهان» تهتف بالشعارات الثورية، فيتنافس المتنافسون على تسجيل المواقف!؟ لن تتأخر العملية أكثر من ليلة واحدة، ثِقْ وأطمئن... سنعود غداً أو بعد غد في أقصى تقدير.

قال «منصور» وقد داخَلَه ظنٌّ قويٌّ ناهز الجزم، أنه سيُعفى من المشاركة في الليلة، أو المرة القادمة، إذا أنسحبت المجموعة الآن:

ولكنها قد تكون القاضية يا «أصغر آقا»، سيموت المئات تحت ركام بيوتهم التي ستنهدم وتتقوَّض إذا بدأ القصف الصاروخي الليلة القابلة أو التي تليها، لِتأخُّرنا في رَصْد مَوقع المنصة وتحديده، وإبلاغنا القيادة الخبر، ومعالجتهم الأمر... هذه فرصة تمر كسحابة، والسحب لا تنتظر أحداً. إن اللواء بأسره يترقب بفارغ الصبر ما سنعود به، ليبدأ هجومه غداً ويقضي على هؤلاء الأوغاد، فهل سترجع إليهم خالي الوِفاض بحُجَّة وَعْكَة نزلَت بأحد عناصرك؟!

لم يتمَّ «منصور» جملته الأخيرة ويفرغ منها، ولعلَّه بتر بها حديثه وقطع أسترساله، حتى أعتراه حِكَاكٌ في خياشيمه، وقد أحتُبس نفَسٌ أخير أصَّعَّد في صدره فمَلأه، وأوْقَفه كمَن غصَّ به، ثم ما لبث أن أخذته عطسَة كأنها عطْسَة أسد، ونزلت به سَعْلَةٌ منكَرة! كان يكفي صوتها الذي كَسَر سكون الأجواء ليؤزِّم الموقف، دون التطيّر بها والتشاؤم منها!

وفجأة خيَّم السكون على الموقع...

صَمَتَ العراقيون وسكَنوا، وأمتنعوا بُرهَة عن الحراك، يستجلون الموقف ويتحرَّون مصدَر الصوت، ثم حملوا أسلحتهم وأستنفروا وأتّخذوا وَضعِية قتال.

أطفؤوا النار برمال ٱدّاركوها ونثروها سريعاً بأيديهم ودَفَعُوها بأرجُلِهم وبَواطِنِ أقدَامهم، فلما عَصَت عليهم وتباطأت في الخمود، دخَلُوا فيها وتواطؤوها بأحذيتهم وداسوها حتىٰ أطفؤوها...

وٱنتشروا يبحثون عن مصدر الصوت!

وَجَمَ الثلاثة وبهتوا، وشخَصُوا بأبصارهم وأقاموا لا يَطْرِفُون.

تنبَّه أحدُ الضباط القريبين من الجسر للجلبة التي علَت، فخرَج من خيمته وصَاحَ بالجنود وعنَّفهم وهو يسأل عن الأمر وسبب هٰذه الفوضىٰ؟ وراح يزعَق فيهم وينعَق كمَن يحوش إبلاً أو يَطْرد دواباً، ثم أعقَب سؤاله بسيْل من الشتائم البذيئة التي تطعن في أمهات الجند، حتىٰ ختم قائلاً:

"يا أولاد العواهر، ما الذي أخرجكم من خنادقكم وخيامكم"!؟

ٱختلَط صوْتُ العريف الذي أجابَ الضابط:

"لا شيء سيدي، إنه خنزير بري"...

ٱختلط بأصوات الجنود الذين كانوا يشيرون إلىٰ خنزير ظهَر في أكمة علىٰ جانب النهر، يهمُّون بإطلاق النار عليه.

زجَرَهم الضابط، وأعاد شتيمته وألحقها بسبَّة أُخرىٰ، وأمرَهُم أن يفِضُّوا تجمُّعهم ويعود كلٌّ إلىٰ خيمته وأن يلتزمها حتىٰ تصدر أوامر جديدة، إلّا العناصر المكلَّفة بمَهام الحراسة... يبقوا في مواقعهم.

تنفَّس الثلاثة الصعداء وشكروا الله...

هدأوا بعد هَلَع وسكنوا بعد نفرة وفَرَق، وثابَت إليهم نفوسهم بعد قلَق وٱضطراب ما عرفوا له مثيلاً.

شكَروا الله الذي أنجَاهم من هلاك محقق وغائلة قاصِمَة، كانت علىٰ مرمىٰ عصاً منهم، ونقلَهم إلىٰ السلامة من عاقبة مهولة تهدَّدَتهم حتىٰ كأنها غشيتهم ودهمتهم وحلَّت بهم...

شكروه بإغماضة، أسبَلُوا فيها جفونهم وأرخوا عيونهم، فلا سبيل للذِكْر، ولا أن يهووا ساجدين، وقد كانوا من قبل أيضاً، في رُعبهم وفزَعهم، مبلدِمين، لكن هذه المحنة بلَغت بهم ما انخلعت له أفئدتهم، فانعقدت ألسنتهم حتى عن الصياح والنداء، ومنه لا إرادي في مثل هذه الحالات، لكنهم ما نطَقوا ولا صرخوا.

عادُوا بعد هذا وذاك يحلّقون في سرب الأمان...

الأمان؟ أي أمان وهم ما يزالون في "فَم الأسد"، فإذا لم يُطبِق فكّيه عليهم ظنوها سلامة وحسبوها أمنة؟!

سبحان ربي، كم هي نسبية المشاعر والانفعالات في البشر، ومُتغيِّرة الحالات النفسية في الإنسان، ومتفاوتة في تلقي وتقييم النِعَم أو النقَم؟! فطعامٌ واحد، يراه بعضهم إسرافاً وترفاً وبطَراً، ينظر فيه آخرون ويَرَون مجرد كفاف يُمسِكُ الرمَق ويصبِّرُهم عن الجوع، وطائفة ثالثة ترفض أن تعدَّه مما تأكل وتطْعَم، فتدفعه إلى العبيد والخدم، أو الفقراء والجياع السائلين، ورابعة تأباه للآدميين فتلقيه إلى الكلاب والحيوانات!...

طعام وَاحد يتحمَّل كلَّ هذه الصور والتقلُّبات، والأغرب أن تكون هذه الرؤى المختلفة والتعامل المتفاوت من الشخص نفسه أو الجماعة الواحِدة نفسها، ولكن حسب حالاتها المختلفة والأطوار المتعددة التي تعيشها، من عِلْم أو جهل، وفَقْر أو غنىً، ووَضاعة أو نُبْل، وجَحْد أو إيمان، أو تواضع وقناعة مقابل كِبْرٍ وشَرَه.

لعَمْري، كم من نعمة يقضي عَبْدٌ عمره يشكرها، يتقلَّب فيها آخر وهو لا يحسُّ بها ولا يشعر، وكأنها وَاجِب مفروض على الله سبحانه وتعالى! أو من طبيعة الأمر وتلقاء الحال، لا يلتفت إلى ما جعل غيره في حيرة أن كيف يشكر لله عز وجل فلا يكفر ولا يطغى فيُسلبها وتزول؟

يقال إنَّ فقيراً انفرد يتعبَّد الله في ركن من أركان مسجد، راح يسأل بإلحاف ويتضرَّع بإلحاح، جَمَعَ إليه استعطافاً يقول بلسان المفتاقين المستجدين: إلهي لم أسألك مالاً كثيراً، ولا جاهاً عريضاً، ولا دوراً ولا قصوراً، إنما سألتك حذاءً ونعلاً يُخرجني من الحفاة، فما أجبتني؟!

فلَكَزه رجلٌ خلْفه وقال له:

لا تسأل الله إلحافاً، اشكر ربك أن أعطاك رِجْلاً وأبقى لك ساقاً، وكان الرَّجل قَزَلاً (مقطوع الرِجْل)!

ومن أكثر النعم خَفاءً وجهلاً بقَدْرِها: الصحة والأمان.

ومن مُعطَى الغفلة عن النِّعَم، وفكرة التفاوت في تلقيها والنسبية والدرجة في تقديرها وإنزالها محلِّها من الحمد والشكر، تذكَّرَ «منصور» مقطعاً من "الجوشن الصغير"، الذي كثيراً ما كان يتلوه في حَضَره وخلَواته حتى حفظه، وكانت هذه حاله مع أغلب الأدعية المشهورة الواردة في (مفاتيح الجنان)...

فراحَ يردِّده في خاطره، وقد اغروْرقَت عيناه وانهمرت منها الدموع:

إلهي كم من عبْدٍ أمسى وأصبح سقيماً موجَعاً مدنَفاً في أنَّة وعويل، يتقلَّب في غمِّه، لا يجد مَحِيصاً ولا يُسيغُ طَعاماً ولا يستعذِبُ شراباً، وأنا في صحَّة من البَدَن، وسلَامَة من العيْش، كلُّ ذلك منك، فلَكَ الحمدُ يا ربِّ من مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ وذي أناةٍ لا يَعْجَلُ، صلِّ على محمدٍ وآل محمد، واجعَلني لِنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين.

إلهي وكَم من عبْدٍ أمسى وأصبَحَ خائفاً مَرعُوباً مشفِقاً وَحيداً وَجِلاً هارباً طريداً، مُنْجَحِراً في

مضيق أو مخبأة من المخابئ، قد ضاقت عليه الأرض برُحْبِها، لا يجدُ حِيلة ولا منجىً ولا مأوىٰ، وأنا في أمن وطمأنينة وعافية من ذلك كُلِّه، فلكَ الحمدُ يا ربِّ من مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ وذي أناةٍ لا يَعْجَلُ، صلِّ علىٰ محمدٍ وآل محمد، واُجعَلني لِنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين.

إلهي وسيدي وكم من عَبْدٍ أمسىٰ وأصبَحَ مغلُولاً مكبَّلاً بالحديد، بأيدي العُدَاة لا يرحمونه، فقيداً من أهله ووَلَدِه، منقطِعاً عن إخوانه وبلَدِه، يتوقَّع كلَّ ساعة بأيِّ قتلة يُقْتَل، وبأيِّ مُثْلَةٍ يُمَثَّل به، وأنا في عافية من ذلك كلِّه، فلكَ الحمدُ يا ربِّ من مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ وذي أناةٍ لا يَعْجَلُ، صلِّ علىٰ محمدٍ وآل محمد، واُجعَلني لِنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين.

إلهي وسيدي وكم من عَبْدٍ أمسىٰ وأصبح يقاسي الحربَ ومباشَرةَ القتال بنفسه، قد غشيته الأعداء من كلِّ جانبٍ بالسيوف والرماح وآلة الحرب، يتقعقَع في الحديد، قد بلَغ مجهودَه، لا يَعْرِفُ حِيلَة ولا يجد مهرباً، قد أُدْنِفَ بالجِرَاحات، أو متشحِّطاً بدَمِه تحت السنابك والأرجُل، يتمنىٰ شَرْبَة من ماء، أو نظرَة إلىٰ أهله ووَلَدِه، ولا يقدر عليها، وأنا في عافية من ذلك كلِّه، فلكَ الحمدُ يا ربِّ من مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ وذي أناةٍ لا يَعْجَلُ، صلِّ علىٰ

محمدٍ وآل محمد، وٱجعَلني لِنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين.

إلهي وكم من عَبْـدٍ أمسىٰ وأصبَحَ في ظلمات البحار، وعواصف الرياح والأهوال والأمواج، يتوقَّع الغَرَق والهلاك، لا يقدر علىٰ حيلة، أو مُبتلىً بصاعقة أو هَدْم أو غرَق أو حرْق... وأنا في عافية من ذلك كلِّه، فلكَ الحمْدُ يا ربِّ من مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ وذي أناةٍ لا يَعْجَلُ، صلِّ علىٰ محمدٍ وآل محمد، وٱجعَلني لِنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين.

أعترت «منصور» رِقَّة وشفافية، وشملته رحمة وروحانية، ما عرَفها من قبل، جاءته من تداعي معاني الدعاء، وٱستحضار الصوَر التي غدا الساعة يتحسَّسها ويعيشها، بعد أن كان ـ في بلده ومأمنه ـ يتصوَّرها، فيتأثر ببلاغة عبارات الدعاء، وينفعِل ببركة أنواره، فهو مأثور عن «أهل البيت»، أي يحمل النور.

ومن وَقْع الصدمة أو نتاج الفراغ والخلاص منها... راح الثلاثة يتدبَّرون في حالهم ويتفكَّرون، فقد قارَبَ الأمرُ، منذ قليل، هلاكهم ونهايتهم! وعذابٌ مرير، ورُزْءٌ وثِقْل، لو فُرِّق علىٰ حياتهم كلِّها بتقدير ٱمتدادها سبعين عاماً لكَفَاها، نزل بهم في ثوان معدودة!

ومن بين تجليات الظلام وما يلمِّح إليه هذا البهيم ويُرْسله من خطابات عجماء، بل من خلال ما ترسمه النفوس بأبصار أكلَّها هذا الليل الأليل، لـمَحَت لـ «منصور» صوَرٌ كثيرة، من بينها صورة طفل «محمود»، وكانت الأسرع في الأرتسام أمام ناظريه...

«محمود» رفيقهم الثالث...

غُلام يفَعَة من منطقة «سه ده» من نواحي «أصفهان»، التي تحول آسمها فيما بعد إلىٰ «خميني شهر»، وهو عنصر "القوة البدنية" في المجموعة، شجاع بئيس، جسور نجِيد، متين البُنيَة، جلْدٌ صُلْب، معصوب اللحم، بَتِع المفاصل، كأن عظامه صُبَّت من حديد.

له كفٌّ لو خبط به فرَساً لأسقطه، وقبضةٌ لا يُعصَى عليها شيء، كان رفاقه يختبرونه فيجعلون ملعقة من "الفولاذ الصلب" (ستانلس ستيل)، يجعلها بين بنصره وسبَّابته، ويضغط عليها بالوُسطىٰ، فتطاوعه وتنثني! وعلىٰ غير العادة في الأشدَّاء الذين يقترن بأسهم بالغلظة وقوَّتهم بالفدامة والغباوة، جمع «محمود» إلىٰ هٰذه الشدَّة، ذكاءً وفطنة، ونبلاً وشهامة، مع رِقَّة في الطبع ومروءة، ودماثة في الخلق وأريحية، ثم هشاشة وفكاهة.

كانت زوجته قد وَضَعَت باكورة زواجهما بالأمس القريب، وهو في الجبهة، فأرسلت صورة المولود بالبريد، ووَصَلَت الرسالة إلىٰ معسكر اللواء يومَ أمس الأول، قبل خروجهم في هٰذه العملية.

جالَ «محمود» بالصورة علىٰ رِفاقه جذلاً، وتلقىٰ التهاني، وآحتفلوا جميعاً بالمناسبة، وقلبوا عشاءهم في تلك الليلة مائدة "خرافية"، جمعت إلىٰ جانب طبق الفاصوليا الحمراء وكسرة الخبز المقرَّرة في الجدول، ما جاد به كلٌّ من "مخزونه الخاص" الذي يَصِلُه من أهله، فعمرت ببعض الـ "گز»" (لعلَّه الحلوىٰ التي تُعْرَف بـ "المنِّ") و"السوهان" (ضرب آخر من الحلوىٰ) و"البشمك" (ما يعرف بـ "غزل البنات")، وقبضات من اللوز والزبيب.

تراءت الصورة أمام «منصور» وراحَ يرتِّب عليها ويُلْحِق بها ما سيعانيه هٰذا الطفل البريء ويقاسيه من اليُتْم ومرارته. وآنطلقت مخيلته وسَبَحَ فِكْره يقرن تلك الصورة بصورة الركام الذي سيعلو طفلاً آخر في «دزفول»، وثالثاً في «الأهواز»، ورابعاً في محطة القطار في «پل دختر».

وانتقل إلى المستشفيات وأسرَّتُها تضيق بالجرحى، وجالَ في ممراتها وقد ازدحمت وافترشها آخرون ملفوفين بضمادات ثخينة، تغطّي كلَّ وُجوههم ولا تترك إلّا ثقباً للتنفس، وأرجلُهم تتدلى من سلاسل علِّقَت بقُضبان مثبتة بأطراف الأسِرَّة...

وسجَّل كلَّ ذلك على فشل المهمَّة، وعجْز المجموعة عن رَصْد الصواريخ، فتدمير هذا الموقع المعادي... ولم يتردَّد في أنه السبب المباشر لهذا الفشل، وبالتالي تحمل المسؤولية الكاملة.

* * *

أخذ «منصور» يخيِّر نفسه بين الانسحاب وإفشال العملية، وهو قَرار لا ينفك عن صُورة الطفل الدزفولي والأهوازي، وبين البقاء والإصرار على إتمام العملية والمخاطرة بـ «عطسة» أُخرى قد تكشفهم ـ هذه المرَّة ـ وتقضي عليهم قتلاً أو أسراً، وهو الآخر قرارٌ لا ينفكُّ عن صورة طفل «محمود» مقمَّطاً في مهْدِه، وعن اللقطات المفجعة التي سَبَقَ أن شاهدها عياناً لقِطَار أُصيب في غارة جوية عراقية، قُصْفَت فيها محطة «پل دختر» بعُنف (وهي حقائق، وليست أوهاماً حاكَها خياله وهو يسبح في هذه الظلمات، ولا "بنات أشعار" يتلقَّاها من "معشوقاته الليالي" فينسج من إلهامها وعلى منوالها ما يشاء من مُزدَرى شعرِه ومَرفُوض نَظْمِه!)، رأى القطار وقد التَوَت بعض عرباته، حين انصهرت الدعائم الحديدية السفلِية التي تمثِّل قاعدتها، من حرارة نيران القَصْف، حتى التقت مؤخِّرة العربة بمقدمتها، فظَهَرت ملتوية على نفسِها، معوجَّة، كما يُفعل بعُلَب المرطِّبات الفارغة...

كان يتحرَّك ويتردَّد سريعاً ويتنقَّل بين الخيارين، وكلاهما يتهدَّد المهمة بالفشل، وأخذَ يُقلِّب الأمر، ويحسب حساباته بطريقة غريبة... إذ لاحَ له ورأى خاطراً لخيار جديد لمحَ في أُفق خياله؟!

خفَّ له وطَرِب، وخفَقَ قلبُه وٱنتشى، وجلى عنه صَدَأ الفُتور والحيرة، وخرج من الضعف والهزيمة، فراح - سريعاً - في ٱعتماده وتبنِّيه، وكأنَّ هناك من يرهف قصدَه عليه، ويدفعه إليه، ويشحذ عزيمته على تقديمه وٱنتخابه وترجيحه على باقي الخيارات.

علَت شَفَتَي «منصور» ٱبتسامة جميلة، وهمسَ لرفيقيه:

دعوني أنسحب منفرداً، وٱبقيا أنتما حتى إتمام المهمة وإنجازها.

سوْفَ أُفارقكما الآن بمجرَّد أن أغوصَ تحت الماء!

إنها عملية ٱستشهاديةِ وليست ٱنتحاراً محرَّماً.

إنني أُقدِّم روحي وأبذلها، لا هرَباً من الدنيا وفراراً من صعوباتها، ولا ضجَراً بهمومها وآلامها، ولا يأساً مما لم أنله منها، ولا لِضَعْف ٱستولى عليَّ وعجْزٍ غلَبني، ومن نافلة القول أن أُخلي مسؤوليتي، وأتبرأ من الأعتراض على مشيئة الله سبحانه وتعالى، أو أن أستبق - والعياذ بالله - وأُغيِّر مَقاديره في الآجال... بل إنني أنطَلِق من بصيرة ووَعْي، وتضحية وإيثار، وأُقدِم على هذا العمل رغماً عن رغبتي وطبعي وشهواتي.

إنني يا أخويَّ العزيزين أُريد أن أُنقذكما، وأُنقذ من ورائكما مئات، إن لم يكن آلاف الأنفس المحترمة، أبرياء يقضُون في بيوتهم آمنين، ستنهال عليهم الصواريخ وتفتِّتهم أشلاءً، ومن ورائهم تتولَّد مئات الآلاف من القضايا والمآسي التي تبدأ باليُتم والثكل والترمُّل، ولا تنتهي عند الفساد والجريمة والجهل والفقر، وما يصعب حصره وإحصاؤه من المشاكل الأجتماعية التي يسببها غياب المعيل، وفقد الأُسرة ربها وراعيها.

نعم، إنني أنتقل الآن، في هذه اللحظات، إلى مقام وطَور جديد، فَقَدْتُ فيه الشعور بالنوازع الدنيوية، وعلى رأسها «حبُّ البقاء»، أعترف وأُقر، بأنني ما عُدْتُ متشبثاً بالحياة ولا متمسكاً بالعيش... ليأتي الموت ويأخذني ساعة يشاء، ولا أدري أسمُوٌّ هذا أم تردٍّ وٱنحطاط؟

لـكنها الحقيقة التي لن أكتمها في آخر لحظَة من حياتي.

ومعها حقيقة أُخرىٰ، هي أن عِلَل "اْنتحاري" ودواعي إقدامي علىٰ الموت تجلَّت في روحي وبلَغَت اليقين.

ألقىٰ "بيانه" هـٰذا، بلهجَة لم تعهد فيه، وبصوتٍ متهدِّج، تضخمت نبرته شيئاً ما، كما لو غَصَّ بريقه وشرِق...

ثم راح «منصور» يقلِّب طرفه في السماء، يبحث عن نجمة يسامرها، فما وَجَد... عادَ إلىٰ صاحبيه وأخذ يتحدَّث عن "خلع البدن" و "التجرُّد"، ونقَلَ ما سمعه من عالِم في الفلسفة والعرفان، حضر درساً يُلقيه في مسجد «الطباطبائي» في حرم السيدة «فاطمة المعصومة» بمدينة «قم» المقدسة العام الماضي أثناء زيارة خاطفة له هناك، طابَ له المنظر والمشهد، فاْلتحق بجمع الطلبة واْنضم إليهم، والباب في دروس الحوزة مشرع لمن أراد:

التجريد هو ما تجرُّد للقلوب من شواهد الألوهية إذا صفا من كدُورة البشرية. ومعناه أن يتجرَّد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض.

وهو ألّا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئاً، ولا يطلب علىٰ ما ترك منها عِوَضاً من عاجل ولا من آجل، بل يفعل ذلك لوُجوب حقِّ الله تعالىٰ لا لِعلَّة غيره، ولا لسبب سواه، ويتجرَّد بسِرِّه عن ملاحظة المقامات التي يحْليها، والأحوال التي ينازلها، بمعنىٰ السكون إليها والاْنعتاق لها.

يقول «السهروردي» إنَّ العبد حين يتجرَّد من الأغْرَاض في ما يفعله، لا يأتي بها يأتي به نظراً إلىٰ الأغْرَاض في الدنيا والآخرة، بل ما كُوشِفَ به

من حقِّ العظمة، يؤدِّيه حسَب جهده عبودية وانقياداً.

ويقول «الجرجاني» إنه إماطة السوى، والكَوْن على السرِّ والقلب، إذ لا حِجَاب إلّا الصوَر الكونية والأغيار المنطبعة في ذاتِ القلب، والسرُّ فيهما كالنتوء والتشعيرات في سطح المرآة، القادحة في استوائه، المزايلة لصفاته وصفائه.

فإذا فعَلَ السالك ذلك وأدركه بالرياضات الروحية، فإنه سيبلغ التجرُّدَ، والتجرُّدُ عبارة عن كوْن الشيء بحيث لا يكون مادَّة ولا مقارناً للمادة مقارنة الصورة والأعْرَاض. إنه مفارقة المادة وعلائقها، سواء كان في ذاته وفعله، أو في ذاته فقط (على طريقة المشائين).

ويقول صاحب ‹القبسات› («الميرداماد») إنه مفارقة الأحياز والأوضاع، والجهات والأبعاد، والأزمنة والأوقات، والحدود والامتدادات.

عندها يمكننا أن نخلع عنا أبداننا وننسلخ عن عالم الشهود والدنيا، وننطلق إلى ما وراء غلظة الناسوت والشهود والملك، إلى لَطافة عالم الغيب واللاهوت والملكوت، حيث لا قبل ولا بعد، لا هنا ولا هناك، إلى حيث تتلاشى حدود الزمان والمكان وننتسب ـ بشدَّة ـ إلى المطلق، عندها سنسمو على كلِّ شيء، وسيكون العالم كلُّه في قبضتنا وعلى راحة يدنا...

ٱلتفت «علي أصغر» إلىٰ «محمود» وقال له بمزيج من الأسىٰ والأضطراب، وقد صَعِقَه كلام «منصور» وغلَبه الموقف، فكأنه ما عادَ يدري ما يفعل وكيف يصنع:

إنه يهذي من الحمىٰ، علينا أن نفعل شيئاً.

وَافقه «محمود»، ولـٰكنه مطَّ شفتيه ورفع كتفيه متسائلاً:

ماذا عسنا نستطيع؟

: نحمله علىٰ العودة والرجوع.

: ألا ترىٰ بوادِر التمرُّد والعصيان فيه؟

: نرغمه رغماً، بإمكانك أن تكتِّفه، وإن عصىٰ عليك وقاوَم، فعاجِله بلكْمة تفقده وَعيه، ثم ٱحمله علىٰ ظهرك حتىٰ نخرج من الموقع، فإذا بلغنا مأمننا وأفاق، كان أمام الأمر الواقع... إنه محموم ومُنهَك، وهو في أضعف حالاته، لن يصارعك ولن يقاومك.

كان «منصور» مستغرقاً في شروده وذهوله، هائماً في عالمه البعيد عن رفيقيه، غافلاً عما يُعدَّان له ويُدَبِّران، لم يكن يسمع تحاورهما، بل لم يلق السمع ويتنصَّت علَّه يسترق أو يلتقط كلمة تكشف له ما يحيكان ضدَّه، ولا كان يعيرهما أي ٱلتفات، فقد ٱنتقل الساعة، أو وَصَل ـ أخيراً ـ إلىٰ عالمه الخاص، هدفه وغايته التي طالما بحث عنها ونقَّب، في عيادة المرضىٰ وإعانة الضعفاء، وفي التأمل والكتابة، والشعر والنثر، وجميع ميادين الخير والجمال التي تحرك فيها وسعىٰ...

شطَحَ الفكر بـ «علي أصغر» فغالىٰ وأفرَط، فقد ظنَّ «منصوراً» ممسوساً، أو أنَّ الذي تكلَّم بهـٰذا النثر الموزون والعبارات العلمية "الكبيرة" علىٰ «منصور» وعلىٰ غيره من أفراد الفصيل، متواضعي المستوىٰ التعليمي، هو جِنٌّ يسكنه! وهـٰذه "نوبة" مفاجأة "نزلت" به في هـٰذا الظرف العصيب والموقف الخطير...

وراح يحدث نفسه بحسرة، ويندب حظَّه:

إلهي سيَفْضَحُنا هٰذا المخبول ويكشف أمرنا للعدو لا محالة!...

ضعنا وضاعت المهمة.

لم يوافق «محمود» «علي أصغر»، وقال: إنها مقولات وأفكار ليست طارئة على الفتىٰ ولا جديدة منه، فطالما حدَّث بها وتلاها أو سرَدَها علىٰ رفاقه في اللواء، إنها "مقطوعات" من كتب معقَّدة يحملها معه، ويقضي أوقات فراغه في مطالعتها، فإذا ضاقَ بخلواته معها ذَرْعاً، وملَّ شيئاً، عمد إلىٰ الأقرب إليه من "الشباب"، يلقي عليه ما قرأ!

هٰذا دَيْدَنه منذ أمَد، فلا يشطح بك الفكر يا «علي أصغر»...

كلُّ ما في الأمر، والمصيبة، أن هٰذه "النزعة"، نزعة إفضاء همومه وبيان معارفه، دهمته في هٰذا الموقف الحرج، ولست أدري هل علينا أن نبدي له الإعجاب ونتظاهر بفَهْم ما يقول، فنطْرِي فكرته ونسايره، حتىٰ يشفي غليله وتسكن فورَة نوازعه ويقضي وَطَرَه، فننهي هٰذا الفصل الخطير ونطوِي هٰذه الصفحة علىٰ خير؟ أم نزجره ونعنِّفه ليترك ترَّهاته لمكانها المناسب، فنوقفه عند حدِّه قبل أن يهلك ويهلكنا معه؟!

ردَّ «علي أصغر» غاضباً: ما تقول يا هٰذا؟ اُنظر إليه جيداً، إنه كمَن في غشْية أو سَكْرة، أية مطالعة، وعن أية كتب وأفكار تتحدَّث؟ الرجل ليس في وَعْيِه، إنه يهذي ويهجر، وأنت تخرص مثله!... اُنظر إليه، اُنظر.

نظر إليه «محمود» فرآه في حالة جديدة لم يرَه فيها من قبل:

صدَقْت... بل هو يحتضر، لقد دخلَ في النزع، إنه يجود بنفسه، ما أظنها إلّا غشية الموت وحشرجته!

مع مرأىٰ «منصور» ومنظره الغريب، أدركَتْ «محمود» رِقَّة وشفَقَة، ولعلَّها كانت هيبة وبعض "ولاية" غيَّرت في روحيته، وقلَبَتْ حاله! فتغيَّر لحنُ كلامه، وتوجَّه إلىٰ "قائدهما" بلهجة جديدة:

مَهْلاً يا «أصغر آقا»، أظُننا أسرَفنا في أمرِنا وأمرِ صاحبنا، غالَيْنا في ردِّ الفعل على ما نزَل به، وقَسَوْنا عليه... وليس هذا ظَرف نزاع وخِصَام، ولا هذه ساعة مَلامة وعتاب، ولا هو مقام محاسبة ومؤاخَذَة.

إننا في وَرْطَة ومأزق عَصِيب، وفي كرْب وشدَّة لم نَرَ ولا مرَرْنا بمثلها في حياتنا، وعلينا أن نشحَذَ كلَّ طاقاتنا لنفعَل شيئاً، ولا أرى من مَخْرَج وحَلٍّ، ولا سبيل ومَنجىً إلّا في النُصرة الإلهية والمَدَدِ الغيبي، معجزة تنقذنا... علينا أن نفعل ما يستنزل الغَوْثَ والرحمة، ولا شيء أجدَى لهذا وأنفع من التواد والتراحم وعَطْف كلٍّ على الآخر، والتآخي الحقيقي بيننا، هذا ما يلفِت الأنظار في السماء إلينا، وهذا ما يجعلنا في نطاق الرحمة والعناية الخاصة لإمامنا «الحجة بن الحسن»، ووَلي أمرنا وباب الله الذي منه يؤتى.

لا يُلفِتُ يا «أصغر آقا» ولا يجتذب نظر «المولى» إلينا شيءٌ مثل توادنا وتراحمنا، عطْفُ كبيرنا على صغيرنا، وغنيِّنا على فقيرنا، وضعيفنا على قويِّنا... تعال لنتَضَرَّع، عَسَانا نستدرَّ رحمته ونتلقى، من دون، أو من بين ومَعَ غيرنا من رعاياه، غوثه - عليه السلام - ومَدَدَه؟ ففي هذه اللحظة، وكلِّ لحظة، هناك آلاف المبتلين المتورِّطين من أمثالنا، يتوسَّلون به ويستنجدون ويستغيثون...

لا بضاعة عندنا ليشتريها، ولا سلعة نادرة تعجبه فينا وترضيه عنَّا، اللهم إلّا الحب والولاء له ولأهل بيته الأطهار، ولا شيء يلفت نظَره الشريف إلينا مثل تألُّق الحبِّ والرحمة في نفوسنا، ولكن كيف السبيل لإظهارها؟ غير ذِكْرٍ أو بِرٍّ أو صِلَة؟ كيف ونحن ممنوعون، ومنقطعون ناؤون في هذا المعتزل؟

إن الباب الوحيد الباقي لنا هو حبُّ أوليائه ورحمتهم!

و«منصور» أحَدهم، إن لم يكن من خيارهم وأفضلهم.

دعنا نفكِّر في ما يقرِّبنا من الفتىٰ ويزيد من التوادِّ والتراحم بيننا، لنبحَث له في ضمائرنا عن محمل خَيِّر يصرف تأويلات السوء، وفي قلوبنا عن مساحة غير الغضب والنفرة، ولنفرشَ في صدورنا بساط الرأفة به، والنظر لموقفه بغير العين التي ٱستقبلته، والنفَس الذي تلقيناه به أول الأمر من أزمته... لننفي ٱحتمال الجنون، ومرضَ التميُّز والٱستعراض بمعلوماته وحبَّ الظهور، وعُقْدَة الإفضاء وشهوة الحديث، مما ألصقناه به ورميناه وقذفناه!

: حُييت يا «محمود»، أنا معك، هٰذه يدي بيدك، فٱفعل ما ترىٰ، ستجدني إن شاء الله من الطائعين الصابرين، رغم أنني - في دخيلتي - لا أُوافقك، وأعتقد أن الرجل ٱنقطع عنَّا وفصَلَ! وهو ماضٍ في الخلط والهجر والجنون.

أما «منصور» الذي كان في هٰذه الأثناء قد بلَغ مبلغه من "أمره"، وطَوَىٰ ما شاء من مراحل سلوكه ومنازل سيره، فقد عمد إلىٰ قطع النزاع، شبه الصامت من فرط الحيطة والحذر، والخلاف الخفي المستتر من خفر، المتفجِّر بين صاحبيه خَوْفاً والمحتدم قلَقاً، وأنهاه، بصمت، في خطوة ومَوْقف عمَلَي...

ذلك وهو يغطس ويغوص، أو يستل جسمه المتعب المضنىٰ، ويختلسه من سطح النهر إلىٰ قاعه وأعماقه، ويعتق روحه العظيمة السامية من رهنها وأسرها وقيدها، إلىٰ خلاصها وراحتها وحريتها... من ضيق الملك والشهود، إلىٰ فسحة المعنىٰ وسعة الملكوت. وكان قد ألقىٰ قبيل ذلك، قُبيل أن يقضي ما تغشَّاهُ من سكَرات الموت، ويخوض الغمار نحوَ مَغَاصةِ حتْفِهِ، يلتقط صَدَف منيَّته، يستخرج منها وينال لؤلؤة الخلود، وهي لؤلؤة خَريدة، لم تطالها يد، ولا خرقت أو ثقبت من قبل بلَمْسٍ أو نظم عقد وتزيين جيد، بل ولا بتطاول همَّة والأمل بحظوة!

فهي في مَنأىً قاصٍ حتىٰ عن الحكماء والأكياس، يرَوْنها غروراً وهوجاً، ومفازةٍ حتىٰ عن الأبطال والشجعان يرَوْنها طيْشاً وتهوُّراً، وفي حِرْزٍ حتىٰ عن العُبَّاد والزهاد يرونها إلقاءً للنفس في التهلكة وإثماً... أو أنه قرن فعله ذاك بقول، فراح يترنم ويُكمل أُنشودة طالما تغنَّى بها ولحناً ما أنفك يترنم:

أليست ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ليس الموتُ هو الذي يذوقها وينال منها، بل هي التي تذوقه، وهي التي عائدة راجعة إلىٰ ربِّها؟ آه... كم هو شهيٌّ ولذيذ، كم هو حُلْوٌ وطيِّبٌ، كم هو عذبٌ وسائغ! كيف يقولون إن الموت صعب عسير؟ ومهول مخيف؟ مرحَباً بالموت، مرحباً بزائر جاءَ علىٰ فاقة!

لا أفلح من نَدِم، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ البقاء في الدنيا لِكَرْي الأنهار وغَرْس الأشجار، ولكن لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحرِّ الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلَق العلم والذكر.

ثم راح يتمثل ما يقابله من أبيات «الطِّرِمَّاح»...

فَيا رَبِّ لا تجعلْ وَفاتيَ إنْ أَتَتْ
علىٰ شَرجَع يُعلى بِدُكنِ المَطارِفِ
وَلكن أجِزْ يَومي شَهيداً وَعُصبَةً
يُصابونَ في فَجٍّ مِنَ الأَرضِ خائفِ
عَصائِبُ مِن شَتَّى يُؤَلِّفُ بينهم
هُدىٰ الله نَزَّالونَ عِندَ المَواقِفِ

إِذا فـارَقـوا دُنيـاهُـمُ فـارَقـوا الأَذىٰ
وَصـاروا إلـىٰ ميعـادِ مـا في المَصـاحِفِ
فَـأُقتَلُ قَـصْعـاً ثُمَّ يُـرمـىٰ بـأَعظُمي
كَضِغْثِ الخَلا بَينَ الرِيـاحِ العَـواصِفِ
ويُـصـبِحُ قَـبري بَـطـنَ نَـسرٍ مَقـيلُهُ
بِجَـوِّ الـسَـماءِ في نُـسـورٍ عَـوائفِ*

ثم عاد لأُنشودته الخاصة...:

إنني أجِدُ الأمر أيسر مما تظنون. ها قد تجرَّدتُ من ثوب دنيايَ الدنيَّة! إنني أرفل بكسوة وجسم جديد! ليست حلَّة من سُندس ولا كسوة من إستبرق، إنما شيء غير هٰذا وذاك...

خروجٌ من حال ودخول في حال. إن «أميرالمؤمنين» في طريقه إليَّ، ها هو يقدم في لفيف من الملائكة، إنني أراه الآن، إنه يدنو مني، وهو في صحبة أشخاص آخرين، لا أميِّزهم، ولٰكنهم عظماء، هٰذا بادٍ علىٰ سيماهم، يغشاهم نور، وتفيض منهم أنوار، ويسبقهم عبق وأريج ما شمَمْت مثله.

ويحي، بل شممت بعضه، ونفحة منه، إنها الضوعة التي كانت تفيض من البدر أو يرسلها إليَّ، ولكن بفارِق يكاد وبَوْن يكاد ينفي القياس ويُبطِل المقارنة، لٰكن هٰذا ما تداعىٰ لي!

---

* الشرجع: النعش، ودكن: لون يضرب إلىٰ سواد، والمطرف كساء من خزٍّ أو صوف. أما نسور عوائف: تعيف على القتلىٰ وتتردَّد، تحوم من علو.

آه، آه، ليتكم معي ترون ما أرىٰ... حقاً:

يـا حـارِ همـدانَ من يَمُتْ يَـرَني
من مـؤمنٍ كـان أو منـافقٍ قُبُلا
يَعـــرِفُـني طَـــرفُـهُ وأعـــرِفُه
بعـيـنِهِ وآسـمِه ومــــا فَعَلا

والله إنها حقيقة، ها أنا أراها وَاقعاً لا ريب فيه.

إنني أرتفع وأُحلِّق في السماء، فأرىٰ الموقع العراقي بكلِّ تفاصيله، إنَّ بصري يخترق الظلام، وصِرت أسبر غَوْر السواتر وأردية التمويه، إنني أسمع ما يقولون، أسمعهم جميعاً في وَقْتٍ واحد، وأعرف كلَّ واحد منهم بالتفصيل، أعرف أسماءهم وكلَّ شيء عنهم، إنني في كلِّ مكان، لا مكان هنا ولا قيود ولا حدود...

البشرىٰ يا إخوتي، ها هي الصواريخ تتهادىٰ في طريقها إلىٰ الموقع، لا داعي للآنتظار يا إخوة، عجِّلُوا وعودوا أدراجكم...

إنها سبعة عربات ضخمة تحمل الصواريخ، بإمكاني أن أقرأ ما حُفِر عليها بالروسية، لا تسألاني كيف صِرْت أُجيدها!

ولماذا أطلب منكم أنتم العودة؟

إنني أُشرف من مكاني هنا علىٰ معسكرنا، وأرىٰ الحاج «مهدي» (آمر اللواء) وأرىٰ الإخوة جميعاً، إنهم بآنتظارنا، سأُبلغهم عن الصواريخ، وأنقل لهم خبرها.

لماذا أُبلغهم وأُجشمهم العناء؟
إنَّ بإمكاني أن أُعالج الأمر وأُدبِّره بنفسي، زوِّدوني بعُبوة متفجرة، فحاملات الصواريخ في متناول يدي...
إنني أُهيمن على الموقف وأُسيطر، لا داعي للمتفجرات سأنسفها الآن بإشارة...

❁ ❁ ❁

بعدما يقارب خمس سنوات من هٰذه الحادثة...

ٱستغلَّت الجماهير والعشائر العراقية الشيعية في الجنوب مأزق النظام البعثي ووَرْطَته، وٱنشغال جيشه بذيول غزوه الغادر لـ «الكويت»، وهزيمته النكراء وٱندحاره المفضوح، ثم تلاحُق الضربات الجوية من قوات التحالف الدولي عليه، ما شتَّت جيشه وأوْدَىٰ بقوته...

فٱنتفَضَت وتمَرَّدَت حتىٰ حرَّرت جزءاً كبيراً من تراب بلَدِها المنكوب، شَمَل المحافظات الجنوبية بأسرها، وٱنتقلت به، بعتباته المقدَّسة ومدُنه وقَراه وقَصَباته، إلىٰ أيدي أبنائه المظلومين، فكانت ثورة عارمة، تنذر بالزحف علىٰ «بغداد» وإسقاط النظام من رأسه.

وفي هٰذه الثورة أو الأنتفاضة من الأسرار والخفايا، بحجم ما فيها من مآسٍ وآلام، سواء في أداء الحركات والمنظمات والأحزاب الإسلامية وطريقة عملها المتخلِّفة فنِّياً والمتهاوية أخلاقياً ورِسالياً، وهٰكذا في دَوْر وموقف الدول الإقليمية (بٱستثناء «الكويت» حصراً لحاجة لا تنكر في "نفس يعقوب")، في حِرْصِها علىٰ إبقاء المنظومة القائمة، والحفاظ عليها كما هي، وإن كان أحد عناصرها فرعون مثل «صدام»!... في ذلك قصَّة منفصلة، لم تكشف تفاصيلها بعد.

موقفٌ ظهَر وٱنعكس في أداء قوات التحالف الدولي بقيادة «الولايات المتحدة الأمريكية»، التي كانت قد فرَضَت حظْراً أغلَق الأجواء علىٰ الطيران العراقي، فأدركها "العطف والحنان" علىٰ ربيبها وعميلها المعتق! ورأت أنَّ التفريط فيه خطأ فادح وخطوة في غير محلِّها، إذ لم تنته "صلاحيته" تماماً بعد، وما زالَ بالإمكان ٱستغلاله وتوظيفه لخدمة أغراضٍ وأهدافٍ أُخرىٰ...

فعادَت ورفَعَت الحظر في ٱستثناء مؤقت، ٱعترفت فيما بعد أنه كان لمواجهة الثورة الشيعية في الجنوب!

فراحَ الجيش العراقي المهزوم والمندحر أمام الأمريكيين، يسترجل على شعبه ويدُكُّ مواقع الثوار بـ "السمتيات" والمقاتلات، يقصف بالصواريخ والمدفعية الثقيلة، لتتقدَّم القوات البرية بالدبابات والمدرعات، بقيادة المدعو «حسين كامل» صهر الرئيس العراقي، وأقتحمت مُدُن «كربلاء» و«النجف» و«البصرة» وغيرها من المدن الثائرة...

قمعت "الأنتفاضة" بقسوة ووَحشية يعجز القلم عن بيانها، لم توفِّر حتىٰ مراقد الأئمة عليهم السلام والعتبات المقدسة... فهتكت حرمتها وأستبيحت قدسيتها، وقتل مَن لجأ إليها ونكَّل بمن لاذَ بها ودخل حِماها، وقصفت القباب منها والمآذن، بل وُجِّهَت مدفعية الميدان إلىٰ ضريح «سيد الشهداء» عليه السلام مباشرة!

ومما سجل ودُوِّن في خضم الأحداث من الويلات والفجائع، أن «حسين كامل» هٰذا، صهر «صدام»، أعتلىٰ في «كربلاء» دبابة، وأمر بتوجيه فوهة مدفعها تجاه حرم «سيد الشهداء» عليه السلام مباشرة، وأخذ يكابر مستهزئاً ويكفُر مُنكِراً أن للحَرَم حرمة، ولصاحبه كَرامة، وطلَب، علىٰ طريقة ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أن تنزل به وتحل عليه اللعنة إن كَذب، وصدَق الشيعة في زعمهم. ثم أمرَ بإطلاق النار وقَصْفِ الحرم الشريف، وهو يوجِّه خطابه لـ «سيد الشهداء» عليه السلام متبجِّحاً: "أنت حسين وأنا حسين"! *

* متحدِّياً «الإمام الحسين» بنزَق، أن أرني القدرة التي يزعم أتباعك أنك تملكها! وكان من عاقبة هٰذا اللعين، أن تمرَّد علىٰ سيِّده «صدام» وسياساته التي كانت تمضي في هلاكه وزوَال ملكه، وفرَّ لاجئاً إلىٰ «الأردن»، عسىٰ أن يجد له سبيلاً مع «أمريكا»، ولٰكن ما لَبِثَ أن عادَ إلىٰ «بغداد» مصدِّقاً بأمان وَعَدَه له «سيِّده»! في قرار أذهل الجميع، ولم يكن له من تفسير إلّا إرادة غيبية ردَّت علىٰ تحدِّيه الأول لـ «سيد الشهداء»! وبعد أيام من عودته، هجم «عدي» علىٰ داره وفتك به وبأهله، ولم يُبْقِ له باقية. حتىٰ إنه عَمَدَ بعد قتله إلىٰ جرِّ جثته وسَحْلِها في شوارع «بغداد»، فتقطَّعت أوْصالاً وسُحِقَت تحت الأقدام!

وبعد إخماد الثورة، بالقَمْع الوَحشي والإرهاب والإرعاب والمجازِر الفظيعة، راحَ «صدام» ينكِّل بأهل «الجنوب»، الذين احتضنوها ونصرُوا رجالها، وقد عمَّ بنكَالِه وانتقامه المروِّع كلَّ السكان الشيعة، على صِلَة بـ "الانتفاضة" كانوا، أم على الحياد توقفوا مترقِّبين.

وقد دَخَل «النظام البعثي»، بهذه العقوبة التي أنزلها بالثوار المتمرِّدين، التاريخ من باب جديد! ذلك بعد أبواب القمع والدكتاتورية والاضطهاد، والحروب والخراب والدمار... هو التغيير البيئي والقلب الجغرافي والسكاني للطبيعة والبنية العراقية!

فشكَّل سابقة لحقت بسوابقه وأُدرِجَت في سجلِّ جرائمه.

فقد كان مما عوقبت به العشائر العربية في «الجنوب» (وكلُّها شيعية المذهب)، أن عمد النظام، في مشروع استراتيجي ضخم، صرف فيه أموالاً طائلة وميزانيات خرافية، وبذل طاقات مهولة... عمد إلى تحويل مجاري الأنهار القادمة من «تركيا» و«سوريا» والانتهاء بمَصبَّاتها، من شمال غرب «بغداد» و«تكريت» و«سامراء» و«الأنبار»، إلى منخفَض «الثرثار»، لتصنَع بحيرة عظيمة، لا يستغل - في الواقع - عُشر مياهها الموفَّرة المخزونة، إذ لا كثافة سكانية تستصلح التربة وتقلبها زراعية منتجة كما هو الحال في «الجنوب»، وليس ثمَّة همم عالية وأيدٍ عاملة نشأت على الكدح والجد والإنتاج...

بل عشائر كانت (تاريخياً) الحاضنة الطائفية التي ترفد السلطات المتعاقبة على حكم «العراق»، عاشت و"اقتاتت" بموالاة السلطة وعلى عطاياها، سواء المباشرة، كمِنَح وهبات تقدَّم لرؤساء القبائل وبطانتهم، أو غير المباشرة، عبْر توظيف أبنائها في الإدارات الحكومية والمراتب العسكرية، ونزوح النُخَب منهم إلى المدن للتمتع بفُرَصِ التعليم العالي والمزايا الأُخرى التي يوفِّرها لهم النظام...

هـٰكذا ظهَرَت في قلْب الصحراء الغربيـة لـ «العراق» بحيرة عظيمة عذْبَة المياه، ولـٰكن دون أن تحيط بها مساحات خضراء، أو حقول وأراضٍ زراعية، بل جَدُبَت حتىٰ عن الواحـات، تتناثر في أطرافها وتتوزع ـ في العـادة ـ علىٰ الطريق إلىٰ مثل هـٰذه البحيرة العظيمة وحولها، ما شكَّل منظراً وحالة نشازاً في البيئة والطبيعة!

وهـٰكذا راحت التربة الصحراوية تتشرَّب أغلَب مخزونها، وأخذت الشمس اللاهبة تأتي علىٰ بقيتها، فتضيع أعزُّ ثروات «العراق» والمنطقة هباءً منثوراً.

و«الثرثار» من أكبر المنخفضات الطبيعيـة في «العراق»، كـ «منخفض الحبانية» و«منخفض الرزازة» و«منخفض ساوة»، التي تشكِّل خزانات طبيعية للمياه، وقد اُستُخدم «الثرثار» ـ في الأصل ـ منذ سنة ١٩٥٦ لخزن الفائض من مياه «دجلة» أيام الفيضـان، عن طريق قناة تحويل، تبدأ عند «سد سامراء» الذي أُنشئ عام ١٩٥٥.

ولـٰكن فيما بعد "الاْنتفاضة"، رُبِطَ «منخفض الثرثار»، بنهرَي «دجلة» و«الفرات»، ووَقَعَت الكارثة...

اْنقطَعَت الروافد التي تصبُّ في مناطق «الأهوار»، وحُصِر الماء، بأقلِّ مَنَـاسيبه وأخفَض سطـوحه، في المجـرىٰ الأصلي لـنهـري «دجلـة» و«الفرات»، وتحوَّلَت «الأهـوار» إلىٰ أراضٍ قاحلة، وحُرِمَ سكَّانها من مصدَر رزقهم، ما دفعَهُم لإخلائها والهجرة منها...

فجفَّت مساحات تناهز ٨٠٪ من المناطق المأهولة.

ومن المفارقـات التي كـانت تفجِّر غيظ الشعب العراقي وحنقه، أنه بينما كـان النظام الجائر يضجُّ في إعلامه بالشكوىٰ من الحصار الدولي المفروض عليه، ويبكي العواطف الإنسانية، ويندب حليب الأطفال وأدوية المرضىٰ...

كان هـٰذا النظام يمارس في «الجنوب» وينزل بـ "شَعْبِه" فاجعة لا نظير لها، يُضيِّق فيها الخناق على «الأهوار»، ويشدد الحصار على سكانه، ويمعِنُ في تدمير بيئته، وهو يمسَح جغرافية منطقة كاملة تبلغ مساحتها عشرين ألف كيلومتر مربع من مساحة «العراق»، يسحقها ويلغيها من الخارطة، كسُكَّان وتضاريس ومحميَّة طبيعية للتنوُّع البيئي عرَفَتها الأرض منذ آلاف السنين.

عرَفَتها الإنسانية مَهْداً لـ «سومر» القديمة بسهولها الممتدَّة بين النهرين، حتىٰ الحاضرة التي بناها «العرب» علىٰ وَقْع فتوحاتهم («البصرة»)، وركام أو بقايا «الإمبراطورية الفارسية»، تردِّد هَيْعَة ضجَّ بها الزمان والمكان وهو يتلقىٰ «الجمل»، ويسطر "تراجيديا" شكَّلت صاعقة مهولة، وأحدَثت هديراً رهيباً من "هودج"، ورُغَاءً مقيتاً من "جمل"، شقَّ المسلمين وأثخَن فيهم، وهتك من الحرمات أضعاف ما أهدَر من الأنفس وسفكَ من دماء، ما زالت الأُمة بعد أربعة عشر قرناً، تدفع الثمن وتسدِّد الديون من وَحْدَتها وعزِّها ومجدها، وقبل ذلك وبعدَه، من الحق الذي جاء به هـٰذا الدين العظيم.

ليأتي اليوم «صدام»... ويزيد في هـٰذا اللحن النشاز نغمة كلُّها بؤس وتعاسة وشَقاء، وفي تلك الصورة القبيحة الشوهاء، طامَّة فاقَت ما جرىٰ في الخمسة آلاف سنة الماضية مما ضبطه التاريخ ولم يسقط من مدوَّناته وتسجيله.

فِعْلَةٌ تفوَّقَت وطَغَت علىٰ الجرائم التي وَقَعَت منذ عهد «البابليين»، فـ «الرومان» القادمين إلىٰ الشرق القديم، يتلوهم «الآشوريون» القُساة، فـ «الكلدانيين»، ثم «الميديين»، فـ «البابليين الجدد» الذي هزم ملكُهم «نبوخذ نصر» الجيش الفرعوني، حتىٰ انهيار «بابل» واحتلالها من قبل «كورش» (العظيم).

كان يطيب لـ «صدام» أن يشبه نفسه ويُقارَن بـ «جمال عبدالناصر» القائد الفذّ والزعيم العروبي والبطل القومي الأبرز في عصرنا، ثم بـ «سعد بن أبي وقاص» (بطل «القادسية» ومؤسس الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة الثاني)، وفي مَرحلة تالية صارَ يتطلّع إلىٰ «نبوخذ نصر»، و«سنحاريب» (الذي أعلن نفسه: الملك العظيم، ملك الكون، ملك آشور، ملك الأركان الأربعة [للعالم])...

لكن «صداماً» ـ في واقعه ـ لم يكن سليل ملوك وأمراء، ولا ربيب عزٍّ وبيوت، ولا يتمتع بأدنىٰ صفات القادة الأفذاذ، وخصال الزعماء العظام، ولا تنطوي رُوحه علىٰ أقلّ مراتب النُبل والشرف والكرامة، وما يؤهله لأنتزاع أو بلوغ المجد الذي يطمح.

كان محكوماً بعُقدَة نَسَبِهِ الوضيع، فهو من «البوناصر»، أهل «العوجة» من «تكريت»، وهي خليط من مختلف العشائر، لذا فالبيوت فيها غير محدَّدة النسب، اللهم إلّا من أقحم نفسه في «العُبَيْد» و«الجبور» و«الجنابيين»، والقدر المتيَقّن أن أغلَبهم يرجع لمجهول يدعىٰ «عبدالسطيح». ومجموع «البوناصر» بقضِّها وقضيضها (حين غصَبَ «صدام» الحكم واستولىٰ علىٰ العراق)، لم يكن يتجاوز الخمسمئة فرد! ما لا يسمح لهم أن يكونوا في عِداد العشائر...

ناهيك بعُقد مستواه الأجتماعي المتدني إلىٰ حدود غاية في السوقية والهمجية، تجعله من رَعاع وسُقّاطهم وسَفَلَتهم.

إنَّ هٰذه النفسية المعقدة المليئة بمركبات النقص، مع ذلك الطموح وتلك التطلُّعات... ورَّطَت الرجل وألقَته في متاهات ودوَّمات ما خرَج منها إلّا وهوَ نزيل "جُحْر"، ورهين قفص أتهام، يلوذ به مع جنون العظمة الذي حكَمه، وما أخرج «العراق» إلّا إلىٰ خراب ودَمَارٍ رَجَعَ به إلىٰ أفقَرِ البلاد وأكثرها تخلفاً.

كان أُولئك الملوك الجبابرة يتعاطَوْن ما يحقِّق لهم الملك، ويفعلون ما يجني ويجبي لهم الأموال، ويلاحقون ما يبسط سلطتهم ونفوذهم ويزيد قدرتهم... وفرع ذلك وشرطه، عند كلِّ عاقل، أن تُبقي على "رعيَّة"، وعلى "أرض" و"بلاد" تحكمها، لا أن تبيدها وتفنيها! فكانوا يقتلون ويخرِّبون ويدمِّرون، فإذا غلَبوا وتحكَّموا، عمَّروا وبَنُوا وشيَّدوا، وٱستدركوا ما خُرِّب ودُمِّر.

أما «صدام» فقد كان يتقلَّبُ ويتنقَّل بـ «العراق» من دمار إلى دمار، يخرج من حرب فيَقَع في حرب أُخرى، فإذا بقيَت بقيَّة لم يصبها الخراب ونجَت من الدمار، ٱستدرَكَ ما فاته، وعمَد إلى ما يأتي عليها ويُلحِقها بسابقاتها، حتى أزال البلاد ومَسَحَها وجعلها أطلالاً، وأزاحَ العباد وأفناهم، ودمَّرَ وخرَّب كما تفعل الكوارث، زلازل وبراكين وأعاصير، لا تبقي ولا تذر!

نفَقَت الماشية في «الأهوار»، ويَبِسَت الزُروع، وتوقَّف الصيد والقنص، طُيوراً وأسماكاً، وتحوَّلَت تلك الربوع الخضرة النضرة إلى قاع صَفْصَف، ورَحَلَ مَن كُتبت له النجاة من السكان والأهالي المغلوبين على أمرهم، وٱنتشروا في هجرات متفرقة، إلى المدن القريبة، وبعض لجأ إلى "الخارج" («إيران»)...

ٱختفى كلُّ شيء في «الأهوار»، وكأن الحياة قد تعطَّلت وعجلة التاريخ قد توقَّفَت.

لا أكواخ قصبية هنا تعمُر بأهلِها وسُكَّانها، لا مضايف مُشرَعة ولا "صرايف" عامِرة، لا "مشاحيف" تتنقل بين "الشلهات"، ولا طرادات تجوب بين القرى... لا مناجل تحشُّ الأسل والقصب والبردي، ولا "فالات" تصطاد الأسماك وتطرد الخنازير، ولا جواميس مدلَّلة، ولا حساسين ملوَّنة، ولا حتى عُقبان تحوم بٱنتظار ميتة أو جيفة.

أنقلبت تلك الجنان إلىٰ يَباب، لا ترىٰ فيها شيئاً عدا أشجاراً خفيضة، وسُحُباً من البعوض والذباب، وإن كنت محظوظاً فقد ترىٰ " مالك الحزين " يضرب بجناحيه، فيشعرك تحليقه المتثاقل، أنه هو الآخر، يشكو ويبكي! *

❁ ❁ ❁

* جاء في تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة (لعام ٢٠٠١):

" تعدُّ مناطق الأهوار أكبر نظام بيئي من نوعه في الشرق الأوسط وغربي آسيا. وهي ذات أهمية كُبرىٰ من النواحي البيئية، الأجتماعية والثقافية. لقد عَدَّت تقييمات الظروف البيئية تحطيم مناطق الأهوار العراقية إحدىٰ الكوارث البيئية والإنسانية الكبرىٰ التي تواجه العراق، كما أشارت تقارير برنامج الأمم المتحدة للبيئة.

وهي جزء لا يتجزأ من طرق عبور الطيور المهاجرة ما بين القارات، دَعَمَ أنواع الحيوانات المهدَّدة بالأنقراض، أستمرارية مناطق صيد أسماك المياه العذبة، وكذلك النظام البيئي البحري في الخليج. بالإضافة إلىٰ أهميتها البيئية، تعد مناطق الأهوار تراثاً إنسانياً لا نظير له، وقد كانت موطناً للسكان الأصليين منذ آلاف السنين.

إن تدمير مناطق الأهوار العراقية، وما تبعه من تهجير سكان الأهوار العرب الأصليين، يعد أحد التحديات الكبرىٰ التي تواجه العراق من الناحيتين الإنسانية والبيئية. إن دور مناطق الأهوار كمصادر للمياه عبر الحدود ووُجود أحتياطات بترولية فيها، قد وَضَعَ مستقبل مناطق الأهوار في لائحة أولويات إعادة بناء العراق.

في أوائل السبعينيات، كانت مناطق الأهوار تتألف من مجموعة بحيرات وأراضٍ طينية وأراضٍ مستنقعية متَّصِلة مع بعضها، في الجزء الأدنىٰ من حوض دجلة والفرات، تمتد علىٰ مساحة أكثر من ٢٠,٠٠٠ كيلومتر مربع من العراق وإيران.

سبَّب إنشاء السدود العالية أنخفاضاً في أنسياب المياه وأوقف التدفقات التي كانت تغذي أراضي الأهوار في الحوض الأسفل، مما زاد في تركيز التلوث.

بحلول العام ٢٠٠٠ كان أكثر من ٩٠٪ من المنطقة قد جفَّ وظهرت طبقات من الملح أساءَت إلىٰ النظام الطبيعي، ومما أسرع في ذلك، إنشاء كثير من مشاريع تصريف المياه. وبناء علىٰ المعدل السريع للتدهور ظهرت إمكانية أختفاء الأهوار كُلياً في منتصف السنوات ٢٠٠٠ .

مع أنهيار النظام السابق في منتصف العام ٢٠٠٣، قام السكان المحليون بفتح بوابات السدود وكسر الخزانات لإعادة تدفق المياه إلىٰ الأهوار. «

عندما حُوِّلَت المصبّاتُ وانقطع تدفق المياه، وجفَّت الأرض في المنطقة التي دارَت فيها فصول قصَّة الشهيد «منصور» ورفيقيه، في إحدىٰ القنوات المتفرعة عن المجرىٰ الرئيس للنهر، الذي ينحدِرُ إلىٰ الجنوب من «العمارة» باتجاه «القرنة» و«البصرة» ف «شط العرب»...

انحَسَرَت عن جثة غضَّة طريَّة، كأنها لميت قضىٰ الساعة!

كُشِفَت الجثة علىٰ بعد خمسمئة متر جنوب الموقع المفترض "للجسر وللتجمع العسكري الذي استقبل قاعدة الصواريخ المتنقلة تلك، أو أبعد قليلاً، ولكن المؤكد أن التيار لم يجرفها أكثر من كيلومتر واحد، حيث عَثَرت علىٰ ما يبدو، بمنحنىً حاد في مجرىٰ النهر، أو هي جذور شجرة كبيرة وارِفة، عظيمة الجذع، نتأت في جانب المجرىٰ وصَنَعت ما أشبه "الحاجز"، فاحتُجزَت الجثة هناك، وبقيت في الحفظ والصَّوْن.

»

وقد قامت بتحليل صور الأقمار الأصطناعية عام ٢٠٠٣ التي أشارت إلىٰ أن بعض المناطق الجافة سابقاً قد تمّ غمرها بالماء مجدداً، وقد ساعد علىٰ ذلك المناخ الرطب.

وفي نيسان/ أبريل ٢٠٠٤ كان قد تمَّ غمر نحو ٢٠ ٪ من المساحة الأصلية للأهوار، مقارنة بـ ٥ ـ ٧ ٪ في العام ٢٠٠٣ .

بعض الحكومات المتبرعة مثل الولايات المتحدة وإيطاليا طوَّرت خططاً رائدة لإحياء مناطق الأهوار، بحيث يتم إعادة غمرها وإحيائها بشكل فعال. وتعد المساحة النهائية للمنطقة التي ستعاد إلىٰ حالتها الأصلية ومواصفاتها البيئية أمراً غير مؤكد حتىٰ الآن.

بالإضافة إلىٰ الأضرار البيئية التي قلَّصت إمكانيات المعيشة والحياة في هذه المنطقة، فإن سكان الأهوار عانوا مَوْجات من التهجير ضمن حملة قامت بها الحكومة العراقية السابقة في التسعينيات. في العام ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ أشارت التقديرات إلىٰ أن ما بين ٨٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ من عرب الأهوار يقيمون حالياً ضمن وحَوْل ما تبقىٰ من مناطقهم الأصلية، بما فيهم أقل من ١٠٪ يعيشون علىٰ الطريقة التقليدية.

بينما يبقىٰ نحو ١٠٠,٠٠٠ إلىٰ ٢٠٠,٠٠٠ من عرب الأهوار مهجرين داخلياً ضمن العراق، ونحو ١٠٠,٠٠٠ يعيشون كلاجئين خارج العراق، ولا سيما في إيران. وتعيش أيضاً في المنطقة أقليات أُخرىٰ غير عرب الأهوار". ■

وعلىٰ الرغم من أن النتُوء كان يشكِّل "مَهْداً"، بل "لَحْداً" و"مضجَعاً" مناسباً، فيه الكفاية، وما يفي بالحاجة، إلّا أن الجثَّة غاصَت وأُركِزَت في العمق شيئاً قليلاً، ولم تكتَفِ بالاستقرار علىٰ قاع النهر، ناهيك أن تطفُو علىٰ السطح وتتعرَّض للانجراف بعيداً تجاه «شط العرب» فالبحر و«الخليج».

كانت في عمْق ناهز نصف المتر، حتىٰ إنها ما ظهرت إلّا بعد فترة طويلة من جَفاف المجرىٰ، وانجراف الطمي وانحساره عنه، وتيبُّس قاعه وتشقُّقه، حتىٰ صارَ ممشىً وطريقاً للرجَّالة... فمرَّ جماعة هناك، لَمَحُوا آثاراً، ولَفَتَت انتباههم علامات، ففتَّشوا ونقَّبُوا، وتحرَّوا عن الأمر، ليكشفوا عن الجثمان. كان جثمان «منصور» كامل الأعضاء، سالم الجوارح ، ممدَّداً علىٰ هيئة النائم في القبر، علىٰ جانبه الأيمن، دون أن يثني ركبتيه أو يحني ظهره ويتقوَّس، فضلاً عن أن يكون علىٰ هيئة سَقطة القتيل الغريق الذي تضطرب أعضاؤه عند خروج رُوحه، من فَحْصِ رجليه وهَوْل النزع والاحتضار، فلا تستقر علىٰ شكل سَوِيٍّ.

والغريب أنه كان في اضطجاعه، مستقبلاً القبلة، موَلياً جذر الشجرة وجَذْعها ظَهْرَه، مَا كان يقتضي من الجثمان التِفافاً مُعاكِساً لاتجاه تيار الماء المنحَدِر جنوباً، إذ القبلة في الجنوب الغربي من ذلك الموقع.

كأن "الشهيد" حين غطَس وغَاصَ، في تلك الساعة الرهيبة، راح يبحث ويتحرَّىٰ ويفتِّش، حتىٰ وَجَدَ هذه الحفرة، فأدْرَجَ نفسه واضطَجَعَ، استلقىٰ فيها وتمدَّد، ثم أسلَم الروح طواعية ومات!

كانت تكسُوه وتجلِّله طبقة ثخينة من الطين، تيبَّست عليه، كأنها طُبِخَت وغَدَت فَخَّاراً، بعد أن تشكَّلَت مع هيئة جسمه، وتثنَّت مع تضاريسه، وانسابت مع تقاطيعه، حتىٰ صنعت له قالباً أشبه بتوابيت المومياءات الفرعونية!

ويبدو أن هذا القالب ـ التابوت هو الذي حفظ الجثمان وساعَد في بقائه سالماً وعدم تلفه وتحلله، كما ذهب وزَعَم بعض أطباء الطبِّ الشرعي والتشريح الذين سمعوا القصَّة، فجاؤوا ليُعاينوا جثة «منصور» عن قُرْب، وسعَوا إلىٰ تقديم تفسير "علمي" و"منطقي" للحالة الغريبة، أن يبقىٰ الجثمان علىٰ طَرَاوته ونداوته رغم السنين والحر وكل عوامل التعرية والتجوية التي تفت الصخور وتؤثر في المعادن؟!

قدَّم الأطباء تفسيرهم هذا الجاف الصَلِف، مع أن البدن لم يكن كالأجسام المحنَّطة، بل كان نضِراً ومشرقاً، ولعلَّ بعضهم كان يشعر فيه بدِفء الحياة! حتىٰ إذا ما رَفَعْتَ جفنيه، لاقَيْتَ عينين يشعُّ منهما بريقٌ عجيب، يخاطبك كما أذكىٰ الأحياء وأشدُّهم يقظة ووَعياً!

ولولا العِقْد أو القِلادة التي تتدلىٰ منها قطعة معدنية تحمل رقمَه العسكري المتسلسل، والرشَّاش الحربي الذي وُجِدَ إلىٰ جواره، وبعض مختصَّاته الأُخرىٰ... لبَقي الشكُّ قائماً والظنُّ سارِياً، بأنها جثة لمجهول، أو لشخص آخر غير «منصور»، نزل به الموت عن قريب.

بل إن الأمر لم يحسم تماماً، إلّا عندما نقل المجاهدون العراقيون الجنازة إلىٰ الجانب الإيراني، وسلَّموها إلىٰ جهات الأختِصاص هناك، الذين طبَّقوا الرقم العسكري مع سجلَّاتهم، وتوصَّلُوا لتحدِيد شخص صاحب الجثة، ثم اتصلوا بذَوِيه، الذين قدِمُوا علىٰ عجَل وتعرَّفوا إليها، وجزَم وَالده بأنها لِعزيزِه «منصور»... عندها تأكد الجميع وأذعنوا أن في الأمر "معجزة" وأقرُّوا بـ "الكرامة" لهذا الفتىٰ الشهيد.

وقد ذكرَ جماعة من «البومحمد» الذين اكتشفوا الجنازة ونقَلُوها، أن طيباً شمِياً كان يتضوَّع من الجثمان، انتشر إلىٰ مسافة ليست بقريبة، هي التي لفتَت انتباههم ودلَّتهم عليها... وقد فاحَ عرْفُه، حتىٰ علَق بأيدي الذين احتملُوه وجهَّزوه، فصبغَ ثيابهم وضمَّخها لأيام!

وإن لم يُطرَح ـ في أوساط الأطباء والخبراء ـ السؤال عن مصدَر ذلك العطر، وتجاهَل السامعون هذا الجانب من القصة، وحملوه على "مبالغات" طبَعَت سلوك الناس في مثل هذه الحالات... فقد تساءلوا، وألحَّ بعضُهم في السؤال، وهم يشهدون بالحسِّ، لا بأخبار يتناقلها قرويُّون سذَّج وفلّاحون بُسَطاء و "مِعدان" من مربي الجاموس، ويرَوْن الجثمان ممدَّداً أمامهم:

ما الذي ردَع الأسماك أن تنهش بدن «منصور»؟

لماذا لم يتفسخ لحمه ويتحلل ولم تبْلَ عظامه رميماً؟

كيف توقَّفَت عوامل التعرِية والتجْوِية، من حركة الأمواج والتيارات المائية القوية والفيضانات، عن التأثير في بُنيته؟ وهي التي تجرف، بل جرفت خلال الفترة التي ارتكز فيها هذا الجثمان في موقعه، قرىً ببيوتها القصبية ومَواشيها، وأحياناً بسُكّانها الأحياء!؟

كيف أعجَزَ هذا الشاب الشهيد «منصور» الأرض والماء والهواء والحدَثان؟ فلم يتساقط الشعر من رأسه ولا ذقنه ولا شاربه ولا حاجبيه، وبقيت أهدَابُ عينيه على حالها؟ كيف يحافظ وَجْهُ "ميِّتٍ" على نضارته، وعينه على بريقها ووَقْدَتها؟

بمِثل هذه الملاحم، الأشبه بالأساطير، هبَطَت، بل استُنزِلَت تلك العناية الإلهية، وانتُزِعَت من عِنان السماء، كأنما يداً اقتلعتها اقتلاعاً، وعلَّقتها وِساماً ـ مؤقتاً ما دامت الدنيا، وإلّا فما يليق بها من التكريم سيكون في الأُخرىٰ ـ لِيُكَلِّل ذلك البدن، ويخلَع عليه معجزة، استدرَّت دموع المؤمنين، وحركت ألسنتهم لتلْهَج بالتكبير والتهليل والتسبيح والتعظيم، والصلوات، كما ألقَت أطباء التشريح وعلماء الأحياء والكيمياء في دوامة الحيرة...

* * *

ومما فاتَ رجال «البومحمد» أن يروُوه ويحكوه للإيرانيين، أن "الليل" هو الذي دلَّهم عليه أوَّل الأمر، ثم ضَوْع الطِيب.

الليل؟... نعم، الليل!

ها هو يُوفي صديقه الحميم بعض حقِّه، ويرشد إلىٰ جنازته.

كأن «منصور» كان يواصِله ويناجيه من برزَخِه، كما كان في دُنياه، ويشكُو له حال بدنه، وفي شكواه بعض عتاب ورَجاء...

أمَّا عن سرِّ مناجاته العجماوات دُونَ البشر!

فلِما كان يُفسِح لِـمُحاوِريه ويُخلي لهم ميدان الحوار، ويُجبِر نفسه علىٰ سماع خرْطهم وحَشْوِهم! يجالِسُه أحدُهم لساعَة يصرِفها في الحديث عن نفسه، يصِف حاله، ويعدِّد مواقفه ويسرد تاريخه، وعلىٰ «منصور» أن يُصغي وينصِت إليه ويُقبِل عليه! ويهوي الحوار وينحطُّ حين يفتقد المتكلِّم أية بطولة يتشدَّق بها أو أُكرومة يُباهي بها، وهٰذا ما يكون في الأعمِّ الأغلب من الناس، فيروح في تناول حالاته الخاصة وشؤونه الشخصية، وما فعَلَه مع ٱبنه وزوجته وجَاره وزميله، غير عابئ بحال المخاطَب، وما هو ذنبه لتنزل به هٰذه العقوبة؟!

فإذا جانَب العوام وجالَس المثقفين والخواص، رآهم نمطاً يتحدَّث في الفكر ويتناول الكليَّات، ويأخذ مخَاطَبه إلىٰ أجوائه الفكرية ويعرض عليه آراءه العلمية، ويكافح ويناوِرُ ليثبت ويستدلَّ...

بين هٰذا وذاك لم يسأل أحدٌ من هٰؤلاء وأُولئك عن رأي «منصور»، ولا عرَض عليه أن يفضي همومه ويسمع شكواه!

لذا كان «منصور» يسامر الليل، ويناجي القمَر، ويجالِس الطبيعة. فلا لَغْوَ هنا ولا هذَر، لا إسفاف ولا ٱجترار، لا بليد فِكرٍ في هٰذه الجلسة ولا خامد ذهن، لا سقيم ٱستدلال وبرهان، ولا مرجِّح بلا رُجحان...

سئم التعنّت، وضاقَ بالجدال وضجَّ من المراء.

فكان يلجأ إلىٰ الليل والنهر والنجوم والقمر...

وكأنه الآن، كما كان، يخاطِب "لَيْلَاه" لا "الليل"!:

كنتُ أوَّل الأمر من موتي وانتقالي إلىٰ هذا العالم، لا أشعر أنني بحاجة إلىٰ قبر، فالأرواح إذا خرجت من الأجساد، لا تكون في مكان، كما المكان والحيِّز في الدنيا، ولا تتعلَّق بأبدانها الأُولىٰ، لا يضرُّها أن تكون مدفونة في أرض، أو موزَّعَة في حواصل الطير وأكرشة السباع.

لذا فأنا لم أفتَقِد شيئاً في حالي، ولم أستوحش من مقامي.

الموت يا "ليلُ" أمرٌ طبيعي منشؤه إعراض النفس عن عالَم الحسِّ وإقبالها علىٰ الله وملَكوته. وليس هو أمراً يعدمك، بل يفرِّق بين ذاتك وبين ما هو غيرك، من صفاتك غير اللازمة، لأنَّ محلَّ الحكمة لا ينعدِم، كما في الحديث الشريف: "خُلقتُم للبقاء لا للفناء"، وفي الكتاب ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾... يبقىٰ الجوهر لأنه قائم بذاته وتزول الأعراض لأنها قائمة بغيرها.

والمقابر غير المدافن... المدافن للأعراض، والمقابر للجواهر، وبعضها عرْشيَّة وبعضُها فرشيَّة، فالأُولىٰ للسابقين المقرَّبين، والثانية إما روْضاتٌ من الجنان أو حُفَرٌ من النيران... وقبري من "الثانية"، لكني - بمَنِّ الله وفضلِه - في روضة ونعيم، وقبري عامِر بالرَّوح والريحان، وتزوني فيه الملائكة وتختلف إليَّ أرواح الكاملين.

ولكني بعد بُرهة، في الأحيان التي يُسمح فيها للأرواح، أو تراها تتمكَّن من الإطلالة علىٰ عالمها الأول والاتصال بالدنيا، كما تفعل أرواح جملة من المؤمنين، علِمتُ أن المدفن هو بابُ البرزخ، ومدخل العالم الجديد... صِرْتُ كأني أفتقد شيئاً وأستوحِش، كأنني مقطوع عن أهلي وأحبابي، أو أنهم في حيرة كيف يزورونني ويتَّصِلُون بي ويتواصلون معي، بخير يثوِّبونه، أو حزن عليَّ يبثونه، فلا يجدون؟

إن الرُّوح إذا آسْتُلَّت منِ البدَن، بقيت ترفرِف علىٰ جَسَد صاحبها حتىٰ يُدفَن فتعود لتُوَفَّى شيئاً من حِسابها، أو يُرجأ أمرُها و"تنام" و"تسبُت" إلىٰ حين معادها في القيامة. وإن رأيتُ مَن نُظِرَ في أمره وآنتقل إلىٰ روضة من جنته أو حفرة من نيرانه فَوْر موته، ولم يمهل ليدفَن! إنها نقطة الآتصال الحسية بين العالمين، والرابط والباب بينهما... أترضىٰ أن أُحرم منها؟

إيه أيها الصديق الوفي، والسامر الذي لا يَمِلُّ ولا يُمَل...

إنك تعرفني حقَّ المعرفة، وتعلم أنني لست متعلِّقاً بذلك الجسم والهيكل، ولا متهالكاً علىٰ تكريمه، ولا في حسرة أن لم يحظَ بتشييع ودفن بعد تجهيز، وإن كان هـٰذا مما يؤذينا، معشر الأموات، وينغص علينا شيئاً ما، أن يبقىٰ بدن أحدنا في العراء، بلا مدفَن ولا غُسلٍ ولا كَفَن... غير إني أُريد هـٰذا لشيء أكبر وأمر أخطر، هو تسكين قلب والديَّ، وهما بعدُ في أمل أن أكون حيّاً أسيراً. أُريد أن يحسموا أمرهم ويخرجوا من قلَقِهم، فإذا تحقق لهم ذلك، كانت سلوتهم في زيارتي وتعاهد مدفني.

سكَن "الليل" وهو يصغي، وكان في الفكرة والتدبير، أن كيف عساهُ يصنع؟ إذ ما كان يطيق شيئاً دون إذن "النور" وعَوْنه!

لذا آستأذنه أولاً، وآستخبره عن حال صاحبه عنده، أمرضيٌّ عنه أم لا؟ فلما رأى الرضا عنه، سأله أن يعضده، ورَجَاه أن يحقِّق لـ «منصور» رغبته، ويهدي مؤمناً صالحاً إلىٰ جثته.

كان "المِعدان" قد رأوا وَميضاً في مجرىٰ النهر الجاف، شيئاً يبرُق في جُنْحِ الظلام، ومع تكراره كلَّما مرُّوا في تلك المنطقة وآجتازوها لسبب أو آخر، صاروا يفزعون ويرتعبون، وعلىٰ طريقتهم في قراءة الأحداث والظواهر، قالوا إن عراكاً يحتدم هناك بين قبيلتين من الجن! وهـٰذا الوميض من جَذْع سيوفهم وتلألُؤ رماحهم.

حتىٰ زارَهم يوماً شيخٌ جليل حكوا له عن الظاهرة الغريبة، فقرُب من محلِّها شيئاً، ورأىٰ عجباً، فهـٰذه وَمَضَاتٌ تخرج من شقٍّ في الأرض، تنير الموقع للحظات، ثم تعود بعد فترة وتظهر ثانية... لم يفزع "الشيخ"، لـٰكنه عجب، وعزم علىٰ ٱستطلاع الأمر في ضوء النهار.

فلما قربوا من الموقع في الصباح، ٱجتذبهم الأريج، وأدارَ رؤوسهم العَبَق، وما زالوا في هـٰذا حتىٰ وَقفوا علىٰ فَطْر في الأرض، عميق بعض الشيء، كان العِطْر أشدَّ ما يفوح ويتضوَّع منه...

ومع حفر أو نبش يسير في الصدْع، ظهرت طليعة القالب الطيني الصلب الذي كان يكسو بدَن «منصور»، من تجاه الرأس، فظنوه في البداية من الآثار «السومرية» أو غيرها التي كثيراً ما تظهر في حفريات متفرقة في هـٰذه المنطقة، ولـٰكن مع إتمام الحفر وإخرج القالب ـ البدن كاملاً، تبين لهم أنه ليس كذلك.

ظهر الجثمان وبان مع تكسُّر القالب الطيني وتفتُّته، وظهرت الكرامة وتحققت، وصار الحضور يلهجون بالتهليل والتكبير والصلوات.

ومع ٱنتشار الخبر وشيوعه، أخذ الناس يردون إلىٰ القرية التي نُقِلَ إليها الجثمان، وُفوداً وأفراداً، وراحوا في تبجيل الجثمان وتعظيمه.

ولـٰكنهم بعد أيام من الاحتفاء والتبرك، عـادُوا لحيرتهم في مآله وما عليهم أن يفعلوا به من التجهيز والدفن، أو إبلاغ «السيد ثقيل»، وهو أحد القادة الميدانيين للانتفاضة والزعماء الذين لهم ٱتصال بعشائر الجانب الآخر من الحدود، في الطرف «الإيراني»، فقد رأوا في عنق "الميت" قِلادة لشريحة معدنية من تلك التي يحملها الجنود «الإيرانيون»...

أرسلوا في أول الأمر الشريحة التي فيها الرقم المتسلسل للجندي، فلما تثبَّت «الإيرانيون» وتيقَّنوا من الأمر، نقلوا إليهم جنازة «منصور».

❁ ❁ ❁

كان والد «منصور» قد فتح صندوق أبنه وتفقَّد موجوداته، ووَقَعَ على "المغلف المعهود"، قبل أن تصله الوصية التي تطالب بإتلاف ذلك المغلف والتخلُّص منه دون الأطلاع على محتواه، كما لم يكترث للتحذير المغلَّظ المكتوب على ظهره، ظاناً أنها أحترازات جعلها "المرحوم" لمنع إخوته مما دأبوا عليه من التطفُّل على مقتنياته والتدخل في شؤونه.

والحق أنه كان مندفعاً يصعب أن يتمالك نفسه، يريد أن يغوص في آثار وبقايا عزيزه.

كان يبحث عن أيِّ شيء يوصله بأبنه، ولعلَّه لو تيقن من موته وتسلَّم جنازته ودفنها كم يفعل ببقية الشهداء من رفاقه، لهدأ شيئاً وسكَن وطابت نفسه... ولكن الأنقطاع قتله، والضياع أفقَدَه توازنه، فما عاد يدري ما يصنع؟ كان يريد أن يتَّصل بوَلَده... ففتح صندوقه، وصارَ يقضي نوبات طويلة من البكاء، وهو يشم ثيابه، ويتحسَّس مقتنياته. وفي غمرة نوبة من هذه، فضَّ المغلَّف "المعهود"، وقرأ أشعار أبنه، وعرضها على نفس الرجل الذي أطلعه «منصور» عليها فأزدراها... قال "الخبير" وأقسم أنه يرى فيها رُوحاً وسِحْراً غريباً، وأصدَر حكمه بأنها حرية بالقراءة، بل جديرة بالنشر. ومن غريب ما قال: "إن فيها نفَساً من «الطغرائي» الكبير، وشيئاً يحاكي شِعْره"! وأعترف أنه سبق أن أطَّلَع عليها، فما وَجَدَ فيها هذا الذي يراه الآن، وعلَّل ذلك بأن الشهيد لربما عدَّل في وَزنها، وحسَّن من قوافيها، وغيَّر وبدَّل، قبل أن يلتحق بالجبهة ويلقى ربه.

وكانت تلك الأشعار التي ذاعَ صِيتها، سبباً في التركيز على وَصِيَّة «منصور»، وقراءتها وكأنها من إنشاء أديب أو مفكِّر، لا مجرد "بسيجي" بسيط لم يكمل تعليمه. وقد حظي مقطعٌ من الوصية، سُجِّل فيه فهمه للثورة وإيمانه بها ونصيحته لأبنائها وقادتها، بعناية المثقفين، حتى أقتبس منه بعض الكتاب لمقالاتهم ومؤلفاتهم.

وقد قدَّم «منصور» وبدأ ذلك المقطَع بديباجة، تجدها متكرِّرة في جميع أو أغلب وَصايا الشهداء، كأنهم يستنسخونها وينقلونها عن بعضهم البعض، تقول:

"إنني أقلُّ وأصغر من أن أُبدي رأياً أو أُسدي نُصْحاً، ولكن الواجب الشرعي يحتم عليَّ أن أُذكِّركُم... فخذوها من أقلِّكم وأصغركم"...

ثم مضى يقول:

إن الهزيمة الحقيقية والخسران المبين، والوحيد الذي قد يلحق بنا، والإخفاق الأكبر الذي يمكن أن تقع فيه هذه الثورة العظيمة، هو نفسه الفصل الذي صنَع قوامها، والعنصر الذي شكَّل ماهيتها، وتحقَّق به انتصارها، وبني على أكتافه مجدها الحقيقي... إنه "الولاية" و"البراءة".

لم تكن شعارات الاستقلال والحرية والإسلام، لتكون ذات معنىً إلّا بفحوى خطاب "البراءة" الذي حملته، ليُربك المعادلة المهيمنة على العالم، وهو يتمرَّدُ على مفرداتها ويعيد صياغتها:

بدءاً من "الدبلوماسية" و"الأعراف الدولية"، وانتهاءً بـ "الأخلاق" وطريقة التعامل مع الآخرين سواء الطواغيت أو المستضعفين.

وفي "غابة" تهيمن عليها القوى العظمى، علينا أن نكتشف السلاح الوحيد الفاعل أمام تفوُّق أعدائنا، والبون الزمني الشاسع الذي يفصلنا عنهم، تقنياً وعسكرياً واقتصادياً.

إنَّ تخلِّي الثورة عن شعاراتها التي تشكِّل الميثاق والعهد الشرعي بينها وبين جماهيرها، وعن قيَمِها ومبادئها المقدسة، لصالح اللغة السياسية المتداولة والمعمول بها في هٰذا العالم، وخروجها عن ثَوْبها، ودخولها في ما تلبَّست به هٰذه الدنيا، وٱنسجامها مع المحيط، وتآلفها الذي يسقط تصنيفها في "النشاز"... هو قبرها الذي ستدفن فيه!

إن الشياطين لا تطيق الطهارة والشرف والعفة والنزاهة... في خصومها، لا تريدهم أن يتمتَّعوا بأية فضيلة ويلتزموا أية قيمة ومبدأ، تريد اللوث والقذارة لأعدائها، حتىٰ تحارِب مَن علىٰ شاكِلَتها، وتُنزل الأطهار وتستدرجهم إلىٰ الميدان الذي تُحسن والفنَّ الذي تُتقِن!

إنَّ ما لا تتحمَّله القوىٰ الكبرىٰ المسيطرة علىٰ الدنيا بشرقها وغربها، وما لا يطيقه السياسيون علىٰ مختلف مشاربهم ومعتقداتهم، هو أن يَلِج عالمهم مَن لا يتكلَّم بلُغتهم ولا يحمل خطابهم، ولا يمارس طُرَقهم، ولا يتعاطىٰ أساليبهم في العمل، فهٰذا ـ ببساطة ـ نشوزٌ ومرُوق لا يُطاق، و"هرطقة" دونها خرط القتاد.

إن الخسارة العظمىٰ التي يمكن أن نتصوَّرها هي سقوط الرهان علىٰ قدرة "الدين" والمتدينين من ٱقتحام هٰذا العالم القذر دون أن ينحرف "الدين" ويتلوَّث "المتديِّنون"...

ليس الأمر أن تتَّسع الرقعة الجغرافية لنفوذ ثورتنا المباركة أو تضيق، ولا أن يزدَاد عدَدُ المؤمنين بها والموالين لها أو يقِلُّوا، ولـٰكن القيمة ـ كلَّ القيمة ـ أن تعيَ البشرية في ضميرها، وتفهم الإنسانية في وُجدانها، وتدوِّن ـ إن شاءت ـ في سجلّات تاريخها ما يقرع ناقوس الحقِّ، ويضرب أوتاره الكامنة فيها، بما يتمّ الحجة علىٰ الأجيال المتعاقبة:

إن ثلَّة مؤمنة صابرة قامت فقالت: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾... أبت أن تجاري الباطل، وتنضمَّ إلىٰ الركب الجماعي الذي يقوده الشيطان وجنوده لمسيرة "الدنيا" الدنيَّة، ورفَضَت أن تلحَق بهـٰذا الركْب، بل "القطيع" الذي يُسمَّى "المجتمع الدولي"، ومَن يسوقونه من طواغيت ودجَّالين و"أرباب يُعبَدون من دون الله"، يقدِّمون "العلف" لـ "مواشيهم" في يَدٍ، ويحملون عصا الردْع والتأديب في الأُخرىٰ...

ٱستقامت وثبتت علىٰ مبادئها وقيَمها، وتمسَّكَت بأخلاقها وآدابها، حتىٰ قضَت صبراً، ومُسِحَت من خارطة هـٰذا العالم!

ولا يضرُّ ـ بعد هـٰذا ـ إن قلَّ عدَدهم أو كَثُر، طالَت مقاوَمَتهم أم قصُرَت، ٱمتدَّت دولتُهم وٱستمرت أم تلاشت وٱضمحلَّت.

كم كانوا، وكم لبثوا؟

لا تسَل عن هٰذا، ولا تنشغلنَّ بذاك...
وهلمَّ إلىٰ العظمة الحقيقية والخلود المُشرِّف والثناء الصادق، والمجد، كلِّ المجد، ما ٱستنزل قرآناً يُتلى إلىٰ يوم القيامة، وٱتل معي:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠...

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ ...

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦ ...

سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢ ...

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾

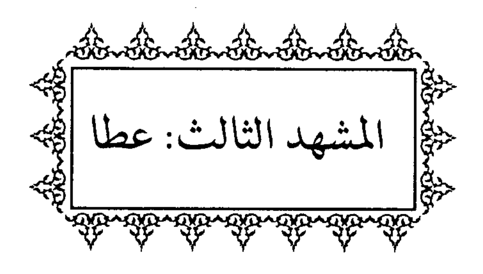
۞ ۞ ۞

بعد هٰذا المقطع أو قبله، ولعلَّه خلاله، يضمَّنت الوَصِيَّة حديثاً عن أمر صنَّفه «والد» الشهيد «منصور» بأنه من المحظورات، فآثر عدم نشره ولا حتىٰ إذاعته، ولٰكنه كان يلمِّح إليه في مجالسه الخاصة ويُسرِّب شيئاً منه في خلواته مع أصدقائه.

فإذا لم تسنح له الفرصة، وضاقَت عليه الدنيا ودارَت دوائرها، من ضيق الصدور وحرَج النفوس بأيِّ صوت معارض، وتصنيفه في الخيانة والعمالة والعداء!... يمَّمَ وزَوْجته «أُم الشهيد» شَطْرَ "كلزار شهدا"، حيث ووُرِيَ عزيزهما «منصور» الثرىٰ، فلاذَا بقَبره، يحمل هو باقة من زهر البنفسج، يقول عنها، وهو الخبير بالرياحين والزهور، إنها زهرة حزينة، نازَعت السواد ونازعها، حتىٰ أخذت منه أو أخذ منها مأخذه، فغالَب الزهرُ اللونَ أو غلَبه اللون، نازع الألقُ والزهوُ والانشراحُ، مما في طبع الزهور، الحزنَ والكآبة والظلمة مما في السواد، فكان البنفسج!

أما الأم، فكانت تنزوي جانباً، تفترش بساطاً رثّاً، وتتكئ علىٰ شاهد القبر، تكفكِف دموعها، وتتلو ما تيسَّر لها من القرآن الكريم، تهدي ثوابه لـ «منصور»، ومَن نزل في هٰذه البقعة من الشهداء، تقول لعلَّ أهليهم جَفَوهم فما عادوا يزورونهم.

* * *



المشهد الثالث: عطا

ثلاثية الثمن

المشهد الثالث: الحاج عطا

مارد طموحي لهون وصلني ومات
وعامطرح اللي جيت رادني الندم
وروحي الزغيري زغرت عليها الحياة
وعن ربع درب العمر رجعت للعدم

(زجل لبناني. خليل روكز)

من هنا جاء الشهيد السعيد «محمد بن جمال الدين بن مكي»...

والعظماءُ لا يأتون عَبَثاً ولا يوجَدون صدْفة، بل يختارون لأنفسهم ظروف نشأتهم، ويخطُّون بإرادتهم أقدارَهم... لا يلحقُهم الفَخْر عَبَطاً، ولا ينالون مقاماتهم جُزافاً، إنما بسَعي حثيث يتحرَّىٰ المجدَ في أثيل مناكِبه، وهجرة مُضنِية تتسنَّم ذُرىً تقعُد عنها النفوسُ وتسقط الهِمَم.

ولعلَّهم لا يأتون من أُمهاتهم ولا ينحدِرون من سُلالاتهم إلّا بموافقة منهم وإرادة! بعد ما تفرضه الطبيعة وتعنيه ضرورة الخلقة...

وكأني بهم لو فقدوا المقتضي اللازم، وعدِموا الرَّحِمَ المناسب، وما وَجَدُوا الحاضن اللائق، لأجَّلوا وِلادتهم وأرجأوا ظهورَهم، أو لَخَرَقوا الطبيعة والعادة، وخُلِقوا كما الوُرود والأزهار في الفواكه والثمار، تحمل النسائم حبُوبَ لِقاحها فتطير بها، أو يلتقطها النَّحلُ والفَراش وهو يحطّ عليها ليرتشِف من رحيقها، فينتقل بها ويُودعها حيث تزهر وتثمر...

أو لعلَّهم وُجِدوا من غير تناسل كما «روح الله»، أو نشأوا كما الرياح والسُحُب والجبال والوِهاد!

أرواحٌ تهيمِن، وقوىً تفعل، وطاقات تؤثّر دون أن تُرىٰ وتُحسّ وتُعرف، فيَعجَب الغافل، ويَحارُ المحجوب للحدَث: كيف تحقَّق من غير عِلَّة؟ أو للأمر أنقضىٰ بلا سبب؟ والحال أنَّ حضوراً لطيفاً لتلك الروح الإلهية دبَّرَه، وفعلاً خفِيّاً من تلك "الكائنات" أو "الطاقات" الغيبيَّة قضاهُ أو صَرفه... حضورٌ أشبه بالملائكي، ودَوْرٌ أقرب وألصق بالولايتي.

لقد كان المَحْتِد في هؤلاء كالمنْبِت، والنجابة ذُروة في الأسباب وقمَّة في العِلل... خيارٌ في طريق كمالِهم، ومقتضىً لِسلامة أنفسهم وسُمُوٍّ أرواحهم، ومَهْدٌ لرُشْدِهم وهَدْيِهم لِمرامهم، قصَدُوه وأرادوه، فنالُوه. وإلّا، فهم المؤسسون الذين يضعون لَبِنات يبنىٰ عليها، ويُرسُون قواعِدَ تقوم فوقها المباني وتشيَّد، فيُوَرِّثون، لا يَرِثُون... فكأنَّ أحدهم ما أخذ شيئاً من أسلافه، بل هو الذي صنَع الكرامة ومهَّدها لأعقابه، ومنَحَ الشرف وخلَعه علىٰ أخلافِه.

هنا، في «جزين» (وأسمها محرَّف "جزءين" لِنَبعها الذي يجري من أعلاها، يجتازها فيشطرها، أو هو سرياني يعني "الكؤوس")، علىٰ تخوم ينصَبُّ منها شلَّالها المعروف بـ «الشالوف»، تهوي مياهه وتنحدِر من شاهق مُوحِش، صخرٌ مقتطَع كالجُرِّ فوق الوادي، يناهز أرتفاعه سبعين متراً... كأن المياه تفِرُّ منه لتنتحِر! ضَجَراً بمجاريها الضيِّقة، والتواءات وَعِرَة مضْنِية، شقَّت الجبال وحفَرت فيها، فأشقَتْ وأنهكَت، حتىٰ إذا ما رأت فُسحة من فَضَاء، وتلقَّاها سَهْلٌ بعد وَعْثَاء، هَوَتْ لا تلْوِي علىٰ شيء، وألقَتْ بنفسها متحرِّرة، تصنع حوْضاً كمِرْجَل يغلي فيفيض كالعِهْن المنفوش، ينعقد فوقه قَوْس ألوان الطَيف، فرِحَةٌ سعيدة أن خلَقت للنُظَّارة ما يستجمُّون بمرآه، وللسواح ما يروِّحون به ويبسطون.

هناك، علىٰ كتف «الشالوف»، وفي تلك الأكناف والنواحي التي تَسْحَرُ الألباب وتفتن عشّاق الجمال، حيث تبسق الأشجار وتنتظم البساتين والكُروم، التي تحوَّل جانبٌ منها لاحِقاً إلىٰ حوانيتَ ومشاغِل صغيرة تخصَّصت في صُنع مَقابض المُدَىٰ والخناجر والسيوف، تطعِّمها بالصَّدَف وترصِّعُها بالأحجار الكريمة، ومجوهرات الزينة...

رَشَحَتْ بوادر عين ستنبثق، ونشَّت ندَاوةٌ عن ثائب تنادي بأنها لن تَنْضُب، وترقرقَت جَرُورٌ تزعم وتخبر بأنها لا تمحَل. أو هو زرْعٌ أخرج شطأه وبَسَقَ طَرَفُه، شقَّ ونفذ في التربة الجبليَّة، وٱخترق أديم الأرض الصخريَّة. وفي المشهد الأبعد والرؤية الأشمل والأوسع، بذخَ طوْدٌ عجز الغمام أن يجلِّله، ناهيك بالضباب أن يواري قمَّته، فٱنحسَرَ عنه وٱنكفأ، فظهرَ رأسه وشمخ، وغاب عمقه وتوارىٰ غوْره، وخفيَ سِرُّه...

ينتظر، حتىٰ إذا أخذ كفايته من الإعداد وبهجته من الريِّ، آزرَه المكنون من طهارته، وٱستمدَّ البأس من نقاءِ أصله وسلامة سريرته، ونهل من كريم محتِدِه... ٱستغلظ ورشُدَ، وٱستوىٰ علىٰ ساقه، ثم نهَض علىٰ جذعه، وغَدَا ـ بعد حين ـ وَرَقة نضِرة تحيط بفاكهة ناضجة وتلتف بثمرة يانعة، علىٰ غُصْن رطيب من شجرة مباركة ودَوْحة عظيمة... يُعْجِب زُرَّاعَ الحقِّ، ويُرضي رُعاته وهُدَاته، ثم يغيظ أعداءه ويثير حنَقَهم، فلا يجدون ما يطفئون به حِقدَهم وغلَّهم، إلّا أن يقتلوه صبراً، ويقضوا عليه شهيداً مظلوماً.

من «جزين» ٱنحدَرَ «الشهيد الأول»...

ٱنحدَرَ يعيش مع العلم والحكمة، والمجد والشرف، والزهد والتقوىٰ والوَرَع... يعيش المحنة والأسىٰ والأضطهاد، ويحمل الظُلامة، لا ظلامة الذليل المهين، والضعيف الخائر، إنما المُحِقِّ المقهور، والمستضعف المغلوب، المنتصر بالله، والمعتزِّ بٱسمه عَزَّ جاره.

لذا تراه جَاء مع الظُلامة وفي ثنيَّات الأضطهاد برُوح المعارضة والتمرُّد والعصيان، يصحبها نبضُ الجهاد وحُمَّى الشهادة، وهو نَبَضٌ يقترن بالغيرة ويلازم الأنفَة والحميَّة، لا يضرِب إلّا في عروق الأُباة، ولا يجري، ثم لا يسيل، إلّا من أجسادٍ ضاقَت بها نفوس أصحابها، لِفَرْط عظمتها، وكبير حجمها وسِعَتِها، وحُمّىً لا تنزل إلّا بالكُمَّل من العلماء العرفاء والعشَّاق السعداء، الذين شغَفَهم حبُّ الله، وأعيَتْهم الحيلة في الوصول إليه، فتنزل بهم لِتَصحبهم وتلازمهم، فلا تترك أحدهم إلّا صريعاً تحت السنابك في الميادين، أو معلَّقاً على أعواد مشانق الطغاة الشياطين، ثم مصلوباً على جذوع نخيلهم ومحروقاً في أخاديدهم...

ما زالت نفس «الشهيد الأول» الشيخ «محمد بن جمال الدين بن مكي العاملي» الأبِيَّة تعلو وتتألق، ورُوحه العظيمة تسمُو وتحلِّق... فبعد أن نشأ في حِجْر أبيه، شدَّ الرحال إلى «الحِلَّة» ليُتِمَّ تحصيله العلمي فيها على يَدِ "العلَّامة" (أي «فخرالدين محمد بن الحسن المطهر الحلِّي»)، ورَاح وهو يتحسَّسُ عن قريب آثار غارة «التتر» ونكبة «بغداد»، يتلقى ـ مع الفقه والأُصول، والكَلَام والحكمة، والحديث والدِّراية ـ أسرار الثبات والمقاومة، وكيف يكون الدفاع عن الدين والمذهب، والإخلاص لـ «أهل البيت»، ويلقَّن رُوحيَّة العناد المقدَّس، ويتشرَّبُ همَّة إعادة الإعمار، ويتعلَّم فنَّ التأسيس والبناء.

فعادَ ليؤسِّس الحوزة العلميَّة الأُولى في بلاد «عاملة»، أو بلاد «أبي ذر الغفاري»، كما يطيب لأهلها أن يفخروا، وحقَّ لهم الفخر.

وما زالَ في هذا الطريق، يجتهد فيستنبط ويفتي، يصنِّف ويؤلِّف، يُعلِّم ويُرَبي... وما كانَ ذلك يعيقه عن سدِّ الثُلَم وملءِ الثغور وإسعاف دوَيْلة شيعية أقامها في أقصى الشرق السلطان «عليُّ بن المؤيد»، دولة «السربداران» في «خراسان»، الذي طلَب النجدة من عِلْمه، وكتب إليه:

... وإنَّا لا يُوجَد فينا من يُوثَق بعِلمِه في فتياه، أو يهتدي الناس برُشده وهُداه، والمأمول من إكرامه وإنعامه أن يتفضَّل علينا ويتوجَّه إلينا...

فأجَابه وكتب «اللُّمْعَة» وهو رهين حَبْسه في قلعة «دمشق»، فكانت «الدمشقية»، فخلِّدَت وشَرْحُها لـ «الشهيد الثاني»، مَتْناً تحصيلياً في الحوزات الشيعية حتىٰ يومنا هٰذا.

حتىٰ بَلَغَ - قدّس سرّه - القمَّة ونالَ الغاية، وتسنَّم مصداق قول «النبيّ» ﷺ : "فوق كلِّ ذي بِرٍّ بِرٌّ، حتىٰ يُقتلَ الرجلُ في سبيل الله، فإذا قُتلَ في سبيل الله، فليس فوقه برٌّ". قضىٰ - قدّس سرّه - سنة ست وثمانين وسبعمئة بِرَحْبة قلعة «دمشق» قتلاً بالسيف، بعد حبْس دام سنة كاملة، ثم رُجم جثمانه الطاهر، فأُحرق بالنار! ذلك في سلطنة «برقوق» أوَّل ملوك «الجراكسة» بـ «مصر» و«الشام».

من هنا اتخذ «عطا» «الشهيد الأول» قُدْوة له...

من فَرْط ما أُعجب بسيرة ذلك العظيم وأُخِذَ بأصالَته ونقاء نهْجِه، ومن وَحْي رسالته وعطائه، ثم ظلامته، استَلْهَم... اتخذه قُدْوة، فسعىٰ جاهِداً أن يتقصَّى أخباره ويستقطِرها، ويتخبَّر أحواله ويستجليها، ويكتشف أسراره ويتنسَّمها، فيتعرَّف أفكاره ومَواقفه، ما يتجاوز الإطار الذي يُطرح «الشهيد» من خلالِه ويُعرف به، فإنَّ حياة هٰذا العظيم في جوانبها الأُخرىٰ لن تكون أقلَّ شأناً ولا أدنىٰ خطَراً من البُعد "التخصُّصي" الذي اشتُهِر به... تُرىٰ ماذا كان يحمِل من أفكار علىٰ المستوىٰ العقائدي (بعد الفقهي)؟ ما هي رُؤاه علىٰ الصعيد الاجتماعي؟ ما هي مَواقفه في الميدان السياسي؟ وأكثر ما كان يستَوْقف «عطا» ويشْحَذ فيه الهمَّة والعزيمة، ويبعث الشغَف والفضُول، فيلاحقه ويصرف جهده ويركِّز بحثه فيه: سرُّ شهادته الغريبة المحيِّرة.

وقد عُنيَ بهٰذا الجانب أيما عناية، خاصة بعد أن علِم أنَّ "الحوزة العلمية" لا تلقِّب شهداءها وتُدْرِجَهم في عناوين ومقامات تشير إلىٰ الفضْل، وتنطوي علىٰ التعظيم جُزافاً، فتعُدُّ الشهيد السعيد «محمد بن جمال الدين بن مكي» "الأول"، وتحسب «زين الدين الجبعي العاملي» "الشهيد الثاني"، ثم تسجِّل السيد «القاضي نورالله التُستري المرعشي» (صاحب «إحقاق الحق») وتعيِّنه "شهيداً ثالثاً"... لا تفعل ذلك إلّا إذا قضىٰ "العالِمُ" شهيداً علىٰ مذبح الدفاع العقائدي، ولأسباب مذهبية بحْتَة، ومن منطَلَقات تتعلَّق بالحراك والمناظَرة والاحتِجاج العلميِّ مع المخالِفين لمذهب «أهل البيت»، ولا يُدخِلُون في هٰذه الحسبة شهداء وضحايا الصراعات السياسية من العلماء، مهما كانت ظُلامتهم، بل ولا شهداء الدفاع عن الأوطان وجهاد الاستعمار، وإن سَما مقامهم وعظُم خطبهم وارتفع شأنهم. *

وليسَ «عطا» ممن يتهاوَن في قضاياه، ويعيش معها علىٰ حِيادٍ أو سلبيَّة، أو يتركها مُهمَلة مُقْصَاةً علىٰ هامش حياته، بل هو ينفعل بها ويتفاعل معها ويُعايشها حتىٰ يعانقها ويحتضنها...

هٰكذا هو، في رُوحيَّته وشخصيته، قلَّ أن يثِقَ، ناهيك أن يُعْجَبَ بأحَد، وندَرَ أن يؤمن بفكرة جديدة أو مشروع عمل "دَعَوِي"، فضلاً عن أن يدخل فيه وينشغل به، أو يتبنَّاه ويَرْعاه.

---

* وقع الاختلاف في هٰذه التسميات والتعيينات، فمنهم من ذهب إلىٰ أنَّ «الشيخ عبدالله بن المولىٰ محمد المشهدي» قتيل النواصب في «بخارىٰ» سنة ٩٩٧هـ، هو "الشهيد الثالث"، بينما عَدَّ «الشيخ البهائي» «المحقِّقَ الكَركي» هو "الشهيد الثالث"، كما قيل "الثالث" هو «المولىٰ محمد تقي البرغاني»، الذي نال السعادة وبلغ الشهادة علىٰ يد "البابيَّة" سنة ١٢٦٤هـ، ويعبَّر عنه طوراً بـ "الشهيد الثالث" وبـ "الرابع" تارة. ولٰكن ـ علىٰ أية حال ـ يبدو أن الملاك المشار إليه (في التعيين) صحيح.

فإذا آمن بشيءٍ واعتنقه، أو وَثق بشَخصٍ أو أُعجب بشخصيَّة، فلا يكون ذلك من نزوَة أو طَيْش، ولا لِلَهْو أو عبَث، ، لذا تراه يلاحقها بمزيجِ شَغَف وشوْق يحدُوه، وحبٍّ وعشق يجتذبه، وبإخلاص قلَّ نظيره، حتىٰ في أجواء الحركيين العامِلين، من "الرساليين العقائديين" كالشيوعيين والإسلاميين.

هكذا كانَ «عطا»... فتىٰ «جَبَع» الغيور (قيل «جَبَع»: اسم عِبريٌّ معناه التلُّ)، أو هي «جباع» بالمد، وتعرف بـ «جبع الحلاوة»، تمييزاً لها عن «جبع الشوف» في «جبل لبنان»، و«جبع بنيامين» في «فلسطين»، وهي من عمل «الشومر» في جهات «صيدا». ومن الدائر علىٰ ألسِنة أهل «الجنوب» إذا أرادوا أن يذكروا أمراً عمَّ البلاد وشملها كلَّها أن يقولوا: "من «البصَّة» إلىٰ «جباع الحلاوة»". وهي من أنزَه البلاد وأطيبها هواءً وأعذَبها ماءً وأكثرها فاكهة وألذِّها ثمَراً. كانت هي و«جزين» و«مَشغَرَة» مجمع علماء «جبل عامل» وطلَّابها. وكانت مقرّاً لحكم «المنكريين» («آل جواد») في العهد الإقطاعي، ولهم فيها "سراي" عظيمة (دار إمارة) باقية إلىٰ اليوم، وإلىٰ جانبها جامع كبير هو من بنائهم يسمَّى «جامع السراي»، وهو خراب لم يبق منه غير جدرانه...

كان «عطا»، غيوراً، مشهوداً له بالأنفة والحميَّة، والجِدِّ والمثابرة، والسَّعي والحركة، بعد التقىٰ والوَرَع، والالتزام الديني المقترن بالصدق والأمانة، والنزاهة والشرف، فقد كان "مؤمناً" حقاً، كما يقول أهل بلدته، مصدِّقاً لما يدَّعي، وعاملاً بما ينادي...

وقد بدَتْ حركته غريبة في الأجواء الرتيبة للبلدة، والنطاق المحدود للنشاط فيها، وكانت الغرابة تبلغ النشاز عندما يتصدَّىٰ لبعض المظاهر والأفكار والشخصيَّات، ويصطدِم برموز لها وَقْعُها في "عالم الدين"، وأسماء لها موقعها في دنيا السياسة والزعامة.

أفكار ورموز "حزب الدعوة الإسلامية"، الذي كان في بداية آمتداده إلىٰ «الجنوب»، بعد أن أرسيت قواعده وآتسقت شؤونه، وفرغ من التأسيس علىٰ يد «الشيخ علي الكوراني» *، الذي ما آرتحَل وهاجر إلىٰ «الكويت» إلَّا بعد أن آنتظمت الأُمور للحزب في منطقة «النبعة»، شرقي «بيروت»، حيث توغَّل الشيعة منذ القِدَم وآستوطنوا إلىٰ جِوار "الأرمن" وقريباً منهم في «برج حمُّود»...

* ما لبث «الشيخ علي الكوراني»، في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، مع آنتصار الثورة وقيام "الجمهورية الإسلامية" في «إيران»، أن أعلَن آنحلال "حزب الدعوة الإسلامية" (وهو قائد "إقليمَي": «لبنان» و«الكويت»)، ودَعَا لدخُول عناصره في «حزب الله»، فآستجاب الغالبية العظمىٰ، وآلتحقوا بالحزب الجديد حين كان بصيغته الجماهيرية في العمل السياسي، وصيغة "الخلايا المنفصلة" في النشاط الجهادي المسلَّح، التي كتب لها «الشيخ الكوراني» ونظَّر في كتابه الذي ذاع صيته آنذاك: ‹طريقة عمل حزب الله›. لكن جملة أو غالبية من "الدعاة" بقوا أوْفياء - في أفكارهم - لمدرستهم الأُولىٰ، يتحيَّنون فرَص بَعْث التنظيم وإحيائه من جديد.

وهنا أمران ينبغي التوقف عندهما:

الأول: قراءة متمعِّنة في سيرة «الشيخ علي الكوراني» وفكره...

كيف ضرَب مثلاً رائعاً في نكران الذات، حين عمد، وهو المفكِّر والمنظِّر الإسلامي الكبير، ليمارس - بكلِّ شجاعة - نقداً ذاتياً قاسياً، لم يُسبَق إليه، فنَّدَ فيه الحزبية، وأبطَل فِكْر "الدعوة"، ونالَ من شخصه هو قبل الآخرين، ثم من كيان أفنىٰ عمره في بنائه، كان الأول حجماً ونفوذاً في الساحة الشيعية.

في حين تجد بعضهم، من صغار الرجال وأنصاف العلماء، يتهالك علىٰ حفظ "مشروعه" والتمسك بـ "إنجازه" مهما كان محدوداً، لا يتجاوز مؤسسة متواضعة أو جمعية صغيرة في بلدة، آستقطب فيها بعض الشباب، وتراه يقيم الدنيا ولا يُقعِدُها في سبيل الإبقاء علىٰ "جماعته" والحفاظ علىٰ "أتباعه"، في أنانيَّة فجَّة وشخصانية قاتلة، ثم يضفي علىٰ مشروعه ويسبغ عناوين حقٍّ تقصُر عن أدناها ذروته ولا يطيق أقصاه طرَفه! و«الكوراني» تخلىٰ، في سبيل الثورة والمشروع الإسلامي الأُم، وفي طريق تغيُّر قناعته وتصحيح فِكره، عن التنظيم الأوَّل في العالم الشيعي، الذي كان يتصدَّر الساحة ويقود الحركة فيها. ◂◂

انطلَق «حزب الدعوة» تجاه القُرىٰ والبلدَات "الجنوبية"، وهٰكذا "البقاعية"، مُسَخِّراً بعض طلَّاب الجامعات اللبنانية التي كان أبناء الطائفة الشيعية حديثي عهد بها، والأقل عدَداً فيها، من أعضاء ما يُعرف بـ "اتحاد الطلبة" الذي كان وكر "الدعاة" ومعقلهم الأول، شباب كانوا من أبناء «الجنوب» هاجرت عوائلهم إلىٰ «بيروت»، أو كانوا ما يزالون "جنوبيين" و "بقاعيين" إنما سكَنُوا «بيروت» لالتحاقهم بالجامعة، لذا كانوا يفِدُونَ علىٰ القُرىٰ دون أن يثيروا حساسيَّة ويبعثوا ريبة، وبتلقائية وسَلاسة، كانوا يتَّصِلون بالناس ويبثونهم أفكارهم، ثم "يكسبون" العناصر الجديدة وينظِّمونهم ويُلْحِقونهم بالحزب.

»

بل مضىٰ في مسيرة التحرُّر الفكري والانعتاق من الحزبية، لينعطف ثانية ويترك العمل السياسي ويتخلى عن مشروع "الثورة" من رأسه، ويُثبِت كم هي أصيلة ومخلصة بواعث الحركة والفكر عنده، حين انصرف إلىٰ النشاط العلمي البحت، صاباً جهده في الميدان "الولائي"، متفرِّغاً لنصرة التشيُّع والدفاع عن مذهب «أهل البيت».

ولم يكن ذلك الدَّوْر والعطاء كلّه علىٰ طريقة "الثوار الكتَبَة" (ناهيك بالكَسَبَة)! بل قدَّم في طريق "الثورة" كلَّ غالٍ وبذل كل نفيس، بدءاً من اعتباره وشخصيته ومَوْقعه في الساحة، وانتهاءً بفلذة كبده «ياسر» الذي قضىٰ شهيداً في فصائل المقاومة.

ثانياً: أمرٌ غريب ومريب في حال "حزب الدعوة" وشأنه، إذ تسجِّلُ - دائماً - عودته للساحة بعد إقصائه، ورجوعه لموقعه بعد طرْده وما يبدو قضاءً مبرماً عليه، ذلك رغم ما يعرف عنه من ضعف علىٰ الصعيد التنظيمي، وانشقاقات متكرِّرة في قيادته، وتفكُّك مشهود في قاعدته... فكيف يفعل ذلك، ومَن يعود به؟

ولعلَّ السرَّ في المدرسة والنهج العقائدي الذي يؤمن به الحزب ويتبناه... فما ينادي به هٰذا الحزب (وغيره من الأحزاب مما علىٰ طريقته وشاكلته، وإن خالفه في الاسم وغايره في العنوان)، وما يرجوه ويلاحقه من أهداف، هو - في حقيقته - رغبة ومنىٰ كثير من الأنظمة السياسية والحكومات، وحتىٰ دوائر المخابرات، والجمعيات السريَّة، فما إن يسقط المشروع في بلاد أو يتراجع في مكان حتىٰ تجد الأيدي تتحرَّك، والمساعي تبذل، والنجدات تترىٰ، والجهود تتضافر، لتقيل عثرته وتجبر كسره وتضمِّد جراحه، فيقوم من جديد، (كطائر الفينيق الأسطوري!) من بين الأطلال ومن تحت الركام! ■

والقرية (الضيعة) اللبنانية - في طبعها الأوّليّ - منفَتِحة وسهلة غير معقَّدة، لا تستوحش من الغرباء ولا تتوجَّس منهم، بل لعلّها ترحِّبُ بهم وتحتضنهم، فكيف بهؤلاء؟

جاءوا يحمِلون "الوَعْي الإسلامي"، ومرتكَزه - عندهم - تنظيم الأُمة في "حزب" يدبِّر الأُمور، ويستثمر الطاقات والجهود، ويوجِّه القوىٰ، ينتشلها من الضياع وينقذها من الهَدَر، حتىٰ يُقيم نظاماً يستوحي من الدين والشرع الحنيف، بقيادة المجاهدين والصلحاء، و"المبادرين" و"الروَّاد" و"الطلائع"، ضمن نظرية غريبة تتناغم شيئاً مع الرأي السني، تقول بـ "حقِّ القيادة لمن تقدَّم"!...

وأفكاراً أُخرىٰ، يسوِّلون لها، ويحْدُونَ الناس عليها، كانت جلُّها تثير حفيظة «عطا» وتستفزُّه، وتدفعه ليَتَخنْدَق ضدَّهم، ويتموضَع في مقابلهم، ويتحمَّس لمحاربتهم... خاصة في ما حملوه من "فِكْر وُحْدَوِي" في مقابل وعلىٰ حساب "الفكر الطائفي" أو المذهبي.

واللافت أنَّ هٰذا الطرح لم يكن شعاراً سياسياً، وخطاباً إعلامياً يسوِّق للحزب ويسهِّل أنتشاره فحَسْب، ولا كانَ من مُقتضَيات "التقيَّة" وأدواتها التي قد تستلزم التخلي عن بعض عناوين "التبري"، وفروض التعايش في مجتمع متعدِّد، إنما كان مشروعاً حقيقياً، وفكراً جادّاً، ينطلق من عقيدة راسخة بأنَّ كثيراً مما نعدُّه من معالم التشيُّع ونحسبه في ثوابت المذهب، هو من المُحْدَثات والبِدَع التي أُدخلت فيه ودُسَّت، وإنه لو خَلَص وشُذِّب، لألتقىٰ التشيُّع علىٰ نحو التطابق، مع التَّسنُن! أمَّا مسألة "الولاية والإمامة"، المحكُّ الأصليُّ، والجذر الأول للخلاف بين المسلمين، فقد كانوا يعالجونها - ببساطة، بل بدَهاء وشَيْطَنة - علىٰ أنها قضية تاريخية، وحَدَث من الماضي لا ينبغي الوقوف عنده والأنشغال به، ولا تعطيل "المشروع الإسلامي الكبير" في سبيله.

وإلىٰ جانب هـٰذه وتلك، جاؤوا متدرِّعين بٱسم «الشهيد السيد محمد باقر الصدر» المفكر الإسلامي الكبير، والمرجع الفقيه، متدثِّرين بغطائه، ومباهين متشدِّقين، ثم مُستغلِّين ظلامات القمع والأضطهاد الذي كان يلقاه الشيعة في «عراق صدام»، موظِّفين سمعة مفعمة بالتضحية والعطاء، والمحنة والمعاناة، لـكَسْب ما يستتبع ذلك من الشفقة والرحمة والتعاطف فالنُّصرة... أجواءٌ طَغَتْ علىٰ الجانب العقائدي للحزب ووَارِثه، الأمر الذي لم يتنبَّه إليه فيواجهه إلّا قلَّة قليلة، ونُخبة متميِّزة، بل الأوحَدِي من أمثال «عطا».

ومما يلزم توضيحه هنا، أن إخفاق "حزب الدعوة الإسلامية" في «لبنان»، وعجزه عن ٱكتساح الساحة والأستحواذ عليها، رغم المؤهلات والإمكانيات الكبيرة التي كان يتمتَّع ويحظىٰ بها، والفرصة المؤاتية التي سنَحَت له... لم يكن لشيء إلّا قوة المنافسين والخصوم، خاصَّة حركة "أمل" وتيار «الإمام موسىٰ الصدر»، ثم لأنتصار الثورة الإسلامية في «إيران»، والظهور المباغت لـ "حزب الله".

وقد كانت لـ «عطا» قراءته ونظرته، المنطلقة من خصوصيَّات ٱلتزمها، وٱتخذها أساساً في التقييم ومحكّاً في التصنيف... خلَص منها إلىٰ أنَّ أخطَر ما جاء به هـٰذا "الحزب"، أن قَدُم ومن ورائه "رجل دين" منحَرِف (آلت إليه القيادة بعد ٱنفصال «الشيخ الكوراني»).

فقد نهض بالقيادة "عالم" فاسد، طالِب رئاسة، وباحث عن شهرة، وُصُوليٌّ متسلِّق، لا يحجبه وَرَعٌ ولا يردعه حيَاء، متهتِّك، في دعوته الفكرية كما في رسالته العملية والسلوكية، يُلبِس الحقَّ بالباطل، يأخذ من هـٰذا ضِغْثٌ يمزجه بضِغْثٌ من ذاك، يتباكىٰ وهو يقرأ "دعاء كميل"، ثم يسْخَر من رثاء «سيد الشهداء»، ناهيك بمجالس وشعائر العزاء! مصداق لقول «أميرالمؤمنين» عليه السلام:

إنَّ أبغضَ الخلائق إلىٰ الله رجلان: رجلٌ وكَلَهُ الله إلىٰ نفسه، فهو جائرٌ عن قَصْدِ السبيل، مشْغُوفٌ بكلام بِدْعَة، ودُعَاء ضَلالة، فهو فتنة لمن ٱفتَتَنَ بعبادته، ضالٌّ عن هَدْيِ مَن كان قبله، مُضِلٌّ لمن ٱقتدىٰ به في حياته وبعد وفاته، حَمَّالُ خطايا غيره، رهْنٌ بخطيئته.

ورجلٌ قَمَشَ جهلاً، مُوضِعٌ في جُهَّال الأُمَّة، عادٍ في أغْبَاش الفتنة، عَمٍ بما في عقد الهدنة، قد سمَّاهُ أشباه الناس عالماً، وليس به، بكَّر فٱسْتكْثَرَ من جَمْعٍ؛ ما قلَّ منه خيْرٌ مما كَثُر، حتىٰ إذا ٱرتوىٰ من ماءٍ آجن، وٱكْتَثَرَ من غيْر طائل، جلَسَ بين الناس قاضِياً ضامِناً لتخليص ما ٱلتَبَسَ علىٰ غيْره، فإن نزلَت به إحدىٰ المبهمات هيأ لها حَشْوَاً رثّاً من رأيه، ثم قطَعَ به، فهو من لَبس الشُبهات في مثل نَسْج العنكبوت: لا يدري أصابَ أم أخطأ؟ فإن أصابَ خافَ أن يكونَ قد أخطَأ، وإن أخطَأ رَجَا أن يكونَ قد أصاب.

جاهلٌ خبَّاطُ جهالاتٍ، عاشٍ ركَّابُ عَشَوات، لَمْ يعُضَّ علىٰ العلم بضِرْس قاطع، يذرُو الروايات ذرْوَ الريح الهشيم، لا مَلِيٌّ - والله - بإصدار ما وَرَدَ عليه، ولا أهلٌ لما قُرِّضَ به، لا يحْسِب العلم في شيءٍ مما أنكَرَ، ولا يرىٰ أنَّ وراء ما بلَغ مذهباً لغيْره.

وإن أظلم عليه أمْرٌ اكْتَتَمَ به لِـمَا يعلَم من جهل نفسه، تصرخ من جَوْر قضائه الدماءُ، وتَعَجُّ منه المواريث، إلى الله أشكو من مَعْشَر يعيشون جُهَّالاً ويموتون ضُلَّالاً، ليس فيهم سِلْعَة أبْوَرُ من الكتاب إذا تُلِيَ حقَّ تلاوته، ولا سلعة أنفقُ بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرِّفَ عن مَواضعه، ولا عندهم أنكَر من المعروف، ولا أعرف من المنكر.

قدِم "الدعاة" من «العراق» ف «بيروت»، وبضاعتهم أفكارٌ شَوْهاء، ومفاهيم مغلوطة معكوسة، وآراء شاذة منكوسة، تقلب المذهب الجعفري رأساً على عقب، حتى تقضي عليه وتنهيه عن آخره!

وقد ظهر مشروع "الدعوة" في الساحة اللبنانية ك "حلقة ثالثة" في مسلسل الزعامة الشيعية، أو "ضلع ثالث" في مثلَّث السيطرة على الواقع الشيعي في هذا البلد، بدَأ "الثاني" «الإمام موسى الصدر» بإسقاط "الأول"، وهو الزعامات العائلية، لِكِبار المُلّاك والإقطاعيين.

وقد بَدَا الأوَّلان يرتكزان على الهوية الشيعية، متمسكَيْن بها، وإن من منطَلَقيْن مختلفيْن، فالأوَّل تقليديٌّ "أصيل"، لكنه أزرى بالواقع الشيعي وأضاعَه، حتى أصبح الشيعة هم الحلقة الأضعف في المجتمع اللبناني، والعنصر المبذول لمن هبَّ ودبَّ، نهباً للطامع، ومغنماً لكلِّ جامح وجامع، فكانوا قاعدة الأحزاب اليسارية والعروبية، وحتى المارونية ك "الكتائب" و "الأحرار"، بينما "الثاني" (تيار «الإمام الصدر») حركي، إصلاحي اجتماعي وسياسي، استقطب شتات الشيعة في تنظيم كبير، بدأ عسكرياً في منظَّمة "فتيان علي"، وما لبث أن تحول إلى سياسي واجتماعي عريض شكَّلَ "حركة المحرومين"، ثم "أفواج المقاومة اللبنانية"، "أمل"...

في حين جاء "الثالث" ("حزب الدعوة") برسالة جديدة، وإن حملت نفس الخطاب "الثوري" والمشروع الحركي لـ "الثاني" ("أمل")، لكن بلا هوية شيعية! أو قُل جاء من منطَلَق تمييع الهوية الشيعية وهتكها، تمهيداً لإبطالِها وإنهائها، بعنوان الأندماج الكليِّ في الواقع الإسلامي، ونبذ كلِّ ما يفصل الشيعة عن السنة، إلّا ما يخدم مشروع "الحزب" (من الخطاب الشيعي والطائفي!)، بطبيعة الحال.

* * *

نشأ «عطا» مواكِباً هذا التداخل والتركُّب المعقَّد، ما زادَ في بلوَرة شخصيَّتِه وشحذِ صِفاته وصَقْلِ مواهبه و"طبخه" و"أنضَجَه" حتى "أستوىٰ" كما يقال! هذا من جهة، ولكن من جهة أُخرىٰ، أربكَته الأجواء وأضاعت عليه بوصلة الحقِّ ووُجهته وشتَّتَتْهُ بُرْهَة، وهو بعد غِرٌّ حَدَث، لم تنضج مدارك فَهْمِه، ولم تكتمل أسباب حصانته ومِنْعَتِه عن التأثُّر بهبوب الرياح والأنجراف مع السيول والتيارات، ثم هو لم يُسْعَف بـ "حكيم يرشده"، فكادَ أن يهلك...

إذ وَجَدَ فتىٰ «جباع» الغيور، وفي غفلة من الزمن، وضياعٍ من الفكر والعلم، وأضطراب بين كلِّ ذلك وأحاسيسه، وَجَدَ نفسه منساقَة إلىٰ الفكر والنشاط في التيار "اليساريِّ"، ميَّالة إلىٰ ما يُعينه ويسعفه في خطابهم وثقافتهم، ليتفجَّرَ ثورة علىٰ وَاقعه المرير، ويمُوج غضبة لِظُلامات العمال والفلاحين، وعموم المحرومين، وينتفض تمرُّداً علىٰ سَطْوَة الأغنياء والإقطاعيين...

لكن ذلك، من رحمة خاصة ولُطف غيبيٍّ وعناية ربانيَّة، لم يمنعه أن يعيَ مبكراً ويفيق سريعاً، ولا صدَّه عن الحقِّ طويلاً (لا سيَّما أنَّه لم يقع في فخ الأنتساب الرسمي إلىٰ «الحزب الشيوعي»، ولا الألتحاق بأيِّ تنظيم آخر، فبقيَ "حُرّاً")...

ومع بصيص نور لمعَ له من مخزون غَيْرته، وبريقٍ وَمَضَ في وُجْدانه من سليم فِطْرته، انقلب ورَشُد، وآبَ وعاد، وانعطف ليُصبح ذلك الشاب "الجنوبي" الغيور على دينه ومذهبه، المتعصِّبُ لطائفته، حتى صار يُشار إليه ويُعْرَف بالنابذ لأيِّ فِكْر ونهج، أو تنظيم وحزب، يوظِّف معالم الهوية الشيعية في مناوراته وصَفَقاته مع الآخرين، وإن انتهى به ذلك إلى مناصرة وتأييد الزعامات الإقطاعيَّة (من خُصوم الأمس)، لمجرَّد أنها تحرِصُ على المظاهر التي ترسِّخ التَشيُّع وتعتزُّ بالهويَّة المذهبية!

على الرغم من أنه يعلم باليقين، ويقطَع أنها ما تفعل ذلك لله وللحقِّ، لا حبّاً ولا كرامة، بل لتسترضي الناس وتستميلهم، وتثبِّت زعامتها المتهاوية وتؤكد قيادتها المندَحِرة، وتنافس الأحزاب وتواجِه هجمتها "الضارية" التي ضَعْضَعَت مكانتها، وتقرب وتكاد أن تودي بها، فمالَ "الإقطاعيون" إلى خطاب يرسِّخ انتماء الشعب وينتصر لِمذهبه ويذود عن معالم هويته (والحق أنَّ هذا كان في الإقطاعيين سابقاً وقديماً، ولم يكن طارئاً مستَحدَثاً، ولعلَّه كان من مستلزمات الوَجاهة والزعامة)... معالم تتمثَّل بالمعتقدات والثوابت الشيعية المعروفة كالقول بالإمامة والولاية لـ «أهل البيت» والبراءة من أعدائهم، ثم الأحكام والطقوس والشعائر الدينية التي تميز الشيعة عن المذاهب والطوائف الإسلامية الأُخرى، بدءاً من السجود على التربة الحسينية، والشهادة الثالثة في الأذان لـ «أميرالمؤمنين» بالولاية، والجمع بين الظهرين والعشاءَين، واتباع مراجع التقليد، وانتهاءً بطقوس عاشوراء وزيارة العتبات المقدسة لمراقد الأئمة الأطهار، وما إلى ذلك...

بينما الأحزاب وزعاماتها، حتى الإسلامية منها التي يقودها "رجال دين"، والتي جاءت تجارب الشيوعيَّة، كانت هذه المعالم عندها قضايا هامشية مهمَلة، ولعلَّها آخر ما تلتفت إليه فتجعله من همِّها!

بل انحدرت لتجعلها "وَرقة" توظِّفها لمشروعها الخاص، فتفاوِض وتناوِر الآخرين عليها. وكان «عطا» يُسجِّل المفارقة الصارخة التي كانت تحكي وَاقع القوم وحقيقة أدائهم، وهي تنادي وتمارس التضحية (أو التفريط) بتعاليم الإسلام وأحكامه وشعائره، في سبيل "الحزب الذي سيحفظ لنا الإسلام" في مشهد فجٍّ وأداء وَقح!

وعندما كان «عطا» يسأل بعض الحزبيين عن الأمر ويراجعهم فيه، يجد في إجاباتهم ما يحقِّق ظنَّه ويؤكد رؤيته فيهم، إذ كانوا يأخذونه بعيداً ويشطحون بأنَّ: القضية اليوم ليست في هذه المعالم والشعائر (ولا كانت بالأمس، ولن تكون غداً ولا فيما بعد غد)، بل هي في الأصل الذي تفرَّعت عنه، ونحن نرسِّخ ذلك الأصل...

لا قيمة حقيقية للشعائر والطقوس، ولا حتىٰ للمعتقدات، فماذا سيتغيَّر إن لم نحتفل بـ "عيد الغدير" ولم نُثِر حَفيظة إخواننا السنة؟ ماذا علينا إن لم نثبت للسنيين أنَّ "السقيفة" كانت انقلاباً، وما ترتب عليها باطل؟... لا تكن قِشرِيّاً وسطحِيّاً إلىٰ هذا الحدِّ يا «عطا».

كان «عطا» يَعُدُّ هذه المعتقدات والأفكار، وتلك الطقوس والشعائر، وغيرها، فهو يدرجُ أغلب جزئيات الأحكام وفروع الدين في "الثوابت"! ويرىٰ أن ليس في مذهب «أهل البيت»، سواء في طقوسه وشعائره أو في معتقداته، أدوات للمناورة السياسية، ولا زيادات يمكن أن تُلغى وإضافات يجوز أن يُستغنى عنها، أو متغيِّرات يطالها الزمن فتتبدَّل وتتغيَّر، فـ "حلال «محمد» حلالٌ إلىٰ يوم القيامة وحرامه حرام إلىٰ يوم القيامة"... ويقول:

إنما هي عقولنا العاجزة وأفهامنا القاصرة وعزائمنا الخائرة، وما راقَ لنا من زِبْرِجِ الدنيا، وزينة حَلِيَتْ في أعيننا، تتطلَّع نحوَها أهواؤنا وتهشُّ لها شهواتنا...

هي التي خلقَت للشيطان مرتَعاً وأمَّنت له حضناً دافئاً، انطَلَق منه فصارَ يوَسْوِسُ لأوليائه بهذا الانحراف ويُغري أتباعه بهذا الشَّطَط. لقد تخلَّف العِلْم فينا وتراجعت الفضيلة، وضَاعَت الدقَّة وفُقِدَ التعمُّق، وحكمَتِ السطحيَّة والضحالَة، وشاعَ الجهل، ففَشَتِ الرعونة وتألَّق الأبتذال وعمَّ الفساد وازدهر الضلال، فأصبحنا نميلُ مع كلِّ ريح، وننجرف لكلِّ سَيْل وتيار...

إنه خوَر النفوس وهبوط الهِمَم وضعف بل غياب وذهاب الشِيَم، ما جعلَنا خانعين عاجزين ضارعين، يغير علينا ويتخطَّفنا مَن حولنا، فيسومونا الذلَّ ويجرِّعوننا الهوان، ويفرضون علينا مُجاراتهم وموافقتهم، واتباعهم في مظاهر دينهم وطقوس شرعتهم، حتىٰ تنكَّرْنا لأعزِّ ما لدينا، وأعرَضنا وتخلَّينا عن سرِّ شرفنا وكُنه تفوّقنا علىٰ غيرنا.

كان يَعُدُّ هذه المعتقدات وتلك الشعائر خطوطاً حمراء دونها خرط القتاد، ويرىٰ فيها حدوداً ومقدَّسات، دونها الويلُ والثبور وعظائم الأُمور، ويذهب في ذلك إلىٰ الغاية ويبلغ النهاية، فإذا مُسَّت إحداها، نادىٰ وضجَّ بالظليمة وندَب: "وا تشيُّعاه"! وأقام الدنيا ولم يقعدها، وتراه - مع ذلك كلِّه - لا يحسب نفسه إلّا مقصِّراً، لم ينهض بدَوْره، ولم يَفِ الأمر حقَّه، ولا أدَّىٰ بعضَ وَاجبه.

وبقدر ما كان «عطا» معتزّاً مُباهياً بهويَّته، وهي عنده دينه ومذهَبه وتشيُّعه لـ «أهل البيت» لا غير، لا وَطَنه ولا منطقته ولا بلدته ولا عائلته، لا أصله ولا فرعه، ولا أيُّ شيء آخر مما يستهوي غيره فينتسب أو في الحقيقة ينتمي إليه ويعتزُّ به ويواليه...

بذلك القدر وعلىٰ تلك الدرجة، كان غضوباً لهذه الهوية، مستنفراً لأيِّ عارض يخدشها، أو طارئ يريد النَّيْل منها ومسَّها، متخندقاً للصراع - علىٰ الدوام - مفترضاً أنَّ هناك مَن يتربَّص بها ويكيد.

هوِيَّة هبَّت عليها رياحُ التشريق والتغريب فتناهبَتها، وعَدَتْ عليها الغربة وما يُسمَّى بالحداثة فاْحتوَشَتْها، وغزاها التحريف والتزييف فعاثَ ما شاء فساداً وإضلالاً، واْستفرَد بها الأعداء واْستضعفوها فراحَ كلٌّ يقضُم منها قضمَة ويأتي على جانب، فإن راقَ له وأعجبه ما اْقتطَعَ، سرَقه واْنتحلَه، وإلّا لفَظَه ومَجَّه بعد أن لاكَهُ وعلَكَه، وترك الأصل مبتوراً جريحاً مشوَّهاً. وأشدُّ ما يضني «عطا» ويمضُّه، أنَّ النهش والنهب والجرح والكَلْم، كثيراً ما كان يأتي على أيدي أتباع المذهب أنفسهم ويكون من المنتسبين للطائفة!

كان ذلك يسوءُ «عطا» أيما سَوْء، ويورثه كمَداً باطناً وحزناً مقيماً، يتركه وَاجماً ساهماً ضَجِراً في أكثر ساعاته وأيامه، قلِقَ الخاطر، مشغول القلب، كاسِف البال...

ولربَّما هاجَت أحزانه وفاضَت لَوْعته، فتفجَّرت حِوَاراً، بل نِزاعاً حادّاً مع "ضحِيَّة" قادَه حظَّه العاثِر لِيُحَاوِر «عطا» ويحاجِجه، فيُفرِغ «عطا» ما يجيش به صدرُه حِمَماً وصواعق يهوي بها عليه، يحمِّله وِزْرَ ما يفعل الزعماء و"رجال الدين" الذين كان ينسبهم إلىٰ "العملاء"، ويتعمَّد لَفظ "عمَلاء الدين" بدل أن يقول: "علماء"، وهٰكذا ما تُدبِّر الأحزاب والجماعات، مما أزرَىٰ بالدين وشَوَّه المذهب وضيَّعَ القِيَم وهَتَك الطائفة.

يُفرغ همومه ويُنزل صوَاعقه علىٰ ذلك المسكين المغلوب علىٰ أمْرِه...

فالمُراد والمقصود الجِدِّيُّ، والمخاطَبون الحقيقيون و"المجرمون" الأصلِيُّون، الذين تتوَجَّه إليهم التُهم والاْعتراضات، وتنصَبُّ عليهم المؤاخذات والطعون واللعَنات، في بروج مُحَصَّنة وقلاع مَنيعة، تقصُر عنهم يَد «عطا»، ولا يبلغهم حِراكه وشَغَبُه، بل لا يصِلهم صراخه ولا تطالهم ضجَّته.

كان يُجاهر بالوَقيعة فيهم، ويعلن في نَشْرِ رذائلهم وفضْح قبائحهم، وينال منهم في أشخاصهم ويباهتهم، ويشكِّكُ الناس في نيّاتهم وأغراضهم، ويقول إنَّ جُلَّ ما يحدُوهم لهٰذا العبث بالدين واللعب بالمذهب والاّتجار بالطائفة، وتمييع الهوية الشيعيَّة بإنكار هٰذا المعتقد، وترك تلك الشعيرة، والتفريط بذلك المَعْلم، هو الأغراض الدنيوية والمصالح المادية، من جاهٍ وشهرة ومال وزعامة، ويبعث الريبة في نفوس سامعيه تجاههم، وكثيراً ما يكرِّر:

ٱبحثوا أيُّ السفارات تموِّل هٰؤلاء ومن أيّها "يقبضون"؟!

وكان «عطا» قد شخَّصَ مبكِّراً وٱفترض وجود "إمام ضلالة"، هو الذي يقود مسيرة التمييع، ويتولىٰ التفريط بمعالم المذهب، وينهض بمهمَّة التشكيك بالمعتقدات وإنكار الفضائل والظلامات، فيتقصَّده ويصبُّ جام غضبه عليه... وفي ظلِّ هيمنة الإعلام وسَطْوة العوام، عاش «عطا» غربة أقصَتْه عن محيطه، وشوَّهَت صورته في أعين الناس وبذَأتهُ، فكيف له أن يمسَّ رمزاً دينياً بهٰذا الحجم، ومَن يكون هٰذا الشاب حتىٰ ينتقد «السيد» وينال منه؟!

ومما كان يؤكد لـ «عطا» صِحَّة ما يقوم به من التعرِّض للرجل، وتركن إليه نفسه من وُجوب ٱستمراره في فَضْحه والوقيعة فيه، علىٰ نحو الواجب المُتَعَيِّن، إذ لا أحد غيْره ينهض بهٰذا الدَّوْر... معارضتُه والاّحتجاج عليه بأنَّ الرجل عالِم مشهودٌ له، تنادي بٱسمه الصحافة وينوِّه الإعلام، تعرِّفه وتشهد له وتمجِّده وتزكِّيه، وإنهم لا يرَوْنَ مَن يغمز فيه، ولا يجدون مَن يطعن فيه غير «عطا»!...

فإذا بلَغَت معارضتهم ووَصَلَ دَفْعُهم علىٰ شذوذ آرائه وغريب أقواله، مما يسوقه «عطا» ويعرضه من إجماعات العلماء وتسالُم الطائفة وضرورات المذهب، أن يقولوا حين يدفعون:

إنَّ الرَّجل مجتهدٌ له رأيه، وليس بالضرورة أن يتَّفق مع آراء بقيَّة المراجع والمجتهدين، وليس لك أن تردَّ عليه، وأنت، وإن كنت ذا حظٍّ في العلم والثقافة الدينية، إلّا أنَّ ذلك لا يخرِجك من "العوام"... فما لَكَ والدخول بين العلماء؟

عندها ترىٰ «عطا» أنتفض وصدَحَ بلُغة مِلْؤها الثقة والأطمئنان:

أُقسِم بالله إنه ليس من أهل العلم والفضيلة، لقد أخَذْتُ هذا من زملائه وأقرانه، وممن صاحَبَه في صِباه وشبابه، وقد سبَقَني وَالدُه في التوجُّس من جَهْله ورُعونته والخوف مما سيُنزل بالمذهب ويُبدع في الدين، كشف ذلك في رسالة خطَّها إلىٰ أحَد الأعلام في «الشام»! بل لدَيَّ، وفي المتناول المبذول، من المصادر التي تحكي عن قلمه وبنانه، وتُفصِح عن لسانه وبيانه، مما يزلُّ به المُكْثِر، ويفلِت به مَن يريد الله فضحه وهتكه... ما يثبت جهله ويبرهن علىٰ خوائه.

لقد قضىٰ أيامه المعدودة في الحوزة العلمية في «النجف الأشرف» عابثاً متسَكِّعاً، لاهِياً بالشعر والأدب عن الفقه والأُصول، وبمطالعة الصحف والمجلات المصريَّة والبغدادية عن الكلام والفلسفة والحكمة، وبـ "قعدات" الأُنس والسَمَر عن التفسير والحديث، وبالترفيه والأستجمام في البساتين وعلىٰ ضفاف الفرات عن العبادة والتربية والأخلاق وتهذيب النفس... فمتىٰ دَرَسَ ومتىٰ تعلَّم، وكيف حصَّل وأجتهد حتىٰ صارَ من أصحاب الرأي والنظر؟

لا يصبح أضراب هٰؤلاء مجتهدين، ولا يبلغون الفقاهة، وهي منزلة دونها سهَر الليالي وتعَب الأيام، وجِدٌّ ومثابرة مع شغَف وإيمان، وصبْر مع شَوْق وإخلاص، وعمر مَديد لا يبَدِّدُ صاحبه يوماً، بل ساعة منه في غير الطلَب والتحصيل... وصاحبكم عادَ إلينا في الثلاثين، وأنشغل هنا بالسياسة عن الدين، فمتىٰ بلغ الأجتهاد؟

ولو سألتم أهل الفنِّ والتخصُّص لَقِيل لكم بأن ترَّهاته التي يهتك بها الدين ويهدم المذهب ويلقيها كأجتهادات هي التي تفضحه وتكشف زيفه، فهي إما ليست من مَوارِد الأجتهاد، أو هي من تهافت الدليل وضَعف الحجَّة وأضطراب المبنىٰ ما لا يصدر عن مجتهد حقيقي! إنَّ الشهادات في العلماء لا تصدر من الصحف والتلفزيونات، ولعلَّها، إن صدَرَت، كانت شهادة معاكسة ودليلاً علىٰ ما أقول فيه وصحَّة ما أرميه! إنما يأتي العلماء - يا قوم - بالشهادات من مشايخهم وممن تلقُّوا العلم منهم، فهل يملك صاحبكم شهادة من هٰذا القبيل؟ هل له بواحِدَة يردَع فيها أمثالي ويفحمهم؟

كان «عطا» في بداية الأمر، حين كان وَحْدَهُ يتصدَّىٰ لهٰذه الأُمور ويصدَح بها، يحْسَب أنه يطرُق أبواباً مُوصَدَة ويناطح أسواراً حجرية عالية، وأنه طارَ شكيراً فخذَلَه زَغبُه... ولٰكن الواقع أنهم كانوا في حذَر ووَجَل، بل فزَع ووَهَل، من تلك الصرخات الفردية، والحراك الذي كان يبدو - لِوَهْلة - عبثاً و "زوبعة في فنجان" ... وإذا بها طوفان! تعرف ذلك من ردَّات فِعلِهم في محاصرته وتطويقه، وطريقة مواجهتهم وسَعيِهم لتسقيطه، كشفت كم كان «عطا» مؤثراً وفاعِلاً في حِراكه.

أطلَقوا عليه التُّهم وطوَّقوه بالإشاعات، حتىٰ شكَّكوا في عقله، فوَصَفُوه بالعُتْه وبلغوا به إلىٰ حدود الجنون والخَبَل! ثم طعَنوا في دينه ونيَّاته، وأغراضه وأهدافه، ثم في سلوكه وأخلاقه... فما أجدَاهم شيء من ذلك ولا نفعَهُم، ولا أثَّر في «عطا» ولا في مكانته بين الناس! وهم أحزاب وجماعات منظَّمة، لها أموال وإمكانيات، وهو فردٌ واحد. و "لولا رَهْطُه لرَجموه" ، لولا عائلته الكبيرة، المؤثِّرة، ذات المكانة في الأحزاب والزعامات، لقتلُوه، لٰكن يبدو أنَّ الله كان يريد له دوراً حفظه له، ويدَّخر له مسؤولية أبقاه لينهض بها!

والحقُّ، أنَّ شخصية «عطا» أعانَتهم بعض الشيء في التهجُّم عليه وإرباك وتشويه مشروعه الخطير... لم يكن «عطا» حكيماً، ولا كان خبيراً بأساليب المواجهة وفنون الصراع السياسي، لم يحسن إدارة معركته، ولا عرف كيف يخاطب الناس بما يجمع بين رسالته وبين عدم تحسُّسِهم وتنفُّرهم، وهكذا عدم بذل الحجج للخصوم. بل كان يستشيط غضباً إن طالَبه أحد بالرويَّة والتمهُّل، وبٱستخدام الحيلة أو "التقية"، ويصرخ فيه: "ما قتلتنا إلّا الرويَّة في هذه الأُمور، هذا ما يريده هؤلاء، أن أُجاريهم في طريقتهم، فيعطوني شيئاً من دنياهم بسكوتهم عن تشويه سمعتي، وأبذل لهم شيئاً من ديني بسكوتي عن ضلالاتهم، لن يغريني عن ديني معسول اللفظ ومنمَّق القول هذا".

ولا يعني هذا إنه كان فظاً غليظاً... كلّا!

نعم، كان «عطا» متمرِّداً جموحاً، صلباً شديداً، يميل إلىٰ التطرُّف والغلو، لا تجانب الحقيقة ولا تظلمه شيئاً إن نَعَتَّه بالتعصُّب الديني، ولكن هذا كلُّه كان في المعتقد والفكر والرأي، علىٰ عكس ما كان في السلوك والتعامل من مرونة وٱنفتاح، ورحمة ورِقَّة، ميّالاً إلىٰ التفاهم والبحث عن مواطن التناغم، وتحرِّي أسباب الحوار فٱلتفاهم واللقاء، إنما دون أن يتراجع قيد أنملة، أو يعطي من معتقده مثقال ذرة...

كما لا يعني ذلك أنه كان جاهلاً لا يملك إلّا السِبَاب والتشنيع...

كلا... بل كان مثقفاً، واسع الأطلاع، غزير المعلومات، بصيراً بما يقول ويطرح، محيطاً بالمواضيع التي يثيرها ويجادل فيها، بل معمِّقاً البحث وآخذاً به إلىٰ جذور ومواقع تكشف عن وَعْيٍ ودراية وإحاطة تترك محاوِريه في بهت وذهول وٱنعقاد لسان وإفحام، وهو يعود بهم إلىٰ أُصول المشكلة ويغوص معهم في تفاصيل لا تخطُر لهم علىٰ بال، من فرط ما ٱستقصىٰ في هذا الأمر وغاصَ.

وبعد "إمام الضلال"، كانت لـ «عطا» مشكلته وقضيَّته مع الناس، وهي الموقف من "الآخر"، كيف يجري التعامل معه، وكيف ينبغي أن يكون؟ وقبل ذلك، وفي ظروف التداخل وأجواء التمييع والضياع، ثم الجهل والتنكر للأُسس المذهبية:

مَن هو "الآخر"؟

وما هو المنطَلق في تحديده ورسم معالمه وتشخيصه؟

وفي العمق كانت الأزمة، أزمة هوية وانتماء...

مَن هو "الآخر" في بلَدٍ متعدِّد الأعراق والأديان والثقافات؟...

«مرَدَة» قدِمُوا من «قلقيليا» و«جبال الأمنوس» أو بلاد «البُلغَار»، أو «جراجمة» من «الفينيقيين»، و«بيزنطِيُّون» من بقايا «الصليبيين»، و«كنعانيون» ينتسبون إلىٰ «الشام»، بما تعنيه «الشام» من حضارة وثقافة ما زالت تكتنُّ "الأُمويَّة" وتعيشها، و«عثمانيُّون» من بقايا «الترك»، و«أيوبيُّون» من شَتَات «الكُرْد»، ثم امتدادات لـ «الحشاشين» و«القرامطة»، و«تنوخيون»، و«فرس» من بقايا حملة «كورش» علىٰ الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وجذور «قحطانية» من «بني عاملة» قدِمَت من «اليمن»، «شركَسٌ» و«أرمَن» و«كِلدَان» و«سِرْيَان»، و«أنبَاطٌ» كرسيُّهم الأول وحَبْرُهم الأعظم في «أنطاكية»، و«تغالبة» و«لخِميُّون» جاؤوا من «بُصرىٰ»...

شيعة وسنيُّون وموارنة وأرثوذكس وروم كاثوليك ودُرُوز وعلَوِيُّون، وسواد من العلمانيين اللادينيين، وملحدين دهريين، وحتىٰ مانَوِيين وبهائيين ووَهابيين... خليط قلَّ أن تجده، بهٰذه النِسَب والأحجام، في غير هٰذا البلد. فإذا جمعت إلىٰ ذلك، المذاهب السياسية والمدارس الحزبية، شرقية وغربية، التي انحدرت إلىٰ «لبنان» وانهالت عليه من كلِّ حَدَب وصوْب، وَجَدَت علىٰ أرضه مراغماً كثيراً وسِعَة، وقرنْتَه إلىٰ

التفاوت الطبقيّ وإفرازاته التقسيمية، ثم رَوافد وعوَائد هجرات أبنائه إلىٰ «أميركا» و«أوروبا» و«إفريقيا» و«أستراليا» و«بلاد الخليج»، الروافد التي لم تكن تنحصر بما يضخُّونه من أموال. وألحقتَ بكلٍّ هٰذا وذاك الدوْر "التحرُّري" الذي نهض به هٰذا البلد، فاستتبع ذلك أن صارَ معتركاً لدوائر الاستخبارات، حتىٰ قيل إنَّ لكلِّ جهاز مخابرات في العالم فرعٌ في «لبنان»، وغدا ساحة للجمعيات السرية كالماسونية!...

ستجد إنك أمام تركيبة صعبة معقَّدة، وبلَد متنوِّع متعدِّد، تكاد تكون لكلِّ محافظة وإقليم فيه، وكلِّ منطقة ومدينة، بل لكلِّ بلدة وقرية، هويَّتها الاجتماعية المتميزة وآدابها وأعرافها الخاصة، وأحياناً لهجتها، ناهيك بطقوسها وشعائرها الدينية والمذهبية.

وفي المقابل، كانت الدولة، دولة «لبنان الكبير»، تسعىٰ جاهدة إلىٰ بَوْتَقة واحدة تصبُّ هٰذه الأطياف فيها، ومحوَر يجمعها فتدُور عليه، وتتشبَّث بأيِّ عنصرٍ جامع يلتقط خيوطاً من ذلك الشتات، وألوان الطيف المنشور، علَّه يصنع مُقَوِّماً ينهض بها، ويرسي أساساً تبني عليه وجودها، وتُحْكِم كيانها.

والغريب أنَّ ذلك السعي لم يكن يأتي علىٰ حساب الأقلِّيات (في هُوِيتها) كما هو مقتضىٰ الحال وطبيعة الأمر الذي تجده في باقي البلاد والحالات، بل كان يأتي علىٰ حساب الأكثر حِرماناً واستضعافاً، وإن كان الأكبر عدداً والأوسع رقعة وأرضاً، أي "الشيعة"!

كانت الدولة ـ وما تزال ـ تسعىٰ لِأنْ تُذيب الكيانات الطائفية وتصهر الهويات المذهبيَّة في بوْتقة الوطن الواحد، وتبذل جهداً عظيماً علىٰ هٰذا الصعيد، ومن الطبيعي أن يأتي هٰذا الجهد علىٰ الخصوصيات العقائدية والشرعية للطوائف والمذاهب، إذ ما كانت تصبُّه ولا توجهه علىٰ توحيد الكيانات والمشارب السياسية، بل علىٰ الدينية والثقافية.

لكن ذلك ما كان لِيَنال من فِكْر «عطا»، وصراعه في صنع وبلوَرة هويته: مَن "نحن"، ومن هو "الآخر"؟ خاصة إنه كان يسجِّل ـ بمرارة وقهر ـ أداء الدولة، ويرصد متألماً تخاذل زعماء طائفته عن المطالبة بحقِّها، وتهاونهم عن "شكليَّات" و"رمزيَّات" تعني أُموراً كثيرة على صعيد الهويَّة والأنتماء المذهبي... لماذا تكرِّر الدولة ـ على سبيل المثال ـ الأحتفال الرسمي والتعطيل في ميلاد «المسيح» لمرات متعدِّدة، وَفقاً لتقويم كلِّ مذهب مسيحي، بينما تعتمد التاريخ السني لمولد «النبي الأعظم» (أي الثاني عشر من ربيع الأول) وتهمل وتتجاهل التقويم الشيعي (السابع عشر منه)؟لماذا يباهي البطريرك الماروني بصورة «بابا روما» فوق مقعده الرسمي، ولا يفعل رئيس المجلس الشيعي ذلك مع صورة المرجع الأعلى في «النجف الأشرف»؟

كان «عطا» يعيش إشكالية الهوية والأنتماء، لا في نفسه، فقد حَسَمَ خياره مبكِّراً وسريعاً، إنما على صعيد أبناء طائفته، وكيف خفَّت وهانَت هذه المعالم عندهم فهَوَت إلى حضيض لا يتناسب مع موقعهم ودورهم التاريخي ومجدهم العظيم، وهم الذين نقلوا التشيُّع ونشروه في «إيران»، أكبر بلد شيعي في عالم اليوم!؟

ضاعَت الهوية الحقيقية وتشوَّه الأنتماء عندَهم وأنحدَر، حتى صار للعائلة أو البلد أو الوطن، أو للحزب والجماعة السياسية... كان يلحظ ويشهد ـ بأنزعاج ـ ما يعمد إليه بعض أهل بلدته من تصنيف "الآخر" في كلِّ مَن ليس من «جباع»، وإن كان من «جرجوع» أو «عين بوسوار» أو «عين قانا»، وغيرها من قرى «إقليم التفاح»، التي هي على مرمى عصا من بلدته! ويسجِّل بحسرة ومرارة تخندُق بعضهم في جبهات الزعامات الإقطاعية، فهذا من "زلم" «الأسعد»، وذاك من «الزين»، وهؤلاء لـ «حمادة»...

أما في فكر «عطا» وفهمه، فـ"الآخر" هو مَن لم يكن شيعياً...

ويعجب: لماذا التنكر لآثَل مَجْدٍ، والتنازل عن أرفع تاج، والتخلي عن أعظم فخر، وبيع أثمن دُرَّة، وتضييع أعَزِّ جوهرة؟ لماذا نحن - دون غيرنا - الذين نداري ونتنازل لنقترب من "الآخر"؟ ويبقىٰ غيرنا في موقعه، لا يتقدَّم تجاهنا خطوة واحدة، لا مَحبَّة ولا مُجاملة؟ لماذا ندفع لعلاقاتنا من ديننا ومذهبنا وهويتنا وعقيدتنا، لا من دُنيانا؟

كان في غاية الحَنَق علىٰ ٱسمه وأسماء إخوته وأخواته:

«نـزيه»، «وَسيم»، «ربيع»، «زاهي»، «نضـال»، «رانيـا»، «ريما»، «سهام»، «ناديا»... أسماء صِفة، لا تشير إلىٰ علَم وشخصِيَّة، ولا تكشف عقيدة ولا تربط بهويَّة.

وكان ردُّ وَالده علىٰ هٰذا، إنه لم يُرِدْ لهم العناء الذي سيلاقون، إن سمَّاهم بما يكشف عن مذهبهم ويُحدِّد طائفتهم، فتتعرقل أمورهم وتتعسَّر معيشتهم... يزيده ألماً ومحنة!

حتىٰ في ٱنتمائه الأول (شيوعيته)... كان يشعر أنَّ أغلب المنتمين لهٰذا الحزب من الشيعة، ٱنتموا - في الحقيقة - إلىٰ مشروع يلحقهم بـ "شيء" آخر غير مذهبهم، فلا تتوجَّه النظرة إليهم من خلال معالم هويتهم الشيعية، ويتغيَّر التعاطي معهم إلىٰ غير منطلق معتقداتهم الدينية، تلك النظرة والتعاطي الذي يختزن أربعة عشر قرناً من الأضطهاد والتنكيل والأستضعاف، بدَأ بـ "السقيفة" ولم ينته بعد، وبلغ في بعض مراحله حدود الإبادة الجماعية وٱستئصال الشأفة! ودَخَل في مراحل الأمان القليلة التي عاشتها الطائفة في متاهة "الخجل" من بعض الممارسات والطقوس، والتنكُّر للمعتقدات التي لا تروق لـ "الآخر".

وكان «عطا» في حيرة من أمْـرِه علىٰ هٰذا الصعيد، ٱنتهت به إلىٰ خجل من نفسه!...

إذ بانَ له وٱنكَشَف، في لحظة تأمُّل ومراجعة لماضيه، بأنه شخصياً لم يسلم من هذا الداء، ولم يكن متحرِّراً تماماً من هذا السلوك المشين!

نعم، لقد عاشَ ـ هو أيضاً ـ بعض مَراحِل حياته ضحيَّة لذلك المرض، ورهيناً للعُقدَة التي يُدين اليوم ويُقبِّح، كان يستحي من تشيُّعِه، ويتنكَّر لبعض معتقداته... لم يَحْدُه ـ في التحاقه باليَسار ـ الخوف والقهر، ولم يكن يخفي مذهبه تَقِيَّة، مما قد يكون لَهُ وَجْهٌ يصرف القُبح ويزيل العار من هذا السلوك المشين، أو يخفِّفه في الأقل، بل كان في طريق ومسلك مَن ينزع عنه هُويته ويخرج من ثوبه ويتلبس بغيْر زِيِّه، تماماً كما كان يفعل سواد الشيعة وعامتهم!

كان في صِباه أسير الرؤية الاَستضعافية التي صنَعَتْها عهودٌ متمادية من الاَضطهاد، وهكذا النظرة الدونيَّة التي يرمق "الآخرون" الشيعة وينظرون بها إلى "المتاولة"!

فكأنه ـ مثل ذاك السواد ـ يريد الخلاص و"التحرُّر" منها.

كان يتساءل، من خلال هذه الذكريات المزعجة، وإحْبَاطه من مَساعي الخروج والاَنفكاك، فالعجْز عن مغالبة الخجل، والفشل الذي يعتريه منها، ما يدفعه ليغُور في متاهة جديدة، مؤلمة هي الأُخرى، من التفكير، ثم لا يلبث أن يعود ليتساءل بحرقة وحَسرة:

كيف كنت هكذا؟

أوَغلبني الضعف وشملتني الهزيمة وٱرتهنني اليأس حتى تنكَّرتُ لهويَّتي وتخلَّيتُ عن مذهبي وصرت "ماركسياً"؟ وٱتخذت ذلك غطاءً أنطلق منه في الحديث والحركة، والنشاط الاَجتماعي والبروز في أندية المثقفين وصالونات النُخَب، مما كنت أحرص عليه وأتكالب؟ فأجِدُ السلوة والمَغنَم هناك، فأنا منتسب إلى فكر "أمميٍّ" "تقدميٍّ" يجمعني و«جون ريد» صاحب: "عشرة أيام هزت العالم"!

أوَحقاً كنتُ مقتنعاً بكتابه، أو حتىٰ مُعجَباً به، وأنا أعرض ملَخصّاً عنه في إحدىٰ الجلسات؟ أم كنتُ "منافقاً" يعيش الهزيمة في داخله، يداري خواءَه ويستر ضعفه ويخفي عجْزه، وهو يعرض لمستمعيه قراءة في الكتاب وتعريفاً به؟

فأعرض (عشرة أيام هزَّت العالم) بأنفعال وحماس:

من أروع وأبدع ما كُتب عن الثورة الروسية...

و«جون ريد» صحافي شيوعي أميركي، تعرَّض لكثير من المخاطِر وهو يتنقَّل بين الثوار وجنود "الجيش الأحمر"، وبين العمال والفلاحين "البلاشفة"، راصِداً أهمَّ وأصعب المواقف السياسية والشخصيَّة والإنسانية التي تتظافر وتتكامل مع بعضها لترسم أدقَّ تفاصيل الثورة الروسية بكُلِّ يُسْر وسلاسة، في أُسلوب روائيٍّ وأدبيٍّ شيِّق، حتىٰ إنَّ القارئ العادي، الذي لا يعرف مُسبَقاً مَن هم "البلاشفة"، أو ما هي "ثورة أُكتوبر" أو "ثورة فبراير"، ويجهل كثيراً من أسماء الأحزاب السياسية والمدن الروسية... ستكون لدية صورة وَاضِحَة تماماً عن تضحيات الشعب الروسي فى سبيل إسقاط الدولة القيصرية ثم حكومة الرأسماليين المؤقتة، وإعلان نجاح أول ثورة أشتراكية فى العالم.

وإن كان «جون ريد» قد عانىٰ الأمرَّيْن فى سبيل إعداد كتابه، متحمِّلاً دوِيَّ الرصاص والأنفجارات من حوله... فقد عانىٰ ما هو أشدُّ من ذلك في وَطنه «أميركا» عندما أراد أن ينشره.

فحتىٰ ذلك الوقت لم تكن الحرية الفكرية وقِيَم الديمقراطية في «أميركا» و«أُوروبا» تسمح إلّا بنَشْر الأكاذيب والأدعاءات البرجوازية التي تشوِّه الثورة الروسية، حتىٰ لا تستقطب عمال وفلاحي تلك البلاد نحو بطولة "إخوانهم" في «روسيا»، وكيف أستطاعُوا أنتزاع السلطة من أيدي مستغليهم. (!)

وقد عُرِّضَت المخطوطة الأصلية لـ "عشرة أيام هزت العالم" إلىٰ عدَّة محاولات سرقة علىٰ أيدي قطَّاع طُرُق لإتلافها، لا أراهم إلّا عملاء للمخابرات المركزية، ولٰكن رغم المصاعب والعراقيل كافة، فقد أصدر "الرفيق المناضل" الكتاب في «أميركا» عام ١٩١٩، وأصبح المؤلِّفُ الأول في الأدب العالمي الذي قصَّ علىٰ الإنسانية جمعاء، حقيقة الثورة الاشتراكية المنتصرة فى «روسيا»، هٰذة الثورة التى دشَّنت بداية عصر جديد فى تاريخ الإنسانية... عصر "الثورة البروليتارية". (!)

هل كان ذلك عبثاً منِّي ونزوَة، وطَيْش شباب وغفوة؟ أم هي مصالحي، أبحَثُ عمَّن يحققها، وأُوظِّف ما يمكنني في سبيلها؟ هل كنتُ قادِراً علىٰ المشاركة في تلك الجلسات، وأن أُحسَب في ذلك العِداد المثقف المستنير، دون أن أكون تقدُّمياً كما يريدون لي من مِلَّة ويختارون لي من هويَّة؟ لماذا كانت المشاركة والحضور في ذلك الجمع، مع أُولئك يعني لي كلَّ هٰذا؟ نعم، كان ذلك ـ كلّه أو بعضه ـ طمعاً أن أحظىٰ ويفسح لي "الرفاق" فرصة للبروز، وتهالكاً أن يمهِّدوا لي طريقاً للظهور؟ ويشفعوا لي عبْر مَواقع نفوذهم، فأحظىٰ بوظيفة مرموقة في الدولة، أو بدور مستقبليٍّ في الريادة والقيادة، ولربما في مجالس "البلدية" أو "النيابة" البرلمانية؟ كانت مطامع وأهواءً لا أُبالي من أي طريق تتحقَّق؟

ولولا أنهم كانوا يتبارَوْن ويتفاخرُون في التظاهر بالكفر وإنكار الدين والاستهزاء بالقِيَم وهتك الحُرُمات، والسخرية بالمقدَّسات، لَمَا ردَعَني رادع ولا صدَّني عنهم شيء... كانوا يتعمَّدون إهانة المصحف الشريف، ويتنافسون في ارتكاب المنكَرات واجتراح الفواحش، ويعلِنُون في ذلك ويتباهون، ليثبتوا تحلّلهم، ويبرهنوا ـ بذلك ـ أنهم شيوعيون حقاً! وكأنهم متَّهمون، مُدَّعىً عليهم، بكلِّ ما سُقْته علىٰ نفسي، فيسعىٰ كلُّ واحد لإظهار العكس، وإثبات البراءة... "وكادَ المريب أن يقول خذوني".

آه... كم هي محرجة ومَعِيبة هذه المشاعر، فأنا أحتقر نفسي لمجرَّد تذكُّرها، فكيف بالأفعال نفسها؟ ولا أقصد الذنوب والمعاصي، بل بواعث اقترافها وأسباب اجتراحها، أن يعمد إليها شيعة، ليُثبِتُوا أنَّهم ليسوا شيعة، وإن كانوا وُلِدُوا يحملون هذه الهوية، فإنهم ما عادوا يريدونها... يا للذلة والهوان!

إنني لا أرى اليوم شيْناً ودَنِيّة ومعرَّة وغميزة أشدَّ من تلك الحالة التي كان فيها أُولئك النفر (وأنا ـ إلى حدٍّ ما ـ منهم)، وقد نزعوا ثوبهم ولباسهم، وخرجوا من هويتهم، وتنكَّروا لمذهبهم وعقيدتهم.

❁ ❁ ❁

كانت هذه الذكريات الأليمة والخواطر الموحِشَة تأخذ «عطا» وتتناهبه يَمْنَة ويَسْرة، عندما يخلو بنفسه، في "صومعته" التي اتخذها بجوار «وادي الدامور»، يكمن لـ "الطبسون"...

و"الطبسون" حيوان نادر، سُمِع به ولم يُرَ، أو قلَّ أن رُئي، وهو بحجم الأرنب، لونه أسمر رماديٌّ باهِت، وله أُذنان مستديرتان، وذَنَبٌ قصير جداً، وفيه بعض الشبه بالقوارض.

يقضي أكثر النهار منزَوِياً في جُحْره بين الصخور، لا يخرج في طَلَب رِزقه إلّا عند المساء أو باكراً في الصباح، وقيل إنه نباتيٌّ لا يطعَم اللحوم، ومع ذلك فأسنانه قلَّما تشبه أسنان القوارض. والغريب أنَّ هيكله العظمي وأعضاءه الداخلية تشبه هياكل بعض الحيوانات اللبونة الكبرى وأعضاءها الداخلية، فأسنانُه وعظام قَدَمَيه الخلفيتين تشبهان ما يقابلهما في "الحصان"، بينما عظام قدَمِيه الأماميتين صورة مصغَّرة لِعظام قدَمَي "الفيل"! وقيل أن لا وُجُودَ لهذا الحيوان خارج «سوريا» و«فلسطين» إلّا في «إفريقيا الجنوبية» و«الحبشة»، وأكَّدوا أن لا وجود له في «لبنان»...

وقد سمع «عطا» هذا القول يوماً مُلحَقاً به أنَّ متحف الأحياء البرية في الجامعة الأميركية بـ «بيروت» يحوي بعضاً منها مُحنَّطاً، جيء بها من جوار «وادي الدامور»... فراحَ فيما يشبه التحدِّي، يطْرد هذا الحيوان، فيخرُج إلى أطراف «دير كوشة»، إلى الشمال من «بيت الدين»، يكمُن في مغارة من تلك الأودية، يقضي فيها أياماً بلَياليها، ثم يعود إلى بلدته خالي اليد من "الطبسون"، ولكن بصيد آخر يُتحِف به صبيان قريته.

كان يعود ببعض من "دبابة الشوك" (أو "كبابة الشوك" بلهجة الشمال اللبناني)، الذي يلتبس على بعضهم فيظنونه "القنفذ"، فالاثنان مغطَّيان بأشواك صلبة حادَّة، على الرغم من أنَّ الفرق بينهما كبير والبعد شاسع، فالقنفذة البالغة قد يتجاوز حجمها شاة صغيرة أو جرواً كبيراً، لكن بقوائم غاية في القصر، وأشواك القنفذة طويلة كبيرة، وثخينة، وينقلب الشوك على ظاهر عنقه وبين منكَبيه ليتكوَّن منه عُفرة قائمة كالقُنبرة. أما "دبابة الشوك" فشوكها كلُّه قصير صغير، أكثف من شوك ثمرة "الصبَّار". ثم إن القنفذة مضرَّة، تتلف المزروعات وتقتات على البطيخ والجزر والبطاطس، أمَّا "دبابة الشوك" فمفيدة لأنها تعيش على الحشرات وتقتل كثيراً منها، كما تفترس أيضاً الفئران الصغيرة، وبعض الزواحف، وحتى الحيَّات الصغيرة.

كان يعود متعزِّياً بصيده المتواضع، يوزِّعها بين أطفال الحيِّ، يلهُون بها... مدَارِياً "فشَله" بقِصَص وحكايات مشوِّقة ينقلها في ليالي الصيف العامرة بالسَّمَر، حين يلتفُّ الجيران حول "ركوة قهوة" كبيرة، يعينهم احتساء فناجينها المتتالية على السهر، تتخلَّلها تنبؤات «انتصار»، «أُم محمد»، من وَحْي "تبصير" صُبابة القهوة، وقراءة ما ترسمه بقايا البُنِّ غير المذاب في قاع القَدَح أو الفنجان، من خطوط ونقوش وأشكال ترمز إلى وتحكي عن:

"اْتصال"، و"هديَّة"، و"خبر طيَّارة"، و"جَمْعَة" تستدرُّ دمعة أُمٍّ بَرَاها الشوق لاْبن طال غيابه، فزَفْرة دعاء: "إن شاالله عن أريب يا تقبرني يا بلال"، و"سجرة عز" (بالسين لا بالشين!)، و"فارة" ترمز إلىٰ نمَّام، و"حيَّة" تحذِّر من عدُوٍّ، و"طريق سفر"، و"صَمْدة عرُوس" تبشِّر الصبيَّة بزَوْج، و"طاقة" أي "قبَّة"، إمَّا أن تكون "باب فرج" إذا كان مَن اْرتشف الفنجان في ضيق، أو هي "طاقة" تُنبئ بالتوفيق لحجِّ بيت الله الحرام أو زيارة العتبات المقدسة في «العراق»، إذا كانت صاحبة أو شاربة الفنجان مؤمنة مُسِنَّة توَّاقة لذلك، و"رشة عُمْلة" تمنِّي المُعسِر بدَفعة أو حوالة تصله من اْبنه المغترب، أو صفقة رابحة "تضمن" محصول الموسم، خاصة إذا سبقه ـ قبل تناول الفنجان ـ تجمُّع لرَغوَة القهوة تسبَحُ علىٰ وَجْهه تحكي: "قبضة"... فإن غمَزَ أحَدٌ أو لَمَز، جادّاً أو ممازحاً، بأنها خزعبلات منجِّمين وتهيؤات خرَّاصين، أشبه بالدعابة عن النبوءة وقراءة الطالع، ردَّت عليه شهادات تنحَدِر من أطراف الحلقة وأركان الجلسة تنتصر للحاجة «اْنتصار»، تنقل المطابقات وتروي التوافقات التي ما زالَت تثبت صِدْقَ «أُم محمد» وصحَّة قراءاتها وتبصيراتها.

فإذا مَلُّوا "التبصير" وأشبع كلٌّ نَهَمَه وسكَّن خاطِره وهو يعاوِده مرَّة بعد مرَّة، حتىٰ يرتسِم في قعر فنجانه وينطبع، ما ينتزع من «أُم محمد» البشارة اْنتزاعاً، وينتقش ـ رغماً ـ ما يهوىٰ ويتمنىٰ ويريد!...

حمل «عطا» مقعده، المصنوع من نسج "قشِّ" القَصَب، أو من لَدْن الخيزران، بلا مِسند للظهر، بقَوائم خشبية غليظة، بالكاد تطوِّقها قبضة رجل، وأركَزه حيث يتصدَّر الجمع ويقابلهم، ويشرف علىٰ حلقة السَمَر المنتظمة في رَحبة أو صُفَّة لا تدري لأيِّ دُور أهل الحيِّ هي؟ من فَرْط تداخل البيوت واْنفتاح أهلها علىٰ بعضهم، ولعلَّه ساباط (سقيفة بين دارَيْن)، ما يعني أنهم كانوا يَسْمُرُون في الطريق...

بلىٰ، كانوا يستدلُّون من نكْهَة القهوة وضبْط إعدادها وجَوْدَة "تحويجتها"، كم عُرِّض حبُّ البُنِّ فيها وحُمِّص حتىٰ جفَّ وانضمَّ، ونِسَبُ خلط الأشقر منه بالأسود، ومقدار ما أُضيف إليها قبل طَحْنِها من "حبِّ الهال"، فيستهدُون إلىٰ صاحبة ومعِدَّة "الركوة" هٰذه الليلة، فيُثنُون ويدْعُون: "سلِمَت يديك يا «رَوْعة»"، ويتعرَّفون أحياناً من شكل الفناجين علىٰ صاحبها من أهل الحيِّ، إذ أقداحُ وأكوابُ وكؤوس، وحتىٰ أواني وقدُور وماعون كلِّ بيت هنا معروفة لِبقيَّة سكَّان الحي!...

فإذا شرع «عطا» في الحديث، وأخذ في نقل حكاياته ومغامراته، وراحَ يَسْرُدُ قَصَصَ ما يلقاه في خلوته حيث يكمن لـ "الطبسون"، تركُوا الهَزْل والمزح، وعافوا اللهو واللغو، ومالُوا إليه بأسماعهم وأعارُوه آذانهم وأذهانهم، وخيَّم الصَّمْتُ عليهم، فالشاب علىٰ الرغم مما عُرِفَ به من تطرُّف وعناد وتشدُّد وحِدَّة، كان طريف المحاضرة، مليح النكتة، فَكِهاً لَسِناً، فصيحاً بليغاً، كأنه خطِيب مُفَوَّه، حسَن الأُسلوب، جيِّد البيان، لطيف النادِرة، إذا حدَّثَ أطرَف وأتحَفَ، فأقبلُوا عليه، لا يَمَلُّه قلبٌ ولا يجْتَويه سمع...

راح يحكي قِصَصه ويسوق أخباره ويروي حكاياته عن «دير كوشة» والوادي الصخرِيِّ الذي يطلُّ عليه، ثم المغارة المخيفة أو الكهف المُوحِش، وعن مَكمَنه ومخبئه، الذي انقلَب به أو حوَّله إلىٰ "صَوْمَعة" يعتكِف فيها...

وأخذَ يَسرُدُ السوانح التي تلقَّاها والبوارح التي لَقِيها، والحوادث التي نزَلَت به ووَاجهَها في زياراته المتلاحِقة ورحلاته المتتالية إلىٰ تلك النواحي، التي لم تكن تبعد كثيراً عن قريتهم، لٰكنهم كانوا يتابِعون حكايات «عطا» وقصَصَه وكأنها مغامرات وَقعَت في أقاصي البلاد وما وراء البحار، ويتلقَّونها كقِصص "ألف ليلة وليلة"!

وهو يعرضها بأُسلوبه المشوِّق وطريقته البديعة، فتراهم بين مُضْغٍ، قد نقلَه جمال الوَصْفِ وعَذب البيان إلىٰ أجواء الحكاية، فيلاحِقُ فصولها بشَوْقِ مَن تَعنيه، ويواكب مقاطِعَها بحِرْص مَن تمسه وتتَّصل به، ويتابع أجزاءها بشَغَفٍ ولهفةِ مَن أسَرتْه وملَكَته... وبين مُطْرِق، من فرط ما عايش الحدث وٱندمجَ فيه، فٱنفصل عن وَاقِعه هنا وٱنتقل هناك، تراه وَاجماً مبرشماً، ذاهلاً عن بقية الفصول التي يسردها «عطا»، ينسِجُ لنفسه من مِغزل همومه ما يجليها، ويَحْبِكُ لآلامه من الأوهام ما يداويها، ولآماله من الخيال ما يحققها.

لـٰكن «عطا» لم يرْوِ لهم أبداً قصَّته الأخيرة...

قصَّة "الراعي" الذي لقيه هناك، وقلَب حياته!

كانت عنوز ومَعْز جبَلِيَّة ومعها ثلاثة أجْدٍ، وفيها كَبْشٌ أقرَن، لا يتجاوَز مجموعها عشرة، كأنها ٱفصَلَت أو شَردَت عن قطيعها أو نفَرت عن صُبَّتها، تهيم بعيداً بِلا راع يصيح بها ويزجر، تدْرج علىٰ صخورٍ قُفٍّ رَضْراضَة، تتدحْرج من وَقعِها، فتتراكم في ثنيَّة من ظهر الجبل، أو تهوي إلىٰ حضيض الوادي ومجرىٰ النهر، فيُسْمَع لأظلافها قرْع، وهي في إرانٍ وطَفْر، وٱرتعاصٍ ونشاط، تعُور وتبربر، وتعفط وتنخف، وتنثر بأُنوفها، تتخطىٰ الجداول، وتستبق وتتناطح، كلُّ ذلك لا بحثاً عن المرعىٰ ومنافسة في الكلأ، فالأرض هنا وإن كانت غليظة وَعِرَة، وصلبة خشنة، إلّا أنها خضراء مغْشَوْشَبة، ولا عن السقي والماء، فالعيون تنشُّ في كلِّ مكان، وتغمر البقعة بندَاوتها ورُطوبتها، ناهيك بالنهر القريب وتدفُّقِه... إنها كانت تلهو وتلعَب.

وقد ٱنصرف "راعيها" الكهل، فجَلَس بعيداً عنها، هناكَ علىٰ ربوة مستَوِية بعض الشيء، هي حَيْد ٱخترق ٱنحدارَ صُفْق الجبل ونتَأَ في سَفْحه ليَصنَعَ طُنُفاً ومستشرفاً...

أستوىٰ "الراعي"، متَّكِأً على صَوَّانة كبيرة، اْرتفَعَت من وَرائه حتىٰ منكَبيه، فلم تظلِّل له، كأنه ما أرادَ أن يحتجِبَ عن الأُفق ويفقد المنظر، لا في وَجْهه ومستقبله، ولا من ورائه وفي قَفاه، وإلّا فإن صخرة أُخرىٰ كبيرة وعالية، قريبة إلىٰ جواره، كانت لتظلله وتقيه الشمس، التي وإن كانت مرغوبة منعِشة في هذا الشتاء، لكنها مزعجة - ولا شكَّ - لِمَن يريد المكث كلَّ هذا الوقت بلا حِراك!

كان منشغلاً بنفسه، منصرفاً إلىٰ التأمُّل في الأُفق، والنظر بعيداً هناك، وقد اْستغرق في الفكرة وتعمَّق. كأنه ما جاءَ بقطيعه أو صُبَّته الصغيرة هذه إلّا كَذَريعة يخفي بها عزمه الأصلي ونيَّته الحقيقية، يواريها عن الفضول، ويصرفها عن التطفُّل.

أمَلَ «عطا» فيه أنيساً لِوَحْدته، ومخرجاً من ضجَره...

وكان قد وَصَل عصر أمس ذلك اليوم، وباتَ ليلته، بعد سهر وأرَق، وقد أنهكه - هذه المرَّة - الترقُّب وأزعجه، وأضجره الأنتظار وأوْهى سريعاً جلَده، فما كان الوقت يمرُّ، ولا كانت الأفكار شوارد تتطاير، وبوارق تعْبُر وتخطف خطفاً، كما عهدها في خلواته الماضية، بل هواجس تقيم ومعضلات تستقر، تضرب أطنابها في الروح، وتشغلها، فما تبرح ولا تزول! وقد اْستحكم في نفسه خاطرٌ عن جفوة وغلظة قابل بها صديقاً عزيزاً، اْنتهىٰ إلىٰ خصام، فما اْستطاع الخلاص منه، وبقي يقلِّب الأمر ليَجِدَ له مخرجاً يسلِّيه ويسكنه، فما وَجَد.

قرُبَ «عطا» من "الراعي" مسلِّماً، وعلىٰ طريقته وطبيعته في المفاكهة والمزاح، ألحَق سلامه بدُعابة قائلاً:

سامحكَ الله يا رجل، أفسدت عليَّ كميني وكشفت مخبئي، إذ بكَّرت مع الفجر بمَعِزِك هذه وأفزَعت ما كان يمكن أن يظهر من جُحْره، والفجر آخِر أملي من طريدتي البارحة.

صَمَت "الراعي" وأطرَق، ثم عاد إلىٰ وِجهَته في تأمُّل البحر، صارِفاً وَجْهَه عن «عطا»، كأنه يتعالىٰ ويتكبَّر! أو هو قرويٌّ لا يُحسِن أدَبَ التخاطب والمحادثة وما يقتضيه من ٱستقبال "الآخر" وتلقيه في وَجْهه... ثم قال، بشيء من صلَف، أو هو مزيج من جِدٍّ وضَجَر:

كان لديك الليل كلَّه... وأشدُّه مغنَماً السَحَر، فإذا فاتك، فإن الأرزاق تُقَسَّم بين الطلوعين.

لم يستمع «عطا» لِرَدِّ الرجل وجوابه، فما كأنه خُوطِبَ به ليتلقَّاه، وإن سمعه، فما وَعَاه، فالكلمات، وأُسلوب إلقائها، كانت توحي بتعدُّد المعاني والوُجوه، كُليَّات وعموميَّات، أشبه بعبارات الفلاسفة والمفكِّرين، وقصار كلمات الحكماء.

ثم إنَّ «عطا» كان محرَجاً من خطوته "العجولة"، والطريقة التي بادَر بها "الراعي" الكهل، فما كان يليق أن يبتدئ غريباً ويستقبله بمَزْحة ودُعابة، ناهيك بتحميله تَبِعَة، فتوجيه مَلامة وعتاب...

ألقاه الحرَج ونقلَه إلىٰ غفلة وشُرود، راحَ يستبق فيه ردَّ الرجل وجوابه، بجُملة كان يُعِدُّها ويقلِّبها في خاطِره ليقطَع عليه الطريق، إذا تبيَّن أنه أساء فهم دُعابته وحملها علىٰ غير ما قَصَد، فيرمِّم ما ٱنهدم ويصِلَ ما ٱنقطع.

والحقُّ أنَّ «عطا» لم يكن مُربَكاً ومضطرباً لخُطوته وقَوْلته، ففي الواقع، ليس في ما أقدم عليه خطأ، ولا في ما قال شطَحٌ وعيبٌ يبعث علىٰ الحرج والشعور بالذنب، ويُلزم بالٱعتذار وطلَب العفو والصَّفْح، ولا غضاضة، بل هي من سُنن الرُّعاة وآداب الصيَّادين، ومن أعراف روَّاد البراري والجرود والأحراش، أن يتبادلوا التحيَّة إذا تلاقوا، وينفتحوا علىٰ بعضهم ويتعارفوا دون تكلُّف، ويسلُّوا وَحْشَتهم بشيء من التفكُّه والمزاح...

لكنها كانت هيْبَة "الراعي" وغموضه، وطلَّته الغريبة وسَحَنَتَه العجيبة، أخذَت «عطا» وأسرته، فكأنَّ الرجل رئيس يهيمن عليه، وهو مرؤوس يتبعه ويخشاه، ويحذر حسابه، أو غضبته! ونظرة ثاقبة آسرة، تنمُّ عن عمق ودراية وإحاطة، وسلطة وقدرة، وكأنها تعرِّيك وهي تقَع عليك، فتحسبه يرسل من عينيه ويخرج منها ما يُكبِّلُكَ، ويلجمك ويقهرك! ثم هي طريقة المقابلة وأُسلوب التعاطي والكلام، والإعراض بوجهه والتعالي الذي أضفىٰ إبهاماً أوغَلَ في الغموض والغُؤور.

تجاوز «عطا» ذلك وغالَبه، وكأنَّ للرجل عليه فضلٌ ويَدٌ، ويملك أن يتكبَّر عليه ويحقُّ له أن يخاطبه بتعالٍ وفَوْقية... وتقدَّم بخطوة "تصالُحية" لعلَّها تلطِّف الأجواء الملبَّدة وتسهِّل وَعْرَها:

هلُمَّ وتناول إفطارك معي، فصُرَّة "زوَّادتي" ما زالت عامرة؟

كان «عطا» في أُولىٰ ليالي رحلته، وكانت الصُرَّة أو الجراب أو "البقشة" (كما يطلقون عليها، وهي كيسٌ أو منديل متوسط الحجم، يلفُّ به الفلاح طعامه، حين يخرج إلىٰ الحقل للبذْر أو القِطاف فيطول مَكْثُه، وهكذا الصياد ببندقيته إلىٰ البرِّية، والراعي بقطيعه إلىٰ المرعىٰ والكلأ، يحملون به طعامهم ومؤونتهم)... كانت ما تزال بَعْدُ مَوْفُورة وغنية. وإذا كانت تشتمل - في العادة - علىٰ كسرة خبز وحبَّة طماطم، معها أُخرىٰ من مسلوق البطاطس، فإنَّ «عطا» كان يكثر ويهنئ لنفسه الطعام، بحجَّة بُعْد المسافة وطول السفر، فيحمل أقراص الخبز (العربي)، أو أرغفة المرقوق، ومعها مهروس البطاطس المعجون بجريش القمح أو "البرغل" (هي "الفريكة"، لكن دون لحم) يستأدم به، وإن وَافق يوم خروجه وَفرة في البيض مما يجده في خُمِّ الدجاج وأقفاصها، بادَر إلىٰ سلقها (ليأمن كسرها وتلَفها) وإلحاقها بـ "زوَّادته" وضمِّها إلىٰ "صُرَّته"، ومعها حُبيبات من الزيتون الأخضر ككامَخ يُستمرأ به.

وما كان يستغني عن "الشاي"، ويسمِّيه "خمرة المؤمنين"، فيحمل معه إبريقاً صغيراً يوقد له، فإذا غلىٰ الماء، أضاف الوَرَق، وتركه يتخمَّر بهدوء علىٰ جمر أعواد السنديان، يطيب له أن يحتسيه بمذاقه المرِّ دون مزاج السكر، هٰكذا يستطعمه ويروق له... يرفع القدَح تجاه الضوء، ويتمعَّن في لونه القاني، وكأنه يحيي الفضاء أو سُمَّاره الغائبين بِنَخْب!

حلَّ منديله، الكبير نسبياً، وراح يصفُّ محتَوَياته بإزاء ضيفه، يقدِّم هٰذا ويحاذي ذاك، ويستأذن أن يذهب إلىٰ العين العالية ليملأ إبريقه، فهي أصفىٰ ماءً وأنقىٰ مشرَباً... و"الراعي" ينظر إليه، يتفرَّسُ في وَجْهِه، ويلاحِق حركاته، كأنه يستقرئ المرتجل العفويَّ، من المتكلَّف الذي فرَضه الآرتباك وقضاهُ الحَرَج، يقرنه بتعتعته، وخلْطه في الكلام!

فإذا فرغ من إعداد المائدة، جلس بإزائه يدعوه:

بسم الله، تفضل يا حاج!...

أشاح "الحاج" وَجْهَه عن الطعام، وأخذه بعيداً وهو يسأله:

بِمَ تزوَّدت يا فتىٰ؟... أقصد يا رجل!

وكأنه ـ بآستدراكه ـ أثار هاجساً كامناً يعيشه «عطا» من النظرة إليه علىٰ أنه حَدَثٌ، لم ينضج ليُؤخَذَ بقَوله، ولم يكْبُر لتُسمع نصائحه ويُستهدىٰ بإرشاداته، لا سيَّما في مَواقفه المتشددة وآرائه المتطرِّفة التي تمس موازين الأعراف والعلاقات الآجتماعية المتسالَم عليها في القرية، وتكاد تقلبها... لذا كان يتطلَّع ويسعىٰ ليظهر أكبر سناً وأكثر خبرة.

: هٰذا الذي تراه أمامك.

أمسَكَ الرجل ولم يمد يده... فآزداد آضطراب «عطا» وقلَقه، وبدأ يشوبه بعض الغضب: أتراه يتعمَّدُ إهانتي؟ ماذا بدَر منِّي حتىٰ يقابلني بهٰذا الجفاء، لماذا يتعالىٰ ويشمخ بأنفه ويترفع "أزهىٰ من وَعْلِ الخلاء"، وهو لا يعدو راعٍ من عُرْض الناس؟...

لـكن «عطـا» ـ من جهة أُخرىٰ ـ كـان يجـد نفسه مأخـوذاً بمَرآه، منجَـذباً إليه، ويشعُر أن الرجل ليس من العامة، وأنه ذو شأن وخطر، وأن في سلوكه سرٌّ عليه أن يلاحقه ويكتشفه.

وكـان الـوضع قـد بلغ المـواجهـة، فلـزم «عطـا» الآن أن يسـأل عن السبب ويستفهم الموقف مباشرة.

: مـا لَكَ يـا رجل، هل أسـأتُ إليك؟ إنما أردْتُ الـدعـابـة. لا أظنك تتكبَّر علىٰ نعمة الله، فلا ترىٰ هـٰذا الطعام من شأنك وفي مقامك!؟

: لم تجبني عن سؤالي، بِمَ تزوَّدت؟

: بل أجبتـك فتجاهلت، هـٰذا كل ما في جعبتي، مطروحٌ أمامك، أتريد أن أُعدِّده لك؟ أم تراك تحسب أني ٱدخرت عنك شيئاً وٱستأثرت به؟ لا والله، ما هـٰذه شيمتي ولا من خلُقي!

: بل هـٰذا كثيرٌ لِصيَّاد.

: نعم، قد يطول خروجي وٱنقطاعي هنا أياماً، فلزم أن أتزوَّد.

: فماذا فعلْتَ لسفرك الأطول وٱنقطاعك النهائي؟

: أبِنْ لي يا هـٰذا وأفصح، إنني مُقبِل عليك مستبشر بك، ولـٰكنك لا تـزيـدني إلَّا رَهَقـاً ووَجَلاً، ماذا تريد من قولك وماذا تقصد؟

: أُريد قول الله عزَّ وجَل: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾. إن كـانت مَعِزِي قـد أفسدت عليك كمينك الفجر، فقد كنتَ في سِعَة الليل كلِّه، فماذا كنت تفعل؟

مـا أجـاب «عطـا» علىٰ الـشقِّ الأول والمقصـود الأصلي من سـؤال الرجل، وكأنه مـا سمعه، أو ما أحبَّ الـخوض فيه فتجاهَلَه، علىٰ الرغم من أنه ـ في طبعه ـ كان يتحرىٰ هـٰذه المباحـث والمحاورات، ولعلَّه ما أراد أن ينـتقـل إليه قبل أن يُنهي هـٰذه المسألة المحرجة ويقفلهـا، التي بدأت تفتعل مشكِلَة وتخلق عقدة:

إنَّ طرَيدتي لا يُرجىٰ خرُوجها من جُحْرِها فصيدها، إلّا في مثل هٰذه الساعة من الفجر، أو في أول الليل عند الغروب، وقد أعدَدتُ الفِخاخ ونصبتها أمام الحُفَرِ وبين الصخور، فإن فاتها، فهٰذه بندقيتي بالمرصاد. لٰكن مَعْزَك المنتشرة أفسَدَت خطَّتي، وهٰذا الجَدي الذي ٱنفرد هناك، أتراه، يكاد أن يقعَ ويعثر في فخٍّ.

: وماذا تطرُد؟

: "الطبسون"!

: بالله عليك!؟

: نعم، ولن أنثني عن عَزْمي ولن أنكفئ حتىٰ أظْفَر به. لا تصدِّق مَن زَعَم أن لا وُجودَ له في بلادِنا، فقد نقَل لي ثِقَاتٌ وحكَوا أنهم رأوا بعضاً منه مَحَنَّطاً في مُتْحَفِ الجامعة الأميركية بـ «بيروت»، وقد ٱصطَادُوه في هٰذه النواحي من «وَادي الدامور».

: منذ متىٰ وأنت تخرج في طلَبه؟

: لعلَّها المرَّة العشرين!

: وكم تقضي في كلِّ مرَّة؟

: ثلاث ليال أو أربع.

خيَّم صمْتٌ للحَظات قصيرة، قطَعَها "الراعي" حين مَدَّ يدَه إلىٰ الطعام، وتناول جانباً من رغيف، قضَمَه دون أدام، ثم سَأل «عطا» ممازحاً، وقد أفرَج أساريره شيئاً، وخرَج عن تجهُّمه فقال:

أما كان ينبغي أن تقشِّر البيض لِضَيْفِك؟

: نعم، ولكني أخشىٰ عليه الفساد إن لم يؤكَل.

: فأنتَ تأملُ أن لا يؤكل؟

: كلَّا، ولكني في سَفَر وٱنقطاع، وعليَّ الاَقتصاد.

ثم ٱستدرك «عطا» وقد ٱستحيىٰ:

بل أنا أرغَبَ وأرجُو أن تأكل من طعامي، وسأُسَرُّ بذلك... وراحَ يخبط بيضة بأُخرىٰ حتىٰ صدَع واحدة (وأبقىٰ الثانية)، وأخذ يزيل قيْضَها، بل فصَلَ الآحَ عن الماح، ووَضَعَها علىٰ رغيف كامل، وقدَّمها لِضَيْفه.

: تفضل يا أخي... إذا أكلْتَ من طَعامي، كنتَ حقاً ضيفي.

: طعامُك!؟

: نعم طعَامي، أقصد هٰذا الطعام الذي أُقدِّمه، ماذا يكون إذاً؟ ماذا عليَّ أن أُسمِّيه؟ نعم، إنه طَعَامي، أنتَ علىٰ مائدتي، وإن لم تَكُن "دسيعة" تليق بك.

: هل أديتَ حقَّ المال الذي ٱبتعته أو هيأته منه؟

: إن كنت تقصد الخمس والزكاة، فأنا لا أملك إلّا داراً متواضعة وبستاناً صغيراً ورثتها وإخوتي. ولا شيء عليَّ، لا فائض في دخلي ولا زيادة توجب عليَّ حقاً... ومع هٰذا فأنا أبذل للمُعْوِزين في قريتي ما ٱستطعت، وأعطف علىٰ الفقراء والمساكين وأُعينهم ما وَسعني.

: أتصْرِف من حُرِّ مالِكَ وطاهِر كَسْبِك؟ هل أخرَجت من تركة وَالدك ما عليه من ديون فأديتَها؟

: لم يكن في نقدِها ما يكفي، وكان علينا أن نبيع البيت أو البستان.

: فالدائنون شركاؤك وإخوتك في البيت والبستان حتىٰ الساعة؟

: لقد ٱستمهلناهم فأجازونا.

: نعم، ولٰكن عليك الجِدَّ والمبادرة وعدَم التهاون في السداد... ولعلَّكم تتجاهلون الدَيْن كمَن تعايَشَ معه فألفه ونسيه.

: بل سدَّدنا قِسْطاً منه وبقيت أربعة أُخرىٰ. كلّا لسنا نتجاهله، حتىٰ إنَّ والدتي أرادَت الحجَّ العام الماضي، فعلِمَت سقوط الأستطاعة ورُجحان سداد الدَيْن علىٰ هٰذه العبادة، فقدَّمت السداد علىٰ الحج، فأين التهاون؟... كُلْ يا رجل ولا تخف، فهٰذا حلال بَلال؟

: رأيتك تصلي الفجر، فكيف تؤدي الظهرين والعشاءَين؟

: ماذا تقصد؟... أُصليها قصراً. لعلَّك تسأل عن القبلة، ورأيتني أنحرف عن سَمْتِها، عليكَ أن تجعل المغربَ عن يمينك وتولي الشمال ظهرك، وتحاذي سيف البحر، وتستقبل الجنوب؟

: بل عن الصلاة، لا بأس بِسَمْتِك وقِبْلَتِك، إنك على الوُجهة الصحيحة تماماً... لكن عليك أن تقضي صلاتك، الظهرين منها والعشاء، هذه وما سبقها في رحلاتك الماضية، كلَّ "رباعية" قصرتها، كان عليك أن تتمَّها.

: كيف يكون ذلك، ألا تراني بلغت حدَّ الترخُّص؟ إنَّ المسافة تتجاوز "الفراسخ الثمانية" طولاً في الإياب فقط لا تلفيقاً، أتعلم كم قطعْتُ حتى بلغت مَوْضِعي هذا، كم وَادياً هبطت وجبلاً علَوْت؟... لقد خرجت من «جباع» على دراجتي هذه، سالكاً طريق الجبال، قاطعاً تخوم «صيدا»، محاذياً «دير مخلِّص»، متَّخِذاً من «جون» اْستراحة لي، ثم متخللاً «إقليم الخروب» كلِّه، حتى «دير دوريت» في «بعقلين»، ف «دير القمر» ومعاصر «بيت الدين»، ثم نزولاً في الأحراش حتى هذا المكان.

عند هذا الموضع، توقَّف «عطا» واْستطرد ليتَحدَّث عن دراجته النارية، وهي دراجة عسكرية روسيَّة الصنع، لا نظير لها في «لبنان» كلِّه إلّا واحدة أو اْثنتين، يستعملها المهربون في اْجتياز الطرُق البرية والجبلية الوَعِرة، إذ لا يمكن لأية عربة عسكرية أن تطردْها فتلحقها، وكيف أبتاعها من مهرِّب يخترق الحدود ويقود قَوافل البغال أو شاحنات صغيرة تحمل المحروقات أو المواد الغذائية التموينية من «سوريا» عبر «سرغايا»، تجاه «جنتا» ف «سرعين» في «البقاع»، وترجع بالأجهزة الكهربائية من «لبنان»، يتقدمها الدرَّاج يستطلع الطريق، ثم يعود ليواكبها، وقد يتأخر عنها ليأمَن اللحاق، وهكذا.

ثم عادَ ليوازن الحوار ويضبطه بما يحفظ "مكانته"، فأخذ يعرِّف نفسه، أو ـ في الحقيقة ـ يعتدُّ بنفسه، فيفتخر ويباهي ويقول:

لا تظنني من العوام وإن لم أكن من أهل العلم، لقد قرأت كُتباً كثيرة، حتىٰ أتيت علىٰ كلِّ ما في المكتبة الملحقة بجامع بلدتنا، ولعلِّي تتبَّعت ما تناثر منها في كلِّ بيوتها وتلقَّطته وٱستعرته من أهله، بل سعَيْتُ لشرائه وٱقتنائه إن وَجَدْتُ فيه حاجة لي ونفعاً، وقد صاحبت شيخ قريتنا وإمامها حتىٰ ملَّني ومللته، وقد عصرته عصراً وٱستنزفت كلَّ ما لديه، فلم يعد يفيدني، وأنا لا أكاد ألتقي بعالم دين حتىٰ تعلَّقت بأعطافه ورُحت أغترف من علمه وأنهل.

: ما شاء الله، ها قد بان كَمْ أنت مجاهد مكافح، مغامر في الترحال والسفر، عارف بالطرق والدروب، كما أنت ضليع بأُمور الدين، مُطَّلع علىٰ الأحكام والشريعة، وطالب مُجِدٌّ للعلم والمعرفة...

شَعَر في ردِّ "الراعي" بلَكْنة تعريض وسُخرية، وأحسَّ بلَحْن ٱستهزاء... هٰذا ما تراءىٰ له وظنَّه، فقال:

لا أُريد أن أُزايد عليك، ولكني أبذل ما في وُسعي، وأعيش قضيَّتي، لا أغفل عنها ولا ألهو. لقد خسرت جلَّ دُنياي لديني، وخاصَمْت الأهل والأحبَّة في سبيل عقيدتي ووَلائي، وقد نبذوني وتجهَّموني، لٰكنهم لم يثنوني عن مبادئي ولا صرَفوني عن مَقاصِدي... وراحَ يسرد آلامه ويشكو معاناته، وينشر عريضة ظلاماته.

: وهل تراني أتيتك والتقَيْتُك إلّا لهٰذا ومنه؟! إنَّما قصدتُك لما عِلمت منك الصدق والإخلاص في العزم والنيَّة، والجدَّ والهمَّة في السعي والعمل، إننا بحاجة لأمثالك يا «عطا»!

: قصدْتَني؟ ومَن تكونون "أنتم"، وكيف عرفت عنِّي ما تقول ولم ألتَقِكَ إلّا الساعة؟

: دعْكَ عن هٰذا الآن، وعُدْ إلىٰ ما كُنَّا فيه...

كيف خفيَ عليك أمر الصلاة هٰذا، وأنت مَن أنت في الفقه والعلم، والدعوة ونُصْرة المذهب!؟ أسفي عليك يا «عطا»! إنما أردتُ بطلان القَصْرِ، لأنه سفر معصية لَصَيدٍ لَهْويٍّ، لا تُقصر فيه الصلاة.

: سفرُ معصية؟

: ألست تلهو بالصيد؟

: إلامَ ترمي، أفصح وأبِنْ؟

: ألستَ تطرد "الطبسون"؟ ألم تقرَّ بهٰذا لِتوِّك؟

ماذا تريد منه وماذا ستفعل إن ظَفَرتَ به؟ هل هو مما يؤكل لحمُه أو يُستفاد منه في شيء؟ هل تريد جِلدَه أو فِراءَه؟ هل يعين في دفع الضواري والذئاب عن غنمك ككلب الحراسة، أو في الصيد كالسلوقيَّة، ترسلُها وراء طرائدك؟ هل فيه نفع "القنفذ"، أقصد "أبو الشوك"، تتركه في الحقل فيأتي علىٰ الهوام والحشرات والقوارض يكافحها وينفيها من زَرْعك؟ (ملمِّحاً إلىٰ ما حكاه له «عطا» من إتحافه أطفال القرية بصيده من القنافذ!).

ماذا أكثر من أن تفتخر وتباهي، وتحقِّق دَعوَاك وتقهر مَن تحدَّاك؟

ليس هٰذا مقصداً راجِحاً في الشريعة يبيح قَصْرَ الصلاة، بل ما أظنُّ عنواناً ينطبق علىٰ اللهْوِ مثل هٰذا الذي تقوم به. ما كان ينقصك يا رجل إلّا أن تصطَحِب الجواري والمغنِّيات يضربن بالمعازف والآلات!

: مَه يا هٰذا، أجعلتني في مصاف «هارون الرشيد» والفاسق «يزيد»؟ أين أنا من الفجور والبَطَر، لقد أصبتني في مقتل، وأتيتني من حيث أحذر، لعَمْري، ما كان يأسرني في حضور المجالس الحسينية ويستهويني شيءٌ مثل ذكر الخطيب وإنشاده مقولة «علي بن الحسين الأكبر» عليه السلام حين عادَ من الميدان:

صيدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالِبٌ
وإذا خرَجْتُ فصَيْديَ الأبطالُ

فكنت أنتشي طرَباً من هذا القول، وأزهُو بَلَجاً لهذا الموقف، وأتِيه فخْراً، وأتطلَّع إليه - حياتي كلَّها - أنموذجاً وقدْوة، ومضرباً يأخذني في رِحَاب المجد والإباء، وينزع بي صَوْب الكرامة والعِفَّة، ويحدوني إلى التدين والالتزام، والنأيِ بنفسي عن "جبهة الملوك" وصَفِّ الأعداء، بما يمثلون من ظُلم وجَوْرٍ وبَطَر وعبَث... فإذا بك تقرن فعلي بفعل أُولئك الفسقة الطغاة؟

إنما أخرج في الصيد لأستجمَّ وأتنزَّه وأُروِّح عن نفسي...

: أيقضي عاقل - مثلك - أوقاته، ويصرف أثمن أيام حياته، وهو في زهرة العمر وريعان الشباب وعنفوانه، حيث القوَّة والبأس والشكيمة، والنشاط والهمَّة والعزيمة... يقضيها ويصرِفها في هذا اللهو والعبَث ويستهلكها في هذا الأشَر والبطَر!؟

: إنني لا أقترف جُرْماً ولا أجترح معصية، ولا أُؤذي أحداً، أقضي أيام انقطاعي هنا ملتزماً بصلاتي، أُؤديها بمُستحبَّاتها وتعقيباتها ونوافلها تامَّة، بحضورٍ وإقبال، وأجِدُ لها، في هذه الخلوة، طعماً لا أجِدْه في الحَضَر، وأغتنم من عزلتي في الفكرة والتأمل في أحوال الخلق وعظمة الخالق، والنظر والتدبُّر في آيات الله النفسية والآفاقية، أضعاف ما أفعل ويكون من حالي وأنا في القرية وبين الناس، حتى لمست بالحسِّ وعرفت بالوُجدان معنى: "تدبُّر ساعة خيرٌ من عبادة سنة"... أظنُّك يا هذا شطَحْتَ في اتهامي، أو بالغت وأغرقت.

: قد لا أكون وَاقفاً على منزلتك الأخلاقية وحقيقتك الروحانيَّة، فقد تكون في مقام عظيم وشأن خطير، ومرتبة خفية، لعلَّك وَليٌّ من أولياء الله وأنا لا أعلم!

فـ "إنَّ الله أخـفـىٰ أربعة في أربعة:
أخـفـىٰ رضـاه في طاعته، فلا تستصغرنَّ شيئاً من طاعته، فربما وَافَقَ رِضاه وأنت لا تعلم.
وأخـفـىٰ سخطه في معصيته، فلا تستصغرنَّ شيئاً من معصيته فربما وَافَقَ سخطه وأنت لا تعلم.
وأخـفـىٰ إجابته في دعوته، فلا تستصغرنَّ شيئاً من دعائه فربما وَافَقَ إجابته وأنت لا تعلم.
وأخـفـىٰ وَلـيَّه في عباده، فلا تستصغرنَّ عبداً من عباد الله، فربما يكون وَلـيَّه وأنت لا تعلم.

هـٰذا بينك وبين ربِّك، وأستغفـر الله وأعتذر إليك إن أنا أسـأت أو جانبت اللباقة والأدب... ولكـني أُلاحق ظاهراً محدَّداً هو تخلُّفك عن حكم شرعي، وأتباعك غير الطريق التي أمر الله أن يؤتىٰ منها.

لا تخلط علىٰ نفسك الأُمور ولا تتعصَّب لرأيك، ولا تمارِ وتكابر يا «عطا»... أتصِحُّ صلاة ألف ركعة يؤديها متطوِّعٌ بلا وُضوء؟ هناك حكمٌ شرعيٌّ، يلزمك أن تؤدِّي صلاتك بكيفيَّـة مُعيَّـنة، ليس لك ـ بعدَه ـ أن تقيس برأيك وتستحسِن، عليك الأمتثـال والتسليم، إن كنتَ تـريد أداء الواجب الشرعي، فالله تعالىٰ يُعبَد كما يريدُ هو، لا كما تريد أنت.

: أي حكم شرعي، هاتِ ما عندك لأرىٰ؟

: "وجوب أداء الصلاة تـامة في سفر المعصية"... هـٰذه فتوىً يُجمع عليها الإماميَّة. إذا لم يكن خروجك إلّا لهـٰذا الصيد، الذي لا معنىً له غير اللعب واللهْو، ناهيك بإلحاق الأذىٰ بالحيوان، فهو من قواطع السفر أو مُسقِطات رُخَصِه كالقصر (في الرباعية) والإفطار (في شهر رمضان)، ومن مَوانعها فيه... هـٰذا ما يفتي به جميع الفقهاء، ويحكمون بأن لا قَصْر للصلاة في مثل هـٰذا السفر، ويوجبون بقاءها تامة.

: مَن من الفقهاء يفتي بذلك؟

: كلُّهم أجمعون!

: أذكر لي واحداً بعينه.

: الشهيد السعيد «محمد بن جمال الدين بن مكي»، هل تعرفه؟

فاجَأ الأمر «عطا» ودهمه... «الشهيد الأول»!؟

ما كان يظنُّ أحداً في بلدة «الشهيد الأول» «جزين» نفسها، أو في مهجَره «جباع»، ناهيك ببقية القرىٰ الجنوبية يعرفه أو يتداول اَسمه، فكيف بهٰذه النواحي البعيدة، المختلَطة مذهبياً وطائفياً، وأغلبها من السنيين والدروز والمسيحيين؟ وإن كان مخاطِبُه شيعياً إمامياً، ولٰكن ليس كلُّ الشيعة يعرفون هٰذا الأسم، فمَن يكون هٰذا الرجل؟ أمِنَ العلماء هو أو العرفاء، لٰكنه ـ حتماً ـ ليس من الرُّعاة!؟

بدأ يستعيد بعض كلمات "الراعي" ويلاحظها من جديد، ويعجب كيف مرَّت عليه وهو في غفلة عنها واَنصراف؟

من أين عرف اَسم «عطا» وخاطبه به؟ وكيف زعم أنه قصَدَه وأرادَه، وأنه يعرف معاناته وهمومه؟ مَن تراه يكون هٰذا الرجل، ولماذا جاء علىٰ ذكر «الشهيد الأول» دون غيره من الفقهاء، المعاصرين خاصَّة، الذين ينبغي تقليدهم والرجوع إليهم في الفتوىٰ دون الأموات الماضين؟ ويفترض أن يكون جوابه في أحدهم... أتراه كاهناً أو روحانيّاً مطَّلِعاً علىٰ الغيْب، يعرف قصَّة «عطا» وعلاقته بـ «الشهيد الأول»، حتىٰ ذكَرَه دون سواه عن عمدٍ وقصد؟

ردَّ «عطا» قائلاً: أنا من يعرفه، سَلْني أنا عنه، إنَّه «الشهيد الأول».

قال ذلك ورَدَّ، ولٰكنه لم ينفتل عن وُجومه ولم يخرج من صدمته، وصَمَت كمَن اَفتُرِصَتْ غفلته، وظلَّ كمَن اَختُتِل، وكانت قد سَرت في بدنه قشعريرة قفَّ لها شعر كَشْحَيْه واَزبأرَّ، فما عادَ يدري ما يقول...

لقد ذكَرَ هٰذا "الراعي" أموراً غريبة، وأتىٰ علىٰ مغَيَّبات، وها هو يذكر معشوقاً كان يظن «عطا» إنه آستخلَصه وآستأثر به لنفسه، ولا سيَّما أنَّه ما كان يلاقي مَن يعرف عنه شيئاً، فينفرد هو وينطلِق بسَرد سيرته ويتألَّق في تعديد مآثره، حتىٰ آقترن به، وتلازَما، فإذا ذكَرَ أحدٌ «الشهيد الأول» التفَتَ الناس إلىٰ «عطا»، بل قال بعض الشَّيَبَة والعجائز: "عمَّن تتحدثون، أليس هو صاحب «عطا»"؟

مضىٰ "الراعي" مُكملاً كلامه ومضيفاً: دعني أزيدك علماً وبصيرة، وأفتح لك أُفقاً في هٰذا الباب ونافذة تطلُّ علىٰ حديقة جديدة، تنبِّهكَ إلىٰ جَنْبَة غابت عنك، تناولها حديث «النبيِّ» ﷺ:

مَن قتل عصفوراً عبثاً جاءَ يوم القيامة وله صراخٌ حول العرش يقول: ربِّ سَلْ هٰذا فيمَ قتَلَني من غيْر منفعة؟...

هل آطَّلعتَ علىٰ تعليق العلامة «المجلسي» صاحب "بحار الأنوار" وشرحه لهٰذا الحديث الشريف هناك؟ حيث يقول:

إنَّ «النبيَّ» ﷺ قال ذلك ناهِياً عن العبَث، رادّاً من اللعب، ضارِباً المَثَل بالعصفور الذي يقتله العابث من غير غرَضٍ صحيح: إنَّ العصفور المقتول باطلاً، يجيءُ يوم القيامة ويصرخ حول العرش متظلِّماً يسأل ربه أن يسأل قاتله، لم قتله من غير جَلْب منفعة ولا دَفْع مضرَّة؟

وهٰذا مثَلٌ ضرَبَه بالعصفور، وإذا كان ظُلْم العصفور، في صِغَر جسمه وحقارته، لا يُترك ولا يُهمَل، بل يُستوفىٰ عوِضَ ما أصابه من الألم، فكيف بما فوقه من بني آدم وغيرهم؟

وإذا كان الله تعالىٰ قد مكَّن المؤلم من الإيلام، فلا بدَّ أن يكون هو المستوفي لعِوَضِه منه.

وكلام العصفور يجوز أن يكون علىٰ طريق المثل وتقريب الحال، ويكون المعنىٰ أن الله تعالىٰ لا شكَّ مستَوفٍ عِوَضَ ألم القتل من القاتل، فكأنه يتظلَّم حول العرش وينصفه، ويجوز أن يكون علىٰ حقيقته، ويُنطِقُه الله تعالىٰ فيتظلَّم حول العرش، ويكون ذكر ذلك لُطفاً لمن يسمعه.

وفيه أنَّ الصيد لغير غرَضٍ قبيح، وكذلك صيد اللهو واللعب، وفي الحديث دلالة علىٰ أن جميع الحيوانات من الوحوش والطيور تُنشَر، وفيه إثبات الأعواض، وفائدة الحديث تعظيم أمر الظلم وإعلام أن الله تعالىٰ لا يهمله ولو كان بالعصفور.

أتعلم أنَّ جَواز أكل الميتة أو تناول الحرام للمضطرِّ لا يشمل مثلك وأنت علىٰ هٰذه الحال، وأنك مُستثنىً من "الاستثناء"؟!

فإذا انقطعتَ هنا حتىٰ أشرفتَ علىٰ الهلاك من جُوع فاضطررتَ إلىٰ أكلِ الميتة، أو من عطَش فاضطررتَ إلىٰ جرعة من خمر، أو شيء مما حرَّم الله... كنت عاصياً، ولم تكن عامِلاً بالرخصة!

فالآية الكريمة التي ترخِّص: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لا تشملك، إذ "العادي" هو السارق، و"الباغي" باغ الصيد، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرا إليها، وهي باقية عليهما حرام، ليست لهما كما هي لسائر المسلمين، كما ليس لهما أن يقصرا في صلاة ويفطرا من صَوْم ما داما في طريق المعصية من نهب أو لهو.

أنزعج «عطا» وغضب وأدركته الحميَّة، وأعترته أنتفاضة تمرُّد، وكأنَّ ذلك أختلط بأستغرابه وحيرته، أو ساقَه إلىٰ غير مَوْضعه الصحيح، وردِّ فعله القويم، فقال:

أراكَ علىٰ ثقة من زعمك ويقين من رأيك... ولكني لست ممن يؤخذ بزُخرف القول عن بهرجة المعنىٰ وخواء الدليل، ولا يسرقني تراصُف النظام عن غَثِّ الفكر، أو تستعبدني آياتُ البراعة عن سداد المنهج، ولا أنا مَن تسترقُّه علامات الأطمئنان وترتهنه أمارات الثقة وأساليب الخطابة، التي تنحدر بها وتصبُّها عليَّ، كأنك تستمدُّ من مَلَكٍ يُوحي إليك وتغترف من عين العلم ومعدنه! لا ينفع معي هٰذا الجزم والقطع، ولا يجدي إحكام القول وقوَّة البيان، كأنما تقرأ من صحيفة مُنزَلة أو تنقل عن علَّامة مِفضَال لا يُشقُّ له غبار!... هلَّا دللتني علىٰ مصدَر يثبت زَعمك، ويدعم قولك؟ أنا لا أعرفك يا هٰذا فلا تلُمْني، لا أدري مَن تكون، أُريد مصدَراً يمكن الركون إليه والتعويل عليه، كثُر المتقوِّلون والخائضون، وقلَّ المتثبتون المدقِّقون.

وكان «عطا» بدأ يمسك بدفَّة الحوار، بعد أن دفعَته "المحاكمة" وأخذَه الأستنطاق الذي وَجَدَ نفسه فيه، إلىٰ الأرتباك والحرَج، فأنتقل إلىٰ الردِّ والمحاجة، ودخَلَ في اللجاج والمراء...

وهٰكذا هو إذا أُخذ بغتَة ودُهِمَ فجأة، ينكمش للهجمة وينحني للعاصفة، ثم يعود ليَكِرَّ بعد فرٍّ، ويَظأر بعد خُنوس.

وكثيراً ما كان يلوم نفسه في خلواته ويقبِّحها علىٰ ما فاته في محاوراته ومناظراته، وهو يستعيدها بمقاطِعها ويستحضرها بمنعطفاتها ووَقَفاتها، فيستعرض الخيارات الأُخرىٰ التي كانت مبذولة له من علمه ومحفوظاته، مما كان يمكنه الردُّ به فغفل، ويعرفه من حجَّة وجَوَاب فأُخِذ وذُهِل.

فلما رأىٰ سكُوتاً من "الراعي"، وٱنصرافاً عن الردِّ، ظنَّ ذلك ضعفاً فيه وتراجعاً... راح يتمادىٰ!

والحقُّ، أنَّ «عطا» ليس من هٰذه الضروب ولا علىٰ هٰذه الشاكلة، ممن يستغل ضعف خصمه ويقتنِصُ فرصَة تراجعه فينقض عليه، لٰكنه، يسترسل في تلقائية، فتجِده، أو تجد منه ٱندفاعاً هنا وحماسة هناك، توحي بالاستغلال والتكالِب والاقتناص، وإلّا فهو أكرم من هٰذا وأنبَل، بل هو حريصٌ أن لا يجرح محاوريه أو يحرجهم، فلا ينسِبُ العيَّ الفَدْم منهم إلىٰ الغباء ويواجهه: "أنت لا تفهم ما أقول"، بل يخاطبه: "إنني عاجز عن بيان ما أُريد، قاصرٌ عن توضيح فكرتي". ويترك له في الحوار منافِذَ ومَهارِب تنقذ ماء وَجْهِه، ومساربَ تخرجه بكرامته، كأن يعزو خطأه إلىٰ الغفلة والسَّهْو لا الجهل، أو يُوحي لمحاوره بأنه كان علىٰ هٰذا الرأي الصواب (الذي يعاكس ما طَرَحه!) من البداية، ولٰكن «عطا» هو الذي لم يفهمه!... ولعلَّ ذلك كان من «عطا» ضَرْباً من المصادرة التي تقطع الطريق علىٰ المحاوِر وتنهي ٱحتجاجه، إذا شعر بأنه لن يهان أو يُسجَّل مغلُوباً مهزوماً! وفي المقابل يُكفى «عطا» مؤونة الاستدلال وكُلفة الإفحام ويُجنَّب مشقة الإطالة وجهد الإثبات.

: إلىٰ مَن ترجع في التقليد؟ ممن تأخذ أحكامك؟ لا أظن أرِيباً مثلك يخدع عن عقله فيجهل أنه لا يجوز له تقليد «الشهيد الأوّل»... حدِّد لي ٱسماً ٱرتكزت عليه في زعمك، وٱذكر لي مصدراً بعينه أخذته منه.

: إنما أنا ناصحٌ مُشفِق، أردتُ تنبيهك وإرشادك، لم أقصد إحراجك ولا أردتُ الجدال والمراء، ولا نوَيت ٱستعراض عِلْمي ولا كشف جهلك... ولك أن تسأل أهل العلم إذا رَجعت، والتثبت مما أقول، وإلّا أعرَضْتَ ومضيت علىٰ ما أنت عليه.

: بالله عليك ٱذكر لي مصدراً.

: ذكرَه «آية الله العظمىٰ السيد الخميني» في بحثه في "المكاسب المحرَّمة"... هل سمعت به، أو ٱطلعت علىٰ شيء من كُتُبه؟

ردَّ بالنفي، ولٰكن الخاء في الصدر والياء في الذيل ألبَسا عليه، فظنَّ أن سَمْعَه خانه، فعادَ مُصحِّحاً بصيغة مَن يستفهم!:

تقصد «السيد الخوئي»؟

ٱبتسم "الراعي"، وأخذ يهز رأسه متأفِّفاً، ثم ٱرتشف من قدَح الشاي رشفة، بعد أن رفعه بإزاء الشمس، وكانت قد بدأت بالبزوغ... كأنه يحاكي حركة «عطا» ويغمز إلىٰ عبثيَّته، أو كان يتفحَّص القدَح، وينظر إن كان التقط شيئاً من القشِّ أو توغَّل إليه من خِشاش الأرض خُبُث.

: يا لِغرورك يا رجل، بل قلتُ وأردتُ «السيد الخميني»...

ليس كل ما لم تسمع به أو لم تعرفه غير موجُود، فتنفيه حتىٰ تفرض الخطأ في محدِّثك. فإذا لم تطرق أُذنك من أسماء العلماء، أو لم تسمع ولم تقرأ إلّا عن «السيد الخوئي»، فلا يعني هٰذا عدم وُجُود غيره!

دُهش «عطا» وأُحرج، فكأنه أفاق وٱستيقظ، وراحَ يحدِّث نفسه ويراجعها: ما لي مستنفراً متحفِّزاً؟ أُجادل وأُنافح وكأنني في معركة مع عدُو؟ دعني أستسلم وأركن لهٰذا الرجل وأنظر ما عنده، فلعلَّه وليٌّ من أولياء الله، وهٰذه سيماء الصالحين ترتسِم في وَجْهه، أو لعلَّه ـ علىٰ أية حال كان ـ ينفعني، وقد ساقه القدر إليَّ في هٰذه البرية علىٰ غير ميعاد، وقد ظهرت منه غرائب... فسكت شيئاً وسكَن.

ثم راح، في نفحةِ تواضُع وشِبه ٱستسلام، يبثُّ الراعي آلامه، ويحدِّثه عن أُطروحته، مبيِّناً أنه لا يريد منها إلّا السلامة من دينه والحفاظ علىٰ هويَّته والاْعتزاز بمذهَبه، وشاكياً الصعاب التي يلقاها من سَطْوَة الأحزاب وتردِّي الوَعي وهيمنة العقل الجمعي، وعن جفوة قومه وٱستضعافه.

فلما رأىٰ "الراعي" وَقفة «عطا» ومراجعته، أو يقظته وصَحْوته، ووَجَدَ منه سكوناً وقراراً ينمُّ عن رغبة وٱستعداد، أعقبه شكوىً وطلَب... أدرك إنها لحظة مُغتَنَمَة لا ينبغي له تركها، وفرصة مواتية عليه ٱقتناصها، فراحَ يعرِض بضاعته، ويلقي دروسه ومواعظه:

لن تبلغ غايتك إلّا إذا تصالحتَ مع نفسك.

قد يطيق المرء الخصومة مع مُحيطه ورِفاقه، وحتىٰ مع وأهله وأقربائه، إنما لن يطيقها مع نفسِه... أن يشعر بالمفارقة ويعيش الأزدواجية في داخله، يحمل فِكراً وينادي برسالَة ونهج، ثم يضمر ضدَّها، ويمارس في الخفاء نقيضها، ولو بأن يحيد عنها شيئاً يسيراً ويتجاوَز التطابق التام معها قليلاً.

إنَّ المصالحة تبدأ مع الذات...

فإذا تصالح المرءُ مع نفسه، وأنهىٰ تناقضه مع فِطرته ومعاناته من سريرته وجدَلِه مع دخيلته، وعاشَ في وِجدانه الصدق... ٱستشعر الأمان والسلام، وخاضَ الصعاب غير عابئ، وقَحَم المشقَّات غير مُتجانف، وأظهر في مواجهتها جلَداً ومقاومة، جعلته يتحمَّل قسوتها، ويتعايش مع جَفوة أهله ومحيطه.

لا بدَّ له أن يلغي التناقض والكذب والخديعة والرياء، والمِراء، والأنتصار لـ "الأنا"، وكلَّ ما يخفيه ويواريه هناك، في باطنه...

عليه أن يُخلي ثم يُجلي.

أما كيف يكون ذلك؟

أن يبدأ بهزيمة الجهل ونفيِه من عقله، وإزالة العمىٰ عن بصيرته، وقهر الهوىٰ في نفسه، ودَحْر الشهوات من داخله.

وأوّله العزم علىٰ طلَب العلم والسعي للتزكية والتقوىٰ، ثم المضي في هـٰذا السبيل...

عندَها سيخرُج من العوام و "سائِرِ الناس" ويدخل في، ويكون "علىٰ سبيل نجاة".

فإذا بلَغَ من العلم والتقىٰ مبلَغاً، وتصالَح مع نفسه تماماً...

عندها سينقادُ له محيطُه، ويتبعُه ويتصالَح معه، بل سيخضَعُ له الجماد والحيوان، وتكون العجماوات، بل الكائنات طَوْعَه، حتىٰ يقول للشيء كُن فيكون!

فإن لم تفعل هي، لم يكترث هو، ولربما ـ في مرحلة متقدِّمة وطَوْر راقٍ ـ تعمَّد أن لا يأمر الأشياء ويَطلبها له ويستميلها إليه، وعمد أن يتركها علىٰ سجيَّتها ووَفْقاً لطبيعتها ونظامها، ويُخلي لها سبيلها، تمارس دَوْرَها في الحياة، وتؤدِّي دَوْرتها في التكوين، فتتصادم هي وتتدافع، ويلتقط هو وينتزع ما يُنجيه من هـٰذا المخاض، ويخرجه من هـٰذا المعترك، ثم ـ مرَّة ثانية ـ في طِوْر أرقىٰ وهمَّة أسمىٰ وأرفع، يلتقط وينتزع ما يخلِّصها وينجيها، وهو ينهض بدور الرعاية والهداية.

إنَّ مَن يريد أن يتلقَّى "الأمانة"، فيحمل رسالة الأنبياء وينهض بدَوْر الأولياء ويمضي على طريقة الصُلَحاء، ويريد أن ينتفِض غَيْرَة على مذهبه وطائفته، وحِرصاً على هويته وعقيدته، و "يخرج" في طلَب الإصلاح، ويقوم بثورة قوامها الأصالة والنقاء، وينادي بالرجوع والعودة إلى الجذور، وترك البدع والأهواء...

عليه أن يُصلح شأنه ويبني نفسه.

عليك في كلِّ لحظة أن تراقِبَ نفسك، ثم تعمد في صبيحة كلِّ يوم أو عشِية كلِّ ليلة إلى محاسبتها، فإن عَثَرْتَ على معصية أو ترك وَاجب كان منك، فكِّرت في البواعث وتأمَّلت في الأسباب، هل كان ذلك من الاشتغال بالفضول ومصاحبة أقران السوء؟ وبادَرْتَ إلى قطع السبب، ثم تدارك ما كان بالتوبة والندم، فلا يكون غدُك مثل يومك.

بل عليك أن تتَّخِذ صحيفة تدوِّن فيها عظائم المهلكات ورؤوس المنجيات، وأن تعرض في كلِّ يوم وليلة صفاتك عليها، فكلَّما اطمأننْتَ بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة، خَطَطْتَ عليها ومَحَوْتها من الصحيفة، وأقبلتَ على البواقي.

هكذا يفعل السالكون الصالحون، والعلماء العاملون، ويرونه من لوازم الإيمان بـ "الحساب"، وإلّا كان لقلقة لسان.

وتفَكُّر العلماء وعمل الصلَحاء هٰذا، هو أيسر المرجوِّ المرغوب، وأقلُّ المنظور المطلوب، أمَّا طريقة الصدِّيقين فأعظم من ذلك وأجلُّ، فهم مستغرقون في لُجَّة الحبِّ والأُنس، منقطعون بشَراشِرهم إلىٰ جناب القدس، ففِكرهم مقصورٌ علىٰ جلال الله وجماله.

دَعْ عنك الناس، وانصرف عن كلِّ لَغْوٍ وفَضْلَة، وأعرِض عن كلِّ لَهْوٍ ، وأقبِل علىٰ نفسك، فإذا أصلَحتَها وبذَلتَ لها وأعطيتها غاية جهدِك، أعطَتْكَ ما تريد وأعانتك وأسعفتك، حتىٰ لا تتكلَّف في إصلاح محيطك ولا تتخبَّط، وتصبح معاناتك وما تلقاه من المواجهات في هٰذا السبيل، لِذَّة وأُنساً يأخذك إلىٰ عوالم أكثر رحابة وسمُوّاً من الذي تعيش.

لا يليق بمثلك يا «عطا» هٰذا اللهو والعبَث...

إنما وَافيتُكَ وقابلتك وحدَّثتُك لِرَجاء صلَاح تفرَّسْتُه فيك، وأمل بمعاقد خيْر رأيتها ترتسِم علىٰ وَجْهِك وتلوح في جبهتك، وإلّا فأنا ضنين بنصائحي لا أبتذلها، شحيح بوقتي لا أهدره، لا سِعَة فيه للعوام ولا فضلَة للسذَّج البُسطَاء.

ودعني أُصارحك وأُكاشفك... لقد رصَدْناك منذ أمَد!

وما زِلنا نتابعك ونُلاحقك، نتقصىٰ أخبارك، ونرقب تحركاتك، ونواكب مَواقفك، وندرس الصعاب والمعوِّقات التي تلاقيك. كما نرصد خصومك وأعداءك، ونقابل عزمهم بما يفلُّه، وسحرهم بما يبطله، وكيدهم بما يرده إلىٰ نحورهم!

لا تَحْسب نفسك وَحيداً في هٰذا الميدان مُفرَداً، لا ناصِرَ لَكَ ولا مُعين، بل ولا أنيس، حتىٰ تنقطع هنا في هٰذه البراري تناجي الطير وتسامر الشجر، فيرميك الناس بالجنون والخبل!...

لا تحسب أنَّ "هُم" يخذلون من ينهض بالدفاع عنهم، وينتصر لمذهبهم، ويذُود عن أوليائهم ذئاب الفكر والعقيدة. ولا تظننَّ سَطْوَة الباطل وغَلَبته من هوَان المؤمن علىٰ ربِّه ومَولاه... بل هي الموازين والمقدَّرات، والسُنن والأسباب، والحكمة ومقتضياتها في إعمال سُنَّة الإمهال للجاحِد، والابتلاء للمؤمن.

ها أنا مُرسَلٌ إليك، مبعوثٌ لنُصحِكَ وإرشادك، ولأُمور أُخرىٰ ستعرفها في حينها... نحن معك يا «عطا»، ندعُو لك، ونؤمِّن علىٰ دعائك، ونبذل جهدَنا ووُسْعَنا لتذليل الصعاب التي تلقاها في حياتك، نعينك ونمدُّك، وننصرك بما يُسمح لنا ويؤذَن.

خيَّم الصمتُ علىٰ المكان... حتىٰ المعز والجداء، انقطعت عن الطفر والحراك، وأمسك كبشها الأقرن عن هزِّ عنقه وقرْع جرسه. وكأن المياه في الجدول القريب، جمدت عن تدفُّقها، وكفَّت عن غمر الحصىٰ وتخطِّي حِجارة المجرىٰ، ثم الهويِّ بعدها، ما كان يحدث الخرير. وهٰذا دَيْلَمُ نَمْل يتقاطر نحْوَ قريته، توقَّف دبيبه، كأنما بَلَحَ وتلَبَّد من تحت أحْمَالِه لِثِقْلِها! وقد سكَنَ هبوب الريح، حتىٰ عن نسائم رَطْبَة كنت تتشمَّمها من قِبَل البحر، تلتقي هنا برُخاء رادَّة تأتيها من تِلقاء الجبل، فتصنع في هٰذا الوادي، وفي هٰذا الشتاء، اعتدالاً قلَّ نظيره.

نطَق «عطا»، فما قطَع حديثُه السكون المهيب، بل أضاف إليه لحناً من وتيرته وسياقه، زادَ في مهابته وخَفَره، إذ قال بنبرة ملؤها التوسل والرجاء، بل الاستعطاء والاستجداء، بعد ضُعْف وانكسار:

بالله عليك مَن أنت، ومَن "أنتم"؟

لم يملك "الراعي" إلّا أن يشفق عليه ويتحنَّن، وكان يهمُّ بالردِّ وكشف السر وتحقيق الرغبة، حين بادَرَه «عطا» متمِّماً حديثه، و"الراعي" بعدُ مُطرِقٌ إلىٰ الأرض، مفسحاً لمخاطَبه أن لا يغلبه الحياء من إقرار وٱعتراف كلُّه فخرٌ وزَهْوٌ، من شأن النُّجباء وطبْع النبلاء أن يدارُوه ويكتموه!:

أتراكَ من أعوان إمام زماننا «القائم» عليه السلام؟

هل جئت من "الجزيرة الخضراء"؟

ما إن سألَه هـٰذا السؤال حتىٰ دَهِشَ الراعي وصَعِقَ، فلم يقدر علىٰ شيء، بهتَ وشَخَصَ ببصره، وأقام لا يطرف، وبدا مضطرباً وكلُّه هَوْل ووَجَل، لا يدري كيف يصنع، كأن فاجعة وَقَعَت وطامَّة نزلت بذِكر ما ذُكِر الساعة وما طُرِحَ عليه من سؤال... ما بلَغَ أن ظنَّ «عطا» فيه شيئاً من التصنُّع والتمثيل، أم تُرىٰ الأمر يستحق، و«عطا» لا يعلم أو لا يُدرِك ولا يعيش هـٰذا الاستحقاق، فرآه إفراطاً ومبالغة؟!

إلّا أنَّ "الراعي" صارَ ينتفض، وأخذَت فرائصه ترتعد وأطرافه تتراجف، وقد ٱمتقَع لَوْنه وٱبتُسِر، حتىٰ ٱصفرَّ فما بقي في وَجْهِه دم... فقطَعَ «عطا» بصِدق الموقف وعُظْم الخطْب.

أرادَ أن ينهض علىٰ ذكر «الحجَّة» بلقب «القائم»، خانته رِجلاه فلم تُقِلَّاه، وأراد أن يزجر «عطا» ويوبِّخه علىٰ هـٰذا الزَّعْم والدعوىٰ، ٱعتُقل لسانه وتلجْلَج، فلم يقدر علىٰ الكلام، وأراد أن يشير إليه أن ٱسكُت وأمسِك، فما طاوَعته يده أن يشيح بها، ولا حتىٰ أن يومئ...

دَعِقَ وعَقِر حتىٰ خرَّ إلىٰ الأرض، كظَبْي خَرِق من مرأىٰ سَبُع، فلَصِق ولم يقدر علىٰ النهوض، وصارَ يدير عينيه، ثم أخذَ يتلفَّت، كأنه يخشىٰ أن تكون الريح حملت هـٰذا القول إلىٰ أُذن سامع، فتوهمت فيه هو الزعم، أو التوطئة إلىٰ هـٰذا الزعم، وتمهيد المقابل وٱستدراجه إلىٰ هـٰذا القول فيه!

فقد يكون الاستعطاء والاستجداء بالتعفُّف، ويكون القبول بالردِّ والرفض!... في بعض الأحيان، يكون الإنكار ضرباً من الإجابة، والترفُّع سبيلاً للأخذ والكسب والقبول، فهو ما يبعث المقابل على الإصرار ويحثُّه على الإلحاح! يُنادىٰ عليه بالعلم فينكر مُبدياً التواضع: "إنما أنا طالِبُ عِلم صغير"! ويُشار إليه بالتقىٰ والزهد، فيأبىٰ مُنصِفاً: "أين أنا من أولياء الله العُبَّاد الزهاد"؟! فيُفهم - في الأقلّ - أنه في البستان ولم يخطئ القائل فيه المكان، وإن شَطَحَ بالدرَجة وزلَّ في العنوان، ويوحي أنه علىٰ الدرب والمسير، إن لم يكن من الواصلين البالغين... والحال أنه غارق في الجهالة، ساقط في العماية.

بعد لحظات قصيرة، طالَت عليه كساعات، قال بصوت متهدِّج:

ماذا تقول يا بني؟ ألقيت ثقيلاً، فأطرَتني شكيراً، وحلَّقت بي في غير سمائي، وأخذتني إلىٰ غير مَرعَايَ ومنزلي.

وهٰذه من علامات العوام فيك!... تأخذكم الآمال إلىٰ حيث تتطلَّعون وتريدون، فتتوهمون وتبالغون وتزيدون، وتحسنون الظنَّ بكلِّ قاصٍ ودانٍ، وتملأون أيديكم من كلِّ زاعم وطامع، والأمر:

جسرٌ لا يُعْبَر، وكَنَفٌ لا يُوطأ، وعقبة لا تُرتقىٰ، وناحية لا تُبلغ!

ذُروَة عصِيَبة، وأكاد أقول: غرَضٌ محال، وثنيَّة من دون اجتيازها شَيْبُ الغراب ومخُّ النعام! مَرامٌ لا يقع في حِبالة أمل الأولياء، أعْجَزَ الكُمَّل وفاتَ المخلصين وأعيىٰ الأصفياء... ما لِمثلي به قِبَلٌ، ولا لأضرابي سبيلٌ ولا يَد.

أتدري ماذا زعمت، وأين ذهبت؟! أتظنها شِرْعَة لكلِّ وارد؟ ومائدة لكلِّ وَارِش، وخمرة لكلِّ وَاغل؟ أتحسبها ندوة يرومها كلُّ عابر، وغرضاً في مرمىٰ كلِّ حابل ونابل؟... هيهات هيهات، إلّا واحداً بعد واحد! نديماً حميماً، وخِلّاً حبيباً، ومخلَصاً قريباً.

بيني وبين أعوانه، لا بيني وبينه، أطوَار ومدارج وطبَقات، ويفصلني عن خُدَّامه، لا عنه رُوحي فداه، حُجَّاب ودوائر ونطاقات... ما زِلْتُ وأمثالي نعيش على نفَحَات رَوْحِه ونسمات قُدْسِه، تهبُّ من ناحيته فتنعشنا، أتلقَّاها أنا كما تتلقَّاها أنت ويتلقَّاها غيرنا من أوليائه، وحتى من غيرهم، ولربما صعَدَت بك الروح وسَمَتْ وتألَّقت فاستشعرتها أنتَ أكثر مما أفعلُ أنا، أو هبَطَتْ وهَوَتْ في خصمائه وانحطَّتْ في أعدائه حتى أنكَرُوها وجهلوها وما أحسُّوا بها.

نفحة تحيينا وتزكينا، كما تبثُّ في الوُجود رُوحَه، فتستقيم الأُمور في مجاريها، وتمضي الأشياء في طبائعها ومدَارجها...

من هذه النفخة والنفحَة يكرُم الدُرُّ والعقيق وينبُل الفيروز والياقوت، ومنها تنبسط السهول والوِهَاد وتستقر التِلال وتركز أوتاد الجبال، وتنفهق الصحاري والقفار، وتموج البحار وتتلاطم المحيطات، بل تنتظم الأفلاك في أبراجها وتسبح في مَداراتها، ومنها يخرج الزرْع، فيزهر اللوْزُ ويُثمِر الكَرْم ويتفتَّح الوَرْد، وتهبُّ النسائم وتسكن الرياح، ويشدو الطير ويغرِّدُ البلبل، وتصفُّ الجوارح وتدفُّ الحمائم، وتترقرق المياه في هذه الجداول التي ترى، بعد أن تتفجَّر من تلك الصخور، هناك، في أعالي الجبال، أو تنبع من عروق غائرة في أعماق الأرض، ومن تلك النظرة والعناية، وسمِّها إن شئت: الإذن أو الأمر أو الولاية، تتراكم السُحُبُ وتتداخل، فتبرق السماء وترْعَد، وتُنبِتُ بهاطِلِها الزرْعَ وتروِي الضرع، وتغسل أدران الأرض، كما يُجلي ذكره - ﷺ - القلوب ويطهِّر النفوس.

: مَن تكون إذاً أيها "الراعي" الحكيم؟...

كأنك كشفت غيباً، وأظهرت مُعجِزاً، ونفذت إلى سريرتي واطَّلَعتَ على مكنونات نفسي!

ومَن "أنتم"؟ فقد تحدَّثتَ بصيغة الجمع، وما أظنك كنتَ تعظِّم نفسك، وقد قلتَ إنكم ترصدون وتراقبون، وتنجدون وتنصرون، وأوْحَيْت أنَّ ذلك يتمُّ بآسم «أهل البيت»، ويتحقَّق برِعايتهم ورِضاهُم وفي كنفهم، فمَن تكونون "أنتم"؟

: أقصى ما يمكنني أن أقوله لك "عنَّا" و"عنِّي"، إنني أعمل مع صفوة مُختارة، ونخبة مستخلَصة، وعُصبة مُنتقاة...

هناك جماعة إيمانية غاية في الولاء والإخلاص والألتزام، نذَرَت نفسها لنصرة «أهل البيت» وخدمة «الحجة المهدي المنتظَر» عجل الله فرجه، والدعوة له، والتمهيد لظهوره الشريف، لا بالقيام بالسلاح والنهضة بالسيف، بل بالتبليغ والإرشاد، وبنشر ثقافة الولاء، وتعليم المؤمنين أُسس وأصول وأحكام وأعراف، ثم أسرار العلاقة بـ «أهل البيت»، وآداب "الأنتظار".

وهم بعد هذا، يأملون أن يكونوا مصداق قنوت «الإمام محمد بن عليٍّ الجواد» عليه السلام، الذي فيه:

اللهم أدِل لأوليائك من أعدائك الظالمين الذين أضلُّوا عبادك وحرَّفوا كتابك وبدَّلُوا أحكامك وجَحَدُوا حقَّك وجلَسُوا مجالس أوليائك جُرأة منهم عليك، وظُلماً منهم لأهل بيت نبيِّك، فضلُّوا وأضلُّوا خلقك، وآتخذوا اللهم مالَكَ دولاً وعبادك خَوَلاً، وتركوا عالِم أرضِكَ في بكماءَ عمياءَ ظلماءَ مدلهمَّة، فأعيُنهم مفتوحة وقلوبهم عميَّة، ولم تَبْقَ لهم اللهم عليك من حُجَّة، لقد حذَّرتَ اللهم عذابك، وبيَّنتَ نكَالَك، ووَعدْتَ المطيعين إحسانك، وقدَّمتَ إليهم بالنذر، فآمنت طائفة...

فأيد اللهمَّ الذين آمنوا، علىٰ عدوِّك وعدوِّ أوليائك، فأصبَحُوا ظاهرين، وإلىٰ الحقِّ داعين، وللإمام المنتظر القائم بالقسط تابعين، وجدِّد اللهم علىٰ أعدائك وأعدائهم نارك وعذابك الذي لا تدفَعه عن القوم الظالمين.

اللهم صلِّ علىٰ محمَّد وآل محمَّد، وقوِّ ضَعْفَ المخلصين لك بالمحبَّة، المشايعين لنا بالموالاة، المتَّبعين لنا بالتصديق والعمَل، المؤازرين لنا بالمواساة فينا، المحيين ذِكْرنا عند اجتماعهم... أشدُد اللهمَّ ركنهم، وسدِّد لهم اللهمَّ دينهم الذي ارتضيته لهم، وأتمم عليهم نعمتك، وخلِّصهم واستخلصهم، وسدَّ اللهمَّ فقرَهُم، والْمُم اللهمَّ شعَثَ فاقتِهم، واغفر اللهمَّ ذنوبهم وخطاياهم، ولا تزغ قلوبهم بعد إذ هدَيتهم، ولا تُخْلِهم أي ربِّ بمعصيتهم، واحفظ لهم ما منحتهم به من الطهارة بولاية أوليائك، والبراءة من أعدائك، إنك سميع مجيب، وصلىٰ الله علىٰ محمَّد وآله الطاهرين أجمعين.

من هنا تراهم يُسَمُّون "الجواديُّون"... أو هُم يأنسون بإطلاق هذا الاسم علىٰ أنفسهم، وإن بلَغني من بعضهم النهي عن تحديدهم بأيِّ اسم وتشخيصهم بعنوان ورَسْم، ورفض تعيينهم بكلِّ ما يقتطعهم من جسم الأُمة، ويفصلهم ويميزهم عن عموم الشيعة.

أكثرهم من الإنس، ويُقال إنَّ معهم شرذمة قليلة من الجنِّ، وسمعت أنَّ فيهم بضع ملائكة، تردفهم حيث يعجزون، وتثبتهم حين يتزلزلُون!

ولعلَّ التعبير بـ "جماعات" أقرب إلىٰ الواقع وما يصيب الحقيقة فيهم من القول: "جماعة"، إنهم جماعات منتشرة في شتىٰ بقاع الأرض، يتأكَّد وُجودها في بلاد المؤمنين، لا يربطها تنظيم واحِد، ولا يؤلِّف بينها حزب، ولا قيادة مركزية تأتمر بأوامرها، ولا ٱجتماعات عامة تضمُّها، أو جمعيات عمومية وما شاكَل ذلك مما تجري عليه التنظيمات السياسية أو الأحزاب الدينية المعاصرة. لا يعرفهم إلّا مَن كان منهم، ومَن كان علىٰ شاكلتهم وطريقتهم، وهٰكذا مَن يُفاتَح ويتَّصل ـ بنَحْوٍ ـ بهم، لسبب أو آخر، فيطَّلع علىٰ جانب من أمرهم وشأنهم، كما هو حالك أنت الآن.

ليسوا تنظيماً مغلَقاً يتبع تسلسلاً وتشكيلاً هرَميّاً ينتهي إلىٰ شخص أو مجلس يتولىٰ القيادة،، ولا هو مُشْرَعٌ مفتوح، يمكن الدخول فيه والٱنتساب إليه لكلِّ مَن هبَّ ودَبَّ! بإمكانك أنت يا «عطا» أن تشكِّل خلِيَّتك وتكون لك مجموعتك الخاصَّة! ولكُم أن تعملوا بشكل مستقلٍّ، فإذا بلغتم من العلم والعمل ما يرتفع بكم ويَرقىٰ، ستشعرون بالمَدَدِ الغيبِّي يسندكُم، والنصرة الإلهية تنصبُّ عليكم، وسترون ملائكة السماء كيف تسعفكم وتنجدكم... ستشعرون بالٱنتساب، وستعرفون بالحسِّ والوجدان، إنكم مُراقبون منظُورون، لا من خَطفة الجنِّ وزَيزَم عَزِيفِهم، بل من عين الله ووِعَاء مشيئته ومَعدِن كلماته وأركان توحيده وآياته ومقاماته التي لا تعطيل لها في كلِّ مكان، يعرِفه بها من عَرَفه، وأنكم في كلِّ لحظة من لحظَات ليلِكُم ونهاركم متَّصِلون بـ «المولىٰ»، في خدمته وفي كنَفِه، وأنكم بعينه وإرادته.

ثم يتوثَّق الٱرتباط ويستحكم، بتقارير ترفعونها، كما نفعل نحن!

نرفع تقاريرنا عن أعمالنا، أو هي ترتفع من تلقائها مساء كلِّ ٱثنين أو خميس، وهناك تقارير سنوِية أو فصليَّة أو موسميَّة، "صحيفة" تُرفع وتُعرَض في ليلة القدر، وأُخرىٰ ليلة النصف من شعبان.

ستجدون أنفسكم، كما وَجَدْنا أنفسنا نحن في مجموعتنا، نتفرَّغ لعمَل يُعيَّن لنا، ونتخصَّصُ بدَوْر كأنما تسوقنا إليه إرادة غيبية، وتدفعنا نحوَه فِكرة لا ندري كيف ترسَّخت وتمكَّنت من نفوسنا، ويحدُونا تجاهه شَوْق وتوْق لا نجد له تفسيراً؟ ولا يعني هـٰذا أننا نهيم هـٰكذا بلا حكيم يرشدنا، ولا عالِم وشيخ يَرْعَانا، بل نحن نبحث وننقِّب ونجهد ونُتعِب أنفسنا أكثر ما نتعبها في هـٰذا، في الحكيم الذي ينجينا من الهلاك ويرشدنا نحو ما يُرضي إمامنا.

والأمر تلاقحٌ والتقاء بين العلم والعمل، وبين الاتكاء على الغيب، مزيج وتركيب معقَّد من السعي في طلب العلم وتحصيل المعرفة، والجدِّ في السير الأخلاقي والسلوك العملي، ثم من الدعاء والتوسُّل، وطلب الهداية والبصيرة، هبة من الله، وعطية جُوده وكرَمه، فيأتي العلم وينطبع النور من هـٰذا وذاك، ثم يُقذَف في القلوب فتهتدي إلىٰ "التكليف".

أن تعرف "تكليفك"، أي أن تنجح في تشخيص الأخطَر من الخطير، وتوفَّق أن تنتقي من بين الموضوعات أكثرها ضرورة فتتصدىٰ له، وأشدُّها إلحاحاً فتبادر لإنجازه، وأبرزها أولويَّة فتصبُّ الجهد والتركيز عليه، وتوفِّر الطاقات وتشحذ الإمكانيات له... فهـٰذا من أصعب ما يكون، وفيه يظهر التوفيق والتسديد للمخلصين من المؤمنين.

فكم من مخلِص مجاهد بنفسه أو ماله، انصرف من المعالي إلىٰ السفَاسِف، ومن العظائم إلىٰ التوافه! وانشغل بالترف عن الفروض والأُصول، وأضاعَ عمره في مشاريع عمل وبناء أو أبحاث ودراسات، هي ـ في واقعها ـ تحصيل حاصل، أو كانت ستقوم وتستقيم من تِلقائها دون جهده وعنائه، أو لعلَّها تكون من قبض الريح، وما يذهب هباءً منثوراً! بل ـ الأتعس ـ أن يكون نفيها خيرٌ من وُجودها، وعدمها أفضل من تحقُّقها، فهي علامة شقائه وخسرانه!...

هٰذا دون أن نبخس الناس أشياءَهم، ولا سيَّما في الجهود والمشاريع المقترنة بالإخلاص وحُسْن النية. ولٰكننا نرىٰ كيف تحوَّل بعضهم إلىٰ "حديث غثٍّ وسلاح رثٍّ" من فرْط ما فرَّط في وَقته وأضاعَ جهدَه وأهدَر مالَه، وقد أفنىٰ عمره في مشروع يجتثُّ جذور الدين، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً في خدمته ونصرته!... ذلك لمَّا ٱفتقد الحكمة وأضاعَ البصيرة، فأُعدم التوفيق وسُلِب التسديد، وكان الخسران المبين.

أعرف شخصاً من الأثرياء، ولعلَّك تعرفه أيضاً يا «عطا»، نذَر أمواله لضالٍّ مُضِلٍّ، وفتحَ خزائنه لدَعم ونصرة شخص تعلم أنت، علىٰ تواضُع علمِكَ ووَعيِك، وصِغَرِ سِنِّك ومحدود ٱطِّلاعك علىٰ الخفايا وٱتصالك بالناس، تعلم فَسَاده وضلاله وخطَره، وتقِف علىٰ تُعْسِه وشؤمه، وهَوْل ما يجنيه علىٰ المذهب ومنكَر ما يفعله بالدين، فكيف غاب عن "الثريِّ" ما ٱنكشف لكَ وبانَ كالشمس في رابعة النهار، فموَّل لنُصرَة الدين مَن يهدمه، ودَعَمَ من يقوِّضه؟! إنه التوفيق الذي حُرِمَه، والتسديد والمدَد الذي خسره... أم تُراه من قبيل "إذا أردْتَ أن تعرف مصدَر المال فٱنظر في مصرَفه"، وقد "وَافق شَنٌّ طَبَقة"؟ لست أدري!

إننا نعمل في خلايا ومجاميع صغيرة، تختصُّ كلُّ خليَّة منَّا بجانب معيَّن، وكلُّ عنصر فيها بدَوْر محدَّد، تتدرَّج الرتَبُ بيننا والمسؤوليات، كلٌّ بحَسَبه، علمه وتقواه وعمَله، وقدراته وحذقه، حتىٰ تنتهي إلىٰ أمير، يخدمنا وينظِّم شؤوننا وينسق العمل بيننا، أكثر مما يأمرنا ويتولّى علينا.

هٰذا هو كلُّ ما يمكنني أن أقوله لك، وأقصىٰ ما أستطيع من الٱنفتاح عليك، وها أنا أعود فأؤكِّده وأُوثِّقه: لستَ وَحدَك في معركتك، لم ينفرد بك العدوُّ يوماً، ولم يسْلمك ربُّك ساعة، لا أقصد أنك كنت مُسدَّداً أو مُلْهَماً في مواقفك كلِّها، إنما أردتُ أنَّ سَمْتَ المرء وهَدْيِه، وما ينتهي إليه من مواقف، يستجلب النُصرة من السماء ويستنزل الغَوْث من مكامنه.

لعلَّ الأنشراح والنشوة لم تبلغ في «عطا» حياته كلَّها، ما بلغَتْهُ الساعة وهو يسمع من "الراعي" ما يسمع، ويرىٰ منه ما يرىٰ... وكان يراقب حركات يديه وتقاطيع وَجْهه، ويسرح شيئاً ليتدبَّر ويتأمَّل في الصوَر التي يرسمها كلامه، والمناظر التي يشكِّلها من حديثه الخطير والشيِّق. وكان يشعر أنَّ ما ينتظره مما سيأتي أكبر مما سبَقَ وأكثر، وإنَّ حظَّه الذي طالما تلجْلَج وأعضَل وأستغلَق (حتىٰ كان يُعرف بقلَّة الحظِّ، ويشعر أنه غير محظوظ)، ها هو يخرج من بين شدقي ضيْغَم، كما يقولون، وأن أبواب السماء قد فُتِحَت، وهي لا تنفتح إلّا علىٰ مصراعيها، ولا تأتي، إن أتت، إلّا بالخير العميم والفضل الجزيل، وما لا يُبقي علىٰ عسير إلّا تَيَسَّر، ودُعاءٍ إلّا أُجيب، وأمنية إلّا أُنجزت، ورَجاء إلّا تحقَّق، وأول الغيث قَطْرٌ ثم ينهَمِر... فقال كمَن علِمَ من محدِّثه الأسترسال، ورأىٰ المنح وقدَّر الإفضال، ووَقف ـ بحِكمَة ـ علىٰ أن السديد هنا هو عدم المقاطعة، وحصر المداخلة في ما يديم الحديث ويكشف مزيداً مما خفي:

: لماذا أنا، كيف وَقَع أختياركم عليَّ؟

: لا مُحاباةَ هنا ولا مُجامَلات، الخيار لا يقَع عليك أو علىٰ غيرك من المنتخَبين منَّا، بل أنت وهُم الذين يستجلِبون الخير ويستنزلون الرحمة، ويرقون إلىٰ مَقام يقتضي تلقِّي فيض جديد.

: ماذا تفعلون، أو ماذا تفعل هـٰذه المجاميع؟

: نرصد المؤمنين الأخيار، نتابع الكبار منهم والصغار، وننتقي من بينهم مَن يُرجىٰ له شأن ودَوْر، ويُؤمَّل منه خيرٌ وعطَاء، ونلاحق الظواهر والأحداث، ومنَّا من يترقَّب ظهور "الأبدال" و"الأنصار". ننصرُ كلَّ صَوْت حقٍّ يرتفع، وندعَم كلَّ دعوة خير تنهض، وننجدُ كلَّ مكروب مقهور، ونعين كلَّ مستضعف مظلوم يستغيث من غلَبة الباطل وسطْوَة الجور، يدعو ربَّه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

كما نلاحق مشارب الضلالة والغواية، ونترصَّد قنوات العَمَه والتشكيك، ونتتبَّع مَصبّات التُّرَّهة والتدسِية، ونتصدّىٰ للفساد والإفساد... ونحن نعمل في جبهتين ثنتين، نتوزَّع بينهما:

نفَرٌ خُصِّصَ لمحاربة الإفساد في السلوك والأخلاق، لا المنكر المفضوح في الفواحش البيِّنة كشُرب الخمر والزنا وعموم الفواحش، بل في جنبتها الخفيَّة، حيث تدور معركة محتدمة تريد أن تُسقِطَ قُبْحَ هٰذه القبائح، وتهوِّن من هَوْل تلك الفظائع، فتستخفَّ بالمعاصي بما تدفع إليها من مسوِّغات، وتستهين بالموبقات بما تخلق لها من مبررات:

هٰذه من مُقتضَيات العصر، وتلك من لوازم الحياة الأجتماعية، وثالثة "طبيعية" تصبح "عاديَّة"، ورابعة تصنَّف تشدُّداً وتطرُّفاً ينال من "الاعتدال" و"الوسطيَّة" التي أُمرنا بها، وأُخرىٰ لا يتمُّ الدليل علىٰ وُجوبها... فشَتْ وشاعَتْ حتىٰ أنقلبت وصارَت معروفاً!

هنا يكمن الخطر وتتختبئ الفتنة ويبدأ الشيطان يخطُو "خطواته"، ونحن له ولها بالمرصاد.

نعمل علىٰ تنبيه المؤمنين وتوعيتهم، ونهيهم وردْعِهم، وإن بالحِدَّة والشدَّة، فقد لا ينبههم من الغفلة إلّا البلاء، ولا يوقظهم من السبات ولا يردَعهم عن السكْر إلّا المصائب والويلات، وأعوذ بالله أن يكون تأديبه لنا بعقوباته، أو بأن يخلي بيننا وبين بلائه.

ورَهْط خُصِّصَ لجبهة الأفكار والمعتقدات...

أنصرَفَ لنُصرة الآراء التي ترسِّخ الحُبَّ والولاء، وإحكام الأسباب التي تمكِّنه في قلوب المؤمنين، وتقلِبُه من "وَديعة عارية" إلىٰ "مستقر ثابت"، وأنبرىٰ للدفاع عن المذهب والتصدِّي للأفكار الفاسدة، مُواجهة تشكيكات المنحرفين ودسِّ المضلِّين ومكْر الغواة... تلك الجبهة التي ما زِلْتَ تعمل فيها أنتَ يا «عطا»!

أترانا في غفلة عن كيد الضلّال ومكْر المنحرفين؟

والله ما أنطلىٰ علينا شيءٌ منها، ولا غابَت حِيَلُهم عنّا لحظة، ونحن لها ولهم لبمرصاد!... نحن نعلم ـ بالدِّقة والتحديد ـ أيُّ شيطان يسوِّل لهٰذا الضالِّ المضل، ومَن الذي يقف خلفَه ويغويه، هو وحزبه وأتحاد طَلَبته، ونعلم ما وَراء دعوته، ونعرف تفاصيل خطَّته. إننا مطَّلِعون علىٰ حقيقة عَزْمه ونيَّته، وبعيد أهدافه وأقاصي غاياته، ووَاقِفون علىٰ جوْهر مَقولاته وكُنه رسالته...

إنه ـ في الحقيقة والمآل ـ يتنكَّر لـ «الإمام» عليه السلام، وينكر وُجوده! ويذهب في دعوة مستبطنة إلىٰ الرأي القائل بأنه لم يولَد بعد، وأنه سيولد في آخر الزمان، ويعرِّف "المهدوية" ويطرحها بأنها "حالة" و"قضِيَّة" تعالج التطلُّع إلىٰ المخلِّص والمنقِذ، وتتناول الحلم الإنساني القديم بالمدينة الفاضلة والعدَالة الشاملة، وأنها ليست شخصاً لنستغرق في البحث: هل وَلد أم سيُولَد، ما أسمه وما أسم أبيه؟ أين هو الآن، في «الجزيرة الخضراء» أم في «سامراء»؟

ثم يعقب ذلك، بأن الموضوع بقضِّه وقضيضه لا يدخل في تكليفنا، ولا ينبغي أن يشغل أيَّ هامش من همومنا، ناهيك بعمَلنا وسلوكنا، فلا دور ولا موقع لـ «المهدي» في حياتنا!

وتراه يعود ليُسطِّح هٰذه القضية ويتجاهل أعماقها وأغوارها التي تختزن كنوزاً من العلوم والمعارف، وتفتح للباحث والمتأمل آفاقاً لا نهائية من الفكر، يسطِّحها بأسلوبه المبتذل وطريقته الحقيرة، في تعاطيها مع مخاطَبيها وأستخفافها بهم، كما هي مع نفسها وفي قرارة حاملها: "لا أثر لهٰذا في صلاتنا وصيامنا وألتزامنا الديني! إنها عواطف تشغلنا عن العمل والتعقُّل، وتجعلنا ننصرف إلىٰ ما لم يكلِّفنا الله به".

وأنفعل "الراعي" شيئاً، وتغيَّر لحنه وهو يسترسل:

لعَمْري، ما هي إذاً ثمرة الإيمان بملائكة الله وكتبه ورُسله؟

والقرآن الكريم يشترطه ويلزم المسلمين به؟

وهي نبوّات ورِسالات لأُمم غيرنا، وشرائع منسوخة، وغير المنسوخ منها متطابق مع شريعتنا الغرّاء، ونحن أُمة خاتم الأنبياء، والمبعوث برسالته للناس كافة... فما هي الثمرة والمحصِّلة، وما هي الحكمة من وجوب الإيمان بالأنبياء السابقين؟

إنه رأس الدعوة "الجاهلية" في هذا العصر، ولد "الجاهلية" في كلِّ عصر "إمامُ ضلال" يتصدَّرها ويقودها...

الناس يولدون علىٰ الفطرة، وأبناء المؤمنين تلحقهم بعد الفطرة الطهارة والنجابة، فيأتي هذا الضَّال المضلُّ ينصِبَ في طريقهم شِباك غِوايته، ويكمُن لهم بسهام شيطانيَّة أدخرها في كنانته، يرميهم ويغريهم ويغويهم، حتىٰ يخرجهم إلىٰ الجاهلية.

أليس "مَن لم يعرف إمام زمانه ماتَ ميتة جاهلية"؟

إنَّ عمدة ما يفعله هذا الخبيث، وغاية ما يحققه، ونهاية ما يبلغه، هو ثني الناس عن إمام زمانهم، وإبعاد المؤمنين عن الأرتباط به وإقصاؤهم عنه، وفي الأقلِّ والأدنىٰ تضعيف العلاقة، لمن أستحكَمَت فيه الفطرة والنجابة، فرأىٰ أنه عاجِز عن قطعِها، غير قادِر علىٰ زَوْيهم عما جُبِلوا عليه، وعُجِنَ بطينتهم، وخالَط أرواحهم عشقاً ووَلاءً.

أنفرَجَت أسارير «عطا»، بل غلَبه الأنفعال والتأثر، فأهتاج وأخذ يبكي، من بلَج وطرَب وراحة ومرَح، وفي العمق، كان يبكي من مزيج أسىً وسرور، وراحَ وهو يكتم نشيجه، خَجَلاً أن يظهره أو أنفَة أن يبديه، حتىٰ لهذا الرفيق والأخ الشفيق، راح يكفكِفُ دموعه، وقد وَجَد أخيراً مَن يصدِّقه ويلتقي معه، ويكفيه مؤونة المحاججة والإقناع، أو الصدام والصراع...

تنفَّس الصُعَداء كمَن يُزيل عن صَدْره هماً قطَّعه طَويلاً حسرات، وصدَّعه عُمراً زفَرات، ويبدِّدُ غضباً كظَمَه دهْراً فأصلىٰ ضلوعَه وفَتَّ كبدَه، إذ ما كان يجِدُ إلىٰ بثِّه سبيلاً، وما كان يحْسَب أنه سيُزيح هٰذا الجبل يوماً: كيفَ عساهُ أن يُقنع أحداً بالْتواء الطُرُق وتشابك الحبائل والدروب التي يسلكها ذلك "السيد الضِلِّيل"؟ كيف له أن يقنع الناس بدَغَلِ ذلك الصدر الضَغِن الأحِن علىٰ «آل محمد» ﷺ، وبمريضِ أهوائه وفاسِدِ ضميره وسيِّئ سِرِّه وسُوء سريرته وخبيث طَوِيَّته؟ وهو مَن هو، في الصحافة والإعلام، ببضاعته المقدَّسة ومُسُوحه التي يصغر عندها كيد «الدجَّال»، وقد اْخترق الساحة الإيمانية ونفذَ فيها بشعار الجهاد والمعارضة، ودثار اْنتزاع الحقوق ورفع الظلامات، وتحقيق العدالة وتطبيق الشريعة وتحكيم الإسلام؟!

كان «عطا» في قرارته يائساً من هٰذا الصراع الذي أقحَمَ نفسه فيه، وإن أبدىٰ الحماسة في حركته، واْنطلق وكأنَّ الأمر سهْل هَيِّن، علىٰ مرمىٰ عصاً من نتاجه، وفي الأفق القريب لأمله... كان يلقِّن نفسه ذلك، حتىٰ ينقْله إلىٰ محاوريه، وإلّا فما كان في وُسْعِه فتح الآذان ودخول القلوب، ناهيك بالتأثير عليها وقلْبِها، فالناس رهائن الواقع وأتباع القَوِيِّ.

ها قد جاءه المَدَد، لا لينْصره ويدعمه، فهٰذا لم يخطُر له ببال ولا هجَسَ في صَدْر، بل مُجرَّد أن يجِدَ من يلتقي معه في الرأي ويتوافق في الموقف والمشرب، فيخرجه من غربته ويسلِّيه ويؤنسه في وَحْشَتِه... كان فَتْحاً، فليست الحالة "الإبراهيمية" مما يطيقها أيٌّ كان، أن يعيش المرءُ منفرداً ويكون وَحْدَه "أُمَّة"، يقاسي من محيطه ويعاني من قَرابته.

لذا كان تلقيِّه لحديث "الراعي" من هٰذا الباب دون غيره، وكأنه اْنصرف أو ذهل عن بقية الحيثيات التي لو تأمَّل فيها أو التفت إليها، لوَجَدَ سلوة أعظم وبشارة أكبر...

كفْكَفَ دُموعه، وراح يقول بمُتهدِّج صوته:

أنتم تعرفونه إذاً... اتضح لكم وكشفتموه؟

: عرفناه تمام المعرفة، وكشفناه على حقيقته، وعرفنا الطريق التي يسلكها، وما وراء ما يتعمَّده من الحطِّ في مقامات «أهل البيت» ومنزلتهم، والتشكيك في مصائبهم وما جرى عليهم، وإصراره على ما يصبُّ في تحويلهم إلى شخصيَّات عادية، مثل غيرهم من الصحابة والتابعين، أو حتى مثله هو! وعرفناه في ما نصب نفسه له، من تضعيف ارتباط المؤمنين بـ «أهل البيت»، وضعْضَعَة العلاقة العاطفية بهم، بل نفي المحبَّة وإقصاء العشق ومحق الولاء من قلوبهم ومعتقداتهم، ومن الأعمال التي تُظْهِر ذلك وتعبِّر عنه في شعائرهم.

كلُّ ذلك عَبْر الخَلْط والمزج بين الحقِّ والباطل، بل إنَّ الحقَّ في أُطروحته لا يتجاوز دَعوَات و "كلمات" يريد بها باطله: كالحذر من الغُلُوِّ، وتحكيم العقل، والابتعاد عن العاطفة، ورفض ما "ضَعُف سنَدُه"، وهكذا الحثُّ والتركيز على "العبادة"، والانصراف إلى "العمل"، والتشبُّث بالعناوين السياسية والشعارات الإعلامية التي تسوِّقه كحالة شعبية.

عادَ «عطا» ليفكِّر في التالي القادم من الموقف ومن علاقته بهذا الرجل، فهو في غِنىً عما يُلقيه الآن من محاضرات ودروس حول "الضالِّ المضل"، فلعلَّه أدرَى به منه...

لم يكن يعرف بعد كيف ستكون العلاقة بينهما، هل هو ارتباط سيدوم، أم هو هذا اللقاء العابر؟

كان يفكِّر في نوعية الأسئلة التي تستخرج منه ما يريدُ من معلومات وَفْقاً لطبيعة العلاقة المستقبلية، هل عليه أن يستعجل ويقتنص ويغتنم، أم هو في سِعَة ومندوحة، وله أن يتأنى وينتقي؟

وكأن "الراعي" قرأ ما يدور في نفس «عطا» ويختلج في صدره فقال: هـٰذا لقاؤنا الثاني، وأمامنا ثالث يكون في نهاية مطافِك!

: الثاني؟ متىٰ كان الأول؟ لا أتذكُّر أنني التقيتك، وإن بدا وَجهُك مألوفاً، لا غربة فيه... أتراه في غفلة مني وَقَع اللقاء وكان؟

: نعم، لعلَّك لم تتنبه إلىٰ صاحبي الذي التقاك وأرشدك!

: إذاً لم تكن أنت الذي ٱلتقيتني، ذكِّرني أرجوك.

: كان أحد الإخوة قد التقاك في سفرك قبل ثلاثة أعوام إلىٰ العتبات المقدسة، في صحن الروضة الحيدرية، ورافقك في دخولك الحرم الشريف، وطلَب أن تقرأ له الزيارة، وحدَّدها لك بـ "الزيارة السادسة"... وهناك سألته وحاوَرته، ونصحَك وأرشدَك.

: نعم، وكيف لي أن أنسىٰ «الشيخ صالح»؟ أهوَ "منكم"؟...

ها قد ٱتضحت الأُمور الآن، كم تساءلتُ عن سرِّ ٱختفائه، علىٰ الرغم من أنه لم يعدني بلقاء ثانٍ، بل أجاب حين طلبت إليه ذلك: تجدني هنا، في هـٰذه الأكناف، أنا مجاورٌ لـ «للأمير»، لا أكاد أُفارق الحرَم، وإن فعلتُ فلن أخرج من هـٰذا الوادي المقدس! وقد أجهدتُ نفسي في طلَبه العام الماضي حين وُفِّقت للزيارة ثانية، فلم أجد له أثراً، رغم أنَّ كل مَن كنت أسأله عنه، أراه يعرفه ويشخِّصه، وإن لم يحدِّد له سكناً وداراً، فقد كان يزعم أنه كان في الجوار منذ لحظات: ٱنْظر في الرواق لعلَّه هناك!... لا في الرواق وَجَدْته، ولا في الإفريز ولا في الصحن الشريف، غاب عنِّي وخفي، حتىٰ يئست وعُدْت أدراجي خالي الوفاض، أُردِّد:

وَا حَسرَتي ضاعَ الزَّمانُ وَلَم أفُز * مِنكُم أُهَيْلَ مَوَدَّتي بِلِقاءِ

: نعم، إنه منَّا، كان قد قصدَكَ وأرادك، لم يلتقِك عفواً ولا صدفة... وقد أبلَغك السلام حين عَلِمَ أنني متوجِّهٌ إليك، وطلَب أن أسألك عن وَصيته؟ هل تذكر وَصَاياه، هل عملت بها، وأين بلغت منها؟

: أذكرها جيداً، وقد عمِلْتُ بها، لكني أهملت بعضها، أو لأقُل بأنني لم أوفَّق لها كلِّها... أوْصَاني بتعاهد صلاة الليل، وأرشدني إلىٰ كتابين، قال إن الأول للعقيدة والثاني للعمل، هما (مشارق أنوار اليقين) لـ «الحافظ رجب البرسي» و(مكيال المكارم) لـ «الميرزا محمد تقي الموسوي الأصفهاني»، ثم ٱستدرك وقال إنَّ العقيدة والعمل كلٌّ يصبُّ في الآخر ويعضده وينتهي إليه، وقد علَّمني وعرَّفني أُموراً أُخرىٰ وأوْصَاني بوَصايا كثيرة، وأنا أتعاهدها ما أمكنني.

أُقِرُّ بأنني تهاوَنتُ وتقاعَست عن بعضها، ولكني - في المقابل - أكاد لم أقطع صلاة الليل في عامي هٰذا إلّا نزراً.

: صدَقْتَ، وبوركت يا «عطا»... لذا تراني أتيتك!

إننا نرصد المؤمنين الأخيار ونتتبَّعهم، وقد جئتك لأُبشِّرك بأنك علىٰ خيْر، وإنك تمضي في الطريق، راشِداً مَهدياً... هناك نواقص يجب أن تجبر، وعيوب لا بد أن تستصلح، لٰكن العمدة أنك علىٰ سبيل نجاة.

كان «عطا» بعدُ في حالة الصدمة والفجأة، وإن خرَج من الهوْل والذهول، فهو ما يَزال في العَجَب والحيرة، ولم ينتقل إلىٰ الأطمئنان والوثوق، ناهيك باليقين والركون التام، كان يحتمل ويحمل الأمر علىٰ غير ظاهِرِه ومَجراه الذي يتقدَّم فيه، ويرمقه بريبة المؤمن الفطِن، ويترك هامشاً للتغرير والمكيدة، أوْقَعَه فيه بعض أعدائه، لربما بعض أصدقائه مفاكهة ومزاحاً! لذا كان يتقدَّم تجاه "الراعي" بحَذَر وحِيطة، ويركِّز أكثر ما يُركِّز علىٰ إخبارات الرجل الغيبية وما يكشفه من خفايا، وكان «عطا» قد نقل قصَّته مع «الشيخ صالح» لبعض أصحابه، فلعلَّها تسرَّبت وبلَغَت "الراعي"، كما قد يبلغ بعضهم من الحنكة والمقدرة في الفراسة وقراءة الوُجُوه، ما يكشف أحوال أصحابها ويفضح خلَجَات أنفسهم... لا شيء جازم حتىٰ الآن.

ولكن في المقابل هناك زخم من الأُنس والراحة تتدفّق من مرأى هذا الغريب، وهناك، من جانب "الراعي" وفيه، مستوىً مرتفع من الاعتداد والثقة، لا يلتقي مع اللهو والعبث، ودرَجة عالية من الصدق والإيمان تنفي أيَّ احتمال سوء يفترضه «عطا»...

هناك حقيقة وِجدانية هيمنَت على «عطا»، فقرَّر أن يخرج من ذاك إلى هذا، ويحسم أمره في التعاطي معه:

لعلّك وَقَفْتَ على طِباعي، ونظرتَ أو حقَّقْت فكشفت وعرفت بأنني بقدر ما آنسُ بالفكر والعلم، والبحث والتنظير، لا أعتمد في حركتي ومَواقفي إلّا على الدقّة والتحديد والتطبيق، لا أكتفي من "الواعظ" بالقول دون التطبيق والعمل، ولا من "العالم" بالكُليّات والعموميات دون الاستنتاجات والتطبيقات. أحسب أن في كلِّ حقل وميدان مساحة يلجها الأدْعِياء ويخوض فيها المتطفِّلون، فيبحث أحدهم ويحاضر ويُناظر كأنه ابن بَجْدَتها! فيلبِس على العوام، ويضيع الأمر على غير أهله... أليس الأمر كذلك؟ أليس "السيد الضلِّيل" كما سمَّيته، ونعمَ ما فعلت، يقوم بذلك، بل هي حرفته التي يجيد وصنعته التي يتقن؟ يَسمعه السامع يتناول الفقه فيحسبه فقيهاً، وهو أقل من أنصاف المتفقهين، ويخوض في التفسير فيحسب أنه أُوحي إليه، وأن ما يقوله ويسطره حقاً هو "من وَحي القرآن"! والحال أنه لا يحسن أوليّات هذا العلم ولا يُجيد أبسَط فنونه... وهكذا.

أخبرِني بالله عليك، ما هي هذه المجاميع التي تتحدَّث عنها، أين «الإمام المهدي» عليه السلام ورِضاه منها؟ أو حتى أين بعض أعوانه وخدّامه من ذلك؟ أتزعم الاتصال والارتباط؟ أتدَّعي الرؤية والمشاهدة؟ ألا يختزن ما تطرح وتنادي ضرباً من "النيابة الخاصة"، ويحتَمِل شَمَّة من قُدْس "الناحية"؟...

ماذا تفعل أنتَ علىٰ التحديد؟

أُريد أمراً واضِحاً وصريحاً، أُريد أن أكون علىٰ بيِّنة وبصيرة.

وعلىٰ الرغم من أنه رَمَقَه بنظرة من طَرف عينه، لم تكن مريحة، تحْمِل بعض الأمتعاض علىٰ هٰذا التعسُّف في التدقيق، وشبه اعتراض علىٰ هٰذه الملاحقة...

لٰكن يبدو أنَّ " الراعي " غالَب ذلك وأحسَنَ حمله، فقال:

بورِكت يا «عطا» وسلِمت... لا بأس أن تحقِّق وتدقِّق، وترسم لنفسك الحدود وتضَع الضوابط، ما لم يُدْخِلْكَ ذلك في حالة " أهل البقرة " ! وبقيتَ تطلب الحق وترجُوه للعمل لا جِدالاً ومراءً، فينتهي بك إلىٰ الركون والخنوع والسلبية، تتعسَّف وتتشدَّد حتىٰ يُصرَف عنك شرفُ العمل وتُزاح المسؤولية، أو لا تُقْدِم، إن أقدَمت إلّا بشِقِّ الأنفس علىٰ غِرار: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾! لستُ أدعوك لبَيْعَة ولا أستعين بك لرئاسة، فلا تُفرِط في التحسُّس والتوجُّس.

لقد أجبتك عمَّن نكون، ولا يسعني التفصيل ولا الإضافة...

أما أنا، والمجموعة التي أعمل فيها ومعها، فنحن رَهْط كُلِّفنا بمراقبة «السامري»! إذ علمنا أنه يهيم في هٰذه الأنحاء، ويَجُول في بَراري هٰذه البلاد، وبلَغَنا أنه يَحِيكُ مؤامرة ويوطئ لِدَسيسة، لعلَّها ترتبط بـ «السفياني»، لا ندري بعد، فكُلِّفنا ملاحقَته ومتابعته.

وكنت يا «حاج عطا» قد ذُكرت في محفلنا مِراراً، ووَصلَتنا أخبارُ أنشِطتك تباعاً، فصِرنا نتتبَّع خطاك المباركة ونلاحق جهودك المشكورة، فقرَّرنا دعمَك وعزمنا علىٰ إعانتك ونُصرتك، حتىٰ أرسلنا إليك رسولاً منّا هو «الشيخ صالح»، وها أنا أتبعه في الثانية، ولك موعد ثالث في آخر مَطافك معنا!

: أعِد عليَّ بالله عليك، ماذا قُلْتَ عن «السامري»؟

: إعلَم يا أخي أنَّ «السامرية» صارَت خطّاً وتياراً، هم صُنّاع العجول المعبودة، ومروِّجو الصنمِيَّة في الأُمم المؤمنة لا الكافرة، الصنمية المُغْوِية، الناطقة "المعجزة" التي "تخور"، لا الصامتة كأصنام «قريش» وتماثيل «بوذا» أو آلهة معابد «الرومان»...

إن هذه الأصنام (السامرية) تنطِق وتتحدَّث وتُبْهِر، وهذا "الضلِّيل" الذي تعرِف وتحارِب، ما هو إلّا أحد صنائعهم.

بهذه النماذج والحِيَل، التفَّ «السامريُّ» على الحظْر الذي ضُرِبَ حَوْله، وفَرَّ من الحِصار الذي فُرِض عليه، أن لا "مِساس"، فلا يختلط ببَشَر، فعَمِد إلى شياطين الإنس، فصَنَع منهم أوْثاناً، تحت عناوِين "أعلام"، وأصناماً تحت غِطاء "رموز إسلامية"، ونفخَ فيهم وزيَّن وأغوَى من زخرف القول والغرور، ما أضلَّ العِباد وخرَّب البلاد، فظلَّ "المحازِبون" عليه عاكفين.

"قبَضَ قبْضَة من أثر الرسول"... سرَق ضِغْثاً من علوم «أهل البيت»، واْختَلَس حَفْنَة من الحَقِّ الذي يحمِلون، خَلَطَه بباطِله البغيض وشَرِّه المقيت، ومزَجَه بترَّهاته الهابِطَة وسَفَاسِفِه الساقِطة، وألقَاهُ على صَنَم من صنيعته، عِجْلٌ جَسَدٌ له حِراك، كما له خُوار ورُغَاء وعُواء، أفعىً سامَّة لها فحيح، وأصَلَة لها عَصْرَة تفُتُّ الشديد، و"إنسان" له خطابة وكتابة! وَثَنٌ سَبَكَهُ من تِبْرِه وصَبَّه في قالَبه، دارى قُبْحَه وسَتَر جَهْلَه وعمَّى هدَفه، فأنطَلَت الحيلة وتحقَّقت الغِواية.

ها هو يُعْبَد من دون الله، وهو على ما ترى اليوم...

وسيبلغ في الضلال والإضلال ما لم يَسبقه أحَدٌ إليه، سيهتك الحدود وينتهك الحرمات، ويخلق الفتن ويشقُّ العصا، سيُهوِّن القبائح ويستخِفُّ بالمنكرات ويحلِّل المحرَّمات ويبيح الكبائر، سيُطهِّر النجاسات ويبيح نِكَاح اليد، ويُفطِّرُ الصائمين ويُعلن العيد قبل هِلال «شوال»!

والطامة الكُبرىٰ والداهية العظمىٰ، أنه سيُستَدْرَج ويملىٰ له، وسيَسْتَدْرج معه أتباعه ومَن يمكنه من المغرَّر بهم، ليَنكُر مُصَابَ «الزهراء» عليها السلام، وسيزعم بيانَ قبرِها، وانتهاء مِحْنَتها، وإنها لم تخرج من دنياها غاضبة ساخطة، بل عَفَتْ وأصفَحَتْ!

سكَتَ "الراعي"، وكأنه تعِبَ وأعيا، أو غلبه ما صارَ يجيش في صدره، ثم التفت إلىٰ الجبال من ورائهما، فصارَ يشير إليها ويعود بإشارته تجاه الوادي، فالبحر، وهو يقول: أتخال أنَّ هٰذه فارغة خالية؟ أتظنها جامدة هامدة؟ أتحسب أن الله خلق هٰذه الأرض والحياة سُدىً؟ وأنَّ الحبل مُلقىً هنا وهناك علىٰ غاربه، وأنَّ الأُمور متروكة لعَبَثِ الأبالسة ومرُوق الشياطين؟ وأنَّ الميدان مُخلىً للظَّلَمَة وأعوانهم، وللضُلَّال وأحزابهم؟ كلَّا يا «عطا»، هناك وَليٌّ يتولّاها، هناك راعٍ يرعَاها، ويرعانا، ولولا رعايته لهلكنا، ولولا وُجوده ودَوْره لَصَحَّ العبَث من الحكيم، والعياذ بالله... نحن بعينه، والأُمور طُرّاً بيده وطَوْع إرادته، لا سَهْو في المعصوم ولا غفلة في الوليِّ ولا إهمال في الإمام الرؤوف، وخُذْها من إنشائه الملكوتي - عليه السلام - في جوابه علىٰ كتاب «ابن أبي غانم»، ومن غير ذلك الكتاب مما بلَغَنا من ردُوده الشريفة التي وَرَدَت من ناحيته المقدَّسة:

عافانا الله وإياكم من الضلالة والفتن، ووَهَبَ لنا ولَكُم رُوح اليقين، وأجارَنا وإياكم من سُوء المنقلب، إنه أُنهي إليَّ ارتيابُ جماعة منكُم في الدين، وما دخَلَهم من الشكِّ والحيرة في وُلاة أمرهم، فغمَّنا ذلك لكُم لا لَنَا، وساءنا فيكُم لا فينا، لأنَّ اللهَ معَنا ولا فاقَة بنا إلىٰ غيره، والحق معَنَا فلَن يُوحِشنا مَن قعَدَ عنَّا، ونحن صنائع ربنا، والخلق بعدُ صنائعنا...

لَولا أنَّ أمرَ الله تعالىٰ لا يُغلَب، وسرَّه لا يظهر ولا يُعلَن، لظَهَـر لكُم من حقِّنـا مـا تبيَّن منه عقـولكم، ويـزيل شكـوككـم، لكنه ما شاء اللهُ كـان، ولـكُلِّ أجل كتاب.

فأتقـوا الله وسلِّمـوا لنـا، وردُّوا الأمرَ إلينـا، فعَلَينا الإصدار كما كان منَّا الإيراد، ولا تحاوِلُوا كَشْف ما غُطِّيَ عنكم، ولا تميلوا عن اليمين وتعدلوا إلىٰ الشمال، وأجعلوا قصدكم إلينا بالمودَّة علىٰ السنَّة الـواضحـة، فقـد نَصَحْتُ لكم، والله شـاهـد عليَّ وعليكم. ولـولا مـا عندنا من محبَّة صلاحِكم ورحمتكم، والإشفاق عليكم، لكُنَّا عن مخاطبتكم في شُغل، فيما قـد أمتُحِنَّا به من منازعـة الظـالم العُتلِّ الضـالِّ المتتـابع في غيِّه، المضـادِّ لِـربِّه، الـداعي مـا ليس له، الجاحد حقَّ مَن أفترض الله طـاعته، الظـالم الغـاصب. وفي أبنـة «رسـول الله» صلىٰ الله عليه وآله وسلم لي أُسوة حَسَنة...

أرأيتَ يا «عطا»، من أين جاءنا أو سيأتينا "الضالُّ المضلُّ"؟

وأين نُصِبَت لَنا الشِراك، من أين سنُؤخَذ ونُخْتَتَل؟

وأين الغاية القصوىٰ التي يرمي وأين يريد؟

وماذا يستهدف هـٰذا الشيطان المريد؟

إن إنكـار شخص «المهدي» وتضييع أمره عبْر نقله إلىٰ "قضية" لا "شخص"، وجَعْلَه "حالة" لا "إمام"، مرتبطٌ بإنكار الظُلامة ونفي المصيبة الأُولىٰ، فيزعمون أنَّ الأمر تمَّ هناك وخُتِمَ علىٰ خير ما يُرام، ولو كان مَولوداً مَوْجُوداً، فلِمَ الغيبة وعلامَ الأختفاء؟!...

تابع معي كلام «المولىٰ»، فوالله لا خلاص إلَّا بالعودة إلىٰ حديثهم والأخذ بهَدْيهم، فخذها من عينها الصافية:

ولـو أن أشـيـاعَنـا ـ وَفَّقهـم الله لِطَـاعـتـه ـ علىٰ اَجتماع من القُلُوب في الوَفاء بالعهد عليهم، لما تأخَّر عنهم اليُمْنُ بلقائنا، ولتعجَّلَت لهم السعادة بمشاهدتنا علىٰ حقِّ المعرفة وصدْقِها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلّا ما يتَّصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم، والله المستعان وهو حَسْبنا ونعم الوكيل...

نحن وإن كُنَّا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكِن الظالمين، حَسَب الذي أرانا الله تعالىٰ لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك، ما دامَت دولة الدنيا للفاسقين، فإنَّا يحيط علمُنا بأنبائكم، ولا يعزُبُ عنَّا شيءٌ من أخباركم، ومعرفتنا بالذلِّ الذي أصابكم، مُذ جنَح كثير منكم إلىٰ ما كان السلف الصالح عنه شاسِعاً، ونبذُوا العهد المأخوذ منهم وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

إنَّا غير مهمِلين لمراعاتكم، ولا ناسين لِذِكْركُم، ولولا ذلك لنزَلَ بكم اللأواء واَصطَلَمَكُم الأعداء، فاَتقوا الله جلَّ جلاله...

وظاهرونا علىٰ اَنتياشكم من فِتنة قد أنافَت عليكم، يهلك فيها من أحَمَّ أجله، ويُحمىٰ عليه من أدركَ أمله، وهي أمارةٌ لأُزُوفِ حركتنا ومُباثَّتِكُم بأمرنا ونَهْيِنا، والله مُتِمُّ نُوره ولو كَرِهَ المشركون.

أعتصموا بالتقيَّة من شَبِّ نار الجاهلية، يحشُها عُصَبٌ أُمويَّة تهول بها فرقة مهدية، أنا زعيم بنجاة من لم يَرُم منها المَواطِن الخفية، وسلك في الطعن منها السُّبُلَ الرضيَّة، إذا حلَّ جمادىٰ الأُولىٰ من سنتكم هذه، فأعتبروا بما يحدث فيه وأستيقظوا من رقدتكم لما يكون من الذي يليه، ستظهر لكم من السماء آية جلِيَّة، ومن الأرض مثلها بالسويَّة، ويحدث في أرض المشرق ما يحزن ويُقلِق، ويغلب من بعدُ علىٰ العِراق طوائف عن الإسلام مراق، يضيق بسوء فِعالهم علىٰ أهله الأرزاق.

ثم تنفرج الغُمَّة من بعده، ببوار طاغوت من الأشرار، يُسَرُّ بهلاكه المتَّقون الأخيار، ويتَّفِق لمريدي الحجِّ من الآفاق، ما يأملونه علىٰ توفير غلبة منهم وأتفاق، ولنا في تيسير حجِّهم علىٰ الأختيار منهم والوفاق، شأن يظهر علىٰ نظام وأتساق...

فلْيَعمَل كلُّ أمرئ منكم ما يقرُبُ به من محبَّتِنا وليتجنَّب ما يدنيه من كراهيتنا وسخطنا، فإن أمرنا يبغته فجأة، حين لا تنفعه تَوْبة، ولا ينجيه من عقابنا نَدَمٌ علىٰ حَوْبة، والله يلهمك الرشد، ويلطف لكم بالتوفيق برحمته .

كان «عطا» يصغي إلىٰ "الراعي" وينصِت إلىٰ الحديث وهو يتقلَّب في الحيرة والدهشة...

دهشةُ ساكِن كُوخ أو دار متواضِعَة، دخَلَ قصراً باذِخاً، وهو يتنقَّل بين فسيح قاعاته وينظر فاخر متاعه، وتدور عيناه في رأسه وهو يدور حول نفسه، يعاين الثريات المضيئة والمعلَّقات المتدلية من أسقفه، وكلَّما خرَج من حيرة وَقَع في أُخرىٰ لمرأىً جديد يدهمه...

أو قُلْ، بلُغَة الحدَث الشرعية والدينية، وهي أقرب إلىٰ الواقع وأدنىٰ مما كان يجري... كان «عطا» في ذهول من عَرَفَ حُرْمة "التعرُّب بعد الهجرة"، فعادَ من باديته النائية حيث كان يعيش ما يتوهمه كفاية ولا يشعر بالحاجة إلىٰ زيادة، عادَ إلىٰ "المدينة"، مدينة العلم والولاء، ليستدرك في أقصىٰ ما يظن، حكماً سقط منه، أو فكرة فاتته، أو معتَقَداً يفتقر إلىٰ تصحيح ومراجعة... وإذا به أمام عالَم جديد، بحر زاخر طَمْطَام، حطَّمت مَوْجَته الأُولىٰ مجاذيف قاربه الصغير، وأتت الثانية علىٰ شراعه الذابل، وها هو الساعة مستسلم تائه، يُمسِكُ حافتيه، يُداري سقوطه في قاع القارب، أو انكفاء القارب وغرقه في قعر البحر.

عاد "الراعي" ليُمْسِكَ زِمَام الحِوار ويحسمَ النقاش، ويقبض علىٰ مقاليد الوَضْع بينهما، وكأنه شدَّ العنان بعدَ لِين وإرخَاء، وأظهر الحزم بعد صبر وأناة... يبدو أنَّ الوقت كان يدهمه، أو أنه لم يَعُدْ يُسعِفُه، أو أنه قدَّر أن لا بُدَّ لـ «عطا» أن يحْسِم أمره ويخرج من دوامة الترديد التي ما انفك أسيراً فيها.

فقال: إذا فرغت فانصب، وإلىٰ ربك فارغب...

هلمَّ يا أخي، أوَتُراك في عمر ابن أخي؟ واعقد العزم الساعة واخرج مما أنت فيه الآن، وانْهِ هذا اللهو من فورك، وعُدْ أدراجك إلىٰ بلدك، لتنهض برسالتك العظيمة، وتقوم بدَوْرك ما يسَعك العزم ويعينك البأس وتنصرك القوة، وكما يليق بالرسالة التي تحمل، وبما هو أهلٌ ومحلٌّ للمذهب الذي تنصر، وكم تراه جديراً أن يُعطى وحقِيقاً أن يفدَىٰ.

قال "الراعي" ذلك، وهو يقوم بالتقاط أثاث «عطا»، وجَمْع المبعثر من متاعه هنا وهناك، دون رُخصة منه ولا استئذان! ثم وَجَدَ «عطا» نفسه ينضمُّ إليه ويتبعه، يَلمُّ ويزمُّ معه حشَمه ويعيد جمع ثِقْله...

فلمّا فرَغا، طلَب إليه أن يصحبه ويرافقه، وأن يحمله معه على دراجته!

: أين وُجهتك؟

: سـأدلُّك إذا مَضَيْنـا، وأُخبرك إذا وَصَلْنـا... إمضِ أنت لِرُشـدِك واسلُك درْبك، ألستَ تقصد جنوباً؟ لن ترهقك صُحبتي.

: على الرَّحب والسَّعة، ولكن ماذا عن أغنامك؟

: دَعْها لشأنها، سيأتي من يعنى بها، ولعلَّها عادَت هي من تلقائها!

ردفَ خلْفه على الدراجة النارية بصعوبة، فقد كانَتْ الأحمال كبيرة وثقيلة، وكانت مَرصُوصَة مشدودة في مَواضعها بِدقَّة ونظام، أو معلَّقة متدلِّية، ولكن مَعقُودة بإحكام، وقد وَجَدَ لكلِّ مَتاع مَوْضِعاً على جانبي الدراجَة وأمامها وخلْفها، وبالكـاد أخلى مكاناً للراكب الرادِف، ورغم ثقلها وانتفاخها، إلّا أن «عطا» كان مطمئناً وَاثقاً أن لن يَسقط شيء من ارتجاج في وَعْثٍ، أو انحِدار في وَادٍ، أو ميل في جِزْع ومنعَطف...

فلما نظر "الراعي" إلى "تورُّم" الدراجة، كأنها ناقة شُدَّ عليها رحْل، بل هودَج تتدلى منه ذباذِب!... قال مُعرِّضاً: فازَ المخِفُّون!

أحبَّ «عطا» أن يمازحه، وطَابَ له أن يرجع إلى طَبْعِه المرح الفكِه، وينفتل شيئاً عن أجواء الجِدِّ التي صنَعها "الراعي" فصَارا فيها، فردَّ الكيل ممازحاً: أمِن المتاع أثقلت، أم ممن لَحِقَ بي وردَف؟

ضَحِكَ "الراعي" وأعجَبَه التعليق...

عادَ «عطا» ليسأله، على صَوْت محرِّك الدراجة الخافِت، وطَقطَقتها الهادئة بعض الشيء، إذ سلَكت دَرْبها، تنُوء بحِمْلها، وتتهادى ببُطء في طريق متعرِّج يتفادى المطبَّات والصخور، فانخفض هديرها:

من أين أنت يا حاج؟

: أتنسِبُني؟

: أقصد من أيِّ البلاد والمناطق أنت؟

: ها قد وَقَعْتَ في ما طالما عاتَبتَ غيرك ولُمتَه عليه!...

ماذا تريد من مَوْطِني ونَسَبي؟ وأنت ممن يريد الخلاص من كلِّ "سوىٰ"، وينشد التحرر من كلِّ "أنا"، تطلب الخلوص وتتطلَّع إلىٰ الوِحْدَة، تعشَق «أهل البيت» وتهيم في ولائهم، تنبري للدفاع عنهم تتصدىٰ لمن يَمَسُّ قُدْسَهم، حتىٰ جَعَلْتَ ذلك قضيَّتك، وصارَ طابعك الذي تُعرف به.

أنا شيعي جعفَري آثناعشَري... أليسَتْ هٰذه هي الهوية؟ ألستَ "طائفياً" حتىٰ النخاع كما يُقال عنك، وتفتخر؟ ماذا وراء هٰذا وبعده؟ من «النبطية» كنتُ أم من «إقليم التفاح»، من «صُور» آنحدرتُ أم من «عَدْلُون»، جنوبياً كنت أو بقاعياً، شاميّاً كنت أو حجازياً، هَجَرِياً كنت أو عراقياً... أنا مَوْلىً لـ «آل محمد» إن قبلوني، وعبدٌ قِنٌّ لهم وإن أعتقوني.

: صدَقْتَ، صدَقْتَ، لا شيء وراء هٰذا ولا بعده... كفاني. ولٰكن دعني أُصحِّح، أنا طائفي مع مذهبي أنا فقط، ولكني لا أُؤمن بطائفية الآخر! فقد يكون للآخر ما هو أجدَر بالآنتماء إليه من مذهبه، كوَطنه وعشيرته، أو حزبه أو تياره، أما الشيعي فلا شيءَ أكرم من مذهبه!

بعد فترة طالَت ومسافة آمتدت، وبينما كانا يقربان من تخوم «صيدا»، يحاذيان تلَّة «الوردانية»، آستمهله "الراعي" قليلاً، وطلب إليه التوقف ليترجَّل... ظنَّ «عطا» أن تجاذب الحديث والآسترسال فيه أغفل صاحبه وباغته، فضلَّ طريقه وأضاع مقصَدَه. لٰكنه حين نظر إليه مستفهماً، لم يجد في وَجهه إلّا علامات الثقة والطمأنينة، والآنصراف إلىٰ شأن آخر خاص، من المؤكد أن ليس منه معرفة الطريق ولا فيه الفكرة في الضياع والتيه!

فقال «عطا» في نفسه وحَسِبَ أنَّ الرجل تَعِبَ ويريد الأستراحة قليلاً... بعد لحظات، بانَ أن توقفه ما كان لهذا ولا ذاك، إنما كان يأذن بالرحيل، فهذا آخر العهد ومَوْضع الأفتراق.

أبىٰ "الراعي" الحكيم أن يمضي دون كلمة أخيرة، فطلَب إلىٰ «عطا» التوقُّف والنزول، وراح يحدثه: إقرأ يا «عطا» وتعلَّم، لا يمكنك أن تكون مبلِّغاً دون أن تحمل "البلاغ"، إلّا أن ترجم بالغيب وتخرص فتُفسِد! لن تفلح إلّا بالعلم، لستَ نبيّاً ليأتيك العلم إلهاماً وتتلقاه وَحْيَاً، عليك الطلب والتحصيل والكسْب، عليك أن تقرأ وتتعلَّم...

فإذا قرَنْتَ سعيك بإخلاص النية وربطته بالألتزام والجِدَة، أضفىٰ عليكَ الفضيلة وخلَع البصيرة، فصِرتَ تنظر بعين الله، وأصبحتَ تدرك الحقَّ وتعرف أهله، وحقَّ لك التبليغ والإرشاد...

وبعد أيها الأخ الكريم...

قد تكون الجوهرة الثمينة والدرَّة المفتقدة في يدِك،
وأنت غافل، تنقِّب عنها بين الحجارة والتراب. أو
في بيتك ومخدعك، وأنت تجوب وراءها البراري
وتسرح في القِفار... عُدْ إلىٰ نفسك وأبدأ بها،
ترجع إلىٰ صوابك وهديك، وتثب إلىٰ رُشدك.
أجعل طريدتك الحقيقة والخلاص، لا اللهو...
أمضِ إلىٰ «جباع»، هناك ستصطاد "الطبسون"!

: «جباع»، هذه بلدتي.

: أعلم إنها بلدتك.

: بالله عليك، هل لي أن أسألك عن أُمور غلبتني الحيرة فيها دهراً؟... تجيبني من غيب ما تعلم، كما علمت أن «جباع» بلدتي، وعلمتَ من أحوالي ما خفيَ عني!

: سَلْ عما بدا لك، فإن حضَر الجواب بذلتُه، وإلّا أرسلته لك وأوْصلته إليك بعد حين، بطرق مختلفة ووَسائل متنوعة، لكنك ستعلم أنه منِّي وتتلقاه بالمعرفة واليقين، اللهم إلّا أن يُحْجَب عنك لمصلحة.

: نعم، جُزِيت خيراً...

لقد فكَّرت كثيراً في ما جرى على «الشهيد الأول» وتتبَّعت سيرته، فوَجدتُ أنه لم يَخْتر «جباع» مصادفة، ولا لقربها من «جزين» وكونها أوّل ما يلقى مَن يمَّمَ جنوباً، يطلب الملجأ والمأمَن في عمق محيط مُوالٍ، يطمئن فيه طالب العلم فيتفرَّغ، بعيداً عن حدٍّ وثغرٍ في مَعْرِض الإغارة والهجوم، وما كان ذلك لِطِيب ثمَرها وصَفاء هوائها، ووَفرة المياه فيها، وعيونها الثلاثمئة وخمسة وستين، بعدَدِ أيام العام...

بل لأمرٍ غريب في «جباع»!

وراحَ «عطا» يشرح ويفصِّل في غرائب هذه الناحية، وخصائص المنطقة، متحدِّثاً عن "هرَم طاقة" ينتصب ويقوم هناك، وقد "جَبَعَ"، أي قَصُرَ، بين جبلي «صافي» و«سُجُد»، رغم ما يناهز السبعمئة متراً ارتفاعاً عن سطح البحر، وما يتخطَّى ألفاً في ذُرى بعض القِمم، مُطأطِئاً وخاشعاً لشموخهما أو متوارياً ومحتمياً بينهما... نظام هرَميٌّ يختزن طاقة خفية، يقال إنها تستمد من "هيكل سليمان"، فهو مدفون هنا، مُطْمَرٌ تحت هذا "الجبع"، لا في قُدْس الأقداس من «أورشليم»! محاطاً بعدَد من قبور ومقامات يقال إنها لأنبياء من «بني إسرائيل»: «صافي» و«سُجُد» و«بوركيب» و«يوشع» و«صاليم».

وإنَّ هذه الطاقة، لها دور في استقطاب القلوب وجَذب الأرواح، وهكذا في تهذيبها وتجلِيَتها بأنوار خفيَّة تنبعث من هناك، لا يبصرها إلّا ذوو البصائر وأرباب الحكمة... وأخذ يسهب في هذا ويُطْنِب، حتى شطَح من غلَبة ما كان يعيش ويشهد بين نفسه وآمالها، فقال:

لعلَّها بقعة سيرابط فيها جند لـ «الحجَّة» عند ظهوره! "معسكر" يُؤويهم، و "قاعدة" ينطلقون منها في غزواتهم وفتوحاتهم. لقد رأيت هـٰذا في مَنام، كأنَّ "القيامة الصغرىٰ" (أي قيام «المهدي») قد قامت، وأن هناك فساطِيط ضُرِبَت في «جباع»، في قلبها بيتٌ كبير، قيل إن فيه نبيٌّ من الأنبياء، وهو أحد قادة جيش «المهدي» ومن رؤساء عسكره...

ما فرغ من هـٰذا وذاك حتىٰ قاطعه "الراعي" مجيباً:

كم هو جميل أن تلاحق العلامات وتتحراها، وهل لغير العاشق أن يفعل ذلك؟ ولـٰكن لا تعبأ بهـٰذه ـ علىٰ الخصوص ـ كثيراً يا «عطا» ولا تكترث. نحن مكلَّفون بأُمور تصبُّ في "الأنتظار"، عمدتها طلبُ العلم والمعرفة، والعمل، ثم التوسُّل والدعاء، لسنا مأمورين بملاحقة الظواهر والأسباب الغيبية التي لا سبيل للتثبُّت منها، إنها خارج قدراتنا، لذا لم نكَلَّف به. نعم، هناك إشارات كونية وعلامات حتميَّة، كـ "الصيحة" و "الخسف" و "خروج الشمس من المغرب" و«الأعور الدجال» و«السفياني» و«اليماني» وما إلىٰ ذلك، لك أن تتابعها في ظلِّ الهامش التأويلي الذي قد يلحق بكلِّ علامة.

وفي العموم، لا بأس بالأستيناس، وتناول الموضوع علىٰ نحو ذِكْرِ الحبيب والتغزل بالغائب المفتقد، وترقُّب العائد المنتظر، لـٰكن الإفراط في ملاحقة العلامات والغلوّ في تتبع الأخبار وتطبيق التنبؤات، وما يصاحب ذلك مما ترىٰ وتشهَد، ينتهي ـ غالباً ـ إلىٰ الجزم بأُمور ما هي إلّا فَرضِيَّات والقطع بأُخرى هي مجرَّد احتمالات، ثم إلىٰ ما يفوق ذلك خطراً، أي "التوقيت"، وقد كذب الموقِّتون. ثم إن هـٰذا وذاك قد يفتح الباب لـ "المضلِّين" ولـ "الدعاة الحزبيين"، أن يَسِمُونا بالتخلُّف والرجعية، والأستغراق في ما لا دليل عليه ولا طائل منه، ومن ثَمَّ ازدراء الأُطروحة والأستخفاف بالفكرة والعقيدة المقدَّسة.

ضع الأشياء في مَوَاضعها وقدِّرها بقدرها، لا تبخس ولا تغالِ، لا تُفْرِط ولا تُفرِّط... كم هو جميل أن يُلاحِق المحب حبيبه، يتمسَّح بآثاره ويتبرَّك بمَشاهِده، يُمَنِّي نفسه ويحاكي هواه، فيشتاق لهْفَة ويحِنُّ شَجْواً، لكن دون أن يخرجه ذلك عن جادَّة "الشريعة"، ولا يدخله في تيه "الطريقة"!

نحن متعبِّدون متشرِّعون، لا نلتمس غايتنا إلّا من طريقها، ولا نسمح لأيِّ مَسلَك آخر ودَرْب ثانٍ أن يوهمنا بالبلوغ ويمنِّينا بالوُصول. والطريق هو العلم والعمل، والدعاء والتوسل.

ثم قطَعَ "الراعي" حديثه، وانفتَل من استرساله وقال:

أين قلتَ لي يا «عطا» إنك بلغتَ في بحثك عن سرِّ قتل «الشهيد الأول»، هل وَقَفتَ على الحقيقة؟

: لم أبلغ أكثر مما وَجَدْتُ في بعض الكتب، وهو نزرٌ يسير، لا يشفي الغليل. لقد أضنتني المصادر التاريخية وأتعبَتني في ملاحقة ترجمة وسيرة ومتابعة أحوال هذا العالم الجليل، لا سيَّما البحث في سرِّ شهادته؟... وما زلتُ في حيرتي: لِمَ يقضي مثل هذا العظيم قتلاً؟ بل صَلْباً بعد القتل، ثم يحرق جثمانه الشريف ويُذرى رماده!؟

: إيه يا أخا «جباع»! إنَّ هذا الشهيد المظلوم لم يُعْدَم القبر والمثوى فحَسْب، بل عمَّت ظلامته جميع مواقع حياته... كأن الإخلاص سَمَا في هذا العالِم الربَّاني حتى بلَغَ مبلَغَه، فلم يُبْقِ لـ "شخْصه" و"ذاته" شيئاً، انصبَّ الأمر على تراثه وعطائه العلمي، في كتبه التي ما زالت متُوناً تحصيلية ينهل منها الطلَّاب في الحوزات العلمية، دون "شخْصِه"، فلا ذكْرَ له ولا تبجيل! وإذا كانت الأُمور تعرف بأضدادها، فانظر إلى مَن يُعظَّم في شخصِه، وينادى على ذاته، واعلم كيف هوى مَن هوى، وكيف سَما مَن سَما.

وعلىٰ عكْسِ ما كان «عطا» قد فهم وأنتزع من سلوك الرجل وتصرفاته في الساعة الأخيرة هٰذه، التي أظهرت عجلة وأنبأت عن أُزوف الفراق وقرب الرحيل، والحق أنها لم تكن تصرفاته فحسب، بل إنه صرَّح بذلك وأعلن...

وَجَدَه في هٰذا الموضوع متمهِّلاً متأنياً، يُبدي حرصاً ورغبة، وكأنَّ الوقت كلَّه له ولهٰذا الحوار، لقد كانت رسالة ـ غير مباشرة ـ تريد أن تُفهِم مخاطَبه بمَواضع الخطَر ومواقع صرف الجهد وما ينبغي للمَرء أن ينشغل به، أي البحث العلمي والتحقيق والتدقيق، والخروج من نطاق العوام حيث القيل والقال، وإلقاء الكلام علىٰ عواهنه، إلىٰ ميدان العلم والفضيلة! لذا عادَ إلىٰ «عطا» وقال:

حدِّثني بالتحديد، علىٰ طريقتك (!)، ماذا وَجَدْتَ في المصادر؟

: إنَّ تاريخ «جبل عامل» في الحقبة «المملوكية» (الثانية) (٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م)، التي عُرِفَت بالدولة «البُرجية» وبـ «الشركسيَّة» (التي بدأت بالعهد المشؤوم لـ «السلطان برقوق»)، بعد الدولة «المملوكية الأُولىٰ» المعروفة بـ «البحرية» (التي أسَّسَتها «شجرة الدُرِّ»)، تاريخ غامض، ومنشأ الغموض عدم الإشارة والتعرُّض لهٰذه المنطقة، أقصد منطقتنا، في المصادر التاريخية... لا أدري، هل تعمد المؤرِّخون إهمال "بلاد الرافضة"! أم أن ذلك لعدَم خَوْضها في الفتن ودخولها في الحروب والمشاكل السياسية التي كانت تعصف بـ «دولة المماليك»...

نعم هناك ذكْر للمناطق المحيطة بنا، أي بـ «جبل عامل» والمتَّصلة بها، كـ «صفد» التي جاء ذكرها خلال الحديث عن تحركات «منطاش»، أحد المتمردين علىٰ «برقوق»، فقد جاء في " خطط الشام ": "ومَلَكَ «منطاش» مدينة «بعلبك»، وألتفَّ عليه جماعة من عسكر «دمشق» و«صفد» و«طرابلس»، ومن عربان «جبل نابلس»".

لقد وَصَل حديث المؤرخين إلىٰ «صفد»، التي تجاور «جبل عامل» وتتَّصل حدودها بحدوده، لكنه لم يتجاوزه إليه، ما يدلُّ علىٰ أنه لم يكن لهٰذه المنطقة مشاركة في حركة تمرُّد «منطاش» بأيِّ نحْو، وأنَّ أهله لم ينضموا إلىٰ التمرُّد ولا لحقوا به، ما يُخرج «جبل عامل» وأهله من المتمردين علىٰ «برقوق».

وتتأكَّد دلالة هٰذا النصِّ إذا عُضِدَ بآخَر وَرَدَ عن عزم «برقوق» الخروج من «مصر» إلىٰ «منطاش» في «دمشق»، ثم توجُّهه إلىٰ «حلب»، يقول: "ولمَّا توجَّه (السلطان) إلىٰ «حلب» جاء «نعير بن جبار» أمير «آل فضل»، ونهَبَ ضياع «دمشق»، وكان «نعير» عاصِياً علىٰ السلطان وهو من أنصار «منطاش»، وأخرَبَ غالب إقليم «دمشق» ونهب ضياعها". و«نعير» هٰذا من «عُربان الفضل» النازلين في «الجولان».

وهٰذه («الجولان») منطقة أُخرىٰ مجاورة لـ «جبل عامل» جاء التاريخ علىٰ ذِكرها، لأنها ثارت علىٰ «برقوق» كما فعَلت «صفد»، الملاصقة لـ «جبل عامل»، دون أن تصل الثورة إليه ولا أن يشارك أهلُه في التمرُّد. وهٰذا ما يُبقي علىٰ الحيرة ويعمِّقها:

علامَ إذاً اُعتُقل «الشهيد الأول»، ولماذا أُعدم؟

ولم يكن عاصياً متمرِّداً علىٰ الدولة، ولا ثائراً علىٰ السلطان، لا هو، ولا منطقته وجماعته؟

هناك مشكلة في الدراسة التي أجرَيتُها، ومعضلة في التحقيق الذي قُمْتُ به، لو عُولجَت وقُطِعت، لأنفكَّ اللغز وبلغتُ الجواب! عقدة في البحث، لو اَنحلَّت، كنتُ قد عرفت القاتل وكشفتُ السرَّ!

: هاتها، كلِّي آذان صاغية، فقد أضرمتَ شوقي وأجَّجْتَ لهفتي، ونقلتني من المراقبة والملاحظة إلىٰ طلب الفائدة وأمل الزيادة.

كانت نبرة "الراعي" في تشويق «عطا» قد تغيَّرت عن حالته الأُولى، ولحنه في حثِّه وتشجيعه قد تبدَّل، فقد بانَ له أن الفتى أتعَب نفسه في التحقيق، وبذلَ جهده في الدراسة، ورأى أداءً وجدِيَّة جديرة بالتقدير والاحترام، لا مجرَّد التشجيع والتشويق.

: لقد نفَّذ «برقوق الجركسي» حُكم القاضي «ابن جماعة المالكي»، بسعاية «تقي الدين الجبلي» و«يوسف بن يحيى»، ودَوْرٍ محوَري في الوشاية والتأليب قام به «اليالوش».

وبقيتُ في حيرة حول هؤلاء «اليالوش»، تُرى مَن يكونون؟

ولِمَ سَعَوا بـ "الشيخ" ووَشَوْا به؟

لا سيَّما أنَّ الأخبار دلَّت على أنهم ـ في الأصل ـ حزب شيعي وفئة يفترض أنها مُوالية؟

كلُّ ما وَجَدْته ووَقَع في يدي لم يتجاوز قول السيد «محسن الأمين»، وأنا في ريبة من هذا السيِّد وشَكٍّ، وإن استثنيت "كشف الارتياب" من مؤلَّفاته، فلن أتردَّد في النكير عليها وإسقاطها عن عِداد كتب الطائفة، وكان مما أورثني الشكَّ ودفعني للتحقيق، قوله:

"ومما عُرِفَ عن الشهيد رحمه الله أنَّ رجلاً مشعَوِذاً ظهر في «جبل عامل» وادعى النبَّوة واسمه «محمد اليالوشي» من قرية تسمَّى «برج يالوش»، فحارَبه «الشهيد» وقضى عليه في سلطنة «برقوق»، ويقال إنه كان من تلامذة «الشهيد»، وكان قد وَقَعَ بيد «الشهيد» كتاب شعوذة سلَّمه إليه ليتلِفه، فأخذَه وغاب، ثم رجع وأخبره كاذباً بإتلافه، وكان قد أخفاه عنده، وتعلَّم منه الشعوذة وعمل به حتى ادَّعى النبوَّة ".

تبسَّم "الراعي" ثم صارَ يضحك من قول «عطا» في السيد «محسن الأمين»: قاتل الله شيطانك، من أين وَقَفْت على حال هذا السيد المبتلى المسكين؟

: من " رسالة التنزيه " ، والله ما هي إلّا رسالة اللَّوْث والتشويه!

: ولكن، أعجبني ٱستدراكك يا «عطا»، فللرجل جهْد وسَبقٌ في ردِّ الوهابية لا ينبغي أن يُبخس.

: لن نقع في ما وَقَع فيه من هتك المؤمنين والنيل من المحبِّين الموالين... والله ما كان له أن يتناول المعزين بـ «سيد الشهداء»، ويبتذِل تَقْدِمَتَهم من سائر مظاهر الجزَع ومختلف ألوانه التي تظهر في اللطم والتطبير، وفي الدماء المراقة حباً وعشقاً وإحياءً لشعائره، بالشَّكل الذي فَعَل.

: لكن الحقَّ إن السيِّد «الأمين» في قضيَّة قتل «الشهيد الأول» ودوْر «اليالوشي»، مجرَّد ناقل، لا محقق ولا مُتَبنٍّ، بل ولا معلِّق، والقصَّة لم ينفرد بها هو، بل ذكرها كل مَن ترجَم لحياة «الشهيد الأول» وسيرته.

: ناقلٌ لِمُرسَل... إنَّ ٱبنه «السيد حسن الأمين» خيْرٌ منه وأفضل، هو مؤرِّخٌ خطير ومحقِّق خبير وباحثٌ نِحْرير، وإن لم يكن في زيِّ أهل العلم، ولا هو في طريقته على شاكلتهم، إنه لا يقحِم نفسه فيما لم يتخصَّص فيه، كما فعل أبوه، غفر الله له، في الإفتاء، ولَجَهُ وهو ليس بأهل، وأفتى في الشعائر فأضَلَّ وضلَّ.

: كيف ذلك؟ ماذا يقول «السيد حسن» عن القصَّة؟

: إنه، يرفض (بتأدُّب) الرواية التي ذكَرها «أبوه» في " أعيان الشيعة "... لقد قابلته في طريق بحثي، قصدْتُه وسألته عن قصَّة «اليالوش»، فرَفَضَها، وقال إنها غامضة كلَّ الغموض، لا يمكن أن نستنتج منها ـ كما وَرَدَت ـ أية حقيقة.

إنه يستبعِد وُجودَ الشعوذة أو دوْرها، ناهيك بقدرتها على تعبئة الناس حتى يقوموا بحروب ويخوضُوا معارك ويقدِمُوا على الموت... بل في قدرتها على قلب معتقدات المؤمنين والنكوص بهم عن مذهبهم إلى دَعاوى فارغة كالنبوة الزائفة.

إنَّ عرْض الأحداث الذي يحكي عن كتاب في السحر والشعوذة يكلِّف الأُستاذ أحد تلاميذه بنقله (إلىٰ أين، أو إلىٰ مَن؟!)، فيخبره بإتلافه، ينبئُ عن تهافت القصَّة وكَذِبها...

لماذا لم يطالبه بآثار ودليل إتلاف الكتاب، بعد أن خالَف أمره في نقله؟ فبقي عنده يتعلَّم منه السحر والشعوذة؟

ثم إنَّ «السيد حسن الأمين» يشكِّك في دور «الشهيد الأول» وقدرته علىٰ مواجهة الفتنة (المفترضة) بحشد الحشود المسلَّحة وقيادتها للقتال، وأين هي الحكومة القائمة المتربصة بالشيعة، من ذلك كلِّه؟

لم يكن لـ «الشهيد الأول» موقعاً تنفيذياً وسلطة عمَليَّة علىٰ البلاد والعباد، بمعنىٰ نفوذ أمره وحكمه، حتىٰ يشكِّل حكومة ويعبئ جيشاً ويخوض حرباً، لم يكن للشهيد هـٰذا الدور والموقع!

وقد انتهيت في بحثي إلىٰ ما انتهى إليه «السيد حسن»، من أن قصَّة «اليالوش» ستظلُّ قصَّة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، وحين يتَّسع الخيالُ في قصَّة، تضيع معه حقائقها! اللهم إلّا أن أقِفَ علىٰ وُجُوه أُخرىٰ وتفسيرات جديدة، تكشف ألغازَ تلك الحقبة وتعرِّفني علىٰ خفاياها.

: دعني أُعينك في ما حيَّرك، وأُواصل معك من حيث أفضيت وانتهيت... فأنت تحوم حول الحمىٰ، وتستشرف الحقيقة، ولا تجد الباب والمدخل، أو النافذة التي تطلُّ عليها وتوقفك علىٰ تفاصيلها.

لقد وَقعَت معركة، وكانت هناك حربٌ بالفعل... لـٰكنها لم تكن حرباً طاحنة طويلة، ولا قتالاً ضروساً شديداً، مما يجري في الحروب الكبيرة التي تصاحبها أهوال وفظائع، ومجاعة وتشريد، وهَدْم وحرق، وسَلْب ونهب، وأسر وفداء... ولـٰكن كان هناك تجييش وتعبئة، وقتال محتدمٌ في معركة سقط فيه شهداء وهلك قتلىٰ، حتىٰ أُبيدَت فرقة ضالَّة، قوامها (في الأقلِّ) مئة.

بدأ الأمر حين اتَّخَذَ «الشيخ الشهيد» مَوقفاً صريحاً ومُعلَناً من أفكار «اليالوش»، وهكذا من أعمالهم التي كانت قد تمادَت في الغيِّ والطغيان، مَوْقفاً كشَفَ خطَرهم وعرَّىٰ ضَلالهم وفضَحَ انحرافهم، وأوْجَبَ ـ بناءً علىٰ ذلك ـ مواجهتهم، وحتَّم التصدِّي لهم، وفرض علىٰ المؤمنين النهي عن منكرهم ورَدْعِهم عن الأذىٰ الذي يلحقونه بالأهالي الآمنين.

فانتهىٰ ذلك إلىٰ الصدام فالحرب...

كانوا، بعد ضَلالهم الفكريِّ العقائديِّ، يمارِسون السلْبَ وقطْع الطريق، ويقُومُون، تحت عناوين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود والتعزيرات، بمحاكمة الناس وحبسهم وجَلْدِهم!

ولما حدَّد «الشهيد الأول» رأيه فيهم واتخذ موقفه وعيَّن التكليف، نهضَ الأهالي في بلدة «الزرارية» للأمر، وانبروا ليخمِدوا نيران الفتنة ويكفُّوا شرور الجماعة ويثنونهم عن غيِّهم... عندها تقوقع أُولئك، وفرُّوا بعد كَرٍّ كانوا فيه، وانحسَر وُجُودهم، بل اختفوا عن الساحة ولم يعودوا يظهروا للعيان! لكنهم ما لبثوا ـ بعد فترة لم تطُلْ ـ أن عادوا للظهور ثانية، وقد حملوا ـ هذه المرة ـ السلاح علناً، وانتقلوا إلىٰ العنف ولجأوا إلىٰ الإرهاب جهاراً نهاراً!

وبعد سلسلة من أعمال الخطف، كانوا يأسرون فيها المؤمن، فلا يُعْثَر عليه إلّا مكردَساً، مصرُوعاً مشدود اليدين والرجلين، وعمليَّات اغتيال، يتركون فيها جثَث ضحاياهم ممثَّلاً بها، قد جدَعوا أنوفهم وقطَعوا آذانهم وسملوا عيونهم!... انتشر الهوْل وعمَّ الرعب، ودخل الناس في الخسف والإذلال. وكانوا قد اتخَذُوا من "حِصْن" علىٰ الربوة التي تُعرف اليوم بـ «برج يالوش» ملجأً لهم، وصاروا يبثُّون الرعبَ في الجوار والأطراف. وأخذوا يستقطبون شُذَّاذ الآفاق، ويجتمع إليهم كلّ رذلٍ منبوذ، وساقط مطرود، يلتمِسُ ما افتقد بين قومه من عزٍّ ومَال، ويرجو ما خَلَت منه

يداه في بلدته من كرامة وشرف، معتمدين على سطوَة هذه العصابة وشوكتها، وبَطْشِها وقوَّتها، وعلى مستقبلها الموعود، إذ بدأت بالأتصال بالحكومة وبعض علماء السنة في «صيدا»، فأمتلأت وِطابُهم بعد أن صَفِرَت، وأشْرَت جِفانُهم بعد أن كُفِئت... عظُم خَطْبُهم، وعمَّ شرُّهم، وأستفحل داؤهم.

حتى نهض نفرٌ من الهمدانيين من عِلْيَة «الزراريَّة» وأعيانها، حملوا السلاح وحشَدوا الأنصار، مستجيبين لفتوى المرجعية وممتثلين لأوامر الشرع الحنيف، في دَفْع البُغاة ونفي المفسدين، فهاجموا الحصن وقاتلوا «اليالوشيين» المتمركزين فيه، حتى قضوا عليهم وفتحوه، وأخمدوا الفتنة وأنكسوا عَلَم الضلالة... وهم اليوم المعروفون بـ «آل مرُوَّة»، يقال إن اللقب لحقهم لـ "مرُوءتهم" في إباء الضيْم ونجدة الملهوف، وفي إسعاف المذهب ونصرة الطائفة. ولم يكن ذلك غريباً عنهم ولا بِدْعاً فيهم، وهم ينحدرون من نسل «الشيخ عبدالصمد»، أخي «الشيخ البهائي».

وكان «اليالوشي» من خبثه ولُؤمه، قد قَتَّ ونمَّ إلى السلطة «الجركسية» في «صيدا»، وشَخَص قاضيها، ووَشى إليه بما كان يسمعه من آراء «الشيخ الشهيد» وأفكاره ومعقداته، التي كان يتناولها في حلقات درْسِه وجلَسَات بحثه، ومما كان يدور بين طلّابه، من أحتجاجات مذهبية وردُود عقائدية، وأدلَّة على وُجوب البراءة من أعداء «أهل البيت»، وقد دسَّ فيها وأضافَ إليها وألْحَقَ من مفتَرياته ما يُوغل به الصدور ويؤجِّج الأحقاد، وحظيَ لذلك بما حظي من الجوائز والهبات، والتمكين والدعم والنصرة.

فلما بلغ السلطة تعثُّره في حبائل مكائده، وسقوطه في الحفرة التي حفَر لأبناء طائفته، وأنه ذاق نكَال ما جَنَت يداه مصرعاً مريراً ومهلكة مريعة... حزنت عليه وآلمها مصابه، رأت في ذلك خسارة كبيرة، وهدماً لخطَّة كان يُرجى منها ولها.

ولعلَّ ذلك الموقف لم يكن أمراً مركَزِيّاً من السلطة ولا قراراً من رأس التدبير فيها، بقَدر ما كان اهتماماً وحِرْصاً لِحَفْنَة من العلماء المتعصِّبين أبرزُهم قاضيا «بيروت» و«صيدا».

ومع ذلك، لم يمكن للسلطة أخذَ قتَلَته ولا الثأر له، لافتضاحه في سلوكه وأعماله، والحكم عليه بالمروق والخروج، ولالتزامها التعاطي مع الأمر كشأن داخليٍّ في "البيت الشيعي" ليس لها إقحام نفسها فيه.

لكن بقايا «اليالوش»، الذين فرُّوا قبل مُداهمة بُرْجِهم وسقوط حِصْنهم والقضاء عليهم، وعلى رأس أُولئك «تقي الدين الجبلي» و«يوسف بن يحيى»... راحوا يُدبِّرون المكائد ويَسعَوْن بالدسائس، وكانوا يَعلَمون بما يكنُّ قاضي «دمشق» «ابن جماعة المالكي» ويضمر لـ «الشهيد الأول» من الإحن والأضغان.

و«ابن جماعة» هذا، وهو من متفقِّهة بلاط «الجراكسة» في «مصر» و«سوريا» و«فلسطين»، كان مَسكُوناً بهاجِس الرئاسة، متهالِكاً على المناصب الحكومية، مستمِيتاً في تحصيل الألقاب. وكان يتسلّق ـ في سبيل ذلك ـ الأسوار ويسلك ملتَوِي الدروب، ولا يأبى أن يزري بنفسه وهو يطرق أبواب "الوُصُول" في التملّق والتزلُّف والرياء، ومدح السلاطين وتبرير ظُلْمهم والإغداق عليهم بالثناء، وقد وَجَدَ سريعاً ضالّته، وحقّق مبكراً تطلُّعاته، على الرغم من محدُود علمه وقلّة بضاعته، وكأنَّ يداً خفِيَّة تدفعه ليرقى ويصعد!

فتحوّل من الخَطَابة إلى التدريس، ومنها إلى الإمامة (إمامة الجمعة والجماعة) فالقضاء، ومنه إلى التولية، فالمَشْيَخة (منصب شيخ الإسلام)، مماشياً السلطة وممالِئاً الحكومة في كلِّ ما تريد، وهي تستدعيه وتنقله من بلَد إلى بلَد، حتى تسنَّم من المقامات غاية مُناه وبلَغ من المناصب أقصى طَمُوحه ورَجاه.

ومما يكشف خِسَّته وخُبْث باطنه، وكيفية تكوُّن وَجاهَته وبلوغه مَوْقعه، أنه لما عزلَت الحكومة «ناصر الدين بن أبي البقاء» ـ لأمر ما ـ من قضاء «مصر»، وٱستُدعي لها «ٱبن جماعة» من «القدس»، راحَ جمعٌ من العلماء يتحدَّثون في ذلك، ويقيسون بينه وبين سلَفه، في العلم والدين، فإذا به يُحْضِرهم جميعاً وينكِّل بهم، فأحدَثَ ذلك له خشية، بل رعباً في قلوب الناس! ثم تَراه لما ٱصطدم في «دمشق» بالشيخ «زين الدين القرشي» والشيخ «شهاب الدين الحسباني»، فَجَرَ في خِصامه، حتىٰ أخذ منهما الفِتيا والقضاء، ومنعهما من مجرَّد إدلاء الرأي وإبداء النظر، ثم تراهُ يستدعيهما ويُشْخِصْهُما، فيلوذان بالفرار، فتعثر عليهما الحكومة، فتردهما إلىٰ "القلعة" يحبسهم فيها!

مثل هٰذا الشخص المعقَّد، والطاغية المتجبِّر، ٱصطدم في «دمشق» بشيخنا «الشهيد»!... فقد وَجَدَ «برهان الدين ٱبن جماعة»، وهو مَن عرَفْتَ من حُبِّ الذات والأنانية والحرص والحسد، وَجَدَ أنَّ «الشهيد» ٱستطاع في مدَّة يسيرة من بقائه في «دمشق»، وكانت حاضِرة علمية متألقة، أن يستولي علىٰ قلوب الناس، وأن يحتلَّ مكانة رَفيعة، وتكون له علاقات مع أركان العلم والسياسة، وأن يستقطب حَوْلَه طلَبة العلم والفضلاء، والساسة من «دمشق» وخارجها. فكان من شأنه وطبيعة الحال فيه، أن يسعىٰ سَعْيَه في عَدَاء «الشيخ الشهيد»، ويناصب جهدَه في النيل من مكانته، والحطِّ ما أمكنه من قَدْره.

وكان من مُستلزمات مَوْقعه ومتطلَّبات دَوْرِه في الحكومة، أن يزور العلماء ويتفقَّد أحوالهم... فٱجتمع يوماً بشيخنا «الشهيد» في دارِه، وتحادثا في مسألة علميَّة وٱختَلَفا فيها، وكان يحضر المجلس جمعٌ كبير من الفقهاء والأعيان، فعزَّ علىٰ «ٱبن جماعة» أن يردَّ عليه «الشهيد» ويفحمه بمَحَضرِ من الناس، فما طاقَ أن ينفضَّ المجلس دون أن ينتقم منه ويهينه...

وكانَ حين أعيَته الحيلة في ردِّ أجوِبة «الشهيد»، وأُفحم عن نقض الحُجَج التي كان يستدلُّ ـ قدس سره ـ بها على رأيه في المسألة التي يبحثون... وبدَل الردِّ بالدليل والأحتجاج العلمي، وما هو شأن الطلَبة والعلماء، خاطَبَ ـ على طريقة السلاطين والطغاة ـ «الشهيد» قائلاً:

"إني أجدُ حِسّاً من وراء الدَواة، ولا أفهم ما يكون معناه؟"!

مُعرِّضاً بنحافة جسم «الشيخ»، ومحقِّراً لرأيه، أن لا قيمة له، ولا يكاد يُفهَم. وكان «الشيخ الشهيد» قد أستوىٰ في جلسته وَراء منْضَدَته الصغيرة، وعليها قراطيسه ودَواته ... وكان ـ قدس الله سرَّه ـ نحيف البُنْية، نحيلَ الجسم، بينما كان «أبن جماعة» سميناً شحيماً بَدِيناً.

فأجابه «الشهيد» على الفور بحاضِر بديهته:

" نعم، أبن الواحد لا يكون أعظم من هذا "!

والعبارة، على إيجازها، تقرن أسم خصمه («أبن جماعة») بالتعريض بنَسَبِه، بمناسبة هيئته، دون أن يكون في منطُوقها ما يمكن أن يدين قائلها؟!... وهي طريقة أهل العلم والفقاهة، ممن هم في درجة «الشيخ الشهيد»، في سَبْك عباراتهم وصياغة جملهم وإنشاء كلامهم.

فخَجِلَ «أبن جماعة»... وسكَتَ عن الكلام، ولكنه أزدادَ غيظاً علىٰ غَيْظ، وحِقداً علىٰ حِقْد.

ولك أن تتأمل في وَاقع هذا الشخص المريض، والطاغية المعقَّد، الممتلئ شرّاً وحِقداً، وقد التقىٰ بدسائس بقايا «اليالوش»، وتلقىٰ وِشاياتهم وسِعاياتهم بـ «الشيخ الشهيد».

وكان «تقي الدين الجبلي» نجَحَ شيئاً في إعادة تنظيم فلول «اليالوش» المندحرة من معركة "البرج"، وجمع شتاتهم المتفرِّق في آفاق «جبل عامل»، فألتفُّوا حوله... ولعَمْري، هذا ما تراه في الفرق الضالَّة والجماعات المنحرفة في كلِّ عصر، لا تكاد تسقط حتىٰ تعود ثانية!

سُنَّة حركية وحتميَّة تاريخية، أن يبقىٰ للضلال مَوْئله، وللفساد وكْره، كأنَّ هناكَ نجدَة ويداً شيطانية تمتد إليها، ومَدَداً يأتيها من لَدُن أوليائها لـ "يخرجها" إلىٰ الظلمات أو يُبقيها فيها أبداً.

تحرَّك «تقي الدين الجبلي» علىٰ «بيدمر» حاكم «دمشق»، وحاكَ دسائسه حوله، حتىٰ أقنعه بخطر «الشيخ الشهيد»، ما يتهَّدد ملكه، وسلطان «الجراكسة» من أصله! مستشهداً ومستعيناً بـ "شيخ الإسلام"، وكبير القضاة، وعالِم البلاط، بل "مَحظِيِّه" المقرَّب المدلل: «ٱبن جماعة»، الذي لا تُرَدُّ له مَشُورة، ولا يُنقَض له رأي، ولا يعتري قوله في أحد شكٌّ ولا رَيْبٌ...

فعزم «الجراكسة» علىٰ "تصفية" «الشيخ الشهيد» وقرَّروا قتله.

وكان لا بدَّ من التدرُّج والمرحلية التي تتراجع بمكانة «الشيخ» بين الناس شيئاً فشيئاً، ولا بدَّ من خلْق التهم وجعل الشهادات وتزييف الأدلَّة، بنَحْوٍ يُقنع العامة ويقطع الطريق علىٰ أي ٱحتجاج يعكِّر صَفْوَ الدولة، وهي منشغلة - أصلاً - بمواجهة الأضطرابات ومكافحة التمرُّدات. وكانت الخطوة الأُولىٰ هي ٱعتقال «الشيخ» وحَبْسه، ما يخفيه عن الأنظار، ويقطعه عن الأتصال بالناس، فتتهيأ أسباب قتله والإجهاز عليه... فسُجِنَ - قدس سره - سنة كاملة بقلعة «دمشق»، وفيها كَتَب «اللمعة الدمشقية».

وبعد عام ونيف، بدأت خطُوات المحاكمة...

بدأت ببلاغ، أو عريضة قدَّمها «يوسف بن يحيى»، زعيم «اليالوش» آنذاك... فكتب محضراً يشنِّع فيه علىٰ «الشيخ الشهيد» بأقاويل مفتراة ومزاعم مُدَّعاة، وهي بين جَعْلٍ وٱختلاق لا أصل له، وتزييف يقلب حقائق، ومبالَغة وإغراق يشوِّه الوقائع.

وكانت محاوِر صحيفة الدعوىٰ تدور حول أُمور ثلاثة:

أعتناق «الشيخ محمد بن جمال الدين بن مكي الجزيني» (الشهيد الأول) "مذهب النصيرية"، والغلو في «أمير المؤمنين» وتأليهه!...

ثم الطعن في صحابة «رسول الله» ﷺ...

ثم أستحلال الخمر!...

ولنوع التهم، أرتباط وَثيق بطبيعة حركة «اليالوش» ومنطلقاتها، التي كانت ترىٰ أيَّ ذكر لفضائل «أميرالمؤمنين» غلُوّاً وضرباً من التأليه، وهٰكذا الأستدلال علىٰ مبدأ "التبرّي" الذي يلتزمه الشيعة تراه طعناً في الصحابة، أما تهمة إباحة الخمر، فقد كانت تسويقاً إعلامياً رخيصاً، يخاطب العوام ويؤلِّب الدهماء.

وقد أشهد «يوسفُ بن يحيى» هٰذا علىٰ عريضة دعواه سبعين نفراً من أتباع «اليالوش»، ثم ألـحَقَ بهم وأضاف إليهم ألفاً من عامة الناس، حَشَدَهم «أبن جماعة» و«بيدمر»... شهدوا جميعاً مع «اليالوشيين» زُوراً، فحصلت من ذلك وجُمعت إضبارة كبيرة من الملفَّقات المفتَريات.

نقل قاضي «صيدا» إضبارة القضية إلىٰ قاضي «بيروت»، الذي رفَعَها بـدَوْرِهِ إلىٰ قاضي «الشام»، وكان شافعياً... فحكَم بأستتابة «الشيخ الشهيد»، الذي أبىٰ، فالتوبة فرع الإقرار، وأصرَّ علىٰ إنكاره!

فلما وَجَـدَ «أبن جماعة» من القاضي الشافعي نوعاً من الألتزام بالقانون، والتمسُّك بالشكل، والتقيُّد بالسير الطبيعي للقضية، والحكم وُفقاً للمذهب الذي يتَّبع، ما يعيق مخطط «أبن جماعة» ويُبطل أمَلَه... عزَله (رغم أنه أثبت التهمة كما يريد، وظلَم «الشيخ» بعدم مواجهته بالشهود، بل لم يعقد جلسة يقابل فيها أصحاب الدعوىٰ!)، عزله وأحالَ الإضبارة إلىٰ قاضٍ آخر، مالكيِّ المذهب، وأمَرَه أن يعمل برأيه (والمالكية لا يستتيبُون في مثل موضوع الدعوىٰ)، وشدَّدَ عليه بعدم التسويف والمماطلة، والإسراع في البتِّ والفراغ، وهدَّده بالعزل إن تلكَّأ أو تباطأ!

عُقِدَ مجلس كبير للمحاكمة، حضَره الملك بِنَفْسِه، والقضاة، وجمع كبير من الناس، وُجِّهت فيه التهمة لـ «الشيخ الشهيد» ﵀، فأنكرَها وردَّها، فلم يُقبل منه الإنكار.

ثم حُرِمَ من أوّليات حقِّه، أي الدفاع عن نفسه!

وقيل له: قد ثبتت التهمة عليك شرعاً بحُكْمِ الحاكم، وحُكْمُ الحاكم (أي القاضي السابق المعزول!) لا يُنقَض.

فرَدَّ «الشهيد» بأنه لم يشهد محاكمة قبل الآن، وأنَّ الحكم صدَرَ عليه غيابياً، ولم تُعرَض عليه أدلَّة إثباته ولم يُواجَه بها، وأنَّ الغائب على حُجَّته، فإن أتىٰ بما يناقض الحكم، جازَ نقضه، وإلّا فلا. وقال: "ها أنا أُبطل شهادات من شهد بالجرح، ولي على كل واحد حجَّة بيِّنة".

ورغم أنه كلام معقول (ينبغي أن يكون مقبولاً في شكل المحاكمات)، موافق للشرع والقانون، إلّا أن ذلك لم يُسمَع منه، وعادَ الحكم إلى القاضي المالكي، فقام وتوضَّأ وصلىٰ ركعتين! ثم قال:

قد حكَمْتُ بإهراق دمه!

هٰكذا تمت المحاكمة وخُتِمَت...

وصدَر الحكم بأقصىٰ حدوده ودرجاته، دون أن يُسمح للمتهم بالدفاع، أو يمكَّن من عرض أدلَّة براءته.

ولو أنهم ٱكتفوا بقتله، ونفَّذُوا حكم الإعدام فيه بحزِّ رأسه، ضربة بالسيف، فلربما ٱنطلَت مؤامرتهم علىٰ قُرّاء التاريخ ومحققيه ومحللي أحداثه والباحثين في وَقائعه، وبقي سرُّ موقفهم مَطْوِياً، وحقيقة ما وراء فِعلَتِهم ضائعة مَخْفِيَّة بين مفتَريات التُّهَم ومُلَفَّقاتها، وحقيقة المعتقَدات الجعفرية وتأويلاتها... ولٰكنهم عمدوا لأفعالٍ شنيعة لا يُقدِم عليها إلّا من جاشَ حِقداً وٱضطرم حنقاً، طوَىٰ على دفين غلٍّ لا ينحلّ، وضِغْن لا تسكن فورته، فلا يزول إلّا بالمُثْلة والصلب والحرق!

هـٰذه هي حقيقة القضية يا «عطا»، وسرُّ قتل «الشهيد الأول».

شهيد العلم، وشهيد العقيدة والولاء...

فقد كان يحمل ويدعُو لعقيدة نقية خالِصة، مُستقاة من تراث «أهل البيت»، الذي أُخضع لبحوث ودراسات ومعالجات اْنتهت بالصورة الأستدلالية التي تراها اليوم في كتب "الحديث" و"الأحتجاج" و"الكلام"، كـ (نهج الحق) لـ «العلَّامة اْبن المطهَّر الحلي»)، و(إحِقاق الحق) لـ «القاضي نور الله التستري المرعَشي» (الشهيد الثالث)، و(عِلْم اليقين) لـ «الفيض الكاشاني»، و(غاية المرام) لـ «السيد هاشم البحراني»...

كان «الشهيد» يحمل بأمانة العقيدة الأصيلة المنزَّهة عن خَلْط المُحْدِثين، ويدعو لنهج يستقي من مَعين الخُلُوص عن أية شوائب، تُشرِّق بالمذهب وتغرِّب بأبنائه، وتخلط وتدلِّس وتلبس، حتىٰ تختفي المعالم وتضيع الحدود وتضطرب الأفكار وتفسد المعتقدات، فيسقط الولاء!

لم يكن حجم «اليالوش» كبيراً بالقدر الذي يتهدَّد المذهب في «جبل عامل»، ولا قضيَّتهم محوَريَّة مركزية في عالَم التشيُّع، لـٰكن «الشهيد السعيد» كانت له قراءته ورؤيته في ضرورة المواجهة، وأنَّ الفتنة ليست من الباطل الذي يموت بتركه... وهي قراءة أفضَت من مزيج عِلْم ووَعْي وبصيرة، إلىٰ جانب إخلاص ونزاهة وغَيْرة، لم يملك ـ تدّسُّ ـ السلبية والحياد، وأبىٰ الركُون والسلامة بـ"الوقوف علىٰ التل"، فدفع حياته ثمناً لأداء الأمانة وإبلاغ الرسالة.

لم يكن «اليالوش» عند مواجهتهم يتجاوزون المئتين ولا أظنهم يقلُّون عن مئة. لقد عاينْتُ مَوْضِع "البرج" وجُلْتُ بين أطلاله، ينتصب علىٰ ربوة تستشرف المنطقة، دائري، كما الأبراج من أركان القِلاع أو منفردة، أُقيم مستوعِباً قِمَّة الربوة، فجاء قُطره نحو أربعين متراً. في الجنوب الشرقي منه بئر، يقال إنها السجن الذي كانوا يُلقون فيه أسراهم ورهائنهم...

ومن حَجْم الموقع ومجموع ما ترىٰ في المكان، تجد أنه لا يستوعب أكبر من العدَد الذي ذكرت، إن حسبت لمخازن المؤن والأسلحة، ومرابِط الدواب ومعالفها، وغير ذلك من مستلزمات التحصُّن والٱعتصام.

إنني أرىٰ يا «عطا» أن ٱدِّعاء النبوَّة، والعمل بالسحر والشعوذة الذي نُسِبَ إلىٰ «اليالوش»، كان فِراراً من التصريح بفسادِهم وٱنحرافهم العقائدي، وبٱنحطاطهم السلوكي والأخلاقي، وتَوْرية عن البَوْح بحقائقهم، تقيَّة ومُدارةً للجهة التي كانوا يخدمون!

ذلك علىٰ طريقتنا في تسجيل الأحداث وكتابة الوقائع...

كنايات وٱستِعارات وتوْرِيات، هرُوبٌ من البوح والتصريح وإعلان الحقائق، إلىٰ ما يُشير إليها إشارة ويومئ إيماءً، فلا يُزْعِج المدانين، ويكفَّ نقمة المتضررين، ويُجنِّب الكاتب والناقل تبِعات وجرائر هو في غِنَىً عنها. إنها "طريقتنا" حتىٰ في تسمية أبنائنا، بل و "حسينياتنا" التي نطلق عليها، دون الشيعة في العالم: "أندِية"!

في عصرنا هـٰذا يا «عطا» «يالوش» كما كان في عصر «الشهيد الأول»!

الحقيقة أنَّ «اليالوش» فرقة ضالَّة، من قبيل هـٰذه الأحزاب المنحرفة المنتشرة اليوم، بل المتفشية، فهي داءٌ ووَبَاء! ولعلَّهم أشبه بـ "حزب الدعوة" في الفكر والمعتقد، وأقرب إلىٰ «جماعة الخالصي» في السلوك والعمل... أسقطوا الشهادة لـ «أميرالمؤمنين» بالولاية من الأذان، وتنكَّروا لمراسم عزاء «سيِّد الشهداء»، وٱستخفُّوا بشَدِّ الرحال لزيارة العتبات، وٱستهجنوا التبرُّك بالأضرحة وقُبُور الأولياء، وعمدوا إلىٰ إنكار فضائل «آل الرسول»، وأزاحوهم عن مراتبهم التي رتَّبهم الله فيها، وأدخلوا عامة الشيعة وكافة الموالين في "الغلاة"، ولم يستثنوا حتىٰ العلماء الأعلام والمراجع العظام!

: أعرف "حزب الدعوة"، ولـٰكن مَن يكون «الخالصي» هـٰذا؟

: جماعة ظهرت في «الكاظمية» من «بغداد»، أقامُوا المحاكم والسجون بأسم التعزيرات والحدود، ونكّلوا بخُصومهم ومَن لم ينضَوِ في تيارهم. لا أظنك بحاجة إلىٰ كثير عناء لتفهُّم «الخالِصيَّة»، ما عليك إلّا النظر في حال "السيِّد الضلّيل" القابع في «النبعة»، وتطبيق هٰذا علىٰ أُولئك... فهٰذه الجماعات المنحرفة، وإن تعدَّدت مشاربها وتنوعت مدارسها وأختلفت أهواؤها، إلّا أنك تجد شطَناً واحِداً يربطها، وطَوْقاً واحِداً يسجرها، فهم جميعاً أولياء وأتباع وعمال للشيطان الرجيم، وإن تدرَّجت رتَبُهم وتفاوتت درجاتهم.

هٰكذا «اليالوش»... جماعة دينية سياسيَّة أستمالَتها التيارات "السنيَّة"، ذات السطوة والغلَبة في ذلك العهد، بسبب نفوذ «المماليك» و«الجراكسة». وهي تيارات متعصِّبة سَعَت، بدَغم من السلطة الحاكمة، لتخترق الأستقلالية المناطقية والمذهبية التي كان يتمتَّع بها «جبل عامل»، وكان أستمالة بعض الشيعة، وكسبهم كأفراد وجماعات ومواقع تشكل رؤوس جسور وقواعد إنزال وأنطلاق، يدخل ضمن أستراتيجيتها المُلِحَّة وطموحها العزيز، ويشكِّل أملاً وحلماً طالما داعَبَ خيالها.

وقد خضَعَ «اليالوش» - في بداية أمرهم - لهٰذه التيارات خوفاً ومُداهنة لقوَّتها، وخضوعاً لإرهابها وسَطْوتها، فقد كانت تبثُّ من حولها هالة "التوحيد" ودعاوىٰ الإسلام الصحيح، وترمي الآخرين بالكفر والشرك، وتلوِّح بعصا تطبيق الشريعة وإقامة الحدود، ما دفَعَ كثيرين إلىٰ الخوف منها والتقهقر أمامها... ثم صارُوا، بعد ذلك، يستدرجون مَن مالَ إليهم وركَنَ، بالإغراء والإغواء، وبأجواء لم يرَ «اليالوش» من بأس ولا كثير ضَيْر في مجاراتها، ثم عبْر أجواء المسايرة والمماشاة تلك، إلىٰ حيث أخرجوهم - خطوة فخطوة - من محض الولاء وأدخلوهم في تقاسُمِه وتشاركه مع من تجب - في الأصل - البراءة منهم! وهم لا يشعرون.

ولما بلغوا بهم هذا المبلغ أروهُم وأذاقوهم من زبرج الدنيا وزينتها ما أدارَ رؤوسهم وأسالَ لُعابهم، فراحُوا يتسابقون في اللهث وراء المال ويتكالَبون على المقام والرئاسة والجاه.

ولم يكن الثمن الانقلاب والتخلّي عن مذهبهم والدخول في مذهب القوم، إنما كان ما يرجى من هذه الطليعة، ويُطلَب من هذه النخبة الحركية الخطيرة، هو: نهجٌ يُميِّع الهوية الشيعية في معتقداتها وشعائرها!

لم يسأم «عطا» حديث "الراعي" ولا ملَّه، لكنه كان يتطلَّع إلى ما بعد هذه النجوى والشكوى... إلى حيث الفعل والعمل، إلى الدور المناط به والموقع الذي سيحظى به والمخصَّص له، والمهام التي سينهض بها مع هذا الرهط المبارك الذي يرتبط ـ بنحْوٍ ـ بـ «المولى»، ويقضي وَقته ويصرف جهده في ما يرضيه.

لكن "الراعي" لم يسعفه بما يريد، ولم يحقق له ما يطلب:

عليك أن تحدد تكليفك بنفسك، فالعمل يكتسِبُ قيمته بعد النيَّة والعَزْم، من هذه الإرادة الحرَّة والقرار الذاتي، إن هذا هو الذي يأخذ بيدك ويدفعك تجاه العلم والتقوى، ويمنحك بصيرة تنير قلبك وتصحِّح خيارك وتصيب بك مواقع البِر...

لقد ذكرتُ لكَ الطريق، وعليك أن تسلكها، وستجِد نفسك "عضواً" في "الجماعة"، دون دَعْوَة ولا تنظيم!

ولكن دعني أختم لقائي بكَ كما فعل صاحبنا «الشيخ صالح»؟!

مدَّ "الراعي" يدَيه في جَعْبَتِه، وقدَّم لـ «عطا» كتابين، قائلاً: هذه هديتي إليك.

: كان «الشيخ صالح» قد أرشدني لِكِتابين، وأنت تهديني كتابيك؟ أجُودٌ منك أم استحقاق منِّي، ما كنتُ قد بلغته حين التقيتُ «الشيخ صالح»؟ فأرشدني هو وجَشَّمَني، بينما أهديتني أنت وأتحفتني؟

: بل جزمتُ أنك لن تهتدي لهما مهما بحثت وتحرَّيت، فآثرت خدمتك ووَفَّرت جهدك وهيأتهما لك، ثم إنه سيكفيك ما ستعاني معهما!

كان الكتابان نسختين مخطوطتين، قال إنهما لطبعتين مفقودتين من ذينك الكتابين! وقد خلا غلافاهما من أيِّ عنوان أو اسم لمؤلف، وقد جُمِعَت أوراقهما الصفراء ولكن الناصعة الجديدة، جمعت وشدَّت بغلافين من إهاب حَسَن الدباغة، ناعم الملمس، بحشوة قويَّة متينة للقِمَطْر، فإذا فتحته اَستقبلتك الصفحَات محشودة من رأسها إلىٰ ذيلها، لكن بنمنمة وتنميل، وخطٍّ جميل، يتخلَّله مَشْقٌ ومَدٌّ في بعض الكلمات والحروف.

حرَصَ "الراعي" علىٰ تقديم الكتاب الأول بإجلال ووَقار، وما يوحي بعظيم قدره وخطَره عنده، أو ما يريد لـ «عطا» أن يوليه من حِرْص وعناية وهو يستودعه عنده، أو يهديه إليه، حتىٰ أنه قبَّلَه وهو يقول:

فيه من القرآن والحديث ومعارف «آل محمد» ما يُوجب التقديس!

كان الكتاب الأول هو ‹مصباح الهداية إلىٰ الخلافة والولاية›، والثاني ‹كشف الأسرار›، وكلاهما من تأليف «السيد الخميني»... هٰكذا هي كتبه، لا يُكتب اَسمه عليها، حفاظاً علىٰ مَن يقتنيها إن كُبِسَت داره أو ضَبِطَت عنده، إذ هي تهمة مستقلَّة، ودليل إدانة كافٍ لاَعتقال لا يُعرف نهايته، وتعذيب يريد أن ينتزع اَعترافات لما لم يُرتكب، بل لم يقع!

وقد كانت مؤلَّفاته تنفد سريعاً فتشحُّ، فتزدهر سوق النُسَّاخ والخطاطين، إذ لم تكن أدوات التصوير وآلات الاَستنساخ بالكثرة والوَفرة التي تؤمِّن الأعداد والكميات المطلوبة.

تناولهما «عطا» بحذَر، وصارَ يقلِّبهما، ثم قال:

ماذا في هٰذين الكتابين، وماذا عنهما؟

ثم لم يلبث أن قال، كأنه يعقِّب ويستدرك:

هٰذا فارسي، ولست أُجيد الفارسية.

: لقد وَفَّرتها لك، وأوصلتُك إلىٰ منتصف الطريق، وعليْك إكماله وإتمامه، ابحَث عمَّن يترجمه وينقله إلىٰ العربية، أما هـٰذا الأول، فنقِّب عمَّن يدرِّسه لك، فأنت لا تستطيع أن تفهمه بالمطالعة.

"كشف الأسرار" كتابٌ ألَّفه «السيد الخميني» رداً علىٰ كتاب (أسرار هزار ساله) أي: ألف عام من الأسرار لـ «حكَمي زاده»... وكانت قد ظهرت في «إيران»، تزامناً مع "الحركة الوهابية" في الجزيرة العربية أو بُعيد انتصارها وإسقاطها الحكم العثماني في «نجد والحجاز»، وهـٰكذا تقارُناً مع استحكام مشروع «كمال أتاتورك» في «تركيا»... ظهرت في «إيران» حركة فكرية ثقافية اجتماعية، مندفعة بزخم قويٍّ، تنادي بالإصلاح الديني في المذهب الشيعي. وبأفكار لا تتجاوز في جَوْهَرِها، بل في شكلها وعناوينها، الفكر الوهابي.

وقد نشر «علي أكبر حكَمي زاده» كتاباً يهاجم فيه التشيُّع من خلال شبهات وتشكيكات تدور حول: تعظيم قبور الأولياء وبناء مشاهد الأئمة والعتبات المقدسة، والتوسل والتشفع بهم وإيقاع النذور، وحقيقة الشرك وموقعه في الإسلام، ومعاجز الأئمة ومقاماتهم، ومداليل الزيارة الجامعة، وهـٰكذا دوْر العلماء والمرجعية، وقضية التقليد الفقهي، والشعائر الحسينية، وما إلىٰ ذلك مما تراه يتجدَّد اليوم ويكاد لا ينقضي، فلا يخلو عصرٌ من «حكَمي زاده»! فنهض «السيد الخميني» وكتب هـٰذا الكتاب عام ١٩٤٢، رداً عليه وعلىٰ غيره ممن علىٰ شاكلته كـ «أحمد كَسْرَوي» الذي قتلته منظمة "فدائيان إسلام" بقيادة الشهيد «نواب صفوي» فيما بعد (عام ١٩٤٧)، و«شريعت سنكلجي» وهو من دُعاة التجديد، و«أبي الفضل الكلبايكاني» من الفرقة "البهائية".

أما (مصباح الهداية إلىٰ الخلافة والولاية)، فليس لك إلّا أن تجعله متناً تحصيلياً، وتدرسه دراسة.

: أراك عظَّمت هـٰذا دون ذاك؟

: إنَّ كُتب الأحتِجَاجات والردود، تقوم علىٰ خِطاب يُجاري وَاقِعاً ويعـالِج إشكـاليَّـة مُحـدَّدة، وتـراهـا تـنطَلِق - غـالباً - في مـادَّتها من "الآخر"، سواء في مقولاته، أو في ما يقتضي إفحامه من أدِلَّة وحُجَج، وإلزامه من خلال مـا في كتبه ومتبنَّيـاتـه، وقلَّ أن تخلـو من مُجَاراة و"تنزُّلات"، قد تنطوي - بنَحْـوٍ - علىٰ "تنازلات"، مما يوجبه الحوار ويتطلَّبه الردُّ والإفحام...

وأنـا لا أستسيغُ ذلك ولا أُطيقه وإن خلا من "تنـازلات"! ولك أن تعدَّها حالة ذوقيَّة ونفحة مزاجيَّة.

أما هـٰذا (المصباح) فكِتابٌ لخاصَّة الخواص! يحمل خِطاباً ولائيّاً بَحْتاً، لا يلاحِظ إلّا الحقائق، ولم يُـراعِ حتىٰ القارئ، وكيف عساه أن يفهم الكتاب؟!

لـذا لا تـراه من البلاغـة في مستوىٰ مادَّتـه، ولا من قـوَّة البيـان بما يتناسب مع محتـواه. إذ جاء مُرتكَزه من أُفق مختلِف بعيـد، وكـان منطَلَقُه يحاكي مَوْضوعاً لا يتَّصل إلّا به هـو! لقد كُتِبَ (مصباح الهداية) لمادته، لا لشيء آخر، ودون مراعاة لما حوله أو لما قبله ومعه وبعده... هـٰذا ما يجذبني ويستهويني.

* * *

عندما ٱنتصرت الثـورة الإسلامية في «إيران»... كانت قد تشظَّت، بتلقائية وٱسترسال ٱستمد من عفويتها وٱرتجاليتها، وٱنبثقت إشعاعات وسَطَعَت "أنـوار" ذلك الأنفجار الكبير حتىٰ بلغت «لبنان»، بعد أن عـمَّت الجِـوار في «العـراق» و«الخليج» و«باكستـان» و«أفغـانستـان»، وجمهوريات آسيا الـوُسطىٰ و«القفقاز» المخنـوقة بـ "النظام السوفييتي"، بل غير بلاد الشيعة، شملتها الآثار وناها قِسْطٌ من التأثُّر والأنفعال.

تلقىٰ «عطا» أخبار الثورة ولاحَقَها بعِناية فائقة، وكانت تخالج فَرْحته بانتصارها، مشاعر زَهْوٍ واعتِداد مَن يرتبط بها وينتسب إليها، فكان يرىٰ في سريرته أنها من فِعْل "الجماعة"! ومن نتاج جهودهم المباركة بمَدَدِ «صاحب العصر والزمان»، وكان يتباهىٰ ـ من خفيٍّ ـ بأنه مسبُوق بمعرفة «الخميني»، مطَّلعٌ ـ عن قرب ـ علىٰ أفكاره ورؤاه، وكان يصحِّح للشيَبة نطق اسمه وكنيته الغريبة علىٰ مخارج الألفاظ في لهجتهم، ويفهمهم أن "روح الله" هو اسمه، لا لقَب يعقب "آية الله" في سياق الديباجة التي تتقدم ذكره: «آية الله العظمىٰ روح الله الموسوي الخميني»!

كان «عطا» مأخوذاً بالروايات التي تحدَّثَت عن:

> رجلٌ من أهل «قم» يدعو الناس إلىٰ الحق، يجتمع معه قوم قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملُّون من الحرب، ولا يجبنون، وعلىٰ الله يتوكَّلون والعاقبة للمتقين. يطلبون الحقَّ فلا يُعْطَونه، ثم يطلبونه فلا يُعْطَونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم علىٰ عواتقهم، فيُعْطَون ما سألوا، فلا يقبلونه، حتىٰ يقوموا. ولا يدفعونها إلّا إلىٰ صاحبكم (أي «الإمام المهدي» عليه السلام)... قتلاهم شهداء.

وبالتأويلات التي لا لم يكُن يرىٰ أيَّ تعسُّف في تطبيقها علىٰ «السيد الخميني» وثورته الظافرة، وهٰكذا بمُعطَيات التحوُّل السريع، الذي وَاكب انتصار الثورة، من جَذْبه القلوب، وإطاعة الشعب وامتثاله.

كما كان مأخوذاً باستمراريتها، وبثباتها ومقاومتها، رغم المؤامرات المتتالية والمتواصلة، التي ما انفكَّت تصبُّ عليها، داخلياً وخارجياً، بدءاً من عملية «طبَس»...

الغارة الجوية التي كانت تريد إنزال قوات محمُولة جوّاً (كماندوز) تقوم بانقلاب عَسْكَريٍّ يُطيح بالجمهورية الإسلامية، بعد تحرير رهائن السفارة الأمريكية في «طهران»... فتلقَّتها ريحٌ لم تظهر في التنبؤات ولم تتوقَّعها الأرصاد الجويَّة، عصَفَت بالطائرت الأمريكية، كأنها ريح «عاد» و«ثمود»، وكأن الآيات أخذت تنطِق في تلك الصحراء النائية وراحَت تستشهد: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝﴾ (الذاريات)...

أتت على الطائرات الأمريكية العملاقة والمروحيات الجبَّارة المهاجمة، فخبَطَت بعضها ببعض، لتهوي وتحترق وتغدو كالرميم، وحتى التي هبطت منها وحطَّت على الأرض سالمة، قصفَتها الأُخرى الناجية، كي لا يغنمها الإيرانيون، ويقعوا على الخرائط والوثائق التي تكشف أسرارهم وخَفاياهم.

وقد هلك الغزاة وصُرِعوا، وتفحَّمَت جثثهم كأن صاعقة أخذتهم... والإيرانيون في غفلة، لم يعلموا بالخبر إلّا من الإعلام الأمريكي!

كيف خفيَ أمر الريح على أقمار صناعية وراصِداتِ دولة عظمى أنزلَت مَركبة مأهولة على سطح القمر! وقد حدَّدَت مُسْبَقاً حالَ الطقس لجميع مراحل ومَسارات تلك الرحلة، فإذا بها تعجز عن بقعة قريبة في كوكبنا هذا! هل يمكن أن يكون ذلك كلّه صدفة؟

كيف يمكن لدولة فتيَّة جديدة، لا على عصرها وعهدها، إنما على التاريخ كلِّه، فقد شكَّل انبثاقها سابقة، لم يرَ العالم مثيلاً لها، من حيث النظام، حتى في الدول الشيعية الماضية كـ «الفاطمية» و«البُوَيهِيَّة» و«الحمدانية» و«القاجارية» و«الصفوية»...

هٰذه شيء آخر، تجربة بِكْر، وسابقة أنبعثت وظهَرَت على حين غفلة من الزمن، ومن أرباب السلطة وطواغيت الملك وقوارين المال. بل هي جديدة حتى على نفسها، فالفصل بين الدين والدولة في هٰذه المدرسة موغل في القِدَم حتى غدا أصلاً وجدانياً مستحكماً!

كيف ثبتت هٰذه الدولة والعالم كلُّه يتآمر عليها؟...

حتى لم يتحقَّق الخرق والآستثناء في الحرب الباردة بين "قطبَي العظمة" في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يلتقِيا إلّا على حرب هٰذه الجمهورية العاصية؟ فعجزوا...

مَن غير الله سبحانه وتعالى نصَرَ هٰؤلاء المستضعفين وردَّ كيد أُولئك المستكبرين؟ هل هي مجرد "إرادة الشعب"، وأشعار لـ «أبي القاسم الشابي» تتغنى:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بدَّ أن يستجيب القدر؟

كيف نرى "إرادة الشعب" تُسحَق في أماكن وحالات أُخرى وتُداس، وتخمد الثورات في مهدها، وتُوأد وتنسى فلا يدري عنها أحد؟ وهٰذه ثبتَت ومَضَت على نهجها، لم يهزمها الغرب ولا آحتواها الشرق؟

إنما نصرهم الله، وهو الذي ثبَّتهم ورَبَطَ على قلوبهم، وأعانهم وأرعَبَ أعداءَهم، وأدارَ ودبَّر المقادير حتى بلغ بهم النصر.

وإلّا، كيف يمكن لثورة ودولة أن تثبت أمام تفجيرات "مجاهدي خلق" وغيرها من المنظمات الإرهابية (ومن ورائها "الموساد" و"السي أي ايه" و"الكي جي بي")، التي أوْدَت عمَلِيَّة وَاحدة منها بجميع وزراء الدولة ومسؤوليها الكبار؟ وذهب تفجيرٌ آخر برئيس الجمهورية ورئيس وزرائه! وقضَت في أشهر قليلة، على جميع رجالات الدولة، وقادتها ومدبِّري شؤونها وصنَّاع القرار فيها؟

فقد قُتِل: «أسدالله مدني» و«أشرفي إصفهاني» و«عبدالحسين دستغيب»، و«مطهري» و«مفتّح»، و«بهشتي» ورفاقه، و«رجائي» و«باهنر»، وعشرات من النخب، قضوا جميعاً في أشهر معدودة، خلال عمليات قتل وتفجير متتالية، لم تسمح بالتقاط الأنفاس...

كيف ثبتَت وهي دولة وَليدة للتوِّ، ليّنٌ عودها، رَخْوٌ مغرسها، أفرزتها ثورة شعبية في حركة أقرب إلى الفوضى، لم ترسم ولم تحترز، كما الانقلابات الحزبية، لخطواتها التالية، فلم تأتِ بخطَّة مُسبقة تعينها على الاستقرار وتساعدها على الثبات، ولا ببرامج أعدَّتها سلَفاً، يمكن من خلالها ضبط الأوضاع ومعالجة حالات الطوارئ والتحكُّم في مآلات الأمور... إنما هي خطوات كلُّها ارتجال، ومبادرات كلُّها ردود أفعال، تشعِرُك في كلِّ لحظة ومَوْقف كيف هي "عشوائية القدر"!

أليست "معجزة" أو "كرامة" أن تثبت مثل هذه الدولة الطارئة، أمام تلك الضربات الماحِقة المتلاحقة؟... فإن شكَّ أحدٌ، وأرجع هذه أيضاً إلى الصدفة، أو إلى أسباب أُخرى غير النصرة الإلهية والمدد الغيبي، فماذا عن الثبات في حرب ظالمة شنَّها «صدام»، ليسقط "الجمهورية الإسلامية" ويعيد رسم خارطة المنطقة، في غفلة من جيْش شِبه مُنْحَلٍّ، ودولة منشَغلة بالمنافقين والانفصاليين والعُصاة والمتمرِّدين، وبأعوَان «الشاه» وبقَايا "السافاك"، وحتى بالإخوة الأعداء، من المتخصِّصين بالنقد والطعن، المتفرِّغين لتسجيل الهفوات وإحصاء الزلّات!؟

لقد رأى العالم كلُّه كيف ثبت نظام الجمهورية الإسلامية وقاوَم، وشهِد إصرار الشعب وعطاءه وتضحيته وعناده المقدَّس... ما انتزع إعجاب الأعداء وأوْرثهم الحيرة، وخلَّفَ في الأصدقاء الطمأنينة، وأكَّد لهم وُجُود الدعم والنصرة الإلهية، ويداً غيبية تأخذ بأيديهم وتعينهم، تقيل عثراتهم وتنجدهم، وتنصرهم نصراً عزيزاً وتفتح لهم فتحاً مبيناً.

ولـكن أيَصِحُّ أن يكون هـذا الأمر، أي الفوز والنصر والظَفَر، إمارة علىٰ النُصرة الإلهية والمَدَد الغيبي، فدليلاً علىٰ رضىٰ الله ومُرتَكزاً لسلامة الحركة السياسيَّة، أو مشروعيَّة الثورة؟

هل يستقيم ويثبت هـذا "دليلاً" أمام "الأدلَّة" الشرعيَّة الآمرة بالتقيَّة والمانعة عن الثورة والناهية عن القيام؟ بل هل ينهض أمام اَحتمال عقلي لا يُستبعَد، أو لِنَقُل: لا يمكن الجزم بعَدَمِه، اَحتمال أن تكون هـذه النُصرة والمَدَدُ ضرباً من الاَستدراج الإلهي والاَبتلاء والفتنة، أو حتىٰ من تدخُّل الشياطين، أو نَحْواً من المؤامرات المعقَّدة المركَّبة التي تحيكها القوىٰ العظمىٰ وتدبِّرها لأهداف لا تظهر إلّا بعد أزمنة طويلة تنقضي، ومراحِلَ متعدِّدة تُطوىٰ، نظنُّ أثناءها الاَنتصار ونحسب أننا فُزنا؟! إننا نشَهد في وَاقعنا توالي ظَفَر الباطل، ونرىٰ تعاقب خسران الحقِّ... الحق أنه لا النصر والنجاح وتحقيق النتائج المتوخّاة يَصِحُّ أن يكون علامة الصحَّة وإمارة الفلاح في القيام والنهضة، ولا الهزيمة والفشل والعجز عن بلوغ الأهداف المرجوَّة دليل البطلان والاَنحراف في الحركة والثورة.

لـذا كانت لـ «عطا»، بعد تلك الكرامات والمعجزات والطُرق والشواهد الغيبية، مع القرائن التي أوْرثته أنها ليست "صدفة" ولا "فتنة" ولا هي مما يمكن إخضاعه لـ "نظريَّة المؤامرة"، وإلّا لما قام حجَرٌ علىٰ حجَر ولا اَستقامت حياة، ولَوَجَبَ علينا الشكُّ في كلِّ شيء، والبقاء في دائرة الشكِّ هـذه أبداً، ونُحرَم فرصاً ذهبيَّة لنُصرة ديننا وإعزاز مذهبنا، توقُّفاً علىٰ أعتاب "نظريَّة المؤامرة" وخوفاً منها!...

كانت له أدلَّته الخاصَّة في إيمانه بالثورة، واَطمئنانه إلىٰ مشروعيَّتها وأحقيتها، وبالتالي اَنخراطه في صفوف أنصارها والاَنتماء لتيَّارها الآخذ في التشكُّل والبروز في بلدِه «لبنان»، الحضن الدافئ لكلِّ جديد في عالم السياسة، فكيف بهـذا الممتزج ديناً وكرامة وثورة... واَنتصاراً؟

أنقادَ «عطا» وٱلتحق بتيار الثورة سريعاً...

لِمْ لا وقائدها «الإمام الخميني»، مرجع تقليد من عظماء المراجع، من المؤكّد أنه قلَّبَ الأدلَّة وفصَلَ بين المبيحة أو الموجبة منها والأُخرىٰ الناهية المانعة من القيام، فخلُصَ وٱنتهىٰ إلىٰ خياره الثوري؟ بل هو الأعلم، كما أُخبر، وإن لم يكن كذلك - في وَاقع الأمر - فإنه أحد من يُشهَد لهم بالأعلميَّة، وفي أهل الخبرة بيِّنات تقول بذلك، وهذا يعني "النيابة العامة"، وهو كافٍ لمشروعية الحركة.

أما "الدليل" الخاص الذي ٱستأنس به «عطا» وتمسَّك، وأذعن وخضَع، فقد كان ينطلِق من معاناته الخاصة، معاناة تحوَّلت إلىٰ ما يمكن عدُّه "حالة شخصية"، و"نزعة فردية خاصة"، وأمراً يأخذ قوامه وتتشكَّل صورته من مشروع العمل الذي قضىٰ حياته فيه... وأمضاه "الراعي" الذي التقاه وأقرَّه عليه.

قضية الهويَّة الشيعية والأصالة العقائدية.

فقد بانَ له وٱنكشف أن «الإمام الخميني» لا ينسجم مع "حزب الدعوة" ويتنافر معه، ولعلَّ الأمر في جماعة «الخميني» وحاشيته، يتجاوز التنافر وعدم الأنسجام ويبلغ العداء!... وهذا تياره الظافر، لم يقُم في «لبنان» إلّا علىٰ ركام "حزب الدعوة" وأطلَاله، وبعد أن أعلن «الشيخ علي الكوراني» ٱنحلاله! فكأن "التزاحم" هو ما يحكم العلاقة بينهما، أو هما "ضدان" لا يجتمعان، أو هي قضية علىٰ نحو "مانعة الجمع" كما يقول المناطقة!

علِمَ أنَّ العداء بينهما بدأ من أيام وجُود «الخميني» في «النجف الأشرف» وٱستحكم هناك، حتىٰ إنَّ "حزب الدعوة" رفض ترجمة كتاب «الحكومة الإسلامية» لـ «الإمام الخميني»، بحجَّة الأفكار التي يحملها، وأنَّ الكتاب "تُستَشَم منه رائحة الشيوعية"!

كما عبَّر في حينها «الشيخ محمد مهدي الآصفي» أحد أركان "حزب الدعوة الإسلامية" في ذلك الوقت، والناطق الرسمي بأسم الحزب حالياً، وهناك إشاعات تتردَّد في أوساط متعدِّدة، لا تخلو من وَجْهٍ وقوَّة، تقول إنَّ "حزب الدعوة" كان له أرتباط ما، أو أتصال وعلاقة وثيقة بدَوائر "السافاك الإيراني".

كما كانت لميول الحزب وتوجُّهاته "التسننيَّة"، وتأثره بـ «سيِّد قطب» و "الإخوان المسلمين" وأختلاطه بـ "حزب التحرير" (الأُردني)، أثر لا يُنكر في العلاقة السلبيَّة بين الطرفين (من حيث المدرسة الفكرية والأنتساب الثقافي، الذي يُصنِّف هذه الحركات في "الأجنبي" و"المُغاير")، بالإضافة إلىٰ أمور أُخرىٰ كانت تثير حفيظة "الخمينيين" وريبتهم وتحسُّسهم من "الدعوة".

أراح هذا الأمر «عطا» أيما راحة، وكان يحدُّث نفسه، بأن "الأُمور تُعرف بأضدادها" وإن لم تكن قاعدة مطَّردة، إلّا أنها صادِقة هنا، فهي أبلغ حجَّة وأنصع بيِّنة وأقوَم بُرهاناً في إثبات سلَامة الحركة ونزاهة المشروع، وصِحَّة الأنخراط فيه والأنتساب إليه!

ومن الغريب أنَّ «عطا» لم يكن يعبأ كثيراً بـ "ثورِيَّة" «الإمام الخميني» وجهاده وصلابته!

ولم يأخذه الإعجاب، كما عامَّة الناس، بشجاعته وإقدامه، والتزامه ومبدئيَّته وثباته، وقدرته علىٰ مواجهة طغاة الدنيا مجتمعين، وهو يتَّخذ مواقف تخاطِر وتُهدِّد مسيرته، ويمضي في حرب تنذر بالقضاء علىٰ حركته ودَوْلته، حتىٰ لا يملك المرء إلّا أن يقول: حقّاً إنَّ هذا الرجل لا يُضارع ولا يهادن، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ولم يكن مأخوذاً بصِفاته الأُخرىٰ من عِلْم وزُهد وتواضع وتقوىً ووَرَع، وإنكار للذات، رآه مرَّة يفيض من منطِقه، وينمُّ عن الحقيقة التي

يحملها في رُوحِه، حين خطَبَ بعد تحرير «خرمشهر» («المحمرة»)، ليقطع نزاعاً تفاقَمَ بين القوات المسلحة، وسجَالاً احتدم بين فصائلها، وهي تتنافس على تسجيل النصر وإلحاق شرف تحقيقه بـ "الجيش الإيراني" أم بـ "الحرس الثوري"، وأيٌّ فيلَق منهما، وأية كتيبة، كلٌّ ينسب الجهد الأكبر في تحرير المدينة إلى نفسه، ويعزو الفضل إليه، ويدَّعي اليدَ الطُولى له، وهو منعطَف قلَبَ مَوازين الحرب وعكَسَ وِجهتها، ومن بعدها صارَ «صدام» يستعطي وَقْفَ إطلاق النار ويلتمس الصلح...

فجاء «الخميني» ليقول: "إنما حرَّرَها الله"...

وعلى الرغم من أنَّ «عطا» لم يكن يحسن الفارسية، إلّا أنه سجَّل ذلك الخطاب في "كاسيت" وأدمن سماعه، وكان يَعجَبُ ممن لا يشعر بالحقِّ كيف يفيض على لسان هذا العبد الصالح، وبنفحَة التوحيد الخالص كيف ترتسم من قوله ومَوْقفه؟!

كان يحاول أن يبُثَّ لرِفاقه في "حزب الله" فكرة الأُسس الصحيحة والموازين والمعايير الحقة لتقييم الأشخاص والأعمال، ويقول لهم:

ليست قيمة «الإمام الخميني» في شجاعته وجهاده، فالمجاهدون والمناضلون كثيرون، "الشيوعيون" في «فيتنام» لم يقلّوا تضحية وثباتاً وشجاعة، كانوا يلقون بأنفسهم في الحتوف ويُرْخِصونها في سبيل قضيَّتهم ويطلبون الموت دفاعاً عن وَطَنهم وحزبهم.

ولا هي في عبادته وزهده وتقواه، فالعُبَّاد والزهَّاد والأتقياء كُثُر، والروحانيون المرتاضون يملؤون «الهند» و«النيبال»!

بل ولا في صِدقِه وإخلاصه، فـ «الخوارج» الذين كانت الثفَنَات تُشَقِّق جباههم من كثرة الصلاة والسجود، كانوا مخلصين لقَضيَّتهم، لذا قال «أميرالمؤمنين» عليه السلام إنهم أرادوا الحقَّ فأخطأوه، لا مثل أهل «الشام» الذين أرادوا الباطل فأصابوه.

ولا هي في قدرته وانتصاره ونجاحه في تشييد الدولة وتأسيس الجمهورية الإسلامية، فـ «هارون الرشيد» بلغَ القمَّة في المجد والألق والقوَّة والمنعة، ووَصَلَت دولته من الازدهار والنماء والرخاء ما أطلَق على عهده "العصر الذهبي"، و«فرعون» من قبله أسَّسَ دولة وشيَّد صرحاً وأقام حضارة ما زالَت آثارها وبقاياها تُدهِشُ العالم.

إنما الحقُّ والصدق، والفخر والمجد والعظمة، والقيمة والشأن، وما يستحق التقدير والثناء والجزاء... هو الفكر والعقيدة والولاء. هذا هو ميزان الأعمال والصراط الأقوم الذي مَن تمسَّك به نَجَا وفَاز، ومَن تخلَّفَ عنه ومَال، غوىٰ وضلَّ، وهلَكَ وتَاه!

القيمة كلُّ القيمة لما يحمله المرء من فِكْرٍ وما تنطوي عليه نفسه من مُعتَقَد، لا لِصَلاته كم تطُول، ولا لِجِهاده كم تكلَّف، ولا لِعَطائه كم أخلَف، إنما للفكرة والمعتقد والمبدأ الذي بذَلَ وضحَّى وتحمَّل في سبيله، فكلُّ هذه وتلك تأتي بعد ذاك، إنَّ الخطبَ والخطَر والشأن، هو لنَوْع المبدأ الذي يحمله المرء، وماهية الفكرة التي يتبنىٰ، فلو:

أنَّ عابداً عبَدَ الله بين الركن والمقام ألف عام، وألف عام، حتىٰ يكون كالشِنِّ البالي، ولقي الله مبغضاً لـ «آل محمد» أكبَّه الله علىٰ منخره في نار جهنم.

إن فيلسوفاً عظيماً مثل «الخاجة نصيرالدين الطوسي» ﷺ، لم ينظم هذا المعنىٰ من تعصُّب وحميَّة، إنما هو ما قامَ عنده عليه البرهان، ونطق لديه الدليل، فأنشد وترنَّم:

لَوْ أنَّ عبداً أتىٰ بالصالحات غداً
وودَّ كلَّ نبِيٍّ مُرسَلٍ ووَلي
وصَامَ ما صَامَ صوَّاماً بِلا مَلَل
وقَامَ ما قَامَ قوَّاماً بلا كَسَلِ

وحَجَّ كم حِجَّـةً لله وَاجِبَـةً
وطَافَ بالبيت حافٍ غَير مُنتَعِلِ
وطَارَ في الجوِّ لا يأوِي إلىٰ أحدٍ
وغَاصَ في البَحْرِ مَأمُوناً من البَلَلِ
وعَاشَ في النَّاسِ آلافاً مُؤلَّفة
عَارٍ من الذَّنْبِ مَعْصُوماً من الزَلَلِ
ما كانَ في الحَشْرِ عِنْدَ الله مُنْتَفِعاً
إلّا بِحُبِّ «أميرالمؤمنين عَلي»

لقد وَجَدَ «عطا» "خطَّ الإمام" أو "حزب الله" يقترب ـ من جهة ـ من المواصفات "القياسية" التي وَضَعَها للصيغة المُثلى للعمل الإسلامي، وأقرَّه عليها "الراعي"...

فهو لم "يُفاتَح" في الأنتساب لهٰذا الحزب، ولم "يُسجِّله" أحَدٌ فيه، ولا تولّاه ولَقَّنه وهَيْمَنَ عليه في فِكرِه ومَواقفه، ولم يشعر لحظَةً أنه تخلىٰ عن حريَّته في التفكير وأستقلاليَّته في أتخاذ الموقف وتعيين القَرار، كانت هناك أوامِرَ وتعليمات يمكِنُ أن تُسَمَّى "فنِّية" تتعلَّق بآليَّة العمل وتنفيذ المهام، دُونَ أن تَمَسَّ الفِكْر أو تَقْرَبه.

ولٰكن ـ من جهة أُخرىٰ ـ لم يتلَمَّس ما كان يرجُوه ويأمله من الطَّرح الفكري والعقائدي، ولا رأىٰ ما كان ينتظره ويتوقَّعه من الصيغة والبُنية المذهبيَّة في خِطَاب "الحزب". وكان يعزُو هٰذا الإغفال والأنصراف، فيما كان يُمَنِّي به نفسه، إلىٰ طبيعة مرحلة وِلادة حزب بهٰذا الحجم، وما كان يُلاقيه في مُعترك التأسيس وخضَمٍّ ساحة مُوغلة في التشرذُم والتجاذُب والأستقطاب، لم يوفِّر أقصىٰ اليمين من "الكتائب" و"الأحرار"، ناهيك بحركة "فتح" والقوميين والناصريين وعموم اليسار، ما لم يُبقِ لأبناء الطائفة باقية، ولا وَقَتْهُم من شرِّ الأحزاب وَاقِية!

ساحة مُشْرِفة، على صعيد الفِكر والمعتقد، في الميوعة والتشريق والتغريب، ملتهِبة متشنِّجة، في جانب العلاقات، لا تكادُ تخرُج من معارك وصِدَامات حتى تستشرف وتقِفَ على أعتاب أُخرى. فكان من الطبيعي - إلى حدٍّ ما - ذلك الإغفال والانصراف.

وبين هذا وذاك كان «عطا» يعود ليأنس بأنه - شخصِيّاً - ما زال على ما كان عليه، محتفظاً بـ "مُختصَّاته"، لم يفرِّط بشيء من قِيَمه ومقدَّساته، لا العامة التي تمسُّ المذهب والطائفة، ولا الخاصة التي افترضها لنفسه والتزمها في مسيرته، وعمدتها ومرتكزها: "الهوية الشيعية والأصالة العقائدية".

لم يكن رفاقه وإخوانه في الحزب الجديد مِثْلُه، يعيرون هذه الأفكار كثير عناية، ويجعَلُون منها قضيَّتهم، فجُلُّهم "عوام"، وأكثرهم مستضعَفون ملَقَهم الحرمان وسحَقَهُم الاضطهاد، فانحصَرَت همومهم وتطلُّعاتهم في ما يُخرِجهم من شظَفِ العَيْش ومُهانه، وينقلهم إلى بعض الكَفاف من القُوت وفرَصِ العمل، ويُؤمِّن التعليم والطِبابة، وكلِّ العزَّة والكرامة، فهذه لا تقبل التبعيض والتجزئة، ولا تحتمِل التدرُّج والنسبية.

أما القِلَّة المتعلِّمة والمثقَّفة من السابقين في الهويَّة الإسلامية، فقد كانوا ذوي جذور وثقافة "دعوجية"!

وكانت رَوَاسبها فيهم باقية، لم يأتِ جديد يمسحها، إذ لا تربية ثقافية في "حزب الله"، ولا "حلَقات" تغذي الأعضاء وتلقِّنهم فِكْراً مُعيَّناً، إنما هي المساجد والحسينيات والمحافل الدينية العامة، وما يُلقى فيها، هذه هي حاضنة "حزب الله"، ومراكزها ومقرَّاتها...

كما لم يكن رِفَاقه يعارضونه، أو يردُّون عليه مقولاته، إنما كانوا يلوذُون بالصَّمت، فاحتدام الساحة والتهابها، وتعاقُب الأحداث وتسارعها، يجعل طَرْقَ وتناول مثل هذه المواضيع أمراً غاية في الترَفِ والهامشيَّة!

فإذا جاراه أحدٌ وردَّ عليه، كان سؤالاً عن ثمَرة هـٰذا البحث:

ماذا بعد هـٰذه "الفلسفات"؟ وكم عساها أن تغيِّر في الموقف الذي نتَّخذ والقضية التي ننصُر؟

ومع كلِّ هـٰذا الفضاء الضاغط، ما تاهَ «عطا» عن قضيَّته ولا أضاع وِجهته ولا فَقَدَ يوماً هَدْيَه وسَمْتَه، لم تجرفه المظاهر الثورية ولا أخذته الأحداث السياسية، مع آنشغاله فيها، وعلىٰ الرغم من سخونتها، بقِيَ علىٰ صلابته، يعضُّ علىٰ ضرمه ويزمُّ علىٰ ضرسه... وكان يمنِّي نفسه، ويعقد الآمال علىٰ ما سيكون في غدٍ قريب، بعد هدوء عَصْفِ الحرب الأهلية وسكون قَصفِ الآحتلال الإسرائيلي، والخروج من هـٰذه الدوامة ونحن أقوياء، أعِزَّة، إن لم نحقِّق الدولة الإسلامية هنا ونقيمها كما في «إيران»، فلن نُضطَهد بعد اليوم ولن نستَضْعَف... ستُطرَح معارف «آل محمد»، وتُعرَف مقاماتهم ويتعمَّق الولاء لهم، وسيلتفُّ الشيعة علىٰ المحور الأصلي، ويفخرون بوَلائهم، لا يخجَلون ولا يُدارون، ولا يخشون في ذلك لَوْمة لائم. وكلُّ رِهانه علىٰ شخص «الخميني»، وما يحمل من فِكْرٍ وَجَدَه في ‹كشف الأسرار› وفي ‹مصباح الهداية›.

هـٰكذا أصبحت المعضلة أو الإشكالِيَّة التي تُقلِق «عطا»، فيستغرق في الفكرة فيها، بعد إيمانه بـ«الخميني» ودخوله في "خطِّه"، ولا سيَّما أنَّ ذلك آقترن بعدوله في التقليد الفقهي ورُجوعه عن «السيد الخوئي» إليه، إثر شهادة آثنين من أهل الخبرة بلَغَه أنَّهما يقولان بأعلمِيَّة «الخميني» وتفوُّقه علىٰ أقرانه من الفقهاء في جَوْدَة الآستنباط والإحاطة بالأدلَّة الشرعيَّة، أحدهما «السيد أسدالله المدني» وهو عالم جليل، كان يشارك في بحث «السيد الخوئي» ويدعو لمرجعيته، فلمَّا جاء «الخميني» ذهب مرَّة ليحضر بَحْثه مُستَطْلِعاً، فأبهَرَه وأُعجب به، وبعد فترة من المقارنة والتمحيص صارَ يقول بأعلمِيَّته...

وقد أخذ «عطا» بشهادة «السيد المدني» هذا وأطمأن لها فأعتمدَها، بعد كونه مشهوداً له بالخبرة العِلْمِيَّة والتقوىٰ والعدالة، لسببين، الأول: أنه كان من أبرز تلاميذ «السيد الخوئي»، ما يحقِّق الموضوعيَّة والحياد في الشهادة، الثاني: أنه كان يهَبُ كلَّ طالب عِلم في «النجف الأشرف»، يحفظ القصيدة "الكوثرية" ديناراً (وقد كان ذا مال وثروة)، وهي قصيدة رائعة في مدح «أميرالمؤمنين»، مما يكشف ميوله وتوجُّهاته "الولائية".

كانت مُعضلة «عطا» ومشكِلته هي كيفية الفصل بين الأداء السياسي والثوري لـ "خطِّ الإمام" و"حزب الله"، وبين الفكر الولائي الذي عرَفه عن قائد الثورة، والقائد (المفترض) للحزب؟ وقد أفتقد موقعه ولم يجد له حضوراً يذكر في أنشطة "الحزب" الإعلامية، ناهيك بأُطروحته الثقافية أو مشروعه السياسي (من بابٍ أولىٰ!)، وبتعبير أدقَّ وأقربَ إلىٰ الواقع، لم تبرز من معالم التشيُّع ومفردات الخطاب الولائي، إلّا تلك التي توَظَف في مشروع المقاومة وتخدم التعبئة والجهاد وتقديم الشهداء!...

كان يُدرك ويتفهَّم متطلَّبات كلِّ حقل ولُغة كلِّ ميدان، وما قد يبرز بينهما من تنافر أو تزاحم، ويُسجِّل من تقهقُرٍ في جانب وضُمُور في أتجاه علىٰ حساب الجانب والأتجاه الآخر، إلّا أنه كان يشعر - في الوقت نفسه - بضعفه، وعدم مقدرته علىٰ أستيعاب تحليل يبرِّر هذا الأداء، وأن يجد له مَحْمِلاً منطِقياً يُبقي الحزب الجديد في موقعه وإطاره من المشروعية...

كان يُدرك عجزَه أو قصوره عن فهْم وَاقِع غاية في التركُّب والتعقيد، وصورة تتكوَّن من مُعطَيات ترصد الأصالة الثوريَّة وهي في الذُرْوَة، والمبدئية السياسيَّة وهي في القمَّة، إذ ليس في قاموس هذا الحزب مصلَحيَّة تُراعي، ولا هو يمارس تكتيكات سياسية تناور، بل ولا تقيَّة تواري وتداري وتسهِّل عليه تخطِّي الصعاب، ثم يسجِّل - بمرارة - غياب وتراجع الطرح الولائي؟

كان ذلك مُستغرَباً ومُستهجَناً، فالمفترض أنَّ المشروع وما يرتبط به من عمل ويفرزه من عطاء ويجنيه من نتائج ومكاسِب، يصبُّ كلُّه لصالح «أهل البيت»، بعد أن انطلق منهم، يعود إليهم...

لكنه لم يكن كذلك...

كان مشروعاً ثورياً بامتياز...

إنَّ التشيُّع ليس مشروعاً سياسياً فحَسْب، ولا مُجرَّد آليَّة ناجحة تخدم الثوريين والمناضلين، وتوفِّر الغطاء للمجاهدين، إنما هو مدرسة متكاملة، تحوي المعارف الإلهية التي ترقىٰ بأتباعه إلىٰ ذُرىٰ العلم والمعرفة، وتشتمل علىٰ روحانيات وأخلاقيات تسلك بالفرد والمجتمع إلىٰ قِمَم الكمال والفضيلة، وما السياسة والجهاد والميدان السياسي، إلّا جانب بسيط، أو لنتسالم - جدلاً - أنه جانب كبير من هذه المدرسة العظيمة، ولكنه ليس الوحيد، فلماذا تُغفل بقيَّة الجوانب وتُهمَل؟ أليست هي راية هُدَىً تدعو إلىٰ "الرِّضا من «آل محمد»"؟ ما لَها - إذاً - تغفلهم وتتجاهلهم؟ ما لنا لا نشهد عرضاً لفضائلهم ونشراً لمعارفهم؟ ما لَنا لا ندعو إلىٰ حقِّهم المضيع منذ وَفاة «رسول الله» ﷺ؟

كان «عطا»، لبُنيته العقائدية وثقافته المذهبية، يُرْجِع مشاكل المسلمين إلىٰ الأنظمة التي تسلَّطَت عليهم، ويعود بأسباب الانحِطَاط الذي يضربهم، فلا يَسَعْهُم الفكاك والخروج منه، إلىٰ الأُصول العقائدية، التي تعزوه - بدَوْرِها - إلىٰ قضية الحكم والخلافة المغتصبة و "السقيفة". وكان يضرب بينه وبين غير المؤمنين بـ «أهل البيت» حاجزاً وحِجَاباً، يفصله عنهم، ويخرجهم عن أدنىٰ تلاقٍ واشتراك!:

ما لَنا و«جمال عبدالناصر»؟

ما لَنا و«ياسر عرفات» و "منظمة التحرير"؟

ما لَنا والمشاريع العروبية والهموم القومية والقضايا الوَطَنية؟

نحن دُعاة دين، وأرباب قضية إلهية، وحمَلَة رسالة سماوية، تتجاوز حدود الأوطان وتتخطىٰ نطاق القوميات؟

ما لنا و«فلسطين» و«القدس»؟!

إنما مقدَّساتنا في «مكة» و«المدينة المنورة» و«النجف الأشرف» و«كربلاء المعلَّاة» و«الكاظمية» و«سامراء» و«خراسان»، وبقاع أُخرىٰ، وليس منها «المسجد الأقصىٰ»؟ وإن كان مَقاماً ومشهَداً عظيماً، بارك الله حوله، نُجلُّه ونحترمه، ولكنه لا يرقىٰ ـ بأية حال ـ إلىٰ تلك العتبات العاليات، ليسلُبها الأولَوِيَّة؟

هٰذا «أميرالمؤمنين» عليه السلام جاءه رجلٌ وهو في مسجد «الكوفة» فقال: السلام عليك يا «أمير المؤمنين» ورحمة الله وبركاته.

فردَّ عليه السلام.

فقال: جُعِلتُ فِداك فإنِّي أردْتُ «المسجد الأقصىٰ». فأردْتُ أن أسلِّم عليك وأودِّعَك.

فقال له: فأيُّ شيء أرَدْتَ بذلك؟

فقال: الفَضْل، جُعِلْتُ فِدَاك.

قال: فَبِع راحِلتك، وكُل زادَك، وصَلِّ في هٰذا المسجد، فإنَّ الصلاة المكتوبة فيه حِجَّة مبرُورة، والنافلة عُمْرة مبرورة، والبركة فيه منه علىٰ اْثنى عشر ميلاً، يمينه يُمْنٌ، ويَساره مِسْكٌ، وفي وَسطِه عينٌ من دهن وعينٌ من لبن وعينٌ من ماء شرابٌ للمؤمنين، وعينٌ من ماء طَهُور للمؤمنين، منه سارَتْ سفينة «نوح» عليه السلام، وكان فيه «نَسْرَ» و«يغوث» و«يعُوق» (الأصنام التي كانت أمام باب الكعبة وعن يمينها ويسارها)، صلىٰ فيه سبعون نبيّاً وسبعون وَصِيّاً وأنا أحدهم، ومالَ عليه السلام بيده علىٰ صدره (أي أشار إلىٰ نفسه وهو يقول: أنا)، ما دَعىٰ فيه مكرُوبٌ بمسألة في حاجَة من الحوائج إلَّا أجابه الله وفرَّج عنه كُربته.

ما لنا وغيرنا؟ أليس لنا من الهموم والآلام ما يكفينا؟

نعم، هناك هامش من "نظير لكَ في الخلق"، ومن المعطىٰ الإنساني الذي يتمتَّع به ديننا وتتزين به أخلاقنا ويلزمنا في سلوكنا، ولـٰكن دون أن تنقلب نصرة الفلسطينيين إلىٰ القضية الأُولىٰ في حياتنا والقطب والمحور في حركتنا، وتحتلَّ الصدارة في جهدنا ونشاطنا، وتبلغ بنا ما يُنسينا قضايانا الحقيقية، ويسقط أولويَّاتنا.

أين «الإمام المهدي» في أُطروحة "الحزب"؟

أين حضوره ودَوْرَه والمناداة به والدعوة له في خطابنا السياسي والاَجتماعي والثقافي، وفي عموم حركتنا؟ كيف يُغفل ويُغيَّب وكأنه غير مولود بعد، وغير موجود؟

كان «عطا» يشعر أنَّ الحزب لا يفتقد «الإمام المهدي» وهو يدير الساحة ويقودها، فهو لا يتصرَّف كنائب ولا يتحرَّك كوكيل. ليس في سلوكه حذر الخادم الأجير، ولا حِيطة التابع المرؤوس، ولا رعاية المبتَعَث المندوب، ناهيك بتأدُّبِ المتطفِّل الغريب! إنه يُقْدِم بجَسارة ويَقْحَم بلا توانٍ، لا يصدر منه ما يُشعرك أنَّ هناك مالِكاً أو وَليّاً هو صاحب الحقِّ الأصلي في إدارة الساحة وقيادتها؟ وأنَّ المؤمنين رَعيَّته، هو وَليُّهم ووليُّ أمر المسلمين والبشرية جمعاء، بل الكائنات كلِّها.

لا ينادون به ولا يذكُرونه ولا يكادون يتذكَّرُونه إلّا في الشدائد إذا حَلَّت، وأتاهم الموج وظنُّوا أنهم أُحيط بهم... تذكروا أنَّ هناك «إماماً»، راحُوا يستنجدون به ويتوسَّلون!

سكنَتْ هـٰذه الأفكار في خَلَد «عطا» واَستقرَّت في قناعته، وسَرَت معه في كلِّ حركاته وسكَناته، تظهر في مقولاته وتتجلىٰ في مَواقفه، فإذا عجَزَ وأُحصِر، وحَدَاه الواقع ودفَعَه إلىٰ السكوت ومجاراة معطَياته الحاكمة، تراها تتفجَّر من نظراته، وتفيض من مرارة تأففاته...

لكنه لم ينطلِق في ذلك كلِّه من تعصُّبٍ ومكابَرة، ولا من حِقْد وعناد... كان يعتزُّ، بل يزهو ويفخر، بمذهبه ومعتَقده، ولا يريد أن يقع في ما ينال منه، ناهيك بما يزري به، كان ـ ببساطة ـ حريصاً أن لا تُمسَّ هويته الشيعية تحت أيِّ ظرف، مُصرّاً أن لا يخدِشَ معالم مذهب «أهل البيت» شيءٌ، لا يريد أن ينساق لعالم السياسة بألاعيبه وتسويلاته، ويأبى الخضوع للإعلام ببهرجته وتزييفاته، وما يصنع من عقلٍ جمعيٍّ يبتذل الناس ويُخضِعهم، فينقادون إليه كعبيد، ويسوقهم كقطيع.

وإلى جانب هذه العلل الفكريَّة والأسباب العقائدية، كانت هناك، وللحقِّ، أسبابٌ أُخرى، لعلَّها تنطلق من الـ "أنا" وترجع إلى "الهوى"... فقد كان «عطا» يحبُّ أن يعيش التميُّز والمغايَرة ويهوى الاختلاف عن غيره، ويخفِق فؤاده لهذا سروراً، وتدغدغ البهجة نفسه وتنطلق لتحلِّق بروُحِه بعيداً، حين يشعر أنه خارج هذا اللفيف والأخلاط، وليس من الجمهور والسواد، ولا يدخل في غمار الناس وخمارهم، بل يتنحى وينعزل، وينتبذ ناحية ليكون من نخبة مصطَفاة.

لم يكن يحسن مخاطبة الجماهير، ولا يستسيغ أن يكون في "الأكثرية"، ولعلَّها من عُقد ومخلَّفات المرحلة اليسارية! ويكرِّر: لَعَمري، ماذا يُحرِّكَ هؤلاء غير الزيف والتمثيل؟ كيف تكتسب حركة سياسية هذي الحشود إلّا بالتغرير والخداع؟ أتراهم يعون ما يفعلون، ويتفهمون مواقفهم؟ هل تغيَّرت السُنن فأصبح "أكثرهم يعقلون، ويعلمون، ويشكرون"؟!

ومن بين هذه الدروب الملتوية والغمار المحتشدة، ووَسَط هذا اللغط والزحام، كان «عطا» يعود ليخرُج من المتاهة التي وَجَد نفسه قد اُبتُلِيَت بوَساوِسها، وتورَّطَت في حبائلها، يعود ليتجَاوَز الهواجس التي صنَعَت في ذهنه مُعضِلَة وفي نفسه أزمة، وألقته في محنة، ويقطع الطريق على الملحوظات التي سجَّلَها على أداء "حزب الله" و"خط الإمام"...

لا يسمح لها أن تثنيه عن نيَّته وتصرفه عن عزمه في النهضة والقيام، أو في الحركة والعمل... فقد مَسَّه وسكَنه شيءٌ آخر مقابل تلك الوَساوس! تسرَّبَ إلىٰ وِجدانه، وهيمَنَ علىٰ تفكيره، فضرب أطنابه هناك، فما عادَ شيء يستطيع مغالبته!

شعوره أنَّ الثورة الإيرانية حركة مباركة، ممضاة بخاتم «أهل البيت»... فيأخُذه ذلك إلىٰ أن يُغالب قراءته التي تصنِّف الوضع آخذٌ في الزيغ، بل مُطبِقٌ في الأنحراف، ويسمح للرؤية الأُخرىٰ المقابلة التي تنظر إليه هوَ وتشخِّصه متخلِّفاً في تصنيف الهموم والأولويَّات، أو مبالِغاً في تسجيل الظواهر ومتحسِّساً في التقاط الشواهد، يسمح لها بهامش من الصحَّة والإصابة! فلا يدخل ولا يُصاب بنزعة التشكيك، وحالة "بقرة بني إسرائيل"، ولا يحرم نفسه فرصة تاريخية لخدمة المذهب، وميادين مُشرَعَة للعمل في ترويجه ونُصرته...

وكان يجد لهٰذا كلِّه علاجاً يسكِّنه، من عزاء يؤمِّل ويمنِّي به نفسه، يراه في شخص «الإمام الخميني». وقد أرشدوه، في طريق سعيه إلىٰ دراسة ‹مصباح الهداية›، إلىٰ «السيد أحمد الفهري» القاطن بجوار مرقد «السيدة زينب» في «الشام»، وعرف أنه الوكيل العام وممثل «السيد الخميني» في «سوريا» و«لبنان»، فتعرَّف عليه ولَزِمَه فترة، ومنه سمع ما جعل روحه تتَّصل بـ «الخميني» وتتعلَّق به وترتبط، حتىٰ صارَ يشعر أنه معه، يرافقه ويسنده، يهمس في أُذنه ويسرُّه، ويمسح علىٰ رأسه، ويربت علىٰ ظهره، ويريح يده ـ أحياناً ـ علىٰ متنه، فيربط علىٰ قلبه، ويعزِّيه في غربته... سمع من «الفهري»:

أنه الراهب الأوَّاه المتأنن في الليل، والأسد المغرِّد في النهار، السيف المسلول علىٰ عفريت الأستكبار، المرتل بشفتيه آية النجاة، والحامل بيديه لواء

التحـرير من كلِّ الرقـيّات والعبوديات، المتعالي من سُلالـة الطـيبين الـطــاهـرين مـن آل «طه» و«ياسين»، القائم علىٰ مئذنة الـوحدة والإيمان، يُـسمع نـداءه المستضعفين وكلَّ إنسـان، أن حيَّ علىٰ القيام والعصيان، عصيان الطواغيت الظاهرة والخفِية، وتحطيم الأصنام السرية والعلَـنيَّـة... سبحان الله، هل نحن في القرن العشرين، وهٰذه «إيران» وهٰذا شيخ في الرابعة والثمانين، أم نحن في صدر الإسلام و"فتح «مكة»" و﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾؟

فيستمدُّ الصَّبر من الأمل بطَوْر قادم يعقب مرحلة التأسيس ويطوِيها، ويسكِّن نفسه بالدعاء أن اللهم أجعل لي من أمري فرجاً قريباً ومخرجاً وَحِيّاً، ويمنِّيها، بعد هٰذا الفجر الذي قشَع الظلام، بآخر "صادق" سيليه ويعقبه، أو بصباح مشرق، تَشعُّ شمسه فتغلِب، فلا تُبقي في الأُفق خيطاً أبيض يلتَبِس، عليك أن تتبيَّنه من الأسود من الفجر، هناك ستُعرَف الحقيقية وتنجلي، وينكشف الخطاب الأصلي لهٰذه الثورة.

عندما كان يُنادىٰ علىٰ "إمام «النبعة»"، وقد أنتقل إلىٰ «بئر العبد» في الضاحية الجنوبية من «بيروت»: "المرشد الروحي لحزب الله"، أو القائد والزعيم وما إلىٰ ذلك من ألقاب وعناوين رنَّانة، وذلك من قِبَل الإعلام الغربي والعربي المعادي... كان «عطا» يُسجِّل ذلك في المؤامرة، ويخالف بعض رفاقه الذين يعزُونه إلىٰ الفوضىٰ، سواء في الإعلام لجَهلِه، أو في أداء الحزب نفسه، لغموض تركيبته وحَدَاثتها في الساحة، أو للخلل التنظيميِّ الذي يسمح للأنتهازيين بالتسلُّق والأنتحال والدعوىٰ ومصادرة الجهود.

وكان «عطا» يستدلُّ به على مركزيَّة القرار العالمي في دُنيا الإعلام وانحصار دقَّة توجيهه بيدٍ واحدة، هي "الماسونيَّة" العالمية. ويقول:

إنَّ الأُمور محسوبة بدِقَّة متناهية، والخطط مرسومة بعناية فائقة، والقرارات تنفَّذ بحرص شديد، لا ارتجال هنا ولا جهل، إذا كانوا يجهلون هيكلِيَّة "حزب الله" التنظيمية ويعانون من غموضه، فإنَّهم يعرفون جيِّداً صاحبهم، ويعرفون مَن هو؟ إنه ربيبهم الأول وعميلهم الخفيُّ المعتَّق... إنَّما أعدُّوه لمثل هذا الدوْر، وصنعوه ليتسنَّم يوماً القيادة ويتولى الزعامة، لتنتهي الطائفة الشيعيَّة كلُّها من خلاله وعن طريقه في جيوبهم.

لقد باغتَهم «الإمام الخميني»، وهم يتصوَّرونه مارداً كاسحاً خرج من قمقمه، وأربكت ثورته مخطَّطاتهم وخلَطَت عليهم الأُمور، وأفقدَتهم مقاليدها وزمام التحكُّم ومفاتيح السيطرة على الواقع السياسي في «لبنان»... فلجأوا إلى هذه الدعاوى يريدون أن يلتفُّوا على الواقع الجديد الذي صنعته الثورة ويصادِرُوه، من خلال زَرع هذه القيادة الوهميَّة، لعلَّهم يعودون ثانية إلى موقعهم السابق.

وكان «عطا» يتأكَّد من صحَّة قراءته وتحليله لقضيَّة إعلان الرجل زعيماً رُوحِيّاً لـ "حزب الله"، من وَحي أحاديث كثير من القادة الميدانيين للمقاومة، وبعض المسؤولين الإيرانيين، الذين كانوا يسخرون من تلك المزاعم والمقولات، ويقولون لـ «عطا»: لا تخَف، دَعْه يعيش في أحلامه، ويجترُّ من خيلائه وأوْهَامِه!

وربَّما ذهب بعض من الإيرانيين والقادة اللبنانيين، إلى ثمرة قد نجنيها من هذا الترويج، تتمثَّل في إيهام العدو بأنَّ خدعته قد انطلَت، ومؤامرته قد تحقَّقت، فيقنع بها، ولا يعمد إلى غيرها ويبلينا بشرٍّ جديد... وعندما تحين ساعة كشف هذه الخدعة وفَضح هذه الكذبة، لن تُعيِينا الحلية من بهرجته الجوفاء، ولن يُعجِزنا الإعلام بجلبته وصراخه!

كان «عطا» يركن إلىٰ هـٰذه الوعود، ويأنس بعمق الفهم وعالي الوعي الذي يتمتَّع به بعض القـادة، علىٰ صِغَر سنِّهم وتواضُع خبرتهم، وإن ساوَرَه القلق من نفوذ عناصر أساسيَّة من أُطر "حزب الدعوة"، ورموز "آتحاد الطلبة"، توغُّلهم في الشورىٰ المركزية لقيادة "حزب الله"، وتسنُّمهم مواقعَ حسَّاسة وأدواراً خطيرة، وإن لم تكُن في صنع القرار، ففي إدارته العُليا وأروِقة إعداده.

وكان يتشاغل بقضيَّته الخاصة وينصرف لشأنه، مع بقائه ضمن التيار العـام للحزب، وتماهيه مع أنشطته المتشعِّبة، فيستغرق في همـوم "الجنـوب" من زاويته هـو، دون المشروع الكبير للحزب، يقتطع منه الفضاء الذي يريد، فيعيشه، ليتقطَّع ألماً ويكتوي حسرة وهو يرىٰ عناصر الأحزاب وفصائل المقاومة الفلسطينية وهم يبتزُّون المستضعفين من أهالي القرىٰ، ويفرضون علىٰ المزارعين المكوس، ويجبون الضرائب... لا يرحمون فقيراً، ولا يراعون ضعيفاً، بل لا يعفُّون عن طعام مسكين!

كلُّ ذلك بآسم مقاومة «إسرائيل» الغاصبة، والنضال ضد الإمبريالية الجائرة، وجهاد الكفَّار اليهود!

ولربما تمادىٰ بعض "الفدائيين" فآحتلَّ بيوتاً وصادَر دُوراً، وآستولىٰ علىٰ حقول وبساتين، ودفعَ سكَّانها وأصحابها إلىٰ الهجرة وترك قُراهم إلىٰ «بيروت» أو مناطق أُخرىٰ "آمنة" من «الجنوب»، ليغصِب جَنْيَها ويسرق حصادها.

ولربما مرَّ أحدهم بـ «الجنوبي» الذي يرمِّم أو يعمِّر بيتاً، فيدخل في موقع العمل، ويتدخَّل في عمل البنائين! ويقوم بتوجيههم ويطلب إليهم إعادة توزيع غرف البيت ومرافق الخدمات فيه، علىٰ خارطة أُخرىٰ غير التي طلبها صاحب الدار أو العقار، فإذا سُئل عن شأنه وعلاقته؟ ردَّ بأن البيت سيؤول إليه، بعد حين!

ولٰكن ذلك كلّه لم يسمح له بالترحيب بالاْجتياح الإسرائيلي للجنوب، ولا أن يشمت بالفلسطينيين المندحرين... بل اْنخرط سريعاً في صفوف المقاومة، وشارك في تأسيس وبناء "الخلايا" الجهاديّة الأُولىٰ التي باشرت العمليّات المسلّحة ضدَّ قوات الاْحتلال.

وكان يكرِّر علىٰ الأهالي وهو يعبِّئهم للمقاومة، سواء في التظاهرات والاْعتراضات والعصيان المدني، أو في الدعوة للاْنتساب لخلايا المقاومة المسلَّحة وسراياها: هٰؤلاء أعداء الله و«رسوله»، إنَّهم أعداء «بني هاشم»، أرادوا النبوة الخاتمة في «بني إسرائيل»، فلمَّا جاءت في «بني هاشم»، فقدوا صوَابهم وجنَّ جنونهم وحشدوا شياطينهم، وصاروا يكيدون لنا منذ ذلك اليوم.

❁ ❁ ❁

اْنقضىٰ عهد "نثر الأرز" والترحيب بـ "المخلِّصين" من جَوْر الفلسطينيين وفسادهم، وما لبث أن طوىٰ صفحته سريعاً. وبدأ عهد المقاومة والتصدِّي للاْحتلال...

ومعه، بانَ الوَجه الحقيقي للوحشية والطغيان الإسرائيلي، وقد ظهرت بوادره الأُولىٰ في ممارسات متعسِّفة تمثَّلت في جمع الشباب من البيوت وحَشْدِهم في الساحات، يأمرونهم برفع أيديهم ومواجهة الجدران، ثم التقاط بعضهم وتعصيب عيونهم، واْعتقالهم...

تعمَّق حنق «عطا» علىٰ اليهود وتفجَّر العداء في قلبه واْستحكم، وهو يشهد قذائف جيش "الدفاع" الإسرائيلي تدكُّ أرضه بقسوة، تهدم البيوت في البلدات، وتحرق المزارع بلا رحمة... وقد هَوَت إحداها، يبدو أنها كانت تستهدف موقعاً فلسطينياً، مَربَض مدفعية، أخلاه أفراده وفرَّوا (لم يستغرق الجيش الإسرائيلي في اْجتياحه الجنوب اللبناني كلّه أكثر من ساعتين، إذ هرب "الفدائيون" الفلسطينيون، ولم يثبتوا البتة!).

وقد تبيَّن إنَّ كثيراً منهم كانوا عملاء وجواسيس، يزوِّدون الإسرائيليين بالمعلومات ويمهِّدون لهم الطريق، حتىٰ أن بعضهم التحق فوراً بالغُزاة وصار مُرشداً لأرتالهم المتوغلة!)، فسقطت القذيفة علىٰ دار "جنوبي" أقامها، من سُوء حظِّه، قرب «مخيم أبي الأسود» في «صور».

كان «عطا» علىٰ علاقة شخصيَّة بصاحب الدار المنكوبة، ويعرف كم تقشَّف الرجلُ وعانىٰ، وكيف عاش الضيق والضَنْك عشرين عاماً متواصلة حتىٰ بناها... أقام علىٰ الزيج والمطمار جدرانها، وأحصىٰ بشغف متيَّم لَبِنَات رَصَّها، وعَدَّ بحِرص عاشق أكياس "الإسمنت" كان يملقها بحَصيَات غربلها كأنه ينقِّب عن ذهب ينتقيه من بين حَجَر ومَدَر! فعل كلَّ ذلك بنفسه وباشَرَه بيده، ليوفِّر شيئاً في كُلفة البناء... يده التي كانت تتلقىٰ إعانات ٱبنه المغترب في «أبيدجان»، وهي تصِلُ إليه "موسميَّة" كالطيور المهاجرة، لا تشبهها في أعدَادها وأسرابها، بل في تباعد فترات وُصُولها ومرورها، تقطُر عليه كقطرات تذوب من جليد تدلىٰ عن شفير سطْحٍ قرميديٍّ في شتاء قارس، كقرن منكوس، أو قُمْع، ولكن مُصْمَت، يغالب دفء الشمس ويقاوم أشعَّتها، وكأنه لا يريد أن يفقد ولو قطْرة تسيح من جموده وصلابته، ولعلَّ الصقيع أصاب القطرات، فجمدت هي الأُخرىٰ، وٱنقطع المَدَدُ أمداً!

هوَت قذيفة مدفع ثقيلة علىٰ السقف، كأنَّها صاروخ من شدَّتها وقُوَّتها، تلتها ثانية من العيار نفسه أصابت عموداً يقوم علىٰ الأساس، لحقتها ثالثة ضربت المدخل، فٱنهار البناء وتهدَّم...

قذفه موجُ ٱنفجار القذيفة الأُولىٰ ورَمَاه دوِيُّها من نافذة الغرفة التي كان حاضِراً فيها، ألقاه بعيداً علىٰ أكمة من قَفٍّ، هي حصادهم من أحرار البقول، بل كانت كَوْمة رَمْل من مؤونة البناء، أو هي حصَبٌ مما يُملَق بالإسمنت لصنع "الباطون" (الخرسانة)...

وبين الهلع والذعر، وهول الصدمة وما يورثه من صعقة مُشِلَّة، ثم ألم الرضَّة الشديدة إثر الوقعة والأرتطام بالأرض، لم يمكنه النهوض ولا المبادرة بأيِّ ردٍّ فعل، كما لم يتحيَّن للأطفال الخروج والتماس سبيل للنجاة... فأنهار البيت على أحفاده وأختلطت أشلاؤهم باللبِنَات.

خرج صاحب الدار من غشوته وأفاق بعد دقائق طالت، ناهزت عشرين أو نصف ساعة، وما خرج من صدمته...

وقَفَ مشدُوهاً يترنَّح، وقد غطَّى الغبار وَجْهَه وشَعْرَه، حتىٰ أشفار عينيه وحاجبيه، فلم يظهر منه إلّا ما رَسَمَتْهُ الدماء وهي تسيل من أنفه وإحدىٰ أُذنيه... وقَفَ، أو أنه حاول أن يقِف، فعَجَز، فعادَ ليفترش الأرض علىٰ كومة الحصىٰ، بل أنه وَقَع وسَقَط، ودويُّ الأنفجار يطنُّ حتىٰ كأنه عَقَر صماخ أُذنيه، فصُمَّ!

لٰكنه لم يَعْمَ، إذ كان يرىٰ، وقد أطلَّ علىٰ ركام يتصاعد منه غبار، ويُنذِر ـ بعد حين ـ بأطلال!...

جلس لا يدري ما يصنع؟ فلا نجدَة هنا ولا إسعاف، ولا أحد إلّا نساء وأطفال! وإن كان ثمَّة رجال، فهم مثله عاجزون. كان في فراغ وشتات، عقدَ لسانه وأبكمه، بل شلَّ تفكيره وقطَع أحاسيسه، لم يكن يسمع، وإذا سمع فلا يعي ما يدور حوله. ومع بدايات إفاقته وعَوْدة الوعي إليه، أخذت تتسابق في ذهنه مشاعر وأنفعالات، لٰكنها لم تخرجه من الشَدَهِ والذهول، إذ ما كان يدري هل يندب الصرعىٰ من أحفاده المعفَّرين أمامه أشلاءً، ويبكي يُتماً عاشوه جُلَّ حياتهم من هِجْرة أبيهم وغربته، فأبىٰ أن ينفكَّ وينقضي إلّا بموتٍ زؤام أختطَفهم وهم نيام! أم يلعن الغربة التي سرقت أبنه وهو في ريعان الصِبا ونأَتْ به في «ساحل العاج» وتركته وَحِيداً يواجه المصيبة؟ أم يبكي داره التي تقوَّضت ومعها جهد العشرين عاماً وكَدَّها... أم كلَّها مجتمعة معاً؟!

وقبل ذلك، في «حَدَّاثا» القريبة من الحدود، كانت المأساة أخذَت شكلاً آخر، بلغ من الفظاعة والشناعة ما أستدرَّ أقلاماً أميركيَّة، وبعَث فيها الروح والإنسانية لتكتب:

" إنها «فيتنام» جديدة على بُعد نصف العالم " ...

هٰذا كان عنوان رسالة «تيدتكيمو» مراسل وكالة " اليونايتدبرس " الأميركية من «تل أبيب» عن مشاهداته الشخصية في بلدة «حَدَّاثا» اللبنانية، التي قصدَها برفقة أثنان من المراسلين الأجانب هما «ديفد هيرست»، و«دوغ روبرتس».

تقول رسالة «تيدتيمكو»:

إنها «فيتنام» جديدة على بُعد نصف عالم، فعلى مدى يوم مخيف كامل تسنى لي ولمراسلين غربيين آخرين أن نلقي، بالصدفة، نظرة على ما يعنيه أن تُضبَط في الوسط بين قوَّة غزو إسرائيلية رهيبة وفدائيين فلسطينيين، تحاول هٰذه القوة أن تطردهم من منطقة الحدود اللبنانية.

دخلنا «حَدَّاثا» التي تبعد أثنا عشر كيلو متراً عن الحدود ظهر يوم الجمعة الماضي بين هجومين إسرائيليين. هجوم واحد فقط كان يكفي! غير أن الطائرات والدبابات ومدافع المورتر والأسلحة الخفيفة، قامت بتحويل البلدة الزراعية الإسلامية الصغيرة إلى ساحة مَوْت ودَمار.

ولقد سِرنا وَسَط جدران مهدَّمة، وسُقُفٍ منهارة، وهياكل متناثرة لبعض السيارات، وطُرُق مزَّقتها القنابل، وجثَث نصادفها من وَقْتٍ إلى آخر لحيوان أو لإنسان! كان هناك حمار مطروحاً نافقاً، وقطَّة صغيرة تلتمس طريقاً لها حول الجثَّة. وكانت خمس جثث مضغوطة تحت بيت تقوَّض، ونساء متَّشِحات بالسواد يسترِقنَ النظر من وَرَاء أبواب خشبيَّة، ثم حين رأينَ أننا لم نكن مسلَّحين، خرجنَ والدموع في عيونهن، وهُنَّ يطلِقن صرَخات الأحتجاج.

سيِّدة في السبعين من عُمْرها أدخَلَتنا إلىٰ منزلها ثم أنزوت تبكي فَوْقَ بقرَتِها الحلوب النافِقَة، التي كانت كلَّ مصدَر قوَّتها.

وقال رجلٌ مُسِنٌّ ماتت أُخته تحت أنقاض منزلها في ضواحي البلدة:

"لو أنَّ أحداً منهم (يقصد الفدائيين الفلسطينيين) هنا، فربما كان ذلك أسهل علينا، ولكن لماذا نحن "؟!

وأشار إلىٰ شرفة ملطَّخة بالدَّم في الناحية المقابلة وقال: "كانت تقِف هناك فتاة صغيرة وسقطَت قذيفة، ولم يتسنَّ لها أن تعرف ماذا حدَث".

لم نقُل شيئاً ونحن نستمع إلىٰ صيحات أطفال القرية الذين يحيطون بنا. أنزويت جانباً عن «ديفد هيرست» مراسل صحيفة "الغارديان" اللندنية، و«دوغ روبرتس» مراسل إذاعة "صوت أميركا" التي تتَّخذ من «أثينا» مقراً لها، و«جورج سمرجيان» مصوِّر وكالة "اليونايتدبرس"، وذهبتُ في نهاية مكان لقضاء الحاجة.

كانت هناك فترة هدوء أستمرت دقيقة، كانت الدبابات أثناءها تقترب أكثر فأكثر. القرويُّون الذين كانوا يصيحون، أنسحَبُوا إلىٰ وَسَطِ البلدة، فأنضمُّوا إلىٰ أبقارهم وحميرهم ومَعْزهم وقُطْعَانهم داخل البيوت الصغيرة المبنية من أسمنت، ويجلِّلُها قرميد.

بعدئذ، ومن بعيد، جاءَ هدير الطائرات. ولم يكن أمامنا خيار، فتسللنا إلىٰ خارج المدرسة، وأندفعنا إلىٰ الطريق لنلقي نظرة علىٰ ما يجري، وكان من حُسن حظِّنا أننا خرَجنا، فقد أكتشفنا في ما بعد، أنَّ قذيفة دبابة إسرائيلية أصابت القَبْوَ في الحائط القائم مباشرة بعد الغرفة التي كُنَّا نختبئ فيها. لقد رآنا الإسرائيليون ندخل المدرسة... "أثنا عشر إرهابيا دون بزَّات"، كما أخبرونا في ما بعد. ولا بدَّ أنهم رأونا ونحن نغادر أيضاً، أحدُ ضبَّاط الدبابات قال إنه كان متأكِّداً بأنه قضىٰ علىٰ ثلاثة إرهابيين بقذيفة واحدة!

ٱندفعنا من المدرسة إلىٰ حقل تبغ غير مزروع.

كنت أنا في أوَّل الصفِّ، فتسلَّقت حائطاً ونزلتُ في حقل ثانٍ. وما إن نزلتُ، حتىٰ سقَطَت في الوقت نفسه قذيفة "مورتر" علىٰ مسافة قصيرة منِّي. وٱهتزت الأرض. فٱنبطَحْتُ علىٰ وَجهي خائفاً.

أما «هيرست» و«روبرتس» فوَجَدا حديقة عارية صغيرة، محشورة بين جدارَيْن لبيتٍ مهجُور، ومَحميَّة جيِّداً من الجنبين الآخرين بحاجز قرميديٍّ ٱرتفاعه قدم واحدة.

فتسلَّقتُ الحائط من جديد، وٱجتمعنا معاً نحنُ الثلاثة، محشورين لمدَّة خمس ساعات من نيران البنادق الرشاشة ومدافع "المورتر".

وشقَّت الدبابات طريقها إلىٰ داخل البلدة، وعبَرَت إلىٰ مرتَفع محاذٍ لمكاننا. ثم أصابت القذائف المنزل الذي في محاذاة منزلنا، فٱنهار حائط.

وفوق رؤوسنا كانت طائرات "الفانتوم" تطلق أزيزها.

وكان في إمكان قنبلة واحدة قريبة أن تُنهينا جميعاً.

ولحُسن الحظِّ فإنَّ الطائرات ألقت بمُعظَم حمولتها عبر الوادي في مدينة «تبنين»، وكانت الأنفجارات تُسمَع كسحاب ضخم يمزِّق السماء.

همَس كلٌّ منَّا إلىٰ الآخر: إنَّنا سنموت بالتأكيد.

في منتصف الهجوم ٱنطلَقَت أصواتُ أسلحة صغيرة، ومرَّت القذائف فوق رؤوسنا بأزيزها ورنينها.

عند هبوط الظلام، عرفنا أنَّ علينا أن نتحرَّك.

فٱنحَدَرنا إلىٰ الطريق وأسنانُنا تصطَكُّ من الخوف والبرد. ومشينا ببُطْء، ورفعَ كلٌّ منَّا يديه وَراء رأسه كإشارة إلىٰ الأستسلام لأيَّة جهة في المنطَقة. وقُلنا بصوتٍ عالٍ باللغة الإنكليزية:

"نحن أميركيون. نحن صحافيون".

لا أحد ـ وربما لِحُسن الحظِّ في الظلام والدمار ـ كان قريباً ليسمع.

ٱتخذنا على مَهَل طريقاً لنا إلى داخل البلدة، وقرَعنا بعض الأبواب التي تبدو منها أضواء قناديل الكاز وهي تشعُّ من الداخل. ففتح لنا مزارع تَبْغ خائف، شاحب الوَجْه. وبدأت النساء تنتحب راجية ألَّا نُطلِقَ النار.

المزارع «محمد فاضل» أصغى، فيما «هيرست» كان يوضِّح حقيقة وَضْعِنا بعربية طَلِقة. فطمأَن «محمد» أقارِبَه، وأجلَسَنا في البيت المؤلف من غرفة وَاحدة، بين حمار وبقرة وعنزة.

كانت أصوات ٱنفجار القذائف التي تسقط من حين إلى آخر ما تزال تُسمع في الجوار، فسألت وأنا أرتجف: هل سيضربوننا مرَّة أُخرى؟

قال «محمد»: لا. ولكنه أضاف: الله وَحْدُه يعلم... إننا في أيديهم.

ثم حين رأى أنَّ ذلك لم يكن كافياً، ضمَّني إلى صدره وقال:

أرجوك لا تقلَق، إننا بخير، نحن معاً.

وقدَّم «محمد» لنا المأوى والطعام.

أثناء القصف، دخَلَ «محمد» وقال إنَّ القصف يجيء من جهة الخطوط الإسرائيلية، وأنه ليس متأكِّداً أين هم الإسرائيليون الآن؟ أو ما إذا كان المقاتلون (الفلسطينيون) قد عادُوا.

وطوال الليل كانت الطائرات الإسرائيلية تحوم فوقنا. والقصف المدفعيُّ يسقط قربنا. إحدى القذائف دمَّرَت منزلا على طرف البلدة. وأبلغنا الإسرائيليون الذين فعلوا ذلك في ما بعد، أنَّ السبب هو أنَّ ٱمرأة أخبرتهم أنَّ الإرهابيين ٱختبأوا هناك في الليلة الماضية.

وعند الفجر ٱستمعنا إلى نشرة أخبار "إذاعة لندن" الخاصَّة بالشرق، آملين أن تأتي على ذكرنا... ولم يكن هناك أيُّ ذِكْر.

ثم تحركنا إلى الخارج ونحن غير متأكِّدين ما إذا كُنَّا نسير بٱتجاه المواقع الفلسطينية على بعد أميال قليلة إلى الغرب، أم أننا ستتعرَّض للقتل قبل أن نتَّصل بالإسرائيليين؟

ولـٰكن تمَّ اتخاذ القرار بالنيابة عنَّا، فالإسرائيليون الذين كانوا يجلسون فوق دباباتهم ونصف مجنزراتهم كانوا يروننا بوُضُوح.

وهـٰكذا كرَّرنا مسيرة الاستسلام التي قُمْنا بها في الليلة الماضية، وخرجنا وأيدينا فوق رؤوسنا، عبر البلدة متَّجهين نحو المواقع الإسرائيلية.

لقد تحدَّث الإسرائيليون بلهجة الأقوياء المنتصرين.

الجنود كانوا شباناً وبعضهم وُلدَ في «أميركا».

أما صحيفة "الغارديان" البريطانية فقد نشرت رسالة «ديفد هرست» مراسلها الذي أسرته أو التَقَتْهُ القوات "الإسرائيلية" في قرية «حَدَّاثا» الجنوبية. وقد كتَب الرسالة من «قبرص» بعد الإفراج عنه:

"لقد ظننا أننا قتلناكم بالتأكيد"...

هـٰكذا قال لنا الضابط الإسرائيلي. وكُنَّا نعرف جيِّداً، طوال الوقت الذي استمرَّت فيه محنتنا، أننا كُنَّا محظوظين لبقائنا على قيد الحياة. ولـٰكننا قبل أن نقابِل "عدوَّنا"، لم نكتشف إلى أيِّ مدىً كُنَّا محظوظين. فأَنْ يُشتَبَهَ فينا خطأً أنَّنا من الفدائيين، في أكبر وأعنف حملة تخوضها «إسرائيل» ضدَّهم، وأنْ نبقى على قيد الحياة بعد هـٰذا الخطأ... هو إنجاز يرجع إلى العناية الإلهية أكثر مما يرجع إلى براعتنا في المراوغة.

ذلك ما حدَثَ لثلاثة من المراسلين: أنا، و«تيد تيمكو» مراسل "اليونايتدبرس"، و«دوغلاس روبرتسهان» من إذاعة "صوت أميركا". كُنَّا قد غادرنا «بيروت» في الخامسة صباحاً في زيارة للجبهة، حدَثَ هـٰذا في قرية «حَدَّاثا»، التي تبعد اثنا عشَر كيلومتراً إلى الشمال من الحدود.

و«حَدَّاثا» قرية مسلمة شيعيَّة، كانت في وقت من الأوقات تضمُّ ألفي مَسكَن، ومأساتها أنها تقع في الورطة التقليدية التي يقع فيها المحايدون في حروب الآخرين، ويشاركها في هـٰذه المأساة عشَراتٌ من البلدات والقرى التي تقع على التلال المكشوفة من جنوب «لبنان».

عندما دخلنا القرية ظهراً كانت تبدو أرضاً مهجورة مخيفة. وكان طابور إسرائيليٌّ مدرَّع قد دخل القرية من اليوم السابق، وٱنسحب منها في الصباح. وظننا في بداية الأمر أن «حَدَّاتا» خالية من سكانها أيضاً. ولٰكن شخصاً وَحِيداً ٱقترب منَّا، ثم لحق به آخر، من رجال يلفُّهم الحزن مثله، ونساء باكيات وأطفال جزعين، وسحبونا من أيدينا لنجولَ في أرجاء القرية، وأصرُّوا علىٰ أن نرىٰ كلَّ الأدلَّة علىٰ سوء طالِعِهم.

أصرَّ مرشدونا قبل أن نغادر القرية علىٰ أن نتفقَّد حطامَ الشيء الذي كان مفخَرَة القرية: مدرستها الجديدة.

وكانت قد بُنيت وكلَّفتهم ما يعادل مئة ألف جنيه ٱسترليني، وأصرَّ بعضهم عند بنائها ـ وكان بعيد النَّظَر ـ علىٰ بناء طابق تحت الأرض ليكون ملجأ، قالوا تعالوا لِتَروا، وكُنَّا في طريقنا إلىٰ الأسفل، كأننا ننحَدِر نحْوَ قارِب نجاتنا، إذ ٱنفجرت حينها أُولىٰ قذائف الدبابات.

جاءنا نحو عشرون منها (من القذائف)، وتصدَّع المبنىٰ كلُّه علىٰ نحو مثير للغثيان، ركضنا، ورافقونا إلىٰ أعمق جزء تحت الأرض ـ القبو. وفي الغرفة المجاورة كانت ٱمرأة تحتضن طفلها المذعور، وهي تتمتم بالصلوات لله و(التوسُّل بـ) «الحسن» و«الحسين».

وبدا القرويُّون يتحدَّثون عن غارة جويَّة مُرتَقَبَة، تفرَّقوا هُم إلىٰ منازلهم وبقينا نحن، وبمجرَّد أن غادَرُوا ٱستؤنفَت نيران الدبابات.

ثم بعد صمت طويل، زحفنا إلىٰ الخارج علىٰ أمل ٱكتشاف ما يجري. وعندما شوهدنا وتعرضنا لنيران كثيفة من مدافع الهاون، لجأنا إلىٰ جدار من الباطون بدا لنا ـ وقد مدَّت العناية الإلهية يدَها مرَّة أُخرىٰ ـ أنه يمكن أن يحتمل أيَّ شيء الّا إصابة مباشرة أو قريبة جداً.

ظلَّت قذائف الهاون تأتي علىٰ فترات، وأخذت الطائرات تئزُّ بٱستمرار فوق رؤوسنا.

إلّا أنَّ الغارات الجويَّة التي كُنَّا نخشاها، كانت تقصد «تبنين» (القريبة) التي تقع مباشرة عبر الوادي بٱتجاه الشمال، ومع ذلك فإنه ما إن ٱنتهىٰ خوفنا من ضَرْبٍ وَاحد من ضُرُوب الموت، حتىٰ حلَّ محلَّه وجاء غيرُه. فجأة ٱنطلقت نيران الأسلحة الخفيفة في جميع الأتجاهات، وكان صَوْت المدافع الرشاشة وطلَقَاتُ نيرانهم علىٰ أيِّ شيء، وكلِّ شيء جامد أو يتحرك. وإذا صحَّ أنَّ الفلسطينيين قد عادوا وتوغَّلوا بشكل ما ودخلوا إلىٰ القرية، فإننا سنقع - قبل مضي وَقتٍ طويل - في الورطة الأشدِّ حينما يتمكَّن جانب أو آخر من ٱتخاذ مواقعه في المنزل الذي لجأنا خَلْفَه... ولٰكن كلُّ شيء تلاشىٰ بشكل غامض تماماً كما بدأ.

مع حلول الليل قرَّرنا أنَّ أفضل سبيل هو أن نستشير (الأهالي) القرويين الذين كُنَّا نعرف أنهم بالتأكيد يعانُون من نفس الحالة والأنفعالات التي نعاني منها ونعيشها نحن.

طَرَقنا باب أحد المنازل عندما رأينا بريق ضَوْء خافِت من مِصباح زيتيٍّ ظَهَر من نوافذه المظلمة، وقال أحَدُ مرافقينا مُحذِّراً وناصِحاً بتجنُّب هٰذا المكان: إنَّ الإسرائيليين يمكن أن يُطلِقُوا نيرانهم علىٰ أيِّ ضَوْء، وإن كانَ صادراً عن عُود ثقاب.

ٱستُقبِلنا ربَّما بأحَرِّ ترحيب في حياتنا، ذلك النوع من الترحيب الذي يستطيع الفقراء وَحْدُهم أن يُعْطُوه. وكان أحرُّ ما فيه، أننا كنَّا غرباء، جئنا نشاركهم محنتهم ولو لليلة واحدة.

وفي المكان شبه المظلم تجمَّعنا في الغرفة، الأبقار والمعز من ناحية، والبشر راقدون علىٰ الناحية الأُخرىٰ، وكان رجل مُسنٌّ أُصيب خلال إطلاق نيران القنْص بعد الظهر، يَرقد صامتاً في أحَدِ الأركان، وكانت الأُسرة قد غامَرَت بالخروج ذلك الصباح لِتَحْفِرَ قَبْراً سطحِيّاً لأبنه البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، الذي قُتل في قصف اليوم السابق.

ٱمرأة عجوز قالت: "إنكم أبناؤنا، أعزاء علينا كعيوننا، إذا مُتنا نموت معاً". قالتها وعانقَتنا.

وقدَّموا ما كان لديهم من طعام في طبقين كبيرين. ثم أصطحَبَنَا «محمد فاضل» إلىٰ منزله حيث حاولنا أن ننام. وكانت الطائرات والقذائف العارِضة تمرُّ فوق رؤوسنا وَسَطَ "بالات" (رُزَم المحاصيل وحزماتها) من محصول التَبْغ الذي لم يَبِعْهُ بعد.

عند الفجر سمعنا هدير محركات تقترب، وعندما ٱنجلىٰ الضوء تكشَّف عن طابور من الدبابات وحامِلات الجنود المدرَّعة، خِلْتُ أنها متَّصِلَة ممتدَّة إلىٰ «تل أبيب»! كان الجنود الإسرائيليون يقِفُون هناك، وكان يبدو عليهم الأرتياح بشكْل وَاضِح. والشيء الذي قالَه لنا القرويُّون وحذَّرونا أنه يمكن أن يكون عمليَّة محفوفة بالخطر، وهو أن نعرِّفَ أنفسنا للجنود الإسرائيليين، ثبت أنه كان شيئاً يسيراً للغاية.

عندئذ فقط علمنا إلىٰ أيِّ حدٍّ كُنَّا محظوظين.

الرائد «عوزي دايان» وهو ضابط في قوات المظلِّيين، ومن أقرباء وزير الخارجية، عندما سمع حكايتنا أجاب:

لا أُحِبُّ أن أقول لكم هٰذا، ولٰكن كنتُ أنا الذي أصدَرْت الأمر بقصف المدرسة! وأشار إلىٰ دبابة من طراز "سنتوريون" وقال:

هٰذه الدبابة هي التي قصفت من مسافة ١٢٠٠ متر.

ضابط آخر ذو تعليم بريطاني، أخبرنا ببعض التفاصيل:

كُنَّا وَاثقين أننا قتلناكم بضربتين في وقت وَاحد علىٰ الطابقين الأعلىٰ والأسفل، كنا متأكِّدين من مصرعكم، حتىٰ أننا لم نكلِّف أنفسنا عَناء المجيء لإخراج "جثثكم"، لا أحبُّ أن أقول هٰذا، لٰكننا ٱفترضنا أنكم مجرَّد ثلاثة آخرين من الإرهابيين.

❁ ❁ ❁

علَمَّت هذه الأحداث وأضرابها «عطا»، وأثبتت له أن الإسرائيليين، على خِسَّتهم ودنائتهم، وعلى الرغم من جُبْنِهم ووَهَلِهم، وكلّ الذِلَّة والصَغَار المعروف على مدى التاريخ والمترسِّخ في ذهنه عنهم... ليسوا مستضعفين يحكون الشتات، ولا مغلوبين على أمرهم يسعون أن يفيقوا من تَيْهاء ضَرَبتهُم آلاف السنين. بل هم طغاةٌ مستكبرون، متعجرِفون متغطرِسُون، يمتطون ظَهْرَ التيه، ويعتَلون بدباباتهم ويتقدَّمون ليبطشوا جبَّارين، وقد اتَّخَذوها قِلاعاً وبروجاً يتحصَّنُون بها، إذ ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾، ويحلِّقون مع طائراتهم من شاهق، كِبْراً واختيالاً.

وأنَّ عداءهم ليس مع الفلسطينيين فحَسْب، حتى إذا توقَّفوا عن "عملياتهم التخريبية"، وخرَجُوا ورَحَلُوا عن جوار "أرض ميعادهم"، كفُّوا عنَّا نحن وتركونا في حالنا...

بل هم مطبوعون بالعُسْر والشَّكَس، مجبُولون على الخسَّة والدناءة، ويعيشون الحقد والكراهية، وفي عميق مشاعرهم، وغَوْر أهدافهم وطموحهم، يطلبون ثارات «خيبر» و"حقوقهم" في «يثرب» و«العوالي» و«فدك»، يريدونها مِنَّا نحن، شيعة «علي»، وأتباع «محمد» ﷺ الحقيقيين! هكذا ارتسمت أمام «عطا» وتجسَّمَت الآية الكريمة ونطَقَت: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

في الثاني من أيلول ١٩٨٢ خرَجَت في قرى «عين قانا» و«جباع» و«أنصار»، تظاهرات شعبية محدُودة تندِّد وتعترض على الاجتياح الإسرائيلي، وكانت بالتحديد ضدَّ ممارسات "الحرس الوطني" (الذي تحوَّل لاحِقاً إلى "جيش لبنان الجنوبي") في قُراهم...

كان «عطا» يرصُدُ هذه الأحداث ويتابعها ويُلاحقها، ويتفقّد من مَوْقعه الحزبي أحوال الناس في محنتهم، ويعينهم على مصائبهم، ولربَّما شاركهم تظاهراتهم إذا سنحَت له الفرصة، ووَافق وُقوعها جَوْلاته.

كان يوزِّع على الصامدين في قُراهم، كما على الفارِّين النازحين، بعض المال الذي يمكِّنهم من تأمين حاجاتهم الأساسية، ويبلغهم أنها هِبات وعطايا «إيران الثورة»!...

ومع أنَّ تلك الأموال كانت تأتيه من قيادات ميدانية في "حرس الثورة" يُكلَّف بتوزيعها على الأهالي في «الجنوب»، إلّا أنه أخذ يتصرَّف بـ "الفحوى"، كما كان يعبِّر، وصارَ يقول للناس إنَّها إعانات وصِلَات من شخص «الإمام الخميني»، ولم يكن يجد في نفسه تفسيراً لهذا التصرُّف إلّا الحذَر والخشية التي ما انفكَّت تُلازِمه، من خطَر الانحراف وتهديدات عواقب الأداء السياسي الغريب الذي كان يرصده من "الحرس" بين الفينة والأُخرى...

ويبرِّر لنفسه ويقول: "لماذا أروِّج لتنظيم عسكَريٍّ لا أعرف مآله، دعني أُرجِع الأمر وأعود به إلى أصله، الأموال للدولة الإسلامية، و«الإمام الخميني» على رأسها، فما المانع من أن أنسِبَ العطاء له، وأحصد الدعاية والدعاء لفقيه عادل مأمون الجانب"؟!

كان بالأساس مَعنِيّاً ومُكَلَّفاً بتجنيد الشباب، والعمل على ربطهم بـ "الحرس الثوري" الذي كانت طلائعه قد استقرَّت في «البقاع»، وهناك يلتحقون بمعسكر «جنتا» أو يُنقَلُون إلى «الزبداني»، على الجانب الآخر، يتلقَّون التدريب العسكري ومهارات المقاومة.

وفي طريق عَوْدته من مُهمَّة لم يكن يدري، هل تُفسِدُها مثل هذه التظاهرات وهي "تفضح" حِسَّ المقاومة المتنامي وتكشفه للعدو، أم تعينُها وهي تخلق لها الأرضيَّة وتؤمِّن الحاضِنَة؟...

كانَ في الطريق، ينحدِر من الجبلِ بأتجاه «كفر رمان» عندما فوجئ برتل من المدرَّعات الإسرائيلية، تتخلَّله عربات تحمل المؤن والذخائر، وفي طليعته سيارة "جيب" مكشوف، فيها جندي وضابط بالإضافة إلىٰ السائق. وكانوا قد نشَروا علىٰ عرباتهم وجلَّلوا آليَّاتهم بقِطَع كبيرة من رايات أو أردية برتقالية اللون، لامعة فاقعة، ولعلَّها فسفوريَّة، تميِّزهم للناظر من شاهق وأرتفاع عن الأهداف الأُخرىٰ المتحركة علىٰ الأرض، ما ينذر بقُرب غارة جَوِّيه، أو يشير إلىٰ أنَّ المنطقة في نِطاق وَاحدة.

صرَخُوا فيه وصَاحُوا، وأطلَقُوا رشَقَات من بنادقهم الرشَّاشة في الفضَاء، وبعضها حَوْله وقريباً منه علىٰ الأرض... لم يكن ينوي الفِرار، لٰكنهم كانوا مضطربين، في هلَعٍ من الأخبار التي كانت تتناقل بداية عمليات المقاومة.

فقَدَ «عطا» سيطرته علىٰ دراجته وسقَطَ لِوَجْهِه...

أستقبل الأرض بيديه، فخلَّف المَدَرُ في ساعديه وراحتيه، وهٰكذا في ركبتيه سحَجَات قشَّرت وسلَخَت جِلْدَه فتفسَّخ، وكانت الجروح تنزف، أو كانت تَنْتَع نتوعاً دون نَزْف... وهو ضرب من الإصابات والجروح كان «عطا» يحْذَر منه أيما حذَر! فقد كان يخلق له مشكلة كبيرة في تطهير أعضائه والوضوء، إذا لم يبادر بغَسْل الجرح وتطهيره فوراً، قبل أن يرقأ الدم عليه ويتجلَّط، فينقىٰ، فتكون الجُلْبَة والطبقة المتيبِّسة عليه بعد حين ليست دماً نجِساً، بل شيئاً من التقرُّحات وإفرازات الجروح وهي تتماثل للبرء وتندمل.

أقاموه وَاقفاً بين يدي الضابط، وكان لا يقوىٰ علىٰ ذلك بنفسه، وقد تهلهلَت ثيابه وتمزَّقتها السقطة، وعَلَاهُ الغبار، الذي ما كان يمكنه أن يمسَحه عن وَجهِه، للدم الذي يلطِّخ راحتيه، ثم للأصفاد التي كبَّلُوه وأوثقُوه بها بعد حين.

شرَعُوا في ٱستجوابه والتحقيق معه فوراً، ٱستوقفتهم الدراجة النارية في بداية الأمر، وأكثروا السؤال حولها:

هٰذه دراجة عسكريَّة، ماذا تصنع بها، ولماذا تقتنيها؟

وزادَ من ريبتهم أنه أنكَر عمله في تهريب البضائع، وأصرَّ علىٰ أنها وَسيلته الطبيعية في التنقل، وما كان الوَضْعُ يسمح ببيان هوايته في الصيد والخروج إلىٰ البراري، ولا في الخوض بهٰذه التفاصيل، فقد كان يأمل أن تُطوىٰ الصفحة سريعاً، بما أنهم لم يجدوا معه سلاحاً، فيُخلي سبيله.

ثم راحوا في تفتيشه، وبعد البدَني، أخذوا يبحثون في جعبته، والجرابيْن الذيْن يجللان العجلة الخلفية للدراجة...

وَجَدُوا كتباً وأوراقاً، فيها منشوراً ينـدِّد بالاَحتلال، وكُرَّاسات تتعلَّق بالدورات العسكريَّة التي يُعِدُّ لها، كان يأمل أن ينجو منهم، ويُراهن علىٰ جهلهم باللغة، وكان الأمر كذلك، لا سيِّما أن "المرشد العربي" الذي كان يرافقهم (وكأنه كان من دروز «الجولان» المحتل)، ويبدو أنه كان مجرَّد مترجم، لم يكن مُجيداً ومُتْقِناً عمله، ولا ضليعاً بالشؤون الأمنية ولا العسكرية... صرَفَ "المرشد" تركيزه إلىٰ الكتب، فوَجَدَها دينية ومتعمِّقة في الفلسفة، كما قال للضابط الإسرائيلي، ولا شأن لها بالسياسة أو خطر يتوجَّه منها إلىٰ «إسرائيل».

ولَوْلا صورة أو رَسْمٌ توضيحي في وَاحدة من كُرَّاساته، يُبيِّن كيفيَّة عمل الألغام الأرضيَّة وتركيبها، وطريقة زَرْعها، لَمَرَّ الحادث بسلام، ولأُطلِق «عطا» وتُرِك لسبيله، ولم يتحمَّل شيئاً ولا دفع ثمناً إلَّا تلك السَحَجَات المدماة. لٰكن الصورة التوضيحية قلَبَت الأجواء، وغيَّرت الموقف، وكانت كفيلة بشَدِّ يدَي «عطا» وتعصِيب عينيه، والاَتصال بعناصر مُخْتَصَّة تتسلَّمه من الدوريَّة وتنقله إلىٰ المعتقل....

* * *

وَصَل «عطا» إلىٰ "معتقل أنصار"...

الذي ما لبِثَ الإسرائيليُّون أن أقاموه بُعَيد حربهم وآجتياحهم الجنوب اللبناني، الذي بدأ في الصيف، في الرابع من حزيران سنة ١٩٨٢، طوّقوا أرضاً فضاء كبيرة بالأسلاك الشائكة، نصبوا فيها السُرادِقَات والخيام، ورسموها معتقلاً "مؤقتاً" في بلدة «أنصار» الجنوبية، يكون بمثابة سجن كبير، يستقبل كلَّ رافضٍ ومُعارِض للآحتلال، بل كلَّ مُشتبه فيه، ومَن يُحتَمَل أن يكون يوماً مقاوِماً.

زُجَّ بـ «عطا» في السجن، وبقي ما يناهر الأُسبوعين...

لم يتجاوَب فيها مع المحققين، كان يمتنع عن الردَّ عليهم في بداية الأمر، ثم صارَ يناقشهم ويحاوِرهم في القضايا الفكرية والعقائدية، ويحدِّثهم عن غيبيات وينبئهم - جازماً - بمصير أسود ينتظرهم!

كان يتجاوَز أسئلتهم المباشرة عن أنشطته ووَضعِه الأمني، وحقيقة دَوْره، وسرِّ الأوراق والكراسات التي ضبطوها معه، ويقفز بالتحقيق إلىٰ المواضيع التي يريد...

فإذا وَاجهه المحقِّق بصَفعة، أو قابَل تهرُّبه بضربة علىٰ رأسه أو ركلة أو رفسة، التزم الصمت وآمتنع عن الكلام! ودَخَلَ في إضراب لا يثنيه عنه ضَرْبٌ من ضروب التعذيب ولا شيء من صنوف الإكراه وأشكال التنكيل والإرغام، حتىٰ يعمدوا إلىٰ إقناعه بالحُسنى، ويعودوا إلىٰ آحترامه والتزام الأدب في التعامل معه، كان يعاوِد الحديث، ولٰكن الذي يريد هو، لا الذي يريدون!

عجزوا عن تصنيفه وتحديد وَضعِه، فيفرِزُوه في الأكثر أو الأقل خطَراً، أو في المعتقلين "وِقائياً"! فلا هو ممن أُلقيَ القبض عليه في عملية عسكرية أو ضُبِطَت معه متفجِّرات وأسلحة، ولا ممن خرج في تظاهرة. كما أنه ليس بهٰذا القروي الساذج البسيط الذي قد يكون مغرَّراً به ومخدوعاً.

ٱزدادت حيرتهم في أمره وريبتهم من حاله، حتىٰ صادَف التحقيق معه يوماً مرور ضابط كبير في "الشين بيت"، حضر جانباً من التحقيق، وسمع كلام «عطا»، وقرأ ملَّفه وإضبارته بدِقَّة لم تَنَل منها عجلتُه... فأمر بنقلِه فوراً إلىٰ مركز يتبع جهازه داخل «فلسطين».

نُقِلَ «عطا» إلىٰ ما ظنَّ في البداية «نهاريا»، أو هو مركزٌ في «يافا»... لم يتبيَّن، إذ شُدَّت عيناه خلال نقلِه بعِصابة، وإنما خمَّن ذلك بتقدير المسافة والفترة الزمنية التي قطَعَها للوصُول هناك، لـٰكنه كان في «عسقلان».

هناك، في أي المدن والمواقع الإسرائيلية كان مركز المخابرات العسكرية أو "الشين بيت"، تعرَّف «عطا» علىٰ نوع جديد من العذاب، دَخَلَ من بوابته وعَبْرَ آلامه، وٱنتقل إلىٰ مرحلة جديدة من حياته...

والحق أنَّ هـٰذا العذاب لم يكن جديداً في نوعه، بل إن درجته وحِدَّته هي التي جعلَت منه شيئاً آخر، و"نوعاً" جديداً لم يعرفه «عطا» من قبل! كمفهوم مُشكِّك يأبىٰ مَن عاشَه وتذوَّقه أن يتجاهل الفارق والبَوْن، ويحكم علىٰ أقلِّ درَجَاته وأدناها بأنه مُدْرَج في مفهوم وعنوان وَاحد مع أشدِّها وأبرزها.

لم يكن «عطا» يفرض في حالته ووَضعه غير المواجهة... لا لأنه يحمل أسراراً ويُخفي ما يجب كتمانه ولا يجوز كشفه للعدو، فلا بدَّ له من المقاومة والصراع، ولا بدَّ أن ينتصر حتىٰ لا يُلحِق الأذى بمؤمن طلِيق، أو الإضرار بعمل عظيم يعدُّ له المجاهدون. بل لمجرَّد فرضٍ ٱنطلَق منه وتعاطىٰ معه كمسلَّمة غير قابلة للجدال والٱحتمال، ذلك علىٰ الرغم مما كان يشهد هنا من خَوَر بعضهم وضعفه، ما ـ يقتضي ـ أن يخرجه من الحالة التلقائية التي ٱفترضها لنفسه... هـٰذا ينهار وذاك يستسلم، وآخر يبادر ويتطوَّع، وهنا من يتبرَّأ ويقسم بأغلظ الأيمان ـ صادِقاً ـ أن لا شأن له بالمقاومة، بل هو ناصر ومؤيد للاَحتلال!

أم تراها المعارضة المستحكمة في رُوحِه والعِناد المتأصِّل في طَبْعه، وَظَّفَه الساعة وجعَلَه لقضيَّة مُقدَّسة، مَزَجه بالإباء والأنفة، وخَلَطَه بعزَّة الإيمان وحرمة الذلَّة والهوان، وصَاغَ منه هٰذا الموقف التلقائي، وأسَّسَ لهٰذا الفرض والمنطَلَق العجيب؟

كان يمكنه التعتُّه والتجنُّن على طريقة «بهلول»! وكان في وُسعِه بذل يسير من المعلومات وعَرْضها بما لا يضرُّ أحداً ولا ينال من جِهاد، ما يجنِّبه هٰذه الويلات وينجيه منها معافاً في نفسِه ودينه... لٰكنه لم يفعل!

لم يكن يتصوَّر الأمر هنا إلّا حرباً لا هَوَادة فيها... غاية ما هناك أنها حرب مختلفة، فأنت تُواجِه عدوَّك مُجرَّداً من السلاح، أسيراً صِفْرَ اليدين من أية وسيلة وحِيلة، وهو مدَجَّجٌ شاكٌ من رأسه حتى قدميه!

وَحْدها الإرادة... هي ما تملك هنا.

وهي ميدان القتال وساحة الوَغى في هٰذا المعتقل.

ليس الأمر في التعذيب هنا ضرباً من السادية، اللهم إلَّا في حالات خاصة وأوضاع شاذة لا يُحكَم ولا يُعَوَّل عليها، أما في العموم، فهم يعذبون لينتزعوا شيئاً: معلومات تفيدهم وتخدمهم. فإن فرغوا من هٰذا وأنجزوه، أو تأكَّدوا من خلوِّك مما يكترثون له، عمدوا فنظروا في رُوحِيتك، فإن وَجَدوا شيئاً يضرُّهم، راحُوا في معالجته وانتزاعه، ولا شيء يزعجهم ويقهرهم كالإرادة... لا يطيقون رُوحاً حُرَّة ونفساً أبِيَّة.

إنَّ العدو هنا يحاول بوُضوح أن يفلَّ عزمك ويُسقط خيارك، ويفتَّ إرادتك ويسحقها، وهو يقول ذلك صراحة ويفعله ويمارسه علَانية، لا يخفيه ولا ينكره، ويراه ضرورة قصوى وأساساً استراتيجياً في مواجهته لكلِّ من يعادونه، ويمكن أن يشكِّلوا له تهديداً يوماً ما، في مَوقع ما... إنهم يريدون أعداءً مسلوبي الإرادة، مقهورين مهزومين، في داخلهم قبل أن تقهرهم قوَّة «إسرائيل» وآلتها العسكرية الجبارة.

لا يريدون أحراراً، في فِكرِهم ورُوحِيَّاتهم، يريدون تابعين خاضِعين، ولا يشترطون أن تكون التبعيَّـة والخضوع لهم، يكفيهم أن تُهزَم في رُوحِك وتيأس من مُواجَهَتِهم وتذعِن أنهم لا يُقهَرون، ثم لك أن تخضع لمن شئت من الأنظمة الحاكمة في بلادنا.

وهم لا يفرِّقون بين أشكال التمرُّد وأنماط الحركة الحرَّة، وينظرون إلى كلِّ ما يترجم "الإرادة" ويعكسها خطَراً يتهدَّدهم، ويَرَوْن الأحرار سواء، وما يذْهَمُ منهم وَاحد، بل يتوجَّسون من التعدُّد والتنوُّع، سواء لديهم المفكِّر والمقاتل، الكيميائي والفلَكي، رجل الدين والطبيب، المعلِّم والمهندس... فهم يدركون أنَّ الإرادة الحرَّة هي إكسير ومفتاح النصر، وهي التي تحقِّق التفوُّق عليهم، فهي باب التطوُّر العلمي والتِقَني والمدَني والحضاري والسياسي والاقتصادي، وكل أسباب هزيمتهم العسكرية فيما بعد! فهو الذي سينقل الصراع إلى جبهاته الحقيقية ويصرفه عن الميادين الوهمية التي أشلَّت الأُمة وسحقتها عهوداً متمادية، وهي كلمة السرِّ التي تفتح الباب في المآل على هَلاكهم ودمَارِهم.

والإسرائيليون لا يوفِّرون في هذا الخطير ضرْباً وشكْلاً من أساليب التعذيب والقهر النفسي والجسدي، إلَّا عَمَدوا إليه ومَارَسوه.

سينتزعون عنك إرادتك، بعد أن تكون قد أفرَغْتَ ما لدَيْك من معلومات، يسحَقُونها بعد أن يسحَقُوا عِظَامَك، سيعرُّونك من قِوَام رُوحِك وجَوْهر شخصيتك، بعد أن يجرِّدونك من ثيابك ويسلِّطون أنواع الشدائد والتلاتل، يصبونها على بدَنِك.

حتى يَخْتُو الرجل... ينكسر ويتخشَّع!

يستتر في نفسه ويكُفَّ من حَياء، أو خوف وفَرَق، أو من أي علَّة وسبب، المراد أن يذلَّ ويخنَع، ويعيش الصَّغَار، ويلمس "قاهرية" هذه "الدولة" ويعتقد "استحالة" مبارزتها ومناجزتها.

يبدأ الأمر بالضرب المبرِّح بالهراوات، لا يوفِّر مَوْضِعاً من الجسم، حتىٰ الرأس والأعضاء الحسَّاسة، وكثيراً ما كانت هٰذه العِصيُّ الغليظة تتصدَّع وتتكسَّر وهي تهوي علىٰ ظَهْر أو ذِراع أو سَاق أحدِهم... وعلىٰ مَوْضِع الألم يعُودون بهراوة أُخرىٰ من البلاستيك الصلب، والمصاب يتلوَّىٰ، فإن طَفَرَ ليَفِرَّ من عَصاً رآها ارتفعت لِتَهوِي عليه من جهة، جاءته أُخرىٰ من جِلوَاز آخَرَ في الجانب الذي فرَّ إليه!

فإذا أخذَ الضربُ منه وَطَرَه، وشَفَى الجلَّاد غلِيلَه، عرَضُوه علىٰ الصَّعْق الكهربائي... يتحرَّوْن أرقَّ مَواضِع الجسم وأملَس الجِلْد، ولربما قَصَدُوا القرُوحَ والجرُوح، فعلَّقوا وغرَسُوا مَلاقِطَهم، ووَصَّلُوا أشرِطَتهم وأسلاكهم، ولَسَعُوه بدَرَجات وشحنات متصاعِدة من التيار.

وهناك، غير هٰذا وذاك... الصَّلْبُ لِسَاعات طَويلة تحت الشمس، علىٰ عمود منصُوب أو مُركَز في قاعدة من قرصٍ حدِيديٍّ دوَّار، تحته عجلة كهربائية أُفقية، تدُور مَدَار الشمس، تلحق حركتها بالدقيقة، ليبقىٰ المصلوب مُستَقبِلاً قُرْصَها علىٰ مَدَار الساعة!

هٰذا في الساحة والفناء الخارجي للمركز، أما ما ينتظر المعتقل في غُرف التعذيب المغلقة، فضرُوب أُخرىٰ أشنع وأفظع، منها إدخال أدوات حادَّة في الأعضاء التناسلية، ونزع الأظافر وقلْعها، وكأن الحياة والروح تخرج معها وتزهق...

فضلاً عن التجويع والتعطيش، إلىٰ حدِّ السُّعَار والضَّوْر، فيكاد المرء يهْمُد ويَهْلك من الجوع، أو يلْهَب حتىٰ يندلع لِسانه ويأخذه الأوام، وتصطَلِي ضلُوعه، من الغُلَّة والظَمَأ والأوار. فإذا أشرف الضحية علىٰ الموت والهلاك وقرُب من إغماءة لا تُرجىٰ بعدها إفاقة، قدَّموا له الماء الآسن، والطعام المتعفِّن القذِر، وقد دَادَ وسوَّس، تلعب عليه الحشرات وتستبق اللقمة إذا رفعها إلىٰ فمه!

أما «عطا»، فقد أدركوا أنَّ كلَّ هـٰذا لن يجدي معه نفعاً...

ذلك بعد أن أوْدَعوه حين وُصوله إلىٰ المركز: "الصندوق"، قبل أية خطوة، حتىٰ قبل العزل في الزنزانة الأنفرادية...

و "الصُندوق"، صُندوق حديدي بحَجْم قامَة الرجل، لـٰكنـه قابل للتكييف والتعديل وتغيير أبعَادِه طُولاً وعَرْضاً وعُمقاً، فإذا أدخَلوا فيه الضحيَّة ضُبِطَ حَجْمُه عليه، ثـم عمَدُوا لتضييقه شيئاً، وتقصيره قليلاً، حتىٰ لا يستوي فيه قائماً، فلا هو يستطيع الجلوس لِضِيقه ولضَبْط عُمقه علىٰ حجم بدَنه، ولا هـو يتمكَّن من الوقوف مُستَوِياً، فيفَرْد طُوله... هـٰكذا يضطر للأنحناء، والوقوف محدودباً، أو ثانِياً ركبتيه شيئاً.

ثم يُترك ليبقىٰ علىٰ هـٰذه الحال.

يُقال إنَّ أربَطَ الناس جَأْشاً، وأشـدَّهم مِرَاساً وبَأْساً، لا يُطيق أن يتجاوز الساعاتين، حتىٰ ينهَار ويبدأ بالصراخ والعـويل، وفي الساعة الثالثة يقوم بالتوسُّل والأسترحام، ثم يأخذ في عَرْضِ الإجابة إلىٰ ما يريدون وتحقيق ما يَرمُون.

تجاوَزَ «عطا» الساعات الخمس في "الصُندوق" دون أي خبر!

كانوا يراقبونه، ويعلمُون أنه ما يزال علىٰ قيد الحياة، يتنفَّس، بل يتكلَّم، يَنْبُس ويحرك شفتيه بشيء، أو يَرْطُن، كما إنَّ علامات الحِسِّ والإفاقة فيه تامة كاملة، لم يُغْمَ عليه ولا غابَ عن وَعيِه!

لا ضجَّ ولا أشتكىٰ، ولا أنهار ولا أنقعَر...

فتَحُوا الصُندوق ليُخرِجُوه، وينظروا في حاله وأمْرِه... كان مُرهَقاً أشدَّ الإرهاق، حتىٰ لم يقْوَ علىٰ الوقـوف، فأسندُوه وساقُوه إلىٰ زنزانته، كان يرْعَسُ في مَشْيه من إعـياء، ويجرَّ خطواته جرّاً، كما كان يغالِبُ ضَعْفَه وعجْزه، ويجاهد أن ينهض بنفسه فلا يستطيع، حتىٰ سقَطَ في منتصف الطريق وأفتَرش الأرض مُغمىً عليه، فحملوه حملاً.

لٰكنه ما أنَّ ولا تأوَّه، لا أشتكىٰ ولا توسَّل...

بقي صامداً، قَوِياً، شامخاً، وخرج منتصراً.

لم ينل الإرهاق والعناء والضعف منه، فبدا راضياً مسروراً، سرور الصائم عند الإفطار، ينسىٰ جوعه وعَطَشَه، والناجي من الغَرَق يهون عليه جهده وتَعَبه، والعائد من السفر، يغلب أُنسُ لقائه الأهل والولد ما تجشَّم في المسرىٰ من وَعْثاءَ الطريق.

لم يكن يتعمَّد تحدِّيهم أو احتقارهم وإشعارهم بذلَّتهم وهَوانهم عنده، فهو لا يريد استفزازهم، وإنما كان هٰذا يفيض منه ويظهر بوُضُوح، دون أن يقصد ويريد. كان في روحِيَّته ومعنوياته في القمَّة، متماسكاً رابِطَ الجأش، يرتسم الاعتداد والزَّهْو علىٰ قسَماته ويطبع وَجْهَه...

ولا ينقضي العجب ولا ينتهي من حالِ «عطا» وما كان يظهر منه، إلَّا إذا نظرتَ في حال سجَّانيه، والمحققين الذين يتولَّون أمره!

ينقلبون إذا وَصلوا إليه، ويتغيَّرون إذا وَاجهوه...

فلا عُنف وقَسْوة وشِدَّة، كما مع غيره، بل ولا غِلْظَة وفَظاظَة وحِدَّة! ولا يعني أنهم كانوا يُظهِرُون لِيناً ورَحمة أو عَطْفاً وشفَقَة، كلَّا، لٰكنهم تركُوه لحاله سريعاً، لم يتحدَّوا صمُودَه، ولم يغالِبوا صَلَابته، ولم يُصِرُّوا علىٰ انهياره، كما يفعلون مع غيره.

بل حتىٰ في طريقة تعاطيهم معه، سواء في غُرَف الاستجواب والتحقيق، أو في زنزانته، أو في ساحات المعتقل... كأنهم ملتزمون معه بحدود ومقيَّدُون بِنطاق لا يَسَعْهُم تجاوزه! كانوا يتجنَّبونه، وكأنَّ كلَّ وَاحِد من الضباط وآمري السجن يتجاهله ويتحاشاه وينأىٰ بنفسه عنه، ويحيل أمره علىٰ الآخر، وينتظر من غيره مواجهته وحَسْمه، لا يريد أن "يُبتلى" هوَ أو "يتورَّط" معه!

كأن هٰذا الرجل يسيطر عليهم ويُهيمن علىٰ محيطه!

كـان «عـطـا» يـتلـو الأذكـار والأوْراد، ويـواظِـب علىٰ الأدعيـة والتوسُّلات، وهو يـحفظ كـثيراً منها، ومنـها "السيفيُّ الصغير" المعروف بـ "دعـاء القاموس"... انشغل بـه وهـو في "الصُندوق"، فتَلَاه وكرَّره أربعين مرَّة، وقدَّم له وألحَقَ وعقَّب بغَيْرِه من الأدعية والآيات والأوْراد، وما زالَ يكرِّره بين فينة وأُخرىٰ:

بسم الله الرحمن الرحيم، ربِّ أدخِلني في لُجَّة بَحْرِ أحدِيَّتِك، وطَمْطَام يَمِّ وَحْدَانيَّتِك، وقَوِّني بقوَّة سَطْوَة سُلطَانِ فَرْدَانيَّتِك، حتىٰ أخرُجَ إلىٰ فضَاءِ سِعَةِ رحمتِكَ، وفي وَجْهِي لَمَعَاتُ بَرْقِ القُرْبِ من آثارِ حِمايتِك، مَهيباً بهيْبَتِك، عزيزاً بعِنايتِك، مُتجلِّلاً مُكرَّماً بتعليمِكَ وتزكيتِك، وألبِسْني خِلَعَ العِـزَّة والقَبُـول، وسَهِّل لي مَنَـاهِجَ الـوُصْلَـة والـوُصُول، وتَـوِّجْني بتاج العـزَّة والوَقَار، وألِّفْ بيني وبينَ أحِبَّائك في دارِ الـدُّنيـا ودَارِ القَـرار، وارزُقني من نُورِ اسمِكَ هَيْبةً وسَطْوَةً تنقادُ لِيَ القُلُـوبُ والأرْوَاحُ، وتَخْـضَعُ لَـدَيَّ النُّفُـوسُ والأشْبـاحُ، يـا مَن ذلَّت له رِقَـابُ الجَبَابـرة، وخَضَعَتْ لَـدَيْه أعنـاقُ الأكـاسِرَة، لا مَلجَأَ ولا مَنْجَى منكَ إلَّا إليـك، ولا إعـانـةَ إلَّا بك، ولا اتِّكَـاء إلَّا عليك، ادفَعْ عنِّي كَيْـدَ الحـاسِـدِين، وظُلُـمات شَرِّ الـمُعـانِـدِين، وارحَمـنـي تَحْـتَ سُرادِقاتِ عَرْشِكَ يا أكْرَمَ الأكْرَمين، أيِّدْ ظَاهِري في تَحـصيـلِ مَـراضِيـك، ونـوِّر قَلْبـي وسِرِّي بالاطِّلاع علىٰ مَناهِجِ مَساعِيك.

إلهي كَيْفَ أَصْدُرُ عن بابِكَ بِخَيْبَةٍ مِنْك، وقَدْ وَرَدْتُهُ على ثِقَةٍ بِك، وكيْفَ تُؤيِسُني من عَطائك وقَدْ أمَرْتَني بدُعَائِك، وها أنا مُقبِلٌ عَلَيْك، مُلتجىءٌ إليْك، باعِدْ بيني وبيْنَ أعدائي كَما بَاعَدْتَ بين أعْدَائي، إخْتَطِفْ أبصَارَهُمْ عنِّي بِنُور قُدْسِك وجَلاَلَ مَجْدِك، إنَّكَ أنْتَ الله المُعْطي جَلاَئلَ النِّعَمِ المُكَرَّمَة لِمَن ناجاكَ بلَطائف رَحْمَتِك، يا حَيُّ يا قيُّوم، يا ذا الجَلاَلِ والإكْرام، وصلَّى الله على سيِّدِنا ونبيِّنا محمَّدٍ وآله أجمعين الطَّيبين الطَّاهرين.

بعد أن أخرَجُوه من "الصُندوق"، تركُوه يلتقط أنفاسه ليوم وبعض آخَر، ثم بدَأوا التحقيق معه...

ونظراً لما لَمَسُوه من صِدْقٍ وصَرَاحة ووُضوح في إجاباته على الأسئلة، وأقواله في القضايا العقائدية والسياسية، وبُعْدٍ عن التموِيه والصياغة والنسْج، وحتى عن التقيَّة، الأمر الذي يمكن أن يخدِم الرؤية الأستراتيجية، التي تُعنى بها المؤسسات الثقافية ودوائر التخطيط في المؤسسة العسكرية والمدنية في "الدولة الإسرائيلية"، وفي المقابل ما رَأوه من عِنادٍ ومُكابرة إذا مَسُّوا وخاضُوا في الجانب الأمني أو حتى دَنوا منه... لذا قرَّروا ورأوا، وآثروا أن يفرِّطوا في الهامش "التخريبي" من دَوْرِهِ (وقد قدَّروه محدوداً ضئيلاً) وعَزمُوا أن يغضُّوا الطرف عن تهمته ومحاكمته، وأن لا يُلاحِقوا ما وَراء الكرَّاسات التي ضُبِطَت معه، وإن كانت ـ في واقع الأمر ـ ستكشف عن خلية "تخريبية"، وذلك مقابل ما يمكن أن يجْنُوه ويحصلوا عليه من اطِّلاعهم على أفكاره ورُؤاه السياسية والدينية... فسايَروه ونزلوا على ما يريد!

" إنه ثروَة معلوماتية، وكنزٌ في الثقافة الشيعية، العقائدية والسياسية والحركية، كأنه قائد منظِّر أو زعيم مفكِّر، أو رجلُ دين وعالم روحاني، وفي الأقل الأدنىٰ، كأنه كاتب أو صحافي خبير، ضليع بالوضع الديني للبنانيين الشيعة، ونحن نفتقر إلىٰ كثير في هـٰذا المجال، دَعُونا نستغل أسْرَه علىٰ أحْسَن وَجْه، ولا نبتذل الأمر، في هـٰذا المورِد الخاص، بالعنف والشدَّة والقَسْوَة، التي قد تفسد علينا كلَّ شيء " .

هـٰذا ما خلَصَت إليه اللجنة المتخصِّصة التي أُوكل إليها تصنيفه وأُنيطَ بها تشخيص التكليف الواجب ٱتخاذه بحقِّه، فنظَرَت في حاله، وقيَّمَت وَضْعَه، وحدَّدت رؤيتها، وأصدَرَت أمرَها.

باشَرَ المحقِّقون ٱستجوابه...

كرَّروا في بداية الأمر أسئلتهم الأُولىٰ التي وَجَّهوها إليه في " أنصار " ، فأعَاد إجاباته، ثم عادوا في اليوم الثالث والرابع، وهو يكرِّر الأقوال نفسها، ومع أنهم كانوا يلتوُوُن ويلتفُّون في أشكال ٱستنطاقه، ويُراوِغون ويتلوَّنون في طرُق تَوْجِيه أسئلتهم إليه، إلَّا أن إجاباته كانت وَاحدة.

في اليوم الخامس جاؤا له بثلاثة خبراء متمرِّسين، لعلَّ الأول كان في الخامسة والستين من عُمْره، بدا إلىٰ " السيكلوجي " والطبيب النفسي أقرَب منه إلىٰ ضابط الأمن ورَجُل المخابرات، والثاني دُونه قليلاً في العُمْر، وكان ضليعاً بالأُمور الدينية والفلسفية، والثالث كان أصغرهم، وكان متخَصِّصاً في الثقافة العامة، غزير المعرِفة، وَاسع الأطلاع، متمكِّناً من التاريخ والجغرافيا والفنِّ والسياسة، كان وَاضحاً أنه خبيرٌ مَوْسُوعيٌّ، ممن " يعرِف كلَّ شيء " ، حتىٰ حدَّث «عطا» نفسه خلال جَوْلات وفصول التحقيق الممتدَّة وقد وَقَفَ علىٰ سِعَة معلوماته العامة: قاتله الله، إن يَصْلُح هـٰذا اللعين لِغيْر ما هو فيه، ولـخَيْرٍ، فهو أن يعينني علىٰ شبكات الكلمات المتقاطعة الصعبة المعقَّدة التي كانت تعصى عليَّ!...

خَاضَ الثلاثةُ معه سجالاً طويلاً أقرَب إلىٰ الحوار والجدال، والمحاجَجَة والمخاصمة منه إلىٰ التحقيق والاستجواب! كان معهم شخصٌ رابع، قضىٰ ساعات التحقيق كلَّها، صامتاً، لم يتدخَّل في شيء، يسجِّل الملاحظات، ويدوِّن في أوراق كانت أمامه.

بدأت أسئلتهم من وَاقع إضبارته والتحقيقات السابقة معه، وكانوا يقلِّبُون الأوراق ويلتقِطُون شيئاً من وَاقعها فيسألونه، ويدسُّون بين السؤال الفكري "الجاد"، آخَرَ شخصي، يبدو سخيفاً لـ «عطا»، تافهاً، لا يعرِف له ربطاً بما هو فيه، ولا يَجِدُ لَه وَجْهاً في خِضَم الأسئلة الأُخرىٰ العميقة التي تتناول أُموراً خطِيرة...

: مَن هو مُطربك المفضَّل!؟

: لا يجوز في مذهبنا الغناء والسَّماع.

: فكلُّ مُطرِب ومستمع، ليس من دينكم ومذهبكم؟

: بل هم مُسْلِمُون، ومنهم المؤمن، ولٰكنهم عُصاةٌ فسَقَة.

: ألم تسمع أنت شيئاً من الغناء في حياتك؟

: بلىٰ، سمعت شيئاً قبل ٱلتزامي الكامل، وقد وَفَّقني الله للتوبة، فتركت اللهوَ والسَّماع.

: لِمَن سمعت، ومَن أعجبك وأطرَبك؟

: أطربتني «أُم كلثوم» و«فيروز».

: وماذا كان يعجبك فيهما؟

: الحقيقة إن ما كان يستهويني هو الشعر والكلمات، ثم صِرْتُ أستعذِبُ اللحن والصوت، هٰكذا ٱستدرجني الشيطان!

: أيُّ أغانيهما أحببت؟

: كنت أُحبُّ من أغاني «أُم كلثوم»، "أغارُ من نسْمَةِ الجنوب" و "سلُوا كؤوس الطِّلا"!

: كيف تعرَّفت علىٰ هٰذه الأغاني وهي مغمورة وغير مشهورة، وليست من المتداولة المعروفة لدَىٰ أغلب الناس؟ هٰذا يعني أنك كنت عارفاً ومتابعاً جيداً لـ «أُم كلثوم».

: كان لي صديق، هو الذي عرَّفني علىٰ أغانيها القديمة وغير المتداوَلة، وقد أهداني بعد الأشرطة المسجلة (كاسيتات). كما كنت أُتابع وأترقَّب إذاعتكم العربية التي تبثُّ عصر كلِّ يوم أُغنية لـ «أُم كلثوم».

: ماذا عن «فيروز»؟

: كلُّ أغانيها كانت تُطرِبني، أذكر منها "لا تسألوني ما ٱسمه حبيبي" وبعض أغانيها في اللهجة العامية.

: مثل ماذا؟

: لا أتذكر، مثل "إمي نامت عا بكير" و"يا مرسال المراسيل"...

: ما ٱسم صديقك الذي كان يهديك أشرطة أغاني «أُم كلثوم»؟

: لقد عاهدتُ ربي وأقسَمْتُ أن لا أذكر ٱسم مؤمن ولا أشي بأحدٍ، وإن نُشِّرتُ بالمناشير، وأنا علىٰ عهدي، ولن أحنث بيميني.

: مؤمن؟ كيف يكون الرجل من المؤمنين وهو يروِّج للغناء وينشر "الفجور والفساد"، وأنت ضحيَّة له قد أغواك؟

: إنه شيعي، مؤمن بولاية «أميرالمؤمنين» عليه السلام، وهٰذا يخلع عليه حصانة ويُلبِسه مِنعة، ويجعل له حُرْمة، لا تجوز غيبته ولا مَسُّه بسوء، فكيف بذِكْر ٱسمه عندكم والتسبُّب في أذىً شنيع قد يلحَق وينزل به لذلك؟ ثم إذا كان فاسقاً، لماذا تريدون ٱسمه؟

: ماذا يعني لك «الإمام موسىٰ الصدر»؟

: حرَّرَنا من الأرتهان للغير، وأعادَ رسم الهوية الشيعية في «لبنان»، وأنقَذَنا وٱستخلَصَ شبابنا من الأحزاب القومية اليسارية، والمسيحية اليمينية، وإن كان ذلك علىٰ الصعيد السياسي دون العقائدي!

: ماذا تقصد من قولك "على الصعيد السياسي دون العقائدي"؟ كيف لم يكن عقائدياً وهو رجل دين؟

: كان عقائدياً بطبيعة الحال، لكنه أغفل العقائد في مشروعه السياسي وأُطروحته، وانصرف عنها إلى شأن آخر.

: أنت تنتقده وتتحفَّظ عليه إذن؟

: نعم، أنا لا أُقدِّس بالمطلَق إلّا «الأئمة» عليهم السلام.

: و«الإمام موسى الصدر» من «الأئمة»؟

: أقصد «الأئمة المعصومين»، والمعصومون عندنا اثنا عشر إماماً، لا يزيدون ولا ينقصون.

: و«الإمام الخميني» منهم؟

: لا «الخميني» ولا غيره. كلٌّ مراجعنا في معرض النقد والتقييم.

: كيف تُقيِّمُ أنت «الخميني» أو تنقده؟

: مَن أنا لأُقيِّم هذا العظيم.

: "العظيم"؟ الذي ينصِبُ المقاصِل ويعلِّق الناس على أعواد المشانق، ويسوقهم إلى الموت زَرافاتٍ ووُحْدَانا؟

"العظيم" الذي تسبَّب في حرب شُنَّت على بلاده، عندما أسقَطَ «الشاه» وأضعَف جيشه، حتى أطمعَ "العربَ" في «إيران»، التي لم يكونوا يجرؤون أن يمسُّوها بكلمة، ولا أن يرمقوها بنظرة؟

: العظَمَة عندي تختلف ضابطتها، والتقييم عندي تختلف أسُسُه، لو اطَّلعتم على آرائه وأفكاره، و قرأتم كتبه، لوَجدْتُم عالِماً حكيماً وَقَفَ على الحقائق، وعارِفاً كاملاً يحلِّق في سماء الولاء.

أما الحرب، فأنتم و«أميركا» مَن حرَّض «صداماً» على شَنِّها.

أنتم من أجَّج نارَها، بعد أن يئستُم من عملائكم أن يُسقِطوا الثورة.

"حرَّضَ"؟ أي معنىً للتحريض؟

بل أنتم مَن أمرَ بها وشَنَّها، وما هذا الكلب المسعور إلّا ربيبكم وصنيعتكم... ولكني أُبشِّركم، أن سيعلم التالُون منكم غِبَّ ما أسَّستم، أنتم الأوَّلون، وسيَجْنُون ويحصِدون سُوءَ ما زرَعتُم وغرَستُم!

سيقضي «الخميني» على «صدَّام»، ويحرِّر «العراق» من جَوْرِه، ثم يتقدَّم ويمضي، حتى يسلِّمَ الراية إلى صاحبها الأصلي، فيفتح «فلسطين» ويطهِّر «القدس» ويمحُوكُم عن بَكْرَة أبيكم!

: من أين تعلم هذا، وكيف تحكم به؟

: هذا مدوَّنٌ في «الزَبور»، مدَّخر في تُراثنا، ثابتٌ في عقيدتنا، نحن الذين سنرِثُ الأرض ومَن عليها، نحن المؤمنون وأتباع «الصالحين». لن يُنهي وُجودكم اللقيط، ولن يُقصِيكم من هذه الأرض ويقضي عليكم إلّا المؤمنون حقّاً، لا الفصائل الفلسطينية الخائنة المتاجِرة، ولا الحركات اليسارية الشيوعية، ولا الأُمم المتحدة، ولا جامعة الدول العربية!

: كيف ستقصوننا من الأرض، وهي أرضنا؟

: ليست أرضكم.

: بل أرضنا، نحن «بنو إسرائيل»... أين كان «داوود» و«سليمان» و«موسى» وكلُّ من تعترِفُون وتشهدون بنبوَّته، وهُمْ منَّا، من «بني إسرائيل»، ألم يكونوا في هذه التي تسمونها اليوم «فلسطين»؟ بل دَعني أذهب بك إلى الأبعد من ذلك، أو الأقرب إليك، يا ابن «جباع» و«إقليم التفَّاح»، ألست تُقِرَّ أن «صافي» و«سُجُد» و«بوركيب» و«يوشع» و«صاليم»، جبال ومواقع بأسماء لأنبياء من «بني إسرائيل»، وفي هذه الجبال قبورٌ ومقامات لهم؟

: هذا ما يُقال، وهو دارجٌ على الألسن، لم أحِقِّق فيه ولم أتثبَّت، ولكن يمكنني أن أُجيب بـ "نعم"، فماذا في ذلك؟

: هي أرض إسرائيلية إذن؟

: ولتكُن، ثم ماذا؟

: نحن إذاً لسنا غزاة ولا محتلّين، نحن عائدون بعد الظلم والاضطهاد، ومن الغربة والشتات إلىٰ بلادنا المغتَصَبة، ووَطَننا السليب، أرض آبائنا وأجدادنا، أرض ميعادنا، أنتم المحتلُّون المغتصبون الذين تستوطِنون بلادنا وتعيشون في أرضنا! أنتم مَن يجب أن يرحَلَ ويُقصى من هٰذه الأرض ويُنفى عنها، لا نحن.

: اليهودية الحقَّة هي الإسلام، وأتباع «داوود» و«سليمان» و«زكريا» و«يحيى» و«موسىٰ» و«عيسىٰ»، هم أتباع «محمد» ﷺ و«عليّ» عليه السلام، أنتم ديانة منسوخة، لا وُجُود لكم في الواقع الحقيقي! أما كقَوْم وشَعْب، فإن الله قد سَخِطَ عليكم ولَعَنكم، ووَسَمَكم بالذلَّة والصَّغار، وكتب عليكم التيه والشتات بما قتلتم الأنبياء، وكفرتم، وخُنْتُم الميثاق، وآخر المواثيق كانت مع النبيِّ الأعظم «محمد»، فنقضتموها وتآمرتم مع «قريش» وصرتم "طابوراً خامساً" في «المدينة» وَجَب نفيكم وطردكم.

: ألست متناقضاً وأنت تتحفَّظ علىٰ «موسىٰ الصدر»، بينما تعظِّم «الخميني» وتجلُّه؟ وقد تكوَّنت طَلِيعة «حركة أمل» ونشَأَتْ علىٰ أيدي "جماعة" وأتباع «الخميني»، علىٰ رأسهم «مصطفىٰ شمران»؟ هل تريد أن نريك صُوَر «السيد أحمد»، نجل «الخميني» وهو يتدرَّب علىٰ السلاح في معسكرات «شمران» في «البقاع» اللبناني؟!

: لا شأن لي بهٰذا، أنا لا أعرف «شمران» ولا غَيْره، وهو لا يشكِّل لي أية قيمة دينية، وهَبْ أنَّ جميع أعوان «الخميني» وطُلَّابه ومُساعِديه ورجال ثورته، لم يكونوا عقائديين، ولا كانوا مخلصين... ما شأني أنا، وما علاقتي بهم؟ إنني أتبع شخْصَ «الإمام الخميني»، وهو فقيه عادل جامع للشرائط، وهو بعدُ حصيف ونبيه ووَاعٍ، لا تفوته ألاعيب السياسيين، وتزلُّفات الحواشي والمقرَّبين.

: ماذا عن دولته ومؤسساته كحرَس الثورة، أليست شرعية؟

: كلُّ شيء عندنا مقيَّد ومَشروط، عليكم أن تعرِفوا هٰذا عنَّا مَعْشَر الشيعة... نحنُ لا نقدِّس بالمطلق إلّا «المعصومين الأربعة عشر»، وما دونهم، من عالم وفقيه ومَرْجع أعلىٰ، نمضي معه مادام عادِلاً مُسْتَوْفياً للشرائط، فإذا شَطَّ يَوْماً وشَطَح، أعرَضْنا عنه، فإن ضلَّ وانحرَف، قُمْنا عليه ونهضنا في وَجْهِه، وأسقَطناه.

قد نُمالي السياسيين، ونُحَابي الزعماء، ونتَّقي الحكَّام، ولٰكننا لا نُجَامل في ديننا، ولا نساوِم علىٰ عقائدنا.

إذا انحرَفت دولة «الخميني» يوماً، وانجرَف حرَسُ ثَوْرته، وانقلَبَ أعوانُه وتغيَّرت حاشيته وتبدَّل حال بِطانته، أو انكشف لنا ما تقولون وتزعمون فيهم، فكان حقّاً، وبانَ لنا وظهَر أنها حاشية ضالَّة وبطانة فاسِدَة... تركناها لحالها وانصرفنا إلىٰ شأننا.

فإن ظاهَرتْنا علىٰ ديننا ومذهبنا وَاجهناها.

: هٰكذا ببساطة؟

: نعم، هٰكذا ببساطة!

: لماذا تضربون وتعذِّبون أنفسكم في يوم عاشوراء؟

: كلُّ العبادات فيها شيء من العذاب ومن الألم علىٰ البدن، الصيام حرمانٌ من الطعام والشراب، وألم وعذاب لِفَقْد اللذات، الصلاة حرمان من النوم بين الطلوعين، والحج سَفَرٌ ومَشقَّة وعذابٌ وغُرْبَة وحِرمان من المَلْبَس والطِيب والمأوىٰ والراحة و... كلُّ عبادة فيها أَلَمٌ وفَقْدٌ يقَعُ علىٰ البدن، بدرَجَات ونسَبٍ متفاوِتة. ومن ذلك شعائر عاشوراء، فهي عبادة، قِوَامها الجَزَع، نحن مأمورُون بالجَزَع علىٰ «سيِّد الشهداء» عليه السلام، ونتَّخِذ لذلك صُوَراً مُخْتلِفة وأنماطاً متعدِّدة، من البكاء إلىٰ اللطم إلىٰ الجَلْد بالمواسي والتطبير بالسيوف.

: ماذا يعني لك السيد «أبوالقاسم الخوئي»؟
: أحد كبار مراجعنا العظام الذي تعود أكثر الطائفة، في مختَلف بلاد العالم، وترجع إليه في التقليد.
: كيف تتبعُون شخصاً إيرانياً يعيش في «العراق» وأنتم لبنانيون!؟
: نتبعه في شؤون ديننا، ونأخذ منه أحكام عباداتنا، هٰذا هو الدين، وهٰذا هو مذهبنا، لا قومية في التشيُّع. ألا يتبع المسيحيون اللبنانيون «البابا» في «روما»؟! أمَّا أُمورنا الخاصة بأوْطَاننا وشأننا الداخلي، فلا نُقْحِمُه، ولا هو يقبل التدخُّل فيه.
: مَن ترشَّح لزعامة الشيعة في «لبنان»؟
: لم أُفكِّر في ذلك، ولا أرىٰ مَن يليق.
: ألا تريدون أن تقيموا حكومة أو جمهورية إسلامية تتبع «إيران»؟
: الحقيقة أنني لم أتبيَّن الصحيح من السقيم في هٰذا الأمر. ما أعرفه أنَّ «الإمام الخميني» يدعو لإقامة الحكومة الإسلامية، ولٰكن كيف يستقيم ذلك مع الحكومة المنتظَرة لـ «الإمام المهدي» عليه السلام؟ لست أدري! هناك شخصٌ مقرَّبٌ من قادة الثورة، حدَّثني مرَّة وقال إنَّ «الإمام الخميني» لم يكن عازماً علىٰ إقامة الحكم، أو بتعبير أدَقَّ: تولِّي الحكم، كان يريد إسقاط «الشاه» عَبْر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ أنه لما عادَ إلىٰ وَطَنه تَوَجَّه إلىٰ «قم» ليعُود إلىٰ حَوْزته وبحثه وشُغله الأصلي، وترَكَ الحكمَ للعدول من المؤمنين وإن لم يكونوا من علماء الدين، لٰكن المؤامرات المتلاحِقة والكَيْد الكبير الذي ظَهر من أعداء الثورة، أجبره علىٰ الرجوع إلىٰ «طهران»، ومباشرة القيادة بنفسه.
: لماذا «الإمام المهدي» غائب لا يظهر؟
: هٰذا أمرٌ بينه وبين ربِّه سبحانه وتعالىٰ، موغلٌ في الغيب، ولٰكن يقال أنه إذا أكتملت الأسباب وحَضَر الأنصار، نهَض عليه السلام وقامَ.

: في معتقدكم أن ضرُورة وُجُود «الإمام» في كلِّ زمان ترجع إلىٰ وُجُوب إبلاغ الدين وإتمام الحجَّة علىٰ الناس، وممارسة الهداية والإرشاد، حتىٰ لا يضيع الناس ويضلُّوا، وأن هٰذا أصلٌ تحكمه قاعدة "وُجوب اللطف"... كيف يمارس «الإمام المهدي» هٰذا الدَّوْر وهو غائب عن الأبصار، منقطِعٌ عن رَعيَّته وعن بقيَّة الناس؟ ما فائدة إمام غائب، وأية ضرورة لوجوده؟

: إعلَم أنَّ هٰذه الحالة ليست جديدة علىٰ البشرية ولا هي طارئة علىٰ دَوْر الهداية وممارسة الحُجِّية وتحقيق البلاغ لـ «المعصوم»، إماماً كان أو نبيّاً. فطالما ـ علىٰ مَدَىٰ التاريخ ـ كان «الحُجَّة» علىٰ البشر نائياً قاصِياً عنهم، وإن كان ظاهراً يَرَوْنه ويلتقيهم ويتَّصل بهم، لٰكن ما دامت أيديهم قاصِرة عن بلوغه، وهم عاجزون عن الأخذ منه والتلقِّي المباشر عنه، فكأنه غائب مستتر.

هٰكذا كان «النبيُّ» الأعظم ﷺ في فترة الدعوة السرِّية، كان نبيّاً وحُجَّة، وأغلب الناس لا يتلقُّون الهديَ المباشِرَ منه، لِظَرْف ذلك الزمان وطبيعة الدَّوْر المُلقى علىٰ عاتقه، فسِرِّيَّة الدعوة وانقطاعه عن الناس لم يخِلَّ بممارسته حُجِّيته. وهٰكذا كان كثير من الأنبياء والأوصياء السابقين، تضيق دائرة عمَلِهم وتنحَسِر مكَاناً، حتىٰ يكونَ «النبيُّ» لأهل القرية أو البلاد المجاورة، كالغائب المنقطع عنهم.

وهٰكذا كان جميع أئمَّتنا عليهم السلام قبل غيبة «المهدي» عليه السلام...

أتظنُّ أنَّ الجبابرة والطواغيت في كلِّ زمان كانوا يسمحون أن ينهض «السجَّاد» أو «الباقر» أو «الصادق» أو «الكاظم» بأدوَارِهم؟ ويفْسَحُون للأُمة أن تنهل منهم وتتلقَّى وتأخذ عنهم؟ لا والله، فهم بين محبوس ومَنْفِيٍّ، ومُلاحَق ومُطَارَد، ومُراقَب يُحْصُونَ عليه تحركاته بل أنفاسه، ويتتبَّعون شيعته وأتباعه، فلا يمكنهم حتىٰ السلام عليه!

إذن فهم جميعاً منقطِعُون وغائبون بنَحْوٍ، ولكن الفَرْقَ في الكمّ والكيف فحَسْب، وإلّا فهم في الأصل مشتركُون، والحال اليوم لا يفرق كثيراً عن الحال زَمَن «المتوكِّل»، ووَضْع «الإمام محمد الجواد» و«عليٍّ الهادي» و«الحسن العسكري» عليهم السلام مع شيعتهم لا يختلف كثيراً عن وَضْع «الإمام المهدي» عليه السلام وهو في مُغَيَّبه. حتىٰ «الإمام الرضا»، لم تكن "وِلاية عهد" «المأمون»، إلَّا حَاجِباً وحاجِزاً يحُول دونَ أن يمارِسَ كلَّ دَوْرِه، وينهض بتمام هَدْيِه. أما ما تتِمُّ وتتحقَّق به الحجيَّة ويكون البلاغ والإرشاد، فلـ «الأئمة» عليهم السلام طُرقهم وسُبُلهم في تحقيقه.

إنَّ «الحسن» و«الحسين» إمامان قامَا أو قَعَدا... فـ "القعود"، و"العجز" الظاهري، لا يخلُّ بـ "إمامة" «الإمام»، ولا يُنقِصُ شيئاً في شأنه ومكانته، كما في دَوْره وحُجيَّته.

إنَّ هذا الذي سألتَ عنه، جاهلاً كنت أم مُشكِّكاً وطاعِناً، لا أكترِثُ له ولا أقلق عليك، هو دَوْرٌ ومَقام وشأن وَاحِدٌ فقط من شؤون «الإمام»، ولعلَّه أصغر شؤونه!

«الإمام» عندنا يا هذا، وَاسِطَة الفيض، هو السبب المتَّصل بين الأرض والسماء، أرض الخليقة والممكِنات، وسَماء الواجب الخالق، لا هذه الحسيَّة المادية التي ترىٰ، ولا حتى تلك الخيالية التي تتوهَّم، الأمر أعظم والخطب أكبر مما تدركه باصِرتك، ويحلِّق فيه وَهْمُك.

«الإمام» هو خليفة الله في أرضه، ولوْلاه لَساخَت الأرض بأهلها، هو الذي يُدِير الأفلاك ويُدِرُّ الأرزاق، وهو الذي يُمْسِكُ السماءَ أن تَقَعَ علىٰ الأرض، وبه ينبت النبات وتُورِقُ الأشجار وتَيْنَعُ الثمار، وبه تموج البحار وتتدفَّق الأنهار، وبه تهبُّ النسائم وتعصف الرياح، بـ «الإمام» يجبَر المهيض ويشفىٰ المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض.

كلُّ ذلك بإذن الله سبحانه وتعالىٰ، يفيضه عليهم ويستمدُّونه منه.

الدور الأصلي لـ «الإمام» هو دور تكويني خَلْقي، أما التشريعي، فتتم معالجته بوَسائل وطُرُق أُخرىٰ... في زماننا ـ مثلاً ـ هناك الفقهاء الذين يستنبطون الأحكام، وتتمُّ بهم الحجَّة على الأنام، كما كان الأمر في الأزمنة السابقة، يتمُّ عن طريق الرُّواة والوكلاء والأبواب... وهٰكذا في كلِّ زمان، لا ينقطع لُطف الله بأبتعاث حُجَّة، نبيٍّ أو وَصِي، كما لا تضيق علىٰ الحجَّة دُرُوب أداء دوْرِه وإبلاغ هَذْيه.

«الإمام» يؤدِّي ما عَلَيه، لا تقصر عصمته ولا يضيق وُسعُه، ويبقىٰ ما علىٰ الناس أن تفعله، فالكعبة تُقْصَد ولا تَقصِد... فإذا أراد الناس وعَلِمَ «المولىٰ» منهم الصدق والإخلاص، فلن يبخل عليهم، ولن يُحرَمُوا يُمْنَ لقائه والتلقِّي المباشِر عنه. إن مَن يَحْظَون اليوم بالعناية الخاصَّة لـ «الحجَّة ابن الحسن» كثر، أحبُّوه وأرادُوه، فلم يحتجِب عنهم.

: ماذا عن مستقبل «دولة إسرائيل» عندكم!؟

: لا شيء عندنا بهٰذا الأسم والعنوان! لا وُجُود لكم في قاموسنا. " ميعادكُم " القيامة لا هنا، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾... أنتم هَبَاء، ظَلَمَة جبَّارون، سلَّطَهم الله علىٰ ظلَمَة جبَّارين مِثلكم، وأشغل بعضكم ببعض، ليجعَلَنا بينكم سالمين. فإذا كان آخر الزمان، وآن أوان دولة الحق، وحانَ الحصاد، أتت عليكم سيوفنا ومناجِلُنا، أزحناكم عن الوجود وقضينا عليكم وعلىٰ " دولتكم " !

: فهل هذا آخر الزمان حتىٰ تنهضوا بحربنا؟

: نحن لم نبتدئكم بقتال، أنتم من أبتدأ وهاجَمَ وغزَا، قتلتم شبابنا وهدَّمتم بيوتنا وأحرَقتم مزارِعنا... نحن نذافع عن أنفسنا، وندفع شركُم. وقد رحَّب بكم بعضُنا جهلاً وفرَحاً بالخلاص من جَوْرِ المنظَّمات الفلسطينية، فإذا أنتم وهُم سواء في الظلم والطغيان والجبروت.

: هل توجد مصادر شيعية تتحدَّث عن مصير «دولة إسرائيل»؟

: لا أعرف ـ شخصياً ـ مصدَراً شيعِياً تحدَّث عنكم مُباشَرة.

: ما هي أُمنيتك في الحياة؟

: أن ألقىٰ «إمامي»، أو أن ألمس ما يكشف رِضاه عنِّي.

: هل ستمضي في "التخريب" إذا أطلَقنا سِراحك؟

: سأمضي علىٰ ديني ومُعتقدي، فإذا أمَرَني بجهادِكُم فعَلْت، وإن ألزَمَني القعود والصبر فعَلْتُ.

: وماذا يأمرك دينك الآن؟

: أن أُقاتلكم ما دُمتُم تقاتلونني، فإذا ٱنسحبتم وكَفَفْتُم، كَفَفْنا.

: فأنت تعترف الآن بأنك قاتلتنا؟

: القتال لا يكون بالسلاح فقط، قد يكون بالكلمة ونشر العقيدة، وإذا كُنتُ أهلاً لحمل السلاح يوماً، سأحمله.

: وهـٰذا مُرْجَئٌ حتىٰ يظهر «المهدي»؟

: حتىٰ يظهر «المهدي»!

: هل يمكن أن نتصالَحُ يوماً؟

: هل يمكنكم أن تتجَاوَزوا عن النبوَّة الخاتمة، وكيف ٱنزَوَت عن «بني إسرائيل»، وحلَّت في «بني هاشم»؟

هل تنطفِئُ يوماً نارُ حِقدكُم علىٰ «محمَّد»، وتخبو جمرته علىٰ «عليٍّ»، قالِع باب «خيبر»، وقاطِع دابركم من أرض الحرَمَيْن؟

هل يمكنكم أن تلتزموا بالعهود والـمَواثيق؟

لقد عاهدتموني أن لا تؤذوني ولا تلحِقوا بي ضرراً، وأن تُطلِقوا سَرَاحي عند الفراغ من التحقيق، وأعطيتموني الأمان لأقول هنا ما أشاء...

فهل ستفعلون؟

لقد خالَطَ الغَدْر دَمَكُم، فلن تُوفُوا!

⁂ ⁂ ⁂

مضىٰ التحقيق المكثَّف مع «عطا» وأستمر ثلاثة أشهر ونَيْف، صدَرَ بعدَها الرأي فيه... فقد أعتبرته اللجنة:

يحمل أفكاراً غاية في التطرُّف والغلو، هي الأخطر استراتيجياً علىٰ " دولة إسرائيل " ، ولدَيْه عِلْمٌ دقيق، ويتمتَّع برؤية نافِذة وبصيرة، لا يمكن تشويشها، وبرُوح لا تُقهر، ونفسيَّة لا يمكن ترويضها!

فلا سبيل لتعديل أفكاره وإخضاعه للنظام التربوي العام، ولا يُؤمَن ولا يُركَن إلىٰ الوسائل العامة التقليدية أن "تُصلحه" ، ولا لـ " النطاقات المأمونة " أن تجتَذِبه يوماً وتحتويه.

لِذا وَصفُوا له " العلاج " وحدَّدُوا العقوبة:

أن يزرق، قبيل إطلَاق سراحه بِشَهر، حُقنة من مركَّب وخَلِيطٍ كيميائيٍّ سَمِّيٍّ متطَوِّر يُطلِقون عليه " X9 " ، بجرعة حدَّدُوا مقدارها، ما يتحكَّم بأوان ظهور آثارها! وصدَرَ الأمرُ أن يبقىٰ رَهنَ الأعتقال إلىٰ أن تُقرِّر " اللجنة الخاصة " موعد إخلاء سبيله.

وكانت قوَّات الأحتلال الإسرائيلي قد رمَّمَت ثكنة «الخيام»، وحوَّلَتها إلىٰ سجن رئيسيٍّ كبير يضمُّ مركَزاً مجهَّزاً للتحقيق يُشرِف عليه جهاز " الشين بيت " مباشرة.

فنُقِلَ «عطا» وأُودع رهن الأعتقال...

يعود أساس سجن «الخيام» إلىٰ ثكنة أنشأتها قوات الأنتداب الفرنسي سنة ١٩٣٣ في أقصىٰ الجنوب اللبناني، وقد أخلىٰ الفرنسيون الثكنة المذكورة عقب الأستقلال، وتسلَّمَها الجيش اللبناني سنة ١٩٤٣، إلَّا أنه أهمَلها ولم يُعِرْها أهتماماً نظراً لِوقوعها في أقصىٰ الجنوب.

ظلَّ الوضع علىٰ هذا النحو حتىٰ مارس/ آذار ١٩٧٨، عندما نفَّذت القوات الإسرائيلية أجتياحها الأول لأجزاء وَاسعة من الجنوب، وتعرَّضَت بلدة «الخيام» لما يشبه التدمير الشامل.

أمـا الشكنـة، فقـد كـانـت في البـدايـة مركـزاً للتحقيق، إلَّا أن القـوات الإسرائيلية عقب إقفالها "معتقل أنصار" عام ١٩٨٥ حوَّلت هـٰذه الشكنة إلىٰ سجن كبير يتألف من ٦٧ مَحْبِساً جماعياً وأكثر من ٢٠ فردياً.

وقد ذاعَ صِيتُ هـٰذا السجن بسبب الجرائم التي كانت ترتكبها قوات الاحتلال الإسرائيلي والمليشيات العميلة ضدَّ الأسرىٰ اللبنانيين والفلسطينيين فيه، وبشهادة منظمة الصليب الأحمر الدولية وبعض المنظمات الإنسانية الأُخرىٰ، فإنَّ المعتقلين والأسرىٰ كانوا يُمنَعُون رؤية الضوء مُطْلَقاً، وكانت تمنع عنهم المياه وتقدم إليهم الأطعمة الفاسدة، حتىٰ أُصيب بعضهم بأمراض مزمنة، في القلب والكبد والأمعاء، وقد ماتَ بعضُهُم من شدَّة التعذيب، ، وقد أُغلِق هـٰذا المعتقل بعد تحرير الجنوب وتحول إلىٰ مزار سياحي.

هناك ٱلتقىٰ «عطا» بعدَدٍ من مسؤولي المعتقل وجلاوِزة الصهاينة والميليشيات العميلة، منهم: «سليمان سعيد» من «القليعة»، و«جان الحمصي» «القليعة» أيضاً، ومن المحققين التقىٰ: «واكيم مقلِّد» من «صربا»، و«جان شلهوب»، و«حسين فاعور» من «الخيام»، و«عصام جراوان». كما تعرَّفَ إلىٰ «أحمد السيد حسن» المعروف بـ «أبي برهان» وهو من «عيترون»، و«يحيىٰ أبوقمر»، و«إلياس سعيد»، و«جرجس حاصباني»، و«سمير عيد مسلم» و«بشارة نصر».

وكان يتولىٰ مسؤولية التحقيق مع المعتقلين عَددٌ من الضباط الصهاينة منهم «ياغي» و «إيلي» و«ألبرت»، بينما كان يتولىٰ تأمين الحماية العسكرية للمعتقل من مختلف مداخله ستُّون عنصراً من ميليشيا العملاء.

أُودع «عطا» سِجناً ٱنفِرادياً، أبقُوه وأعنُوه فيه سنين متمادية، يخرِجونه إلىٰ الساحة نصف ساعة في اليوم، "يتنفَّس" فيها و"يتشمَّش"، وَحْدَهُ، في غير أوقات تنزُّه بقية السجناء، الذين يرمقونه من نوافذ مَحابِسِهم.

ذاقَ من عذَاب الوَحْدَة وتجرَّعَ من آلامها، ولاقىٰ من النكال والهوان، ما قرُبَ به من الجنون والخبَل، وجعلَه يتمنىٰ الموت مِراراً... لـٰكنـه كلَّما تذكَّر عذَابَ "الصُندُوق"، عدَّ ما هو فيه نقاهة وٱستجماماً!

في ليلة مقمِرة من صيف عام ١٩٩٧، أطلَقوا سِراح «عطا»...

لم يتم تسليمه رسميّاً، ولم يخضع لِصَفقة تبادِل، إذ لم يكونوا قد سجَّلُوه أسيراً ولا أخبروا به الصليب الأحمر.

وكان أهله الذين ٱفتقَدوه طويلاً يحْسَبونه قضىٰ شهيداً، لَوْلا الأخبار التي كانت تتقاطر بين الفينة والأُخرىٰ، عبر رسائل الأسرىٰ التي تصِل ذَوِيهم، وفي بعضها أشارة لِوُجُود «الحاج نجيب» (وهو الأسم الحركي لـ «عطا») معهم، فيها: "الحاج نجيب ٱبن جباع يسلِّم عليكم"، يقحمون ٱسمه في سياق أسماء أُخرىٰ، فتفوت الرقيب، إذ هي "مجرَّد" تحيات وسلام، لا خَطَرَ منه ولا حَظْرَ عليه.

وهـٰكذا روايات وشهادات بعضِ المفرج عنهم ممن كانوا يعرِفونه، أو لم يكونوا، فيذكُرون أوْصَاف ذاك السجين المهيب الذي كان السجانون يعزلونه عنهم، ويخشون أن يحدِّثهم، فينقل إليهم فكرة مما يحمل، ويبثَّهم شيئاً مما يعتقد! حتىٰ كانوا يتوعَّدون مَن يحاول الأتصال به، أن سَيَسُومُونه أشدَّ العذاب وسيُنزلون به أقسىٰ العقاب...

ينقلُون ويحكُون، ويصوِّرون الأمر، كما في الأفلام السينمائية وقصص المغامرات، وكيف أنهم لمحُوه يخْطُر في ساحة السجن وَحِيداً، يجرُّ أغلَاله في يوم مَطِير، وقد رفعَ رأسه تجاه السماء يستقبل الغيث المنهمر من دَيمَة هَطْلَاء، كأنه يغتسل بمائها، ويتطهَّر من لَوْث لازَمَه طويلاً من مياه يبذلها له سجَّانوه... فهـٰذه من الله مباشرة! وأُخرىٰ يخطُو بثبات وٱعتزاز وشموخ، دون أن يستحثُّه السجَّان أو يستعجله! تجاه العيادة الطبية لِتَلَقِّي العلاج من وَعكَة يبدو أنها أَلَمَّت به.

وقد رَوىٰ أحدُهُم أنه وَصَل إلىٰ زنزانته والتقاه هناك، مُستغلّاً تكليفه كَنْسَ وكَسْحَ القُمام من الدهليز أو الممرّ، في قسم المحابس الفرديَّة... يقول إنه أطلَّ عليه عَبْر قُضْبَان النافذة التي تفتح خَصاصاً أو كوَّة في باب مَحْبِسِه، فوَجدَه مستلقياً، قامَ من فوره ليلتقي زائره "الوِتر"!

يقول الراوي، الأسير المحرَّر، إن «الحاج» تَبسَّم له، وقال:

سأُبادر إلىٰ رَدِّ جميلك بزيارتي، فأُخبرك وأُبشِّرك!

وقد أنبأه عن غَيْب! إذ عبَّر له رؤياً رآها، علىٰ الرغم من أنه لم ينقلها لأحَدٍ! تبسَّم له «عطا» بثقة مُطلَقة، وكأنه ينظر إلىٰ كتاب منشور أمامه، وقال: لقد وُفِّقَ أخُوك المغترب في «أفريقيا»، لصفقة تجارية كبيرة، سينالك منها سعِة وفرَج... وكان الأمر كما قال!

كانت إدارة السجن قد طبَّقت تعليمات "الهيئة الخاصة" المنبثِقة عن "الشين بيت" و"الموساد" التي تولَّت التحقيق مع «عطا»، ونفَّذت تَوْصِياتها بحذافيرها اللعينة، وبدِقَّة متناهية، فقاموا، قبل شهر من إطلاق سراحه، بتزريق السَّمِّ (المادة الكيميائية) وحَقْنه عبر جرعة الـ "X9" حَسَب النِسَبة والمقدار الموصىٰ به.

تركُوه يهيم في الأودية المحاذية للشريط الحدودي، بعد «جسر الخردلي» تجاه «جبل الطهرة»، قريباً من «الجرمق»... وآخِر ما قالوه له:

إحذر حقول الألغام!

فمشىٰ تائهاً يومَه كلَّه، أدركه النَصَب، فقام قبيل الغروب، ليُريِّض ساقيه المتشنِّجتَيْن بركَعات يصلِّيهـا، عسىٰ أن يجعل الله له مخرجاً ويرزقه الأمان قبل الليل وظَلَامه... رآه راعٍ قَفَلَ بغنماته من المرعىٰ، وَجِلَ منه أوَّلَ الأمر وٱرتعَب، ثم دَنا منه متوجِّساً مُرتاباً، لكن لما رآه قائماً يصلِّي في هذه البريَّة، ٱختلَطَت مشاعره وٱنقلَبت إلىٰ مزيج تفاؤل لم يخلُ من حَذَر، ففَرَحٍ وٱستبشار، ثم نحيب وبكاء، وتوسُّل ورَجَاء!

فقد حسبه من أولياء الله، وراح "الراعي" في التخضُّع والتبجيل، والتحية والثناء، وقد هجَسَ أنه «وَليُّ الله الأعظم»! حتىٰ سأله:

من تكون يا مولانا؟ أتراك أنت «صاحب الزمان»؟

حَوْقَل «عطا» وٱستغفر لنفسه وللراعي، ثم قام لمَّا ٱنفتل من صلاته، ليُسلِّم عليه ويعانقه، ويخاطبه...

: بل أنا وأنت وكل موالٍ، في عِداد شيعته ورَعيته، ورَجَاء أن نكون من خدَّامه، هلمَّ إلىٰ "الضيعة"، فما عُدْتُ قادراً علىٰ السير، ولا رِجْلَاي علىٰ حملي، أسعِفني بدَابَّتِك هـٰذه، يرحمك الله!

❁ ❁ ❁

بعد أيام معدودات خُصِّصَت للٱحتفال بعودته، أو ذهبت في الترحيب بالأسير المحرَّر، وتبجيل القائد المخضرم، فهو من "السابقين" و"الأوَّلين"، والثناء علىٰ المجاهد العابد، ومديح البطل العائد، وفَخْرِ الأهل وزَهْو القرية... وهو ما كان يقوم به أو يسايره ويجاريه علىٰ مضَض، إذ طالما حدَّث نفسه وعاهدَها، وكان عازماً إن كُتِبَ له الفرَج والخلاص من السجن، أن يلتزم "آداب الٱنتظار"، ومنها الٱبتعاد عن الإعلام والتواري عن الأضواء، والعيش في الخفاء!...

بدأت آثار الحقن الكيميائية السامَّة تظهر علىٰ «عطا» شيئاً فشيئاً...

صارَ سريعاً ما تخُور قِوَاه، ويَهِن ويَضْعُف.

وكثيراً ما يغلبه النُّعاس، فيَنَام لِساعات ممتدَّة، لا تُفِيقُه حتىٰ الجَلَبَة ولا يوقظه الصياحُ والضوْضَاءُ!

كان يجد في بدَنه ثِقَلاً وفتوراً، وفي عظامه وَهْناً وتوصياً، حاول أن يتجاهل الأمر، وعزَاه في أوَّله إلىٰ الجهد الكبير الذي بذلَه في طريق عودته والمسافة الطويلة التي قطَعَها في رجوعه سيراً، ثم ما قضَاه من ساعات متمادية يقِف ويجلس وهو يتلقىٰ التهاني والتبريكات...

كما تطوَّع بعض الأهل والأصحاب ممن كانوا يزورونه، فشخَّصوا العِلَّة: إنَّ ذلك لتغيُّر نَوْعية الطعام، وتبدُّلِ الأجواء، وبعض الأسباب النفسية، ثم يصِفُ العلاج: لا يحتاج الرجل إلَّا لشيء من الراحة وبعض الاستجمام والنقاهة، فيزول كلُّ هذا ويعود «الحاج عطا» لنشاطه ومرَحه الذي عرفناه عنه عمره كلَّه!

لكن الأعراض المرَضيَّة ما لبثت أن تزايدَت وتلاحَقَت، دون أن تُعرَف لها علَّة أو يَعرِف أحدٌ علاجاً لها ودَواءً. حتى الطبيب الذي راجعه واستشاره، عجَزَ عن تشخيص مرَضه، ونصَحَه بالانتقال إلى «بيروت»، حيث تتاح فرص الطبابة والعلاج.

وهناك، استقرَّ في دارة أخيه الذي كان يقطن «الضاحية الجنوبية»، تضاعفَت عليه الأوجاع وصَارَ مَردُوعاً، استولى الألم على جسده كلِّه، فما كان يتقارُّ على فراشه، وما عادَ يشتهي طعاماً، وكُفِئ لوْنه واصفرَّ، وكُسِفَ وَجهُه وضمَر. والأطباء في عجز كامل عن تشخيص علَّة الحالة وسببها، فالصُّوَر الإشعاعية، والتحليلات المخبرية لا تكشف شيئاً، ومختلف الفحوص، حتى المسح المقطعي، لم يكشف أوراماً أو خلايا خبيثة، تسبب له هذه الأعراض المرضية!

حتى عاينه أخصائي ومستشار كبير في مستشفى الجامعة الأميركية، وأثار احتمال أن يكون المريض مسموماً، بمركَّب كيميائي غريب ونادِر، تعجز المختبرات عن كشفِه، وقال إن صدَق ظنُّه، فلا عِلاج إلّا بمضادٍّ لذلك السَّمُّ يصفه ويحضِّره مَن صَنَّع وركَّب السَّم الداء!

هناكَ تذكَّر «الحاج عطا» الحقنة، وكيف احتالوا عليه ليزرقوها، حين زعموا أنها لقاح ضدَّ وَباء "الكوليرا"، يتهدَّد السجن، وكيف اصطنَع الطبيب حِواراً مع مساعده الممرض، أن: دعنا نترك هذا الكهل يواجِه الوباء دُون مناعة، عسى أن يقضي عليه ونرتاح من مخرب خطِر!...

أنِسَ «عطا» وفرحَ، وكأنه بلغَ مقصوده!...

لا لأنه غدا "الشهيد الحي"، يرتقب حتفه بين ساعة وأُخرىٰ، فيقضي شهيداً علىٰ يدَي أعدىٰ أعداء الله... بل لأنه قد علِمَ أن لا علاج، فلا شفاء من هٰذا الداء، أي لا تكليف بالتطبُّب وطلب الدواء. هٰذا ما كان يرجوه ويسأل ربَّه أن يحقِّقه، فلا يقتل وَقته دوَّاراً علىٰ عيادات الأطباء في المستشفيات، منشغلاً بالفحوصات والمعالجات. كان يسأل الله أن يفرِّغه لعبادته وخدمة دينه، وإن كان ثمَّة بلاء لا بدَّ من نزوله، وآلاماً يجب أن يتحمَّلها، فليَسقُط عنه التكليف بوُجُوب التطبُّب والعلاج والسعي في الاستشفاء... ليمارس خلْوَته ويعيش آخر أيامه في خفاء!

هٰكذا فرغ من محنة المرض، وبقيت محنته العظمىٰ!...

لقد كانت الآلام التي تفتك بـ «عطا» من الموقف العقائدي الواهي والأداء المذهبي الركيك، ثم السلوك السياسي الموغل في المناورة والمفرِط في استخدام الأدوات والعناوين "الثانوية" ما انحرَف بقِيَم الولاء، وشوَّه التشيُّع، بل الثورة وكل ما فيها من نقاء...

كانت تفوق آلامه من المرض أضعافاً مضاعَفَة!

لم تكن أخبار بطولات المجاهدين، والملاحم التي يسطرها المقاومون، تعني له شيئاً، وهو يراهُم، حين يعودون من الجبهات في أيام راحتهم، يقتدُون بصلاة "الضال المضل" ويحضرون الجمعة خلفه!

كان "الضلِّيل" قد أثار قضية إنكار ظُلامة «السيدة الزهراء» عليها السلام، وكانت التداعيات وردُود الأفعال علىٰ دَعَاواه قد تأجَّجَت وتفاعلَت، ولم تترك لأحَدٍ سِعَة ومندوحة للوقوف علىٰ الحياد، فلا يتخندَق ضدَّه، ولا يجاهر بالإنكار عليه... لٰكن رِفاق «عطا» وإخوانه المجاهدين، لم يفعلُوا، وبقوا ينتظرون تعليمات "القيادة العليا" التي صارَ «عطا» يراها هي المركز في الضلال والمنبع الذي يرفد الإضلال!

كانت الحسرة تقطِّعه، ثم الندم يتملَّكه، أن كان أحد المساهمين في تأسيس "الحزب"، والعاملين على مستوىً متقدِّم في تشكيله وتشييده... ثم يعود ليستدرِك، أنه كان يرجع لـ «الخميني»، وقد رَحَلَ «الإمام الخميني»، فلا شيء عليه، فهُم الذين تغيَّروا وانقلبوا، لا هو!

وراحَ يسجِّل مفارقة عجيبة، وهو يتلقى الأخبار عن تفاصيل المعركة العقائدية المحتدمة في الساحات الشيعية، ويتجاهل الأُخرى المشتعلة في جبهات المقاومة، فيكتفي بالدعاء لهذه، بينما يصرف ما تبقى فيه من قوَّة وعزم وطاقة في تلك التي عمَّت الحواضر والحوزات العلمية في «قم المقدَّسة» و«النجف الأشرف»، وشملت الساحات الشيعية في بلاد «الخليج» و«إيران» و«العراق»، وهكذا «لبنان»، ولكن بهامش يتحكَّم ـ مع الأسف الشديد ـ في المحازبين والمقاومين ودرجة تفاعلهم مع القضية، ضابِطَته ومرتكَزه، موقف "الضلِّيل" من مرجعيتهم، والقيادة الجديدة للجمهورية الإسلامية بعد رحيل «الإمام الخميني».

رصَدَ المفارقة وسجَّل الأداء الشيطاني الخبيث وهو يسمع أنصار "السيد الضلِّيل" يهمسون: إنها دسائس الإيرانيين الفرس، و«طهران» التي تكيد وتحارب "المرجعيات العربية"، ويسمع أنصار «طهران» يعلنون ويُصرِّحون: إنها «إسرائيل»، تريد أن تشغلنا عن جبهتنا الأصلية، عن المقاومة والنضال! ثم يعود الخطاب ليلتقي بروايته، أو يتعاكس حين ينفث الخبيث سمومه، ويبث أباطيله، ويتحايل ويراوغ!

رفَضَ «عطا» أن يعُودَه أيُّ قائد في "الحزب" له جذور "دعوجية"، ولم يستقبل إلّا واحداً لم يتلوَّث يوماً بهذا الفكر ولا كان مرَّة في "حزب الدعوة"، كان يافعاً آنذاك، هاجَت غيرته فتأثَّر بـ «الإمام الصدر» وانتظم في "حركة أمل"، وما لبث أن ترك الحركة والتحق بـ "خط الإمام"، فسمح له «عطا» وأذِن له، وفي هذا اللقاء الأخير، راح ينصحه:

إذا كان هـٰذا الجيل يجهل "الضِلّيـل" ويخفىٰ عليه "حزب الدعوة"، فأنتَ تعرفهم جيِّداً... لماذا لا تفعل شيئاً لتنقذ هـٰذا العمل العظيم الذي انعقد وتولَّد من نطفة طاهرة وأُسِّس علىٰ التقوىٰ من أول يوم؟ لماذا تتركه يتلوَّث بـ "ضِرار" "الضلّيل"؟ كيف تحوَّل مشروع أصيل أسَّسَه مرجع تقليد كتَبَ (مِصباح الهداية)، إلىٰ مشروع عروبيٍّ يخدم القضية القومية؟ ويتحرَّك بشعارات وَطَنية؟ وتغلبه السياسة، بل النجاسة فيتنكَّر للتشيُّع ويخذل الولاء، ويتجاهل قُطْب دائرة الإمكان، و«إمام العصر والزمان»؟

إنني أشعر بمَرارة يصعب عليَّ وَصفها...

لم يقهرني المرض، ولم تصرع سنين الحبس إرادَتي...

ولـٰكن هـٰذه الحال التي ترىٰ تودي بي وتُشعِرني بالهزيمة.

لم يكونوا يجيبون عليه أو يردُّون مقالته، كانوا يحفَظون له سابقته، ولا يستطيعون تجاوز دَوْره وتضحيته... ثم يُراهنون علىٰ ملَك الموت!

في ساعته الأخيرة، كان مُستلقياً تجاه القبلة، مُراعياً آداب الاحتضار، حين دخَلَ عليه صاحبه: "الراعي الحكيم"!

لم يتفاجأ ولا اضطرب، بل همس معاتباً:

كنت آمل أن أحظىٰ بـأكثر من هـٰذه الدقـائق المعـدودة المتبقيـة من عمري، أما أمكَنك أن تعودني قبل هـٰذا؟

: هـٰذا هو ميعادي.

: فما هي تحفة السفر؟

: البشارة، إنك مَرضيٌّ عند «المولىٰ»!

شهَقَ «عطا» شهقة أسلم فيها الروح... لا يُعْلَم من أجَلٍ كانت أم فَرَح بالبشارة والخبر؟!

* * *

صدر للمؤلف:

* الغيبة والتغييب.
* ريح يوسف.
* التجديد الإسلامي.
* نحو رؤية واعية.
* البروتستانتية الشيعية.
* القربان (رواية).

ترجم إلى العربية:

* مقتطفات ولائية، محاضرات للوحيد الخراساني.
* آية التطهير رؤية مبتكرة، للفاضل اللنكراني وشهاب الدين الإشراقي.

ثلاثية الثمن